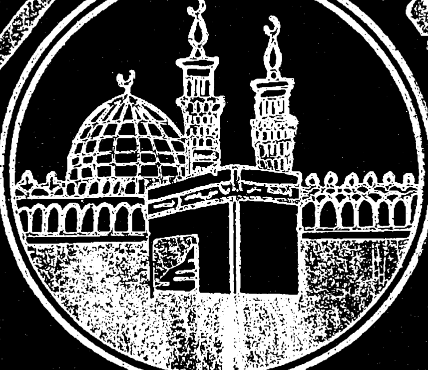
كتاب الإعلام



بأعلام بيت الله الحرام

تأليف

محمد بن أحمد بن محمد النهروالي

(ت ٩٩٠هـ)

إشراف

سعيد عبد الفتاح

تحقيق وتقديم

هشام عبد العزيز عطا

المكتبة التجارية

مصطفى أحمد الباز

مكة المكرمة

الإهــداء

إلى أبى وأمى

معترفاً بفضلهما

وداعياً الله أن يمد لى فى عمرهما

ابنكما : هشام

كلمة الناشر

(رجاء)

غفر الإله ذنوب هذا الناشر
وذنوب والديه معاً فى الناظر

غفر الله ذنوبه وستر عيوبه ووالديه والمسلمين أجمعين ومن دعى له بخير

راجى عفو ربه
نزار مصطفى الباز

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

﴿ قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ صدق الله العظيم.

الحمد لله الذى خصنا ببيته المعظم قبلةً .

الحمد لله الذى ولى وجه نبيه إلى بيته المحرم الذى حرام أرضه وصيده .

وصلاة وسلاماً على من لا نبى بعده ؛ رضى الكعبة قبلة وأطاع أمر ربه فولى وجهه شطرها .

إن لمكة فى قلوب المسلمين مكانتها التى لا تنازع - وإن فاخرتها المدينة الشريفة - ويهفو إليها المسلمون من كل بقاع الأرض ، وكيف لا ؟ وفيها قبلتهم التى يتوجهون إليها فى دعائهم لربهم وصلاتهم التى فُرضت عليهم ، كما أن فيها مسقط رأس نبيهم ، ومشاعر حجهم ؛ خامس دعامة من دعائم ديننا الحنيف .

ولله در من قال :

أرض بها البيت المحـــرم قبلة	للعالمين له المســـاجد تعــدل
حرم حرام أرضها وصــيودها	والصـيد فى كل البلاد محلل
وبها المقام وحوض زمزم شربها	والحجر والركن الذى لا يرحل
والمسجد العالى المحرم والصفا	والمشـعران لمن يطوف ويرمل
وبمكة الحسنات ضوعف أجرها	وبها المسئ عن الخطايا يغســل

وبعد :

ها هى موسوعة مكة والمدينة تتقدم - بحمد الله تعالى - كل يوم ، وتزداد شرفاً بموضوعها .

وهى بهذا الكتاب تكون قد بلغت ثلاث كتب بعد تاريخ مكة للأزرقى ؛ بتحقيقنا بالاشتراك مع الأصدقاء عادل عبد الحميد العدوى ، وأشرف أحمد الجمال ، ونادى رجب وتحت إشراف أستاذنا الأستاذ سعيد عبد الفتاح ، وشفاء الغرام للتقى الفاسى بتحقيقنا أيضاً بالاشتراك مع الأصدقاء أشرف أحمد الجمال ، وعادل عبد الحميد العدوى ، وبإشراف الأستاذ سعيد عبد الفتاح .

ولا يسعنى فى هذه العجالة إلا أن أتقدم بالشكر للأستاذ سعيد عبد الفتاح الذى بذل معنا جميعاً جهداً لن يثيبه عليه حق الثواب إلا الله سبحانه وتعالى، كما أتقدم بالشكر العميق لكل من ساهم ويساهم فى إخراج هذه الموسوعة للنور داعين الله سبحانه وتعالى أن يتمها كما يريد هو من خير ونفع ، وكما نحب من جزيل نعمه ، وعظيم مغفرته .

المحقق

هشام عبد العزيز عطا

الجيزة فى : ١٥ شعبان ١٤١٦ هـ

٦ يناير ١٩٩٦ م

★ ★ ★

المؤلف

هو : محمد بن أحمد بن محمد بن محمود النهرواني (أو) النهروالي ، ثم المكي ، الحنفي ؛ قطب الدين .

كنته جميع المصادر التي اعتمدنا عليها بـ : قطب الدين ، وكنوا أباه بـ : علاء الدين ، إلا أن ابن الحنبلي في تاريخه سمي والده : علي ، وكذلك صاحب هدية العارفين (٦ : ٢٥٥) ، وقد صحح ابن العماد ذلك قائلاً : «وذكره ابن الحنبلي في تاريخه ، إلا أنه سمى والده : على ، والصحيح : الأول » (شذرات الذهب : ٨ : ٤٢٠) .

ولد قطب الدين محمد بن أحمد النهرواني سنة ٩١٧ هـ ، وقد اتفقت جميع المصادر على ذلك .

إلا أنهم اختلفوا في سنة وفاته ؛ فقد ذكره ابن العماد من وفيات سنة تسعين وتسعمائة ٩٩٠ هـ ؛ يوم عاشوراء ، وتبعه في ذلك صاحب معجم المؤلفين، وغيره ، أما الزركلي فقد ذكر أنه من وفيات سنة ٩٨٨ هـ .

وقد ذكر صاحب شذرات الذهب شعر في تاريخ وفاته لبعض فضلاء مكة:

يا من به طبنا وطاب الوجود　　قد كنت بدراً في سماء السعود

ما صـرت في الترب ولكنما　　أسـكنك الله جـنان الخـلود

والنهرواني مؤرخ عاش في مكة ، وتعلم بمصر ، ونصب مفتياً بمكة .

★ ★ ★

● **أما نسبته :**

فقد اختلف حولها المترجمون لحياته ؛ فقد نسبه الزركلي لـ : نهروال ، ونسبته باقي المصادر لـ : نهروان ، على حين وقف فؤاد سيزكين موقفاً

محايداً؛ حيث أقر منذ بداية الكلام عنه باستيعابه للرأيين قائلاً : « النهروالى (أو) النهروانى » .

أما نحن فمن جانبنا لم نستوعب هذا الاختلاف غير الواضح أو المبرر فى نسبة الرجل ، فقمنا بالبحث وراء الرجل لنستدل على ما يشفى غلتنا ، فلم نعثر إلا على ما يزيد التضارب ، فما كان أمامنا إلا البحث فى كتب البلدان ؛ التى أنكرت - بدورها - بالسلب معرفتها بما يسمى بـ : نهروال هذه .

فقد ذكر ياقوت الحموى فى معجمه نهروان فقط قائلاً : « نهروان ، وأكثر ما يجرى على الألسنة بكسر النون ، وهى ثلاثة نهروانات : الأعلى ، والأوسط ، والأسفل ؛ وهى : كورة واسعة بين بغداد ، وواسط من الجانب الشرقى .

حدها الأعلى متصل ببغداد ، وفيها عدة بلاد متوسطة ؛ منها : إسكاف ، وجرجرايا ، والصافية ، ودير قنىّ ، وقد خرج منها جماعة من أهل العلم والأدب ، وهو نهر مبتدؤه قرب تامرا ، أو حلوان ، فإنى لا أحققه . . . .

قال ابن الكلبى : وفارس حفرت النهروان ، وكان اسمه : نهرواناً ، أى : إن قل ماؤه عطش أهله ، وإن كثر غرقوا . . . . .

ولهذا النهر اسمان : أحدهما فارسى ، والآخر سريانى ، فالفارسى : جوروان ، والسريانى تامرّا .

فعرب الاسم الفارسى فقيل : نَهْرَوَانْ ، والعامة يقولون : نِهْرَوَانْ بكسر النون على خطأ .

وقد شك الحموى فى معرفته بالفارسية ، وراح يسأل أهل اللغة الفارسية أنفسهم عن معنى الكلمة التى لم يعرفوا هم أيضاً : هل بين هذا اللفظ ومسماه توافق أم لا ؟

فطرح ياقوت هو الآخر شكه حول معنى اللفظ قائلاً : « ولعله باللغة الفهلوية » .

ولكن ياقوت قبل أن يختتم الكلام عن هذا الموضع فتح علينا باباً آخر ؛ إذ أورد حكاية عن أبى عبد الله الحميدى طرحت أمامنا طريقاً آخر سلكناه علنا نصل إلى شيء ، حيث قال : « قال أبو عبد الله الحميدى : قرأت بخط أبى الفرج المعافى بن زكرياء النهروانى القاضى ، قال : حججت سنة ، فكنت بمنى أيام التشريق إذ سمعت منادياً ينادى : يا أبا الفرج ، فقلت فى نفسى : لعله يريدنى ، ثم قلت : فى الناس خلق كثير ممن يكنى أبا الفرج ، فلعله يريد غيرى ، فلم أجبه ، فلما رأى أنه لا يجيبه أحد نادى : يا أبا الفرج المعافى ، فهممت أن أجيبه ، ثم قلت : يتفق من يكون اسمه المعافى ، وكنيته أبو الفرج ، فلم أجبه ، فرجع ونادى : يا أبا الفرج المعافى بن زكرياء النهروانى ، فقلت : لم يبق شك فى مناداته إياى ؛ إذ ذكر اسمى وكنيتى واسم أبى ، وما أنسب إليه ، فقلت له : ها أنا ذا ؛ ما تريد ؟ فقال : ومن أنت ؟ فقلت : أبو الفرج المعافى بن زكرياء النهروانى ، قال : فلعلك من نهروان الشرق ؟ قلت : نعم ، قال : نحن نريد نهروان الغرب ، فعجبت من اتفاق الاسم والكنية واسم الأب وما أنسب إليه ، وعلمت أن بالمغرب موضعاً يعرف بـ : النهروان ، غير نهروان العراق » .

ورغم المبالغة الواضحة فى كلام ياقوت إلا أننا افترضنا أن نهروان المغرب - إن وجدت - تكون باللام بدل النون ، فكان أمامنا « معجم ما استعجم » لأبى عبيد البكرى الأندلسى الذى يُعد أقرب إلى المغرب من ياقوت الحموى ؛ لعله يثبت معرفة بما يسمى بـ : نهروال هذه ، إلا أن أبا عبيد البكرى لم يذكر شيئاً عن نهروال هذه ، ولو من بعيد ، كل ما ذكره سطوراً قليلة عن نهروان العراق التى ذكرها ياقوت قائلاً : « النَّهْرَوَانْ : بالعراق معلوم ؛ بفتح أوله ، وإسكان ثانيه ، وفتح الراء المهملة ، وبكسرها أيضاً : نَهْرِوَان ، وبضمها أيضاً: نَهْرُوَان ، ويقال أيضاً بضم النون والراء معاً : نُهْرُوَان ؛ أربع لغات ، والهاء فى جميعها ساكنة .

قال الطرماح :

قلَّ فى شط نهروان اغتماضى ودعانى حب العيون المراضِ

وبالنهروان أوقع علىّ بن أبى طالب (رضى الله عنه) بالخوارج » .

أخيراً : لم يكن أمامنا إلا أن نفترض أن نهروال لغة من نهروان ، وأن كليهما صحيح ، إلا أن حديثاً شريفاً صادفنا يحمل ضمن ألفاظه الشريفة هذا اللفظ ، ويثبته بالنون ، والحديث من سنن الدارمى ، يقول : من حديث أبى موسى عن أبى عبد الرحمن فى هؤلاء الذين جلسوا فى المسجد حلقاً يعدون التسبيح والتكبير على الحصى، وقد لام عليهم أبو عبد الرحمن ذلك، قالوا : والله يا أبا عبد الرحمن ؛ ما أردنا إلا الخير ، قال : وكم من مريد للخير لن يصيبه ، إن رسول الله ﷺ حدثنا: أن قوماً يقرءوون القرآن لا يجاوز تراقيهم، وأيم الله ما أدرى لعل أكثرهم منكم » ، ثم تولى عنهم ، فقال عمرو بن سلمة : رأينا عامة أولئك الحلق يطاعنونا يوم النهروان من الخوارج » .

قمنا بالبحث فى روايات أخرى للحديث عله يكون مروياً باللام بدل النون فى « نهروان » ، فلم نجد ، مما أكثر افتراضنا المبدئى من أن نهروال تحريف متأخر من نهروان ؛ وعليه فاسم الرجل : محمد بن أحمد بن محمد بن قاضيخان محمود ، قطب الدين النهروانى .

★ ★ ★

● أساتذته :

أخذ قطب الدين النهروانى العلم عن أساتذة كثيرين ؛ كان أولهم : والده، ثم الشيخ عبد الحق السنباطى ؛ وهو أجلّ من أخذ عنه من المحدثين ، والشيخ محمد التونسى ، والشيخ ناصر اللقانى ، والشيخ أحمد بن يونس بن الشلبى ، وغيرهم .

★ ★ ★

● مؤلفاته :

وقد كان لقطب الدين النهروانى اهتمامات عديدة بالتاريخ والأدب والشعر ومؤلفاته خير شاهد على ذلك ، فمنها :

١ - الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ؛ وهو الكتاب الذى نحن بصدده الآن .

٢ - البرق اليمانى فى الفتح العثمانى .

٣ - منتخب التاريخ (فى التراجم) .

٤ - ابتهاج الإنسان والزمن فى الإحسان الواصل إلى الحرمين من اليمن لمولانا الباشا حسن ، وهو فى تاريخ مكة والمدينة وحسن باشا .

٥ - التمثيل والمحاضرة بالأبيات المفردة النادرة .

٦ - التذكرة .

٧ - الفوائد السنية فى الرحلة المدنية والرومية .

٨ - كنز الأسماء فى فن المعمى .

وله شعر رقيق فى الغزل والحكم .

وقد طبع من هذه المؤلفات كتابان :

١ - الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، طبع طبعة محدودة فى مطبعة عبد الرازق سنة ١٣٠٣ هـ ، ١٨٨٦م ، وهى طبعة محدودة لم أعثر منها على نسخة .

كما طبع أيضاً فى عوطا ليبسك سنة ١٢٧٤ هـ - ١٨٥٧م باعتناء وستنفلد Wastenfeld ، وله مقدمة باللغة الألمانية .

٢ - البرق اليمانى فى الفتح العثمانى : وهو فى تاريخ اليمن من سنة ٩٠٠ هـ عند أول الفتح العثمانى على يد الوزير سليمان باشا إلى أيام المؤلف كما لم أعثر على نسخة من هذا الكتاب أيضاً ، وقد طبع منه قسم مع ترجمة إلى اللغة البرتغالية فى ليزبون سنة ١٨٩٣م .

أما باقى مؤلفاته فلم تزل فى مخازن المخطوطات .

وقد ذكر ابن العماد أبيات رقيقة فى الغزل للنهروانى ؛ قطب الدين ؛ منها :

أقبل كالغصن حين يهتز ... فى حلل دون لطفها الخز

مهفهف القد ذو محـيا ... بعـارض الخد قد تطرز

دار بخـديه واوصـدغ ... والصاد من لحظه تلوز

الخـمر والجـمر من لماه ... وخـده ظاهر وملغز

نسخ الكتاب الخطية

ولهذا الكتاب نسخ عديدة ؛ تسع نسخ فى دار الكتب وحدها ، وهى :

١ - النسخة رقم ٨٤٧ تاريخ ، فى ٢٠٤ ق . خط ١٠٠٠ هـ .

النسخة رقم ٢١٦٩ تاريخ ، فى ٢٩٨ ق خط ١١٨٢ هـ .

النسخة رقم ٢٢٨٩ تاريخ ، فى ٢٢٤ ق خط ١٠٤١ هـ .

النسخة رقم ٥٦ تاريخ تيمور ، فى ٣٦١ ص خط ١٠١٣ هـ .

النسخة رقم ١٤٩٦ تاريخ تيمور ، فى ٣٤٩ ص ، بدون تاريخ .

النسخة رقم ٢٤٥ تاريخ تيمور ، فى ٥٠ ص ناقص ، خط ١٢٤٢ هـ .

النسخة رقم ٥٣٠ زكية ، فى ٤٢٧ ص ، خط ١٠٦١ هـ .

النسخة رقم ١٩٠٦ تاريخ طلعت ، فى ١٨٥ ق ، بدون تاريخ .

النسخة رقم ١٩٠٧ تاريخ طلعت ، فى ٢٠٠ ق ، خط ١٠٦٧ هـ .

وقد اعتمدنا من هذه النسخ التسع على نسختين .

*** النسخة الأولى :**

هى النسخة رقم ٨٤٧ تاريخ ، نسخة مكتوبة بخط معتاد ، منظمة ، مقروءة ، بلا أخطاء ، وبها عناوين فى الهامش ، مدادها أسود ، والعناوين بنفس المداد ولكن بخط أكبر . منسوخة من نسخة المؤلف .

وقد تم الفراغ من تأليف الكتاب - كما فى النسخة - سنة ٩٨٥ هـ ، وتم الفراغ من نسخ هذه النسخة من نسخة المؤلف سنة ١٠٠٠ هـ ، فهى أقدم النسخ المتاحة أمامنا .

يقول الناسخ : « وكان الفراغ من هذه النسخة المباركة ، والتاريخ العظيم المكى فى يوم الأربعاء ثامن عشر رجب المبارك سنة ألف من الهجرة تم .

وتقع هذه النسخة فى ٢٠٤ ق ، ومسطرتها ٢١ سطر ، من ٩ : ١٠ كلمات فى السطر .

فى الورقة الأولى من هذه النسخة تجد تواريخ امتلاك النسخة وأسماء من ملكها بداية من سنة ١٠٠٣ هـ ، حتى ١٠٧١ هـ .

وفى آخر ورقة من النسخة تجد فى الجانب : لا إله إلا الله ، ما أقرب الموت ، وما أسرع زوال الدنيا ، نسأل الله حسن الخاتمة لنا وللمسلمين . آمين على يد أحقر عبيد الله تعالى محمد الغمرى ، غفر الله له ولوالديه ولمن دعا له بالمغفرة ، ثم تجد خاتم دار الكتب السلطانية .

وهذه النسخة تحت ميكروفيلم رقم (٣٤٨٧٩) من دار الكتب المصرية ، وقد حصلنا منها على صورة ورقية ورمزنا لها بالرمز (أ) .

*** النسخة الثانية :**

هى النسخة رقم ٢١٦٩ تاريخ ، خطها معتاد مقروء منظم إلا أن بها ساقط كثير قد يصل أحياناً إلى الصفحة ، وبها أخطاء لغوية ونحوية عديدة .

وهى منسوخة بالمداد الأسود ، والعناوين بخط أكبر ، وبمداد مختلف ، ويبدو أنها منسوخة من النسخة (أ) ، وقد نسخت النسخة سنة ١١٨٣ .

يقول الناسخ : « وكان الفراغ من هذه النسخة المباركة والتاريخ العظيم المكى على يد أحقر وأفقر العباد إلى ربه الغنى العفو الماجد أحمد بن حامد الجبرتى ، كان ذلك بعد مضى عشرين يوماً من شهر شعبان المكرم من شهور سنة ١٨٨٣ . . » .

وتقع هذه النسخة فى ٢٩٨ ق ، ومسطرتها (١٦) سطراً من ١٠ : ١١ كلمة فى السطر .

وقد حصلت منها على صورة ورقية تحت ميكروفيلم رقم (٤٠١٧٧) من دار الكتب المصرية ، وقد رمزت لهذه النسخة بالرمز (س) .

★ ★ ★

منهج التحقيق

أولاً : إن كثرة النسخ التى أمامنا بالرغم من أنها تتيح خروجاً مشروعاً إلا أنها تحير الباحث فى الاختيار ؛ فأى النسخ يختار إذا كانت النسخ جميعها جيدة .

لقد اعتمدنا على النسخ التسع إلا أننا ركزنا وأثبتنا للنسختين المذكورتين آنفاً لأن إحداهما أقدم النسخ التسع ولأنها كذلك منسوخة من نسخة المؤلف .

أما النسخة (س) فقد كانت كاملة - رغم الأخطاء النحوية التى تضمنتها - وكذلك فقد رجحت أنها نسخت منها كما أوضحت فى إثبات خاتمة كل منهما .

● **أما عن مشكلات كل من النسختين :**

فإن مشكلات النسخة (أ) كانت قليلة جداً ، وكان نصها كاملاً ومنضبطاً والأخطاء الإملائية والنحوية قليلة كذلك .

أما النسخة (س) : فقد كانت مليئة بالأخطاء الإملائية والنحوية ، وقد أشرنا إلى بعضها فى الهامش ، وأعرضنا عن الكثير ؛ قمنا بإصلاحه دون إشارة فإنها لا تؤثر على الرؤية العامة للنص .

أما عن ألفاظ الثناء على الذات الإلهية مثل : سبحانه وتعالى ، عز وجل، فقد كانت مختلفة بين النسختين أيضاً وقد أثبتنا ما هو مدون بالنسخة (أ) .

وكذلك ألفاظ الثناء على النبى ، وألفاظ الثناء والترحيم على الأعلام مثل: ﷺ ، ورحمه الله ، ورضى الله عنه ، فقد أثبتنا كذلك ما هو مدون فى النسخة (أ) .

أما عن الساقط فى أى من النسختين فقد كان قليلاً جداً ، وكان معظمه فى النسخة (س) ، وقد وضعنا النقص بين معقوفتين ، وأشرنا إلى ذلك فى الهامش ، وقد نهجت فى تحقيقى لهذا الكتاب منهجاً علمياً .

فقمت بتخريج الآيات من المصحف الشريف مبيناً اسم السورة ، ورقم الآية ، ومكية ، أو مدنية .

قمت بكتابة تعريفات لبعض الأعلام المهمين الذين يجب أن يضاف إلى القارئ معلومات جديدة عنهم .

قمت بتخريج القبائل التى يضيف تخريجها جديداً فيما يطرحه النص .

كما قمت بتعريف الكتب والحديث عن مؤلفيها التى اعتمد عليها المؤلف .

كان تدخلى فى النص نادراً ومحسوباً ، فلم أتدخل بحذف أو زيادة إلا إذا اقتضى السياق ذلك ، وبعد الاطمئنان على النص كما أراد له مؤلفه كما كنت أشير إلى ذلك فى موضعه .

ألحقت الكتاب بفهرس شامل كما يتطلبه المنهج العلمى يتضمن الآتى :

١ - فهرس الآيات القرآنية مبيناً به رقم الآية واسم السورة ومكية أو مدنية .

٢ - فهرس الأحاديث النبوية .

٣ - فهرس الأشعار الواردة بالكتاب .

٤ - فهرس الأعلام .

٥ - فهرس البلدان والأماكن والمواضع التى وردت فى الكتاب .

٦ - كشاف عام للأصنام والقبائل والحيوانات والأيام وغير ذلك .

٧ - فهرس الكتب الواردة بالكتاب والتى اعتمد عليها المؤلف .

٨ - فهرس المراجع التى أعانت التحقيق .

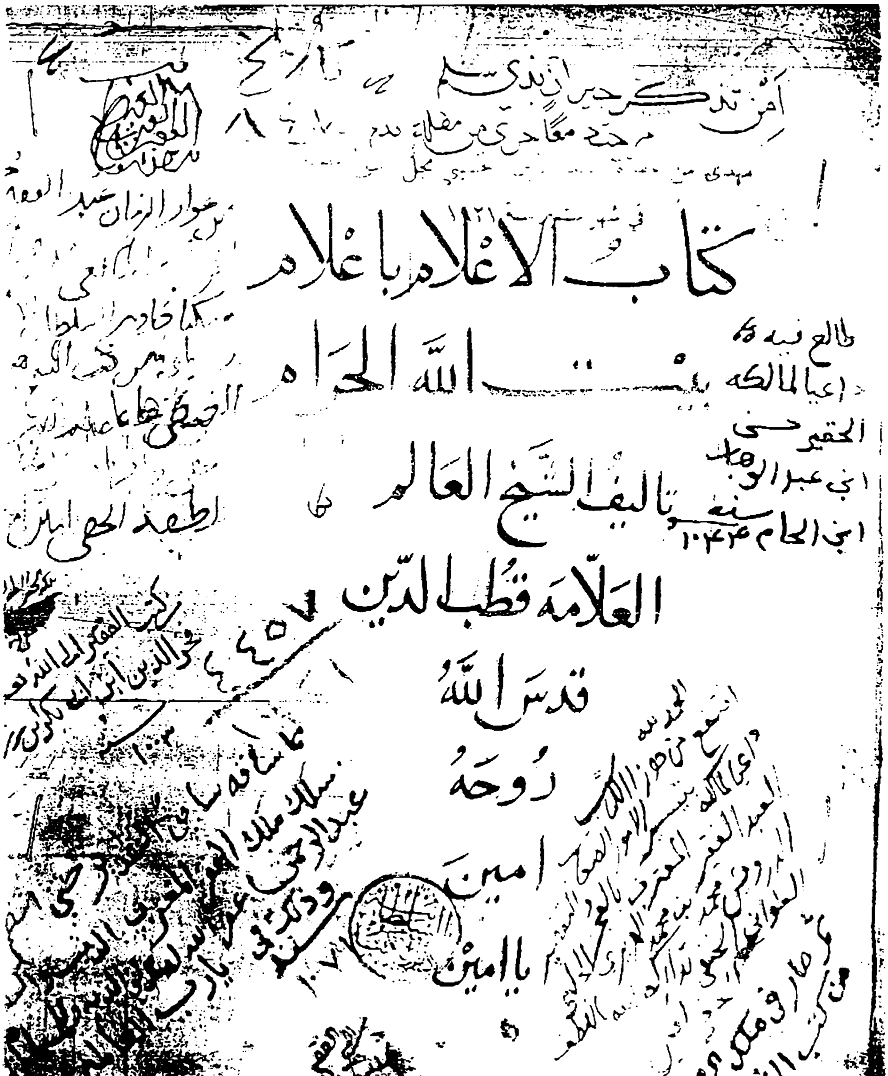
٩ - فهرس المحتوى .

إن أحسنت فالحمد لله ، وإن أسأت فالله أسألُ العون فى المرات القادمة .

هشام عبد العزيز

★ ★ ★

صور ونماذج
من المخطوطات


كتاب الإعلام بأعلام

بيت الله الحرام

تأليف الشيخ العالم

العلامة قطب الدين

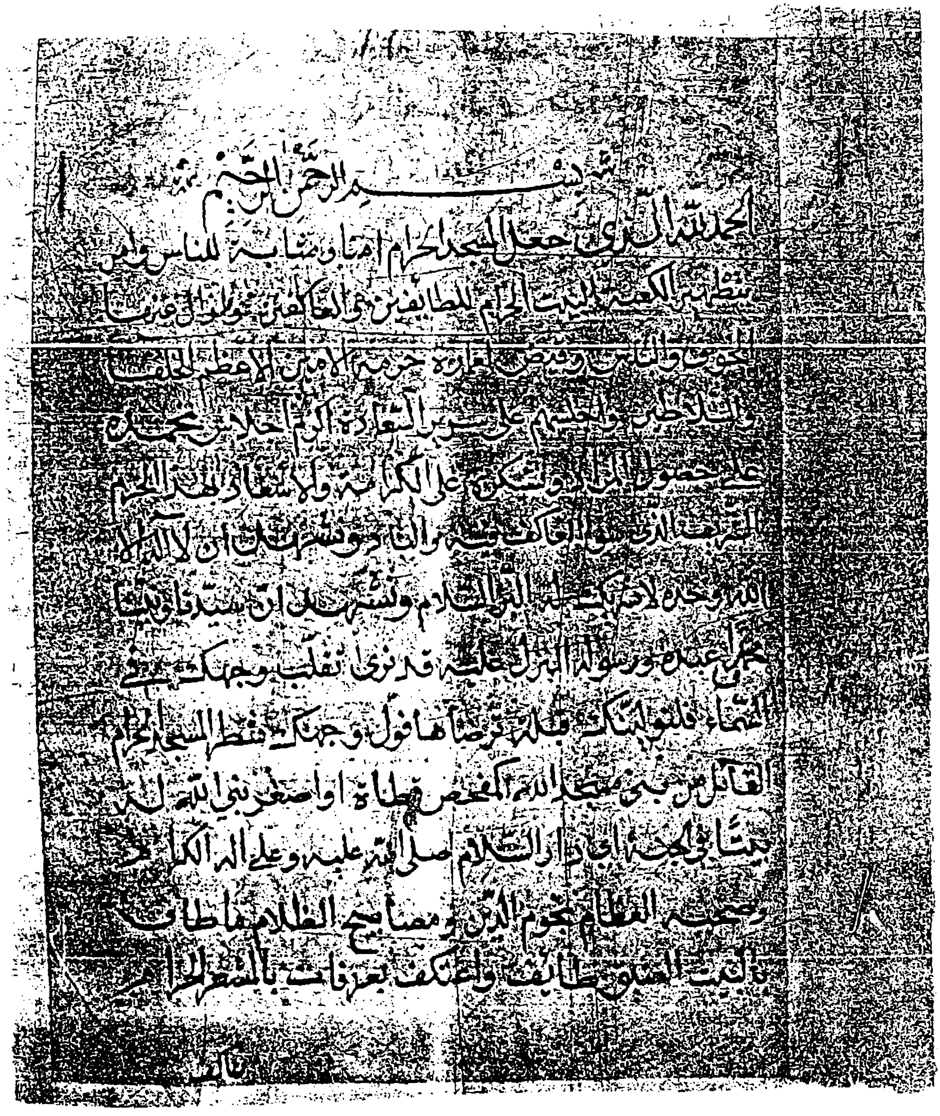
قدس الله

روحه

آمين

يا أمين

صفحة الغلاف من النسخة (أ)

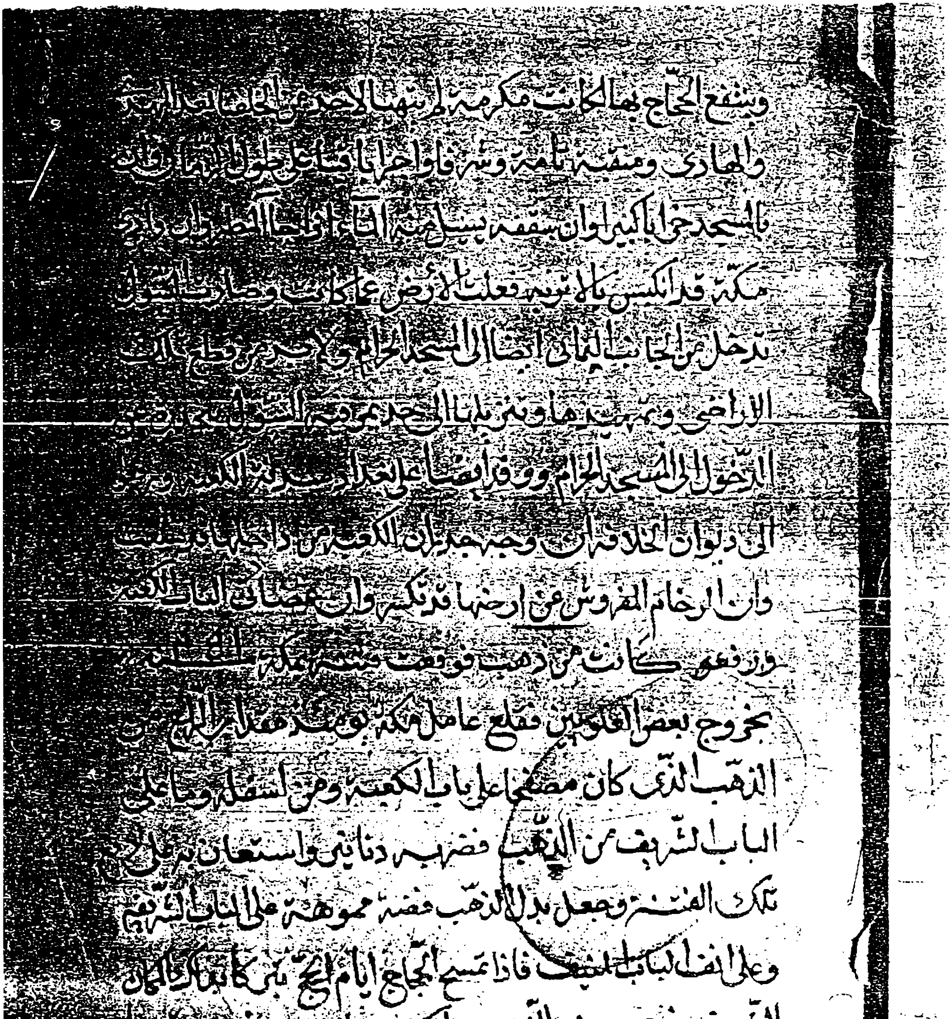


بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي جعل المسجد الحرام امنا ومثابة للناس وامر
بتطهير الكعبة البيت الحرام للطائفين والعاكفين [illegible]
الخوف والتأمين وخص لزائره حرمة الامن الاعظم للملتجا
[illegible] على سرير السعادة الكرام [illegible] احمده
على حصول المراد واشكره على الكرامة والاسعاد لاهل الحرم
الشريف الذي سوى العاكف فيه والباد واشهد ان لا اله الا
الله وحده لا شريك له الملك السلام واشهد ان سيدنا ونبينا
محمدا عبده ورسوله المنزل عليه قد نرى تقلب وجهك في
السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام
القائل من بنى مسجدا لله كمفحص قطاة او اصغر بنى الله له
بيتا في الجنة اي دار السلام صلى الله عليه وعلى اله الكرام
وصحبه العظام نجوم الدين ومصابيح الظلام ما طاف
بالبيت المعمور طائف والمعتكف [illegible] بعرفات بالمشعر الحرام

الورقة الأولى من النسخة (س)

فاعانه الله تعالى على اتمامها وامر بذلك سائر خدامه فبني
ثم بنا الجانبين الغربي والجنوبي من المسجد الحرام بجميع شرافاته
وابوابه ودرجاته في سائر المسجد الحرام وخارجه في ايام دولة
السلطان الاعظم الاكرم خلد الله تعالى ملكه الا فخر ودوام
سلطانه الافخم وافاض عليه سوابغ الفضل والكرم ثم وله
سعد طالعه السعيد وكمل على احسن الوجه الجميل تحسين
الشريف ووقع عرضه المشيد وذلك في اواخر عـ٩ـلثه وصار المسجد
الحرام زينة للناظرين ونعيمة الخاطرين وجلا للنواظر ووضعا
والخواطر بحيث صار مما عمره الخلفا العباسيون مثل ذلك
عن ان يذكر ويوصف لان هذا البنا الشريف امكن وازين
واعلا واشرف وكان الان كان رم ذات العماد التي لم يخلق مثلها
في البلاد لعقود عاليه كاطواق الذهب في الاجياد وقببا
كقباب الافلاك الشداد وشرافات شريفة مشرفة على الوهاد
والمهاد بل اعلا واشرف واجل والطف وارفع وتحف مبنى
ذلك بالرخام الابيض المرمر والحجر الشميسي المنحوت الاصفر كأنه
سبك الذهب او سبك الفضة والجوهر مكتوب على الابواب
وصدور الاروقة ايات الكتاب والاسم السامي المستطابي
الذي مخطط كسلاسل الذهب على كل موضع ما ناسب من الابيات
الشريفة السلطانية بالكتابة المنسوبة الفائقة الجليلة ولعمر
الفضلا لذلك تواريخ عديدة بكل لسان ولخصرته اخصرها
بانه خير مساجد الله ثم رأيت بعض الفضلا جعل هذا العام الشريف

الورقة رقم (٥٣) من النسخة (أ)



الورقة رقم (١١٠) من النسخة (س)

فيه المدافع الكبيرة ترمي على من يقصدها من الخارج فنصب كل من
قصدها من جهة من الجهات ولها باب من حديد وسلسلة عظيمة في
وسط البحر تمنع المراكب من الوصول الى الباب ويخشون اغربة مشحونة
بالسلاح والمدافع والمقاتلة اذا احسوا بسفينة في البحر من الحجاج
والتجار اخرجوا اليها تلك الاغربة فاحتووها وحصلوا ما فيها
من الاموال والاسرى والسلب فيقطعون الطريق على هذا الاسلوب
ولو يجمعون الاموال ويصرفونها على مقاتليهم وكان بهذا الامر
وخرب البلدان وعم ضررهم الناس فجهز السلطان عسكره
المنصور الى فتح هذه الجزيرة وكان سفره الميمون اليها
ونزوله تحت مخيمه الشريف في اسكودار متوجها لجهة الغزا المشهور
لعشر من شهر رجب سنة ٩٢٨ وكان وصوله الى رودس ونزوله
عليها في شهر رمضان من السنة المذكورة فاحاط بها برا وبحرا
وما امكن من في الارض ان يقرب من حصار رودس للخندق
العظيم الذي حولها ما امكن من في الارض ان يقرب لها
من صونه بالمدافع العظيمة من اهل الحصار وما امكن
من في الارض القرب من السلسلة الممدودة من الحديد في البحر
والرمي

الورقة رقم (٢١٣) من النسخة (أ)



العالمين والصلاة والسلام الاتمان الاكملان

على سيد الانبياء والمرسلين والتابعين

لهم باحسان الى يوم الدين آمين

الورقة الأخيرة من النسخة (أ)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى جعل المسجد الحرام أمناً ومثابة للناس ، وأمر بتطهير الكعبة؛ البيت الحرام للطائفين والعاكفين ، وأزال عنها الخوف والبأس ، وقيّض لعمارة حرمه الأمين الأعظم الخلفاء والسلاطين ، وأجلسهم على سرير السعادة أكرم إجلاس .

نحمده على حصول المراد ، ونشكره على الكرامة والإسعاد بهذا الحرم الشريف الذى سواء العاكف فيه والباد .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، البر السلام .

ونشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله ، المنزل عليه : ﴿ قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ (١) .

القائل : « من بنى مسجداً لله كمفحص قطاة أو أصغر بنى الله له بيتاً فى الجنة » ، أى : دار السلام ، صلى الله عليه ، وعلى آله الكرام وصحبه العظام ؛ نجوم الدين ومصابيح الظلام ما طاف بالبيت العتيق طائف ، واعتكف بعرفات بالمشعر الحرام عاكف .

أما بعد :

فلما وفقنى الله تعالى لخدمة العلم الشريف ، وجعلنى من جيران بيته المعظم المنيف ، تشوقت نفسى إلى الاطلاع على علم الآثار ، وتشوفت إلى فن التاريخ وعلم الأخبار ، لاشتماله على حادث الزمان وما أبقاه الدهر من أخبار وقائع الدوران ، وأحوال السلف ما أبقوا من الآثار والأحداث بعد ما ساروا إلى الأجداث ، فإن فى ذلك عبرة لمن اعتبر ، وإيقاظاً بحال من مضى

---

(١) الاية رقم ١٤٤ من سورة البقرة ، مدنية .

وغبر ، وإعلاماً بأن ساكن الدنيا على جناح سفر ، ومفاكهة للفضلاء وإفادة لمن تأتّى بعد من البشر .

فإن من أرخ فقد حاسب على عمره ، ومن كتب وقائع أيامه فقد كتب كتاباً إلى من بعده بحوادث دهره ، ومن قبل ما شاهد فقد أشهد على أحوال أهل عصره ما لم يكن في عصره .

ومن كتب التاريخ فقد أهدى إلى من بعده أعماراً ، وبوأ مسامعهم وأبصارهم دياراً ما كانت لهم داراً ، وأسكن أهل الآفاق ببلاد ما كانت لهم مستقراً ولا داراً . . .

فإنني إن أرى الديار بعيني   فلعلي أرى الديار بسمعي

ولقد أفادنا الأمم الماضون بأخبارهم ، وأطلعونا على ما دثر وبقى من آثارهم ، فأبصرنا ما لم نشاهده بأبصارهم ، وأحطنا بما لم نحط به خبراً من أخبارهم ، فرحمهم الله تعالى أجمعين ، وبوأهم جنات عدن فيها خالدين ، لقد غرسوا حتى أكلنا ، وإننا لنغرس حتى تأكل الناس بعدنا ، فأردنا إفادة من بعدنا ببعض ما رأينا وشهدنا ، وإعلامهم ببعض ما شاهدنا وعهدنا وعلمنا من الدعاء لهم والاسترحام ، وطلبنا للمثوبة من الله البر السلام [   ] (١) :

لم يبق منا غير آثارنا   وتنمحي من بعد أخلاق

وكلنا مرجعنا للغني   وإنما الله هو الباقي

● **تنبيه** :

لا يخفى على ضمائر أولى الأبصار ، وخواطر أهل الفضل الباهر ؛ أن المسجد الحرام الذى هو حرم آمن للأنام ؛ زاده الله شرفاً وتعظيماً ومنحة وعزاً وعظمة ومهابة وتكريماً ، أعظم مساجد الدنيا ، وأشرف مكان خصّه الله تعالى بالشرف والعلياء ، يجب تعظيمه وتكريمه على كافة الأنام ؛ لاسيما سلاطين الإسلام ؛ الذين هم ظل الله فى العالم ، وخلائف الله فى الأرض على كافة بنى آدم .

---

(١) ما بين المعقوفتين مسح فى (س) مما يشير إلى أن الناسخ ربما أراد أن يضيف شيئاً .

وقد بنى هذا المسجد ووسعه عدة من الخلفاء ؛ أمراء المؤمنين ، ونمقه ورسمه جملة من أكابر السلاطين ؛ كما سنشرحه ؛ إن شاء الله تعالى .

وقد كان آخر ما شاهدنا من آخر أيام الصبا إلى الكهولة : ما عمره المهدى[1] العباسى ، وزيادة دار الندوة للمعتضد العباسى [2] ، وزيادة باب إبراهيم للمقتدر [3] العباسى .

ثم مالت الأروقة الثلاثة من الجانب [4] الشرقى من المسجد الحرام من سنة ٩٠ ، وفارق السطح المتصل برباط المرحوم السلطان قايتباى ، والمدرسة الأفضلية لصاحب اليمن ؛ التى صارت الآن من وقف الخوجا ابن عباد الله ، وصاروا يرسمون ذلك من جانب السلطنة الشرعية ، فى أيام السلطان الأعظم الأكرم السلطان سليمان خان عليه من الله الرحمة والرضوان ، إلى أن مال

---

(١) المهدى ؛ هو : أبو عبد الله محمد بن أبى جعفر المنصور محمد بن على بن عبد الله الهاشمى العباسى ، وسو الثالث من خلفاء بني العباس ، وأمه : أم موسى بنت منصور الحميرى ، ولد سنة ١٢٧ هـ . وقال الخطى : ولد سنة ١٢٦ ، بويع بالخلافة بعد موت أبيه المنصور بعهد منه إليه ، وكان المهدى مليحاً محبباً إلى الرعية ، خطاماً للزنادقة يتتبعهم ويقتلهم فى كل بلد ، بنى جامع الرصافة ، وكسا الكعبة القباطى والخز والديباج ، وطلى جدرانها بالمسك والعنبر من أسفلها إلى أعلاها ، ولى طبرستان قبل الخلافة . توفى سنة ١٦٩ هـ . تاريخ الخميس : ٢/٣٢٩ ، ٣٣٠ .

(٢) المعتضد ؛ هو : أبو العباس أحمد ابن ولى العهد الموفق بالله طلحة بن المتوكل على الله جعفر بن المعتصم بالله محمد بن الرشيد هارون الهاشمى العباسى ، ولد سنة ٢٤٢ هـ ، وكان المعتضد هذا آخر من ولى الخلافة ببغداد من بنى العباس ، وكانت مدة خلافته تسع سنين وتسعة أشهر ونصف ، وفى سيرة مغلطاى : عشر سنين وتسعة أشهر وثلاثة أيام ، وقيل : تسع سنين وسبعة أشهر واثنين وعشرين يوماً ، وعاش أربعين سنة . تاريخ الخميس : ٢/٣٤٤، ٣٤٥ .

(٣) المقتدر ؛ هو : أبو الفضل جعفر بن ولى العهد الموفق طلحة بن المتوكل جعفر بن المعتصم محمد بن الرشيد هارون الهاشمى العباسى ، وهو السادس من خلفاء بنى العباس ، خلع من الخلافة مرتين ، أمه : أم ولد اسمها شعب ، بويع بالخلافة بعد موت أخيه المكتفى وعمره أربع عشرة سنة ، قال الذهبى : وعمره ثلاث عشرة سنة وأربعون يوماً ، ولم يل الخلافة صبى قبله ، وضعفت الخلافة فى أيامه . قتل فى السابع والعشرين من شوال سنة عشرين وثلثمائة سنة ٣٢٠هـ . تاريخ الخميس : ٢/٣٤٥ - ٣٥١ .

(٤) فى (س) : جانب .

هذا الجانب الشرقى ميلاً ظاهراً محسوساً ، بحيث كان يخشى سقوطه ، ثم علق ، وأسند بالأخشاب فى أيام السلطان الأعظم والخاقان الأجل الأكرم ؛ ملك ملوك العصر والزمان ؛ الحكم السليم الكثير الإحسان ؛ السلطان السليم خان بن السلطان سليمان خان ، أنزل الله عليه شبائب الرحمة والغفران ، فعرض ذلك عليه ، فبرز أمره الشريف ببناء جميع المسجد من جوانبه الأربع على أحسن وضع وأجمل صورة ، وأمر أن يجعل مكان السطح قبباً محكمة راسخة الأساس ، لأن خشب السقف يبلى بتقادم الزمان ، وتأكله الأرضة ، والقبب أمكن وأزين وأحسن ، وذلك فى سنة ٩٧٩ هـ .

فلما وصل الحكم الشريف ، شرع فيه لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة ٩٨ هـ ، على وجه جميل بغاية الإحكام والإتقان ، وأسس على التقوى من الله ورضوان ، إلى أن نقل من سرير سلطنة الدنيا إلى ملك لا يبلى وعز لا يفنى وسلطان لا يزول ونعيم لا ينفذ ولا يحول ؛ ﴿ فى جنة عالية فيها عين جارية فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابى مبثوثة ﴾ (١) .

ثم أكمل إتمام عمارة المسجد الحرام فى أيام دولة السلطان الأعظم الهمام الأجل عظماً ملك ملوك الإسلام ، سلطان سلاطين الأرض ، مالك بساط البسيطة بالطول والعرض ، القائم بوظائف النفل والسنة والفرض ؛ جدار تذكار العلام ، وسلطانه ، وأمير المؤمنين ؛ الذى جلس على كرسى الخلافة ، فما قدر كسرى وإيوانه الذى غذى بلسان حب العدل والإحسان ، ونشأ على طاعة الله وعبادته منذ كان وإلى الآن ، وأحب العلماء والصلحاء ، وأمدهم بالخيرات الحسان ، إلى أن عجز عن القيام بحق شكره لسان كل ملسان ، مجدد معالم المسجد الحرام هو وأبوه وجده ، ومشيد مدارس العلوم الدينية ، وقد شملها سعده وجده ، ناشر ألوية الأمن والأمان فى جميع الممالك والبلاد، ظل الله الممدود على كافة العباد ؛ السلطان الأعظم ، والليث

(١) الآية رقم ١٣ من سورة الغاشية ، مكية .

الغشمشم ، والبحر العطمطم ؛ السلطان مراد ، جعل الله تعالى السلطنة والخلافة كلمة باقية فيه وفى عقبه إلى يوم التناد ، وأزال بنور عدله ظلم الظلم والفساد ، وشتت بسيف قهر شمله أهل الكفر والإلحاد ، وهدم بمعاول بأسه وسطوته الكنائس والبيع ، وعمر بصيت معدلته وصيب عدله ورأفته المساجد والجمع ؛ كما قال الله القوى القاهر فى محكم كتابه العظيم الباهر : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ (١) .

وفى ذلك أقول :

إن سلطاننا مراد كظل الله فى الأر ... رض ظـاهر السـلطان

ملك صار من مضى من ملوك الأر ... رض لفظاً وجـاء عين المعانى

ملك وهو فى الحقيقـة عندى ... ملك صيغ صـيغة الإنسـان

ملك عـادل ، فكل ضـعيف ... وقـوى فى حكـمه سـيان

سـيفه والمنون طـرفا رهان ... لحـلوق العـدو يبتـدران

كمل المسـجد الحرام حـياً ... فـاق فـى العـالمين كل المبانى

هكـذا هكـذا وإلا فـلا ... إنمـا المـلك فـى بنى عثمـان

ولما كان هذا البنيان العظيم الأركان أثراً باقياً على صفحات الزمان دلالاً على عظم شأن من أمر به من أعيان الإنسان ؛ كما أشار إليه القائل فى سالف الزمان ؛ شعر :

إن البناء إذا تعاظـم أمره ... أضحى يدل على عظيم البانى

جمعت فى هذه الأوراق من أخبار ذلك بما رقّ وراق ، تسير به الركبان إلى سائر الآفاق ، وتسير فى صفحات الدهر كشمس الإشراق ، وتحفظ فى خزائن الملوك والسلاطين كأنفس الأغلاق .

وكان كتاباً حسناً فى بابه ، ممتعاً لمن تعلق فى أسبابه، أنيساً تحلو(٢) مؤانسته

---

(١) الآية رقم ١٨ من سورة التوبة ، مدنية . (٢) فى (س) : تَحْلُ .

وجليساً لا تمل مجالسته ، جمع ما بين لطائف تاريخية ، وأحكام شرعية ، وفوائد [1] بارعة ، ومواعظ نافعة ، وسميته : « الإعلام بأعلام بيت الله الحرام » .

وخدمت به خزائن كتب هذا السلطان الأعظم ، الشاب الأعدل الأكرم ، المطيع لأمر الله وأمر خير الأنبياء (ﷺ) ، أحد السبعة الذين يظلهم الله يوم القيامة تحت ظله ، ويشملهم بفيض فضله العظيم ، فلا فضل إلا فضله، خلد الله تعالى على الإسلام والمسلمين ظلال سلطانه [2] القوى المتين ، لتأييد هذا الدين المبين ، وأنام الأنام فى ظل عدله وأمانه المكين ، وأبقاه على سرير السلطنة العادلة دهراً طويلاً ، وثبته على نهج الكتاب والسنة : ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ [3] .

والله أسأل أن يكسو هذا المؤلَّف حسن القبول جلباباً لا يخلق كر الليالى والأيام ، ويجعلنا من المقبولين فى بابه العالى ، الفائزين بالنظر إلى وجهه الكريم فى دار السلام ؛ آمين .

وقد رأينا أن نقسم هذا الكتاب المستطاب إلى مقدمة ، وعشرة أبواب ، وخاتمة ، والأبواب إلى فصول بحسب الاحتياج إليها ، وإلى الله المرجع والمآب .

* **الباب الأول** : فى ذكر وضع مكة المشرفة ؛ شرفها الله تعالى ، وحكم بيع دورها ، وإجارتها ، وحكم الجاورة بها .

* **الباب الثانى** : فى بيان الكعبة المعظمة ؛ زادها الله شرفاً وتعظيماً .

* **الباب الثالث** : فى بيان ما عليه وضع المسجد الحرام فى الجاهلية وصدر الإسلام .

* **الباب الرابع** : فى ذكر ما زاد العباسيون فى المسجد الحرام .

---

(١) فى (س) : وفائد .   (٢) فى (س) : سلطنة .

(٣) الآية رقم ٦٢ من سورة الأحزاب ، مدنية .

❊ **الباب الخامس** : فى ذكر الزيادتين اللتين زيدتا فى المسجد الحرام بعد التربيع الذى أمر به المهدى (رحمه الله تعالى) .

❊ **الباب السادس** : فى ذكر ما عمره ملوك الجراكسة فى المسجد الحرام .

❊ **الباب السابع** : فى ظهور ملوك آل عثمان خلد الله سلطنتهم إلى انقطاع الدوران .

❊ **الباب الثامن** : فى دولة السلطان المحفوف بالرحمة والرضوان ؛ السلطان الأعظم سليمان خان الثانى .

❊ **الباب التاسع** : فى دولة السلطان الأعظم الخاقانى ؛ السلطان سليم .

❊ **الباب العاشر** : فى سلطنة سلطان فريد العصر والزمان مولانا السلطان مرادخان .

❊ **الخاتمة** : فى ذكر المواضع المباركة ، والأماكن المأثورة المشرفة .

★ ★ ★

المقـــدمة

فى ذكر سندنا فيما ننقله فى كتابنا هذا من أخبار بلد الله الحرام إلى من ينقل عنه الوقوف والاعتماد

اعلم أن من بركة العلم نسبته إلى قائله ، وما لم يكن هناك سَنَدين الناقل والراوى ومن ينقل عنه ، فلا اعتماد على ذلك النقل ، ولا بد أن يكون رجال السند موثقاً بهم وإلا فلا اعتبار لتلك الرواية .

وأقدم مؤرخى مكة : أبو الوليد محمد بن عبد الكريم الأزرقى [(١)] ، ثم الإمام أبو عبد الله ؛ محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهى [(٢)] ، ثم قاضى القضاة ؛ السيد تقى الدين محمد بن أحمد بن على الحسينى الفاسى [(٣)] ، ثم المكى ، ثم الحافظ نجم الدين عمر بن محمد بن فهد الشافعى العلوى المكى، ثم ولده الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عمر بن فهد . وهذا الأخير ممن أدركناه ، ولنا عنه رواية .

فأما الأولون : فنذكر سندنا إليهم ليعتمد على نقلنا عنهم .

فأما أبو الوليد الأزرقى: فروينا مؤلفاته عن جماعة أجلاء أخيار وعلماء كبار؛ منهم:

---

(١) الأزرقى : محمد بن عد الله بن أحمد بن محمد بن الوليد بني عقبة بن الأزرق المزيقى؛ أبو الوليد الأزرقى المكى المتوفى سنة ٢٤٤ ، صنف تاريخ مكة شرفها الله تعالى وأخبارها وجبالها وأوديتها كتاب كبير قمنا بتحقيقه مع الباحث عادل عبد الحميد العدوى ، والباحث أشرف أحمد الجمال ، والباحث نادى رجب تحت إشراف الأستاذ سعيد عبد الفتاح . انظر : مقدمتنا عن المؤلف فى الكتاب المذكور آنفاً ، وانظر أيضاً : هدية العارفين : ٦/ ١١ .

(٢) الفاكهى : محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهى ؛ أبو عبد الله المكى الإخبارى ، المتوفى فى حدود سنة ٢٨٥ هـ . صنف تاريخ مكة المكرمة وأخبارها فى الجاهلية والإسلام . هدية العارفين : ٦/ ٢٠ .

(٣) الفاسى : تقى الدين محمد بن أحمد بني على الحسنى الفاسى ، المتوفى سنة ٨٣٢ هـ له كتب عدة ، أهمها : العقد الثمين ، وشفاء الغرام ، وقد قمنا بتحقيقه والصديق أشرف الجمال والصديق عادل عبد الحميد تحت إشراف الأستاذ سعيد عبد الفتاح ، وهو كتاب كبير . انظر : مقدمتنا عن المؤلف ، وانظر أيضاً : كشف الظنون : ٢/ ١٠٥١ ، ١٠٥٢ .

والدى المرحوم ، مولانا علاء الدين أحمد بن محمد قاضى خان بن بهاء الدين بن يعقوب الحنفى القادرى الخرقانى (النهروانى) [1] ثم المكى (رحمه الله تعالى) ، وليس جدنا هذا قاضى خان صاحب الفتاوى المشهورة من علماء مذهبنا ، بل هذا غير ذاك من علماء نهروانه (يرحمهم الله تعالى) ، قال : أخبرنا بها : العز ؛ عبد العزيز بن فهد ، عن والده الحافظ نجم الدين عمر ابن فهد ، عن شيخه قاضى القضاة ؛ السيد تقى الدين محمد بن أحمد بن على الفاسى ؛ المؤرخ ، قال : أخبرنا بها أبو المعالى عبد الله بن عمر الصوفى ، عن أبى زكريا ؛ يحيى بن يوسف القرشى ؛ إجازةً : أن أبا الحسن؛ على بن هبة الله الخطيب ، وعبد الله بن ظافر الأزدى ، قال : أنبأنا على بن طاهر ، أحمد بن محمد الحافظ ، قال : أنبأنا بها المبارك بن عبد الجبار ، المعروف بـ:ابن الطيورى ، قال : أنبأنا بها أبو طالب محمد بن على ابن الفتح العشارى ، قال : أنبأنا بها أبو بكر ؛ أحمد بن محمد بن أبى موسى الهاشمى ، قال : أنبأنا بها أبو إسحاق ؛ إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمى ، قال : أنبأنا بها أبو الوليد ؛ محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد الوليد الأزرقى (رحمه الله تعالى) .

وأما أبو عبد الله ؛ محمد بن إسحاق الفاكهى : فإنى أروى مؤلفه عن الحافظ المسند المعمر ، خطيب بلد الله الحرام ، أحمد مجد الدين بن أبى القاسم محمد العقيلى العزيزى المكى (تغمده الله برحمته) قال : أنبأنا المسند المعمر أبو العباس ؛ أحمد بن محمد الدمشقى الشهير بالخفار ؛ إجازة ، قال: أنبأتنى المسندة المعمرة زينب بنت أحمد بن عبد الرحيم ؛ إجازة ، قال : أنبأنى به الحافظ المسند بهاء الدين ؛ أبو الحسن على بن هبة الله ؛ سبط الحميرى ؛ إجازة ، قال : أنبأنا الحافظ المسند أبو طاهر أحمد بن محمد السلفى ؛ إجازة، قال : أنبأنا به الحافظ محمد بن أحمد النجيبى ؛ كتابة ، قال : أنبأنا به الحافظ أبو على الحسين بن محمد الحبانى الغسانى ؛ أحد أركان الحديث بقرطبة ، قال : أنبأنا به الحافظ الحكم بن محمد الخذامى ، عن أبى القاسم ابن أبى غالب الهمدانى ، عن أبى الحسن الأنصارى (رحمه الله تعالى) ، عن مؤلفه .

---

(١) أثبتها المؤلف باللام . انظر ما قلناه فى المقدمة حول (نهروان) .

الباب الأول

فى ذكر وضع مكة المشرفة شرفها الله تعالى وحكم بيع دورها ، وإجارتها ، وحكم المجاورة بها

اعلم أن بلد الله الحرام ؛ مكة المشرفة ، زادها الله شرفاً وتعظيماً بلدة كبيرة مستطيلة ، ذات شعاب واسعة ، ولها مبدؤ ونهاية .

فبدؤها : المعلاة ؛ وهى : المقفرة الشريفة .

ومنتهاها : من جانب جدة ؛ موضع يقال له : الشبيكة .

ومن جانب اليمن ؛ قرب مولد سيدنا حمزة (رضى الله تعالى عنه) فى لصق مجرى العين ، ينزل إليه من درج له يقال له : البازان .

وعرضها من وجه يقال له الآن : جبل جزل إلى أكثر من نصف جبل أبى قبيس . ويقال لهذين الجبلين : الأخشبان ، وسماهما الأزرقى جبل أبى قبيس والجبل الآخر فإنه قال : « خشبا أبى قبيس ؛ وهو : الجبل المشرف على الصفا ، والآخر : الجبل الذى يقال له : الأحمر ، وكان يسمى فى الجاهلية الأعرف ؛ وهو : الجبل المشرف على قعيقعان ، وعلى دور عبد الله بن الزبير» انتهى ، فيكون قعيقعان مما يشرف عليه الجبل المقابل لأبى قبيس .

قال ياقوت فى معجم البلدان [(١)] : « قعيقعان : جبل مشرف على مكة وجهه إلى أبى قبيس » . انتهى . فيكون قعيقعان ؛ هو : نفس الجبل ، وإنما سمى الآن جبل جزل ؛ بكسر الجيم ، وفتح الزاى ، وتشديد اللام ، لأن

---

(١) معجم البلدان : للشيخ أبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى منشأ المتوفى سنة ٦٢٦ بحلب ، وله مختصر لصفى الدين عبد المؤمن . كشف الظنون : ٢/ ١٧٣٣ .

طائفة من الحبوش يقيمون بهذا الجبل ؛ يسمون بهذا الاسم ، يلقبون فيه بالطبل » . انتهى .

وأما موضع الكعبة المعظمة ؛ فهو وسط المسجد الحرام ؛ والمسجد الحرام بين هذين الجبلين ؛ فى وسط مكة ، ولها شعاب كثيرة مزورة إذا أشرف الإنسان من جبل أبى قبيس ؛ لا يرى الإنسان جميع مكة ؛ بل يرى أكثرها . وهى : تسع خلقاً كثيراً خصوصاً فى أيام الحج ؛ فإنه يرد إليها قوافل عظيمة: من مصر ، والشام ، وحلب ، وبغداد ، وبصرة ، والحشا ، ونجد، واليمن، ومن بحر الهند ، والحبشة ، والشجر ، وحضرموت ، وغربان جزيرة العرب طوائف لا يحصيهم إلا الله تعالى ، فتسعهم جميعهم ، وأفنيتها ، وجبالها ، ووهادها .

وهى : تزيد عمارتها وتنقص بحسب الأزمان ، وبحسب الولاة ، والأمن، والخوف ، والغلاء والرخاء .

وهى الآن بحمد الله تعالى فى دولة السلطان الأعظم والفياض الأكرم : معمر هذا العالم بالعدل والفضل والكرم السلطان مراد خان : خلد الله ملكه، وجعل بساط البسيطة ملكه ، فى أعلى درجات العمارة والأمن والرخاء ؛ بحيث ما رأينا من أول العمر إلى الآن هذه العمارة ولا قريباً منها .

وكنت أشاهد قبل الآن فى زمن الصبا خلو الحرم الشريف ، وخلو المطاف من الطائفين ، حتى أنى أدركت الطواف وحدى من غير أن يكون معى أحد ، مراراً كثيراً كنت أترصد خلياً ؛ لكثرة ثواب بأن يكن الشخص الواحد يقوم بتلك العبادة وحده فى جميع الدنيا ؛ وهذا لا يكون إلا بالنسبة إلى الإنسان فقط .

وأما الملائكة لا يخلو منهم المطاف ، بل يمكن أن لا يخلو عن أولياء الله تعالى : ممن لا تظهر صورته ؛ ويطوف خافياً عن أعين الناس ، ولكن لما كان ذلك خلاف الظاهر صار يثاب على أداء هذه العبادة بالانفراد ظاهراً كثيرٌ من الصلحاء .

لأنه ليس معنى عبادة يمكن أن ينفرد بها رجل واحد فى جميع الدنيا ، ولا يشاركه غيره فى تلك العبادة بعينها إلا الطواف ، فإنه يمكن أن ينفرد بها شخص واحد بحسب الظاهر والله أعلم بالسرائر .

حتى حكى إلىّ والدى (رحمه الله تعالى) : « أن ولياً من أولياء الله تعالى أرصد الطواف الشريف أربعين عاماً ليلاً ونهاراً ؛ ليفوز بالطواف وحده فرأى بعد هذه المدة خلو المطاف الشريف ، فتقدم ليشرع ، فإذا بحية تشاركه فى ذلك الطواف ، فقال لها : ما أنت ممن خلق الله تعالى ؟ فقالت : إنى أرصد ما رصدته قبلك بمائة عام ، فقال لها : حيث كنت أنت ممن غير البشر فإنى فزت بالانفراد بهذه العبادة من بين البشر ، وأتم طوافه .

وحكى شيخ معمر من أهل مكة : « أنه شاهد الظباء تنزل من جبل أبى قبيس إلى الصفا وتدخل من باب الصفا إلى المسجد ثم تعود لخلو المسجد من الناس - وهو صدوق عندى - وكنا نرى سوق المسعى وقت الضحى خالياً من الباعة ، وكنا نرى القوافل تأتى بالحنطة من بجيلة ، فلا يجد أهلها من يشترى منهم جميع ما جلبوه ؛ فكانوا يبيعون ما جاؤوا به بالأجل ، اضطراراً ليعودوا بعد ذلك ، ويأخذوا أثمان ما باعوه ، وكانت الأسعار رخية جداً لقلة الناس، وعزة الدراهم .

وأما الآن فالناس كثيرون ، والرزق واسع ، والخير كثير ، والخلق مطمئنون آمنون ؛ فى ظلال السلطة الشريفة ، خائضون فى بحر إنعامها ، وإحسانها ، ونعمتها الوفيرة ، أدام الله تعالى سلطنة الزاهرة ، وأطال عمره الشريف ، وخلد دولته القاهرة ، وخلافته الباهرة .

ومكة شرفها الله تعالى يحيط بها جبال لا يسلك إليها الخيل ، والإبل ، والأحمال ؛ إلا من ثلاث مواضع :

أحدها : من جهة المعلا .

والثانية : من جهة الشبيكة .

والثالثة : من جهة المسفلة .

وأما الجبال المحيطة بها : فيسلك من بعض شعابها الرجال على أقدامهم ؛ لا الخيل ، والجمال ، والأحمال .

وكانت مكة فى قديم الزمان مسورة ، فجهة المعلا : كان بها جدر عريض من طرف جبل عبد الله بن عمر ؛ إلى الجبل المقابل له ، وكان فيه باب من خشب ؛ مصفح بالحديد ؛ هداه ملك الهند إلى صاحب مكة .

وقد أدركنا منها قطعة جدار كان فيه نقوب السيل ؛ قصير دون القامة ؛ وهو على سمة قطعة جدارين ؛ إلى جانبه سبيل على مجرى ذيل عين حنين ، بناه المرحوم المصطفى ؛ ناظر العين ، باسم المرحوم المقدس ؛ السلطان سليمان خان ، سقاه الله تعالى ماء الكوثر ، والسلسبيل فى يوم العطش الأكبر ؛ يوم الميزان ، وجعل فوق السبيل منظرة (١) ، فيها شبابيك من الجهات الأربع ؛ يتنزه الناس فيها ، وذلك باق إلى هذاي اليوم ، وتهدم ما عداه .

وكان فى جهة الشبابيك أيضاً سور ؛ ما بين جبلين متقاربين بينهما الطريق السالك إلى خارج مكة ؛ وكان ذلك السور فيه بابان بعقدين ، أدركنا أحد العقدين تدخل منه الجمال والأحمال ، ثم تهدم شيئاً فشيئاً إلى أن لم يبق منه شيء الآن ، ولم يبق منه إلا فج بين جبلين متقاربين فيه المدخل والمخرج ، وكان سور فى جهة المسفلة فى درب اليمن لم ندركه ولم ندرك آثاره .

ذكر التقى الفاسى ؛ نقلاً عمن تقدم : « أنه كان لمكة سور من أعلاها دون السور الذى قد تقدم ذكره قريباً من المسجد المعروف بـ : مسجد الراية ، وأنه كان من الجبل الذى إلى جهة الزارق ؛ ويقال له : لعلع ، إلى الجبل المقابل له الذى إلى جهة سوق الليل . قال : وفى الجبلين آثار تدل على اتصال السور » . انتهى .

ولم يبق الآن (٢) شيء من آثار هذا السور الثانى مطلقاً ، ولعل دور مكة كانت تنتهى إلى هذا الموضع حيث وضع عليه السور ، ثم اتصل العمران ، إلى أن احتيج إلى سور المعلاة .

---

(١) المنظرة : مكان من البيت يعد لاستقبال الزائرين ، والمنظرة : القوم الذين ينظرون إلى الشيء . المعجم الوسيط : ٩٦٩ .

(٢) فى (س) : إلا .

وقال الفاكهى (رحمه الله) : « ومن آثار النبى (ﷺ) مسجد بأعلا مكة يقال: إن النبى (ﷺ) [بناه] (١) عند بئر جبير بن مطعم بن عدى بن نوفل، وكان الناس لا يتجاوزون فى السكنى فى قديم الدهر هذه البئر ، وما فوق ذلك خال من الناس » .

وفى ذلك يقول عمرو بن ربيعة :

نزلت بمكة من قبائل نوفل ... ونزلت خلف البئر أبعد منزل
حذاراً عليها من مقالة كاشح ... ذرب اللسان يقول ما لم يفعل

قلت : المسجد هذا ، هو : مسجد الراية ، موجود يزار إلى الآن .

يقال : إن النبى (ﷺ) وضع رايته يوم فتح مكة فيه ، والبئر موجود الآن خلف المسجد ، وقد تجاوز العمران عن حد البئر كثير إلى صوب المعلا .

وأما حدوث هذه الأسوار ، فقد قال التقى الفاسى (رحمه الله) : « ما عرفت متى أُنشأت هذه الأسوار بمكة ، ولا من أنشأها ، ولا من عمرها ، غير أنه بلغنى أن الشريف أبا عزيز ؛ قتادة بن إدريس الحسينى ؛ جد ساداتنا أشراف مكة (أدام الله تعالى عزهم وسعادتهم) هو الذى عمرها » .

قال : « وأظن أن فى دولته عمر السور الذى بأعلا مكة ، وفى دولته سهلت العقبة التى بنى عليها سور باب الشبيكة ، وذلك من جهة المظفر ؛ صاحب أذبل فى سنة سبع وستمائة ، ولعله بنى السور الذى بأعلا مكة ؛ والله أعلم » .

قال : « ورأيت فى بعض التواريخ ما يقتضى : أنه كان لمكة سور فى زمن المقتدر العباسى ، وما عرفت هل هو هذا السور الذى بأعلا مكة وأسفلها ، أو من أحد الجهتين » .

قال : « وطول مكة من باب المعلاة إلى باب الماجن ؛ يعنى درب اليمن بالمسفلة ؛ موضع السور الذى كان موجوداً فى زمانه طريق المدعى، والمسعى،

---

(١) سقط من (س) .

ومسيل وادى إبراهيم ، والسوق الذى يقال له الآن : السوق الصغير مع ما فيه من دورات ولفتات ليست على الاستقامة : أربعة آلاف ذراع ، واثنان وسبعون ذراعاً ؛ بتقديم السين ، بذراع اليد ؛ وهو ينقص ثمن ذراع عن ذراع الحديد المستعمل الآن ؛ يعنى الذراع الشرعى .

وطول مكة من باب المعلاة إلى باب الشبيكة من طريق المدعى ، ثم يعدل عنه إلى سويقة ، ثم إلى الشبيكة من طريق المدعى : أربعة آلاف ذراع ومائة ذراع واثنان وسبعون ذراعاً ؛ بتقديم السين ؛ بذراع اليد أيضاً » .

وقال : « ذكر الزبير بن بكار [1] ، عن أبى سفيان بن وداعة السهمى : أن سعد بن عمر السهمى أول من بنى بيتاً بمكة ، وأنشد فى ذلك شعراً منه قوله:

وأول من بوّأ بمكة بيته … وسور فيها ساكناً بأثافى »

---

(١) الزبير بن بكار ؛ هو : أبو عبد الله الزبير بن أبى بكر بكار بن عبد الله بن مصعب ابن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام ، من أهل المدينة ، إخبارى ، أحد النسابين ، وكان شاعراً صدوقاً ، ومن شعره :

عفى الصبى متجمل الصبر … يرجو عواقب دولة الدهر
جعل المنى سبباً لراحته … فيما يسكن لوعة الصدر
حتى إذا ما الفكر راجعه … قطع المنى متبين الهجر
يشكى الضمير إلى جوانحه … بعض الذى يلقى من الفكر

والزبير بن بكار راوية ذو قدر ، ولى قضاء مكة ، ودخل بغداد عدة مرات ، آخرها سنة ٢٥٣ هـ ، وتوفى الزبير وهو قاضٍ على مكة ، ودفن بها ليلة الأحد لتسع بقين من ذى القعدة سنة ٢٥٦ هـ ، وقد بلغ من السن ٨٤ سنة .

ومن كتبه : أخبار العرب ويامها ، نسب قريش وأخبارها ، نوادر أخبار النسب ، كتاب اللغة للموفق (وهو الموفقيات فى الأخبار) كتاب مزاح النبى (ﷺ) ، نوادر المدنيين ، كتاب النحل ، العقيق وأخباره ، الأوس والخزرج ، أخبار ابن ميادة ، أخبار الأحوص ، أخبار عمر ابن أبى ربيعة ، أخبار جميل ، أخبار أبى دعبل ، أخبار نصيب ، أخبار العرجى ، أخبار أمية ، أخبار هدبة ، أخبار عبد الرحمن بن حسان ، أخبار هرمة ، أخبار القارئ ، أخبار المجنون ، أخبار ابن أبى السائب ، أخبار حاتم ، كتاب إغارة كثير على الشعراء ، كتاب وفود النعمان على كسرى . روى الزبير عن عمه مصعب بن عبد الله ، ومحمد بن الحسن المخزومى ومحمد بن الضحاك ، وغيرهم كثيرون . الفهرست : ١٦٠ ، ١٦١ ، هدية العارفين : ٥/٣٧٢ .

قال : « وينبغى لمن بنى بمكة بيتاً أن لا يرفع بنائه على بنياء الكعبة الشريفة ، فإن بعض الصحابة (رضى الله عنهم) كان يأمر بهدمه » .

قال الأزرقى : « وإنما سميت [1] الكعبة : كعبة ، لأنه لا يبنى بمكة بناء مرتفع عليها » .

ثم قال : « حدثنى جدى ، عن أبى عيينة ، عن أبى شعبة الجمحى ، عن شيبة بن عثمان : أنه كان يشرف ، فلا يرى بيتاً مشرفاً على الكعبة إلا أمر بهدمه » .

ثم قال : « قال جدى : لما بنى العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس (رضى الله عنهم) داره التى بمكة قبال المسجد الحرام أمر قومه أن لا يرفعوها على الكعبة ، وأن يجعلوا أعلاها دون الكعبة ليكون دونها ؛ إعظاماً للكعبة » .

قال الأزرقى : « قال جدى : فلم يبنى بمكة دار كبيرة أو غيرها تشرف على الكعبة إلا هدمت ، أو خربت ، إلا هذه الدار ، فإنها باقية إلى اليوم » . انتهى .

★ ★ ★

● وأما حكم بيع دور مكة وإجارتها :

فقد ذكر الإمام قاضى خان : أنه لا يجوز بيع دورها عند أبى حنيفة (رضى الله عنه) فى ظاهر الرواية ، وقيل : يجوز ، مع الكراهة ؛ وهو قول أبى يوسف ومحمد (رضى الله عنهما) .

قال صاحب الواقعات ؛ وعليه الفتوى : « وروى الحسن ، عن أبى حنيفة (رضى الله تعالى عنهما) : أن بيع دور مكة جائز ، وفيها الشفعة » ، وهو قول أبى يوسف ؛ وعليه الفتوى ، ذكره فى « عيون المسائل » .

قال قوام الدين فى شرح الهداية : « بيع بناء مكة جائز اتفاقاً ، لأن بناءها

---

(١) فى (س) : سميته .

ملك الذى بناه ، ألا ترى أن من بنى فى أرض الوقف جاز أن يبيع بناءه ، فكذا هذا .

وأما بيع أرض مكة فلا يجوز عند أبى حنيفة (رضى الله عنه) ، وهو ظاهر الرواية ، وهو قول محمد ، وعند أبى يوسف تجوز ، ورجح الطحاوى قول أبى يوسف .

وقد رأينا المسجد الحرام الذى سواء [١] العاكف فيه والباد ، لا ملك لأحد فيه ، ورأينا مكة على غير ذلك ، فقد يضر البناء فيها .

وقال رسول الله (ﷺ) يوم دخلها : « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن » .

فلما كانت مما يغلق عليه الأبواب ، ويبنى فيها المنازل ، كان صفتها صفة المواضع التى تجرى فيها الأملاك ، ويقع فيها التوارث ، ولا يجوز احتجاج المخالف بقوله تعالى : ﴿ الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ﴾ [٢] ، لأن المراد بالمسجد الحرام، لا جميع أرض مكة » . انتهى ملخصاً .

★ ★ ★

● **وأما إجارة دور مكة :**

فقد ذكر صاحب التقريب ، وقد روى هشام ، عن أبى حنيفة : « أنه كره إجارة دور مكة ، وقال لهم : أن ينزلوا عليهم فى دورهم إن كان فيها فضل ، وإن لم يكن فلا ؛ وهو قول محمد (رحمه الله تعالى) » . انتهى .

وروى محمد فى الآثار ، عن أبى حنيفة ، عن عبد الله بن زياد ، عن أبى نجيح ، عن عبد الله بن عمر ، عن النبى (ﷺ) أنه قال : « من أكل من أجور بيوت مكة شيئاً فكأنما أكل ناراً » ، أخرجه الدارقطنى بإسناد ضعيف ، وقال : أنه موقوف .

---

(١) فى (س) : هو .

(٢) الآية رقم ٢٥ من سورة الحج ، مدنية .

وروى : أنه كره إجارتها لأهل الموسم ، ولم يكره للمقيم ، لأنى أهل الموسم لهم ضرورة إلى النزول ، والمقيم لا ضرورة له .

وعن عمر بن الخطاب (رضى الله تعالى عنه) : أنه نهى أن يغلق بمكة باب دون الحاج ، فإنهم ينزلون كلما رأوه فارغاً .

وعن عمر بن عبد العزيز فى خلافته إلى أمير مكة : أن لا يدع أهل مكة أن يأخذوا ذلك خفية ومساترة .

وهذا مبنى على أصل ، وهو : أن فتح مكة إن كان عنوة فتكون مقسومة ، ولم يقسمها النبى (ﷺ) ، وأمّرها على ذلك ، فتبقى على ذلك لا تباع ، ولا تكرى ، ومن سبق إلى موضع فهو أولى به ؛ وبهذا قال أبو حنيفة ، ومالك، والأزرعى (رضى الله عنهم) ؛ إن كان فتحها صلحاً ، فتبقى ديارهم بأيديهم، ثم يتصرفون فى أملاكهم كيف شاؤوا سكناً ، وإسكاناً ، وبيعاً ، وإجارة ، وغير ذلك ؛ وبه قال الإمام الشافعى ، وأحمد (رضى الله تعالى عنهما) ، وطائفة من المجتهدين، وعلى ذلك عمل الناس قديماً وحديثاً.

★ ★ ★

● **وأما أسماء مكة المشرفة :**

فإنها سميت بها لقلة مائها ، من قولهم : أمتك [١] الفصيل ما فى ضرع أمه ، إذا لم يبق فيها شيئاً ، وكذلك تسمى المعطشة ، أو لأنها تنقص الذنوب أو تنقيها .

ومن أسمائها : بكة ، لأنها تبك أعناق الجبابرة ؛ أى تكسرها .

ومنها : العروض ؛ بفتح المهملة ، ولذلك سمى علم عروض الشعر : عروضاً ، لأن الخليل بن أحمد [٢] اخترعه بمكة ، فسماه باسمها ، والبلد الأمين ، والقرية ، وأم القرى .

---

(١) امتك العظم : مكّة ، امتك الفصيل ما فى بطن أمه : استقصاه بالمعنى . المعجم الوسيط : ٩١٦ .

(٢) الخليل بن أحمد ؛ هو : الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدى ، أبو عبد =

قال المحطب : « سمى الله تعالى مكة بخمسة أسماء ؛ مكة ، وبكة ، والقرية ، والبلد ، وأم القرى » .

قال ابن عباس : « سميت : أم القرى ، لأنها أعظم القرى شأناً » .

وقيل : لأن الأرض دحيت من تحتها .

ومن أسمائها : كوثى ، وأم كوثى ، لأن كوثى اسم لمحل من قعيقعان ، وقاران ، والمقدمية ، وقرية النمل ؛ لكثرة نملها ، والحاطمة ؛ لحطمها للجبابرة (١) ، والوادى ، والحرم ، والعريش ، وبرة ، وصلاحِ ؛ مبنى على الكسر كخدامِ وقطامِ .

ومن أسمائها : طيبة أيضاً .

ومنها : مَعاد ؛ بفتح الميم ؛ لقوله تعالى : ﴿ إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾ (٢) ، لما فى الصحيحين ، عن ابن عباس (رضى الله عنهما : لرادك إلى معاد ، قال : إلى مكة .

ومن أسمائها : الباسّة ؛ بالباء الموحدة ، والسين المهملة المشددة ، قاله مجاهد ، لأنها تبسّ من ألحد فيها ؛ أى : تهلكه ؛ لقوله تعالى : ﴿ وبسّت الجبال بسّاً ﴾ (٣) .

وتسمى : الناشة أيضاً ؛ بالنون والشين المعجمة ، أى : تنش ؛ بتشديد آخرها ، أى تطرد من ألحد فيها ، وتنفيه ، ولها أسامٍ غير ما ذكرناه .

وللمجد الفيروزبادى رسالة فى أسمائها .

قال الإمام النووى (٤) (رضى الله تعالى عنه) : ولا يعرف فى البلاد بلد

= الرحمن البصرى ، العروضى النحوى اللغووى ، ولد سنة ١٠٠ هـ، وتوفى سنة ١٧٠ هـ. من تصانيفه : فائت العين فى اللغة ، كتاب الإيقاع ، كتاب الشواهد ، كتا العروض ، كتاب العين فى النحو واللغة ، كتاب النغم ، كتاب النقط والشكل . هدية العارفين : ٥/ ٣٥٠ .

(١) فى (س) : للجبارة .

(٢) الآية رقم ٨٥ من سورة القصص ، مدنية .

(٣) الآية رقم ٥ من سورة الواقعة ، مكية .

(٤) النووى ؛ هو : يحيى بن شرف بن مرى بن حسن الخزامى الحورانى ؛ النووى =

أكثر أسماءً من [1] مكة والمدينة ؛ لكونهما أشرف الأرض ، وقال عبد الله المرجاني (رحمه الله تعالى) في تاريخه للمدينة ، بعد ذكره لأسماء مكة : ومن الخواص لقطع الرعاف إذا [2] كتب بدم الرعاف على جبين المرعوف : « مكة وسط الدنيا والله رؤوف بالعباد » انقطع الدم .

★ ★ ★

● **وأما فضل مكة (شرفها الله تعالى) :**

فاعلم : أن مكة والمدينة زادهما الله شرفاً وتعظيماً أفضل بقاع الأرض بالإجماع .

وذكر القاضي عياض : أن موضع قبر نبينا (عليه أفضل الصلاة والسلام) أي ما ضم أعضاءه الشريفة أفضل بقاع الأرض بالإجماع ؛ لحلول سيد الأنبياء والمرسلين (عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام) .

وفيه قال السكري (رحمه الله تعالى) :

جزم الجميع بأن خير الأرض ما قد حاط ذات المصطفى وحواها
ونعم لقد صدقوا مكانتها علت كالنفس حين زكت زكى مأواها

ثم اختلف العلماء (رحمهم الله تعالى) في أن مكة شرفها الله تعالى أفضل أم المدينة الشريفة عظمها الله تعالى .

فذهب الإمام الأعظم ؛ أبو حنيفة ، وأصحابه ، والإمام الشافعي ، وأصحابه ، والإمام أحمد بن حنبل ، وأصحابه (رضي الله تعالى عنهم) :

= الشافعي ؛ أبو زكريا ؛ محيي الدين ، علامة بالفقه والحديث ، ومولده ووفاته في نوا (من قرى حوران بسورية) ، وإليها نسبته ، تعلم النووي في دمشق ، وأقام بها زمناً طويلاً . من كتبه : منهاج الطالبين ، الدقائق ، تصحيح التنبيه ، المنهاج في شرح صحيح مسلم ، التقريب والتيسير ، حلية الأبرار (يعرف بالأذكار) رياض الصالحين ، بستان العارفين ، خلاصة الأحكام من مهمات السنن وقواعد الإسلام ، وغيرها كثير . ولد النووي سنة ٦٣١ هـ ، وتوفي سنة ٦٧٦ هـ . انظر كتاب : الأعلام : ٨/ ١٤٩ .

(١) في (س) : من أسماء . (٢) في (س) : إذ .

أن مكة أفضل من المدينة زادها الله تعالى شرفاً وتعظيماً ؛ لحديث عبد الله بن الزبير (رضى الله تعالى عنه) : أن النبى (ﷺ) قال : « صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام ، وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فى مسجدى » رواه أحمد بن حنبل ، وابن حبان فى صحيحه .

ولا يرتاب فى الفضائل التى أثبتها الله تعالى لبلده الحرام ، فجعل فيها بيته المعظم الذى إذا قصده عباده حط عنهم أوزارهم ، ورفع درجاتهم ، وجعلها قبلة للمسلمين أحياءً وأمواتاً ، وفرض الحج إلى من استطاع إليه سبيلاً مرة فى عمره وفى كل عام على الناس أجمعين ؛ فرض كفاية ، وحرمها يومي خلق السماوات والأرض ، ولا يدخلها إلا بالإحرام ، وهو مثوى إبراهيم وإسماعيل (عليهما الصلاة والسلام) ، ومسقط رأس خير الأنام (عليه السلام) ، ومحل إقامته قبل النبوة وبعدها ثلاثة عشر عاماً ، ومحل نزول أكثر القرآن ، ومهبط الوحى ، ومظهر الإيمان والسلام ، ومنشأ الخلفاء الراشدين (رضى الله تعالى عنهم أجمعين) ، وبها الحجر الأسود والزمزم والمقام ، وغير ذلك من المزايا العظام ، ولقد قال القائل :

أرض بها البيت المحـــرم قبلة   للعـالمين له المســـاجد تعدل

حـــرم حرام أرضها وصيودها   والصيد فى كل البلاد محـلل

وبها المشـــاعر والمناسك كلها   وإلى فضـــلها البرية ترحـــل

وبها المقام وحوض زمزم شربها   والحجر والركن الذى لا يرحل

والمســجد العالى المحرم والصفا   والمشــعران لمن يطوف ويرمل

وبمكة الحسنات ضوعف أجرها   وبها المسئ عن الخطايا يغسـل

وقال الإمام مالك (رضى الله تعالى عنه) : المدينة أفضل من مكة ؛ لما روى أن النبى (ﷺ) قال حين خروجه من مكة إلى المدينة : « اللّهم إنك تعلم أنهم أخرجونى من أحب البلاد إلىّ فأسكنى أحب البلاد إليك » رواه

الحاكم فى المستدرك . وما هو أحب البقاع إلى الله يكون أفضل . والظاهر : استجابة دعائه (ﷺ) .

وقد أسكنه الله المدينة الشريفة ؛ فتكون أفضل البقاع ، وله أدلة أخرى من الأحاديث الشهيرة ، وبين الطائفتين نزاع ومشاحنات ؛ والله أعلم .

★ ★ ★

● وأما حكم المجاورة بمكة شرفها الله تعالى :

فذهب إمامنا الأعظم ؛ أبو حنيفة (رضى الله تعالى عنه) ، وبعض أصحاب الشافعى ، وجملة من المحتاطين فى دين الله (رضوان الله تعالى عليهم أجمعين) كراهة المقام بمكة وذلك لخوف سقوط حرمة البيت الشريف فى نظره ، وقلة الاحترام بالأنس والبسط إلى أن يذهب من قلبه الاحترام والهيبة بالكلية ، فيصير بيت الله الحرام فى نظره القاصر كسائر البيوت والعياذ بالله تعالى ، أو ينقص الهيبة والحرمة الأولى فى نظره كما هو شأن سائر الناس فى الأكثر إلا من عصمه الله تعالى ، وحيث كان هو الأكثر من حكم الناس أنيط به حكم الكراهة ، فإقامة المسلم فى وطنه وهو مشتاق إلى مكة باق حرمتها فى نظره خير له ، وأسلم من مقامه بمكة من غير الاحترام لها ، أو مع نقصان احترامه ؛ وهذا ملحظ إمامنا الشافعى (رضى الله عنه) ولهذا كان عمر (رضى الله عنه) يدور على الحاج بعد قضاء النسك بالدرة ، ويقول: يا أهل اليمن يمنكم ، ويا أهل الشام شامكم ، ويا أهل العراق عراقكم ؛ فإنه أبقى لحرمة ربكم فى قلوبكم .

وقال أبو عمرو الزجاجى : من جاور بالحرم وقلبه متعلق بما سوى الله تعالى فقد ظهر خسرانه .

وقال بعض السلف : كم من رجل بخراسان وهو أقرب إلى هذا البيت ممن يطوف به ، وقال : وقيل :

وكم من بعيد الدار نال مراده   وكم من قريب الدار مات كئيباً

وقال ابن مسعود : ما من بلد يؤاخذ فيه بالهم قبل العمل إلا مكة .

وتلا قوله تعالى : ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾[1] .

ولقد اختار حبر الأمة ؛ سيدنا عبد الله بن عباس (رضى الله تعالى عنهما) المقام بالطائف وما حوله على مكة ، وقال : لأن أذنب سبعين ذنباً بغير مكة أحب إلىّ من أن أذنب ذنباً واحداً بمكة .

وذهب بعض العلماء إلى القول بتضاعف السيئات بأرض الحرم كما تضاعف الحسنات .

وجاور أبو محمد الجوهرى سنة بمكة فلم يستند إلى حائط ، ولم ينم ، فقيل له : بم قدرت على هذا ؟ فقال : علم الله صدق باطنى ، وأعاننى على ظاهرى .

وبقى أبو عمرو الزجاجى الصوفى أربعين سنة مجاوراً بمكة لم يقض حاجته البشرية فى الحرم ، بل كان يخرج إلى الحل عند قضاء الحاجة .

وهكذا يروى عن الإمام أبى حنيفة (رضى الله عنه) فى مدة إقامته بمكة ، وكان أصحاب رسول الله (ﷺ) يحجون ثم يرجعون ، ويعتمرون ثم يرجعون ، ولا يجاورون ؛ ذكره عبد الرزاق فى مصنفه .

وروى عن وهب بن الوردى المكى (رحمه الله تعالى) قال : كنت ذات ليلة أصلى فى الحجر ، فسمعت كلاماً بين الكعبة والأستار خفياً، فاستمعت، فإذا هى تناجى وتقول : إلى الله أشكو ثم إليك يا جبريل ممن حولى ؛ من سمرهم وتفكههم باللغو وذكر أحوال الدنيا والاغتياب والخوض فيما لا ينبغى لهم ، واللهو ، والغيبة ، لئن لم ينتهوا عن ذلك لأنتقض انتقاضة يرجع كل حجر منى إلى الجبل الذى قطع منه .

وسُئل الإمام مالك (رضى الله تعالى عنه) عن الحج والجوار أحب إليه[2] أو الرجوع .

فقال : ما كان الناس إلا على الحج والركوع ، وفيهم ابن زيد ، من هذا اقتضى كراهية المجاورة عنده .

---

(١) الآية رقم ٢٥ من سورة الحج ، مدنية .
(٢) فى (س) : إليك .

والظاهر [١] : أنه لا يقتضيه ؛ والله تعالى أعلم .

وذهب الإمام أبو يوسف ، ومحمد ، والإمام الشافعى ، والإمام أحمد بن حنبل (رضى الله تعالى عنهما) إلى استحباب المجاورة بها فى قولهم : وإنه الأفضل ، قال : وعليه عمل الناس .

وحكى الفارسى فى منسكه عن المبسوطات : الفتوى على قولهما .

وروى عن النبى ﷺ أنه قال : « من صبر على حر مكة ساعة تباعدت النار عنه مسيرة مائة عام » .

وعن سعيد بن جبير : « من مرض بمكة يوماً كتب له من العمل الصالح الذى يعمله فى سبع سنين ، فإن كان غريباً ضوعف ذلك » رواهما الإمام الفاكهى (رحمه الله تعالى) .

ومحصل ما ذهب إليه أبو حنيفة (رضى الله عنه) من كراهة المجاورة مبنى على ضعف الخلق عن مراعاة حرمة الحرم الشريف ، وقصورهم عن الوفاء بقيام حق البيت العتيق ، فمن أمكنه الاحتراز عن ذلك ، وعرف من نفسه القدرة على الوفاء بحرمة بيت الله تعالى ، وتعظيمه وتوقيره على وجه تبقى معه حرمة البيت الريف وجلالته وهيبته وعظمته فى عينه وقلبه كما كان عند دخوله فى الحرم الشريف ، ومشاهدة بيت الله تعالى ، فالإقامة بها هى الفضل العظيم والفوز الكبير .

ولا شك فى تضاعف الحسنات ، وأما تضاعف السيئات : فأكثر العلماء على عدم تضاعفها .

ولا شك فى تردد سائر الأولياء إليها فى الأوقات الفاضلة ، فمن لمح أحدهم ، أو لمحه نال السعادة العظمى ، ووردانهم يحضرون الجمعة ، والأوقات الشريفة ، ويحجون كل عام ؛ فكان دأب والدى (رحمه الله) قبل أن يكف نظره أن يبادر يوم النحر بعد رمى جمرة العقبة إلى مكة ، ويجلس

---

(١) فى (س) : والظاهرة .

فى الحطيم تجاه بيت الله تعالى ، ويخلط الطائفين بنظره ، ويستمر جالساً هناك إلى صلاة المغرب ، فيطوف بعد صلاة المغرب ويسعى ، ويعود إلى منى، وكان يقول : إن أولياء الله لا بد أن يحجوا كل سنة ويفعل الأفضل ، وهو : ألا يتأن بطواف الزيارة فى أول يوم النحر ، فأبادر إلى النزول من منى فى ذلك اليوم ، وأجلس فى الحطيم أشاهد الطائفين ؛ لعل أن يقع نظرى على أحدهم ، أو يقع نظره علىّ ، فيحصل لى بذلك بركتهم .

ويستمر على ذلك إلى أن كف بصره (رحمه الله تعالى) ، فكنا نذهب به، ونجلسه فى الحطيم ، ويقول : إن كنت لا أنظرهم ، فلعل أن يقع نظرهم علىّ ، فيحصل لى بركتم ، واستمر على ذلك إلى أن توفى (رحمه الله تعالى) .

يخفون أنفسهم عن أعيني الناس فلا يراهم إلا من أسعده الله تعالى ؛ المسئول أن يجعلنا من سعداء الدنيا والآخرة ، بمنّه وكرمه، إن شاء الله، آمين.

★ ★ ★

الباب الثانى

فى بناء الكعبة المشرفة

(زادها الله تشريفاً وتعظيماً ومهابة وتكريماً)

قال قاضى القضاة ؛ السيد تقى الدين محمد بن أحمد بن على الحسنى المكى الفاسى فى كتابه « شفاء الغرام » [١] : لا شك أن الكعبة المعظمة بنيت مرات ، وقد اختلف فى عدد بنائها .

ويستحصل من مجموع ما قيل فى ذلك : أنها بنيت عشر مرات ، وهى : بناء الملائكة ، وبناء آدم (عليه السلام) ، وبناء أولاده ، وبناء الخليل إبراهيم (عليه السلام) ، وبناء العمالقة ، وبناء جرهم ، وبناء قصى بن كلاب ؛ جد النبى (ﷺ) ، وبناء قريش قبل بعث النبى (عليه السلام) وعمره الشريف يومئذ خمس وعشرون سنة ، وبناء عبد الله بن الزبير بن العوام الأسدى ، وآخرها : بناء الحجاج بن يوسف الثقفى .

وفى إطلاق العبارة أن بناء الكعبة يجوز ، فإن بعضها لم يستوعبها [٢] البناء كالبناء الآخر ، وهو : بناء الحجاج ، فإنه إنما انهدم جانب الميزاب [٣] فقط وأعاده ، وأبقى الجوانب الثلاث ، وهى جهة الباب ، وجهة المستجاز

---

(١) شفاء الغرام ؛ هو : شفاء الغرام تاريخ بلد الله الحرام ، لتقى الدين محمد بن أحمد بن على الحسنى الفاسى ، المتوفى سنة ٨٣٢ هـ ، ألفه على نمط تاريخ الأزرقى ، وحذف منه أسانيد الأحاديث ، والكتاب فى أربعين باباً زاد فيها الفاسى ما جد بعد الأزرقى ، واختصره الفاسى مراراً . وقد قمنا بتحقيق هذا الكتاب ، وهو تحت الطبع ، وقام بتحقيقه هشام عبد العزيز عطا ، وعادل عبد الحميد العدوى ، وشرف أحمد الجمال ، وكان التحقيق تحت إشراف سعيد عبد الفتاح .

(٢) فى (س) : يستوعيهما .

(٣) فى (س) : الميزان .

الذى يقابل الباب ، وجهة الصفا المقابل لجهة الميزاب ؛ فإنها باقية على بناء عبد الله بن الزبير .

● فأما بناء الكعبة الشريفة ؛ وهو أول بنائها :

فذكر الإمام أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن الوليد الأزرقى فى تاريخه ، قال : « حدثنا عبد الله بن مسلم العجلى ، عن أبيه ، حدثنا القاسم بن عبد الله الأنصارى ، [حدثنا] (١) الإمام محمد الباقر بن الإمام على زين العابدين بن الحسين بن أمير المؤمنين ؛ علىّ بن أبى طالب (رضى الله عنه) ، قال : كنت مع أبى ؛ علىّ بن الحسين (عليه السلام) بمكة ، فبينما هو يطوف وأنا وراءه إذ جاء رجل طويل ، فوضع يده على ظهر يأبى ، فالتفت أبى إليه ، فقال الرجل : السلام عليك يا ابن بنت رسول الله (ﷺ)، إنى أريد أن أسألك ، فرد عليه السلام ، وسكت أبى والرجل خلفه ، حتى فرغ من أسبوعه ، فدخل الحجر، فقام تحت الميزاب، وصلى ركعتى أسبوعه، ثم استوى قاعداً ، فالتفت إلىّ ، فجلست إلى جانبه ، فقال : يا محمد ، أين السائل ؟ فأومأت إلى الرجل ، فجاء فجلس بين يدى ، فقال أبى : عم تسأل ؟ فقال : إنى أسألك عن بدء هذا الطواف بهذا البيت ، فقال له أبى : من أين أنت ؟ قال : من أهل الشام ، قال : أين مسكنك ؟ قال : بيت المقدس ، قال : أقرأت الكتابين - يعنى التوراة والإنجيل - ؟ قال : نعم ، قال له أبى : يا أخا الشام (٢) ، احفظ عنى ، ولا ترو عنى إلا حقاً ، أما بدؤ هذا الطواف : فإن الله تعالى قال للملائكة : ﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ (٣) .

فقالت الملائكة : أى يا رب ، أتخلق غيرنا ممن يفسد فيها ويسفك الدماء ويتحاسدون ويتباغضون ؟!

أجعل ذلك الخليفة منا ، فنحن لا نفسد فيها ولا نسفك الدماء ولا نتباغض

---

(١) سقط من (س) . (٢) فى (س) : الشامى .

(٣) الآية رقم ٣٠ من سورة البقرة ، مدنية .

ولا نتحاسد ولا نتباغى ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ونعظمك ولا نعصيك [١] .

فقال الله تعالى : ﴿ إنى أعلم ما لا تعلمون ﴾ [٢] .

قال: فظنت الملائكة أن ما قالوا رد على ربهم، وأنه قد غضب من قولهم، فلاذوا بالعرش ، ورفعوا رؤوسهم يتضرعون ويبكون ؛ إشفاقاً من غضبه ، فطافوا بالعرش ثلاث ساعات ، فنظر الله تعالى إليهم ، ونزلت الرحمة عليهم ، ووضع الله سبحانه وتعالى تحت العرش بيتاً ؛ وهو البيت المعمور على أربع أساطين من زبرجد يغشاهن ياقوتة حمراء .

وقال للملائكة : طوفوا بهذا البيت ، وصار أهون عليهم من العرش .

ثم إن الله تبارك تعالى بعث ملائكة ، وقال لهم : ابنوا لى بيتاً فى الأرض بمثاله وقدره ، وأمر الله تعالى من الأرض من خلقه أن يطوفوا بهذا البيت كما طاف أهل السماوات بالبيت المعمور ، فقال الرجل : صدقت يا ابن بنت رسول الله (ﷺ) ، هكذا كان » . انتهى .

قلت : هذا الحديث الشريف يدل على أن بناء الملائكة (عليهم السلام) للكعبة الشريفة كان قبل خلق الأرض ، ولنا أحاديث دالة على أن الكعبة خلقت قبل الأرض بأربعين سنة فى رواية ، وبألفى عام فى رواية .

قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهى المكى فى أوائل « تاريخ مكة » : « حدثنى عبد الله بن سلمة الواقدى ، قال : حدثنا ابن جريج ، عن بشر بن عاصم الثقفى ، عن سعيد بن المسيب ، قال : حدثنا على بن أبى طالب (رضى الله عنه) : خلق الله تعالى البيت قبل الأرض والسماوات بأربعين سنة ، وكان غثاءً على الماء » .

وقال الفاكهى : « وحدثنى عبد الله بن أبى سلمة ، قال : حدثنا النضر بن شميل ، قال : حدثنا بن معد ، عن سعيد ، ونافع مولى الزبير ، عن

---

(١) فى (س) : نعصك .

(٢) الآية رقم (٣٠) من سورة البقرة ، مدنية .

أبى هريرة (رضى الله تعالى عنهم) أنه قال : الكعبة خلقت قبل الأرض بألفى ، قيل : وكيف خلقت قبل الأرض وهى من الأرض ؟ فقال : لأنه كان عليها ملكان يسبحان بالليل والنهار ألف سنة ، فلما أراد الله تعالى أن يخلق الأرض دحاها من تحت الكعبة ، فجعلها فى وسط الأرضين .

قال : وحدثنى عبد الله بن أبى سلمة ، قال : حدثنا الواقدى ، قال : حدثنا إسحاق بن يحيى بن طلحة ؛ أنه سمع مجاهداً يقول : إن قواعد البيت خلقت قبل الأرض بألفى سنة ، ثم بسطت الأرض من تحته .

أقول : وظهر مما رويناه : أن موضع البيت الشريف خلق قبل الأرض ، لا نفس بناء الكعبة ؛ فإنه أول ما بنته الملائكة بأمر الله تعالى ، كما سقناه ؛ والله تعالى أعلم .

الثانى : فى بناء آدم (عليه السلام) ، وقد ذكره الإمام أبو الوليد الأزرقى، فقال : « حدثنى جدى ، عن سعيد بن سالم، عن طلحة بن عمرو الحضرمى عن عطاء بن أبى رباح ؛ بفتح الراء ، والموحدة بعدها ألف ثم حاء مهملة ، عن ابن عباس (رضى الله تعالى عنهما) قال : لما أهبط الله تعالى آدم إلى الأرض من الجنة ، قال : يا رب إنى لا أسمع أصوات الملائكة ، قال : بخطيئتك يا آدم ، ولكن اذهب فابن لى بيتاً فطف به ، واذكرنى حوله كما رأيت الملائكة تصنع حول عرشى ، قال : فأقبل آدم (عليه السلام) يتخطى الأرض ، فطويت له ، ولم يضع قدمه فى شىء .

وأن جبريل (عليه السلام) ضرب بجناحه الأرض ، فكشف عن أساس ثابت على الأرض السابعة ، فقدمت فيه الملائكة من الصخر ما لا يطيق الصخرة منها ثلاثون رجلاً ، وأنه بناه من خمسة أجبل ؛ من لبنان ، وطور زيتا ، وطور سينا ، والجودى ، وحراء ، حتى استوى على وجه الأرض ؛ وهذا يدل على أن آدم (عليه السلام) إنما بنى أساس الكعبة حتى ساوى وجه الأرض ، ولعل ذلك بعد دثور ما بنته الملائكة بأمر الله تعالى ولا ثم ، أنزل الله تعالى البيت المعمور لآدم (عليه السلام) يستأنس به ، فوضعه على أساس الكعبة ، ويدل على ذلك ما رواه الوليد الأزرقى (رحمه الله تعالى)

فى تاريخه ، قال : حدثنى أبى ، عن جدى ، قال : حدثنا سعيد بن سالم، عن عثمان بن ساج ، قال : بلغنى : أن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه)، قال لكعب : يا كعب ، أخبرنى عن البيت الحرام ؟ قال كعب : أنزل الله تعالى ياقوتة من السماء مجوفة مع آدم ، فقال له : يا آدم ؛ إن هذا بيتى أنزلته معك يُطاف حوله كما يطاف حول عرشى ، ويصلون حوله كما يصلى حول عرشى .

ونزلت معه الملائكة ، فرفعوا قواعده من حجارة ، ثم وضع البيت عليه ، فكان آدم (عليه السلام) يطوف حوله كما يطاف حول العرش ، ويصلى عنده [١] كما يصلى عند العرش [٢] .

فلما أغرق الله قوم نوح رفعه إلى السماء ، وبقيت قواعده .

وقال الأزرقى أيضاً : « حدثنى أبى ، قال : حدثنى محمد بن يحيى ، عن عبد العزيز بن عمر ، عن عمر بن معروف ، عن عبد الله بن أبى زياد ، أنه قال : لما أهبط الله تعالى آدم (عليه السلام) من الجنة ، قال : يا آدم ؛ ابن لى بيتا بحذاء بيتى الذى فى السماء ، تتعبد فيه يأنت وولدك ، كما تتعبد ملائكتى حول عرشى ، فهبطت عليه الملائكة ، فحفر حتى بلغ الأرض السابعة ، فقذفت فيه الملائكة الصخر [٣] حتى شرف على وجه الأرض ، وهبط آدم بياقوتة حمراء مجوفة ؛ لها أربعة أركان بيض ، فوضعها على الأساس ، فلم تزل الياقوتة كذلك حتى كان زمان الطوفان ، فرفعها الله تعالى » .

وقال الأزرقى أيضاً : « حدثنى محمد بن يحيى ، عن إبراهيم بن محمد ، عن يحيى ، عن أبى المليح ، أنه قال : كان أبو هريرة يقول : حج آدم فقضى المناسك ، فلما حج قال : يا رب ، إن لكل عامل أجراً ، قال الله تعالى : أما أنت يا آدم فقد غفرت لك ، وأما ذريتك فمن جاء منهم هذا البيت ، فباء

---

(١) فى (س) : عنده حوله .
(٢) فى (س) : عند حول .
(٣) فى (س) : للصخر .

بذنبه ، غفرت له ، فاستقبلته الملائكة بالردم ، قالوا : بَرّ الله حجك يا آدم ، قد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام ، قال : وما كنتم تقولون حوله ؟ قالوا : كنا نقول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . قال : فكان آدم (عليه السلام) إذا طاف يقول هذه الكلمات ، وكان طواف آدم سبعة أسابيع بالليل وخمسة بالنهار .

قال نافع : وكان ابن عمر (رحمه الله) يفعل ذلك .

قال الأزرقى أيضاً : « حدثنى محمد بن يحيى ، عن ابن عمر ، قال : حدثنى هشام بن عبد الرحمن ، وسليمان المخزومى ، عن عبد الله بن أبى سليمان ؛ مولى بنى مخزوم ، أنه قال : طاف آدم (عليه السلام) سبعاً بالبيت ، ثم صلى تجاه باب الكعبة ركعتين ، ثم أتى الملتزم ، وقال : اللَّهم إنك تعلم سرى وعلانيتى ، فأقبل معذرتى ، وتعلم ما فى نفسى وما عندى ، فاغفر لى ذنوبى ، وتعلم حاجتى فاعطنى سؤلى ، اللَّهم إنى أسألك إيماناً يباشر قلبى ، ويقيناً صادقاً حتى أعلم أنه لا يصيبنى إلا ما كتبت لى ، والرضا بما قضيت علىّ .

قال : فأوحى الله تعالى إليه : يا آدم قد دعوتنى بدعوات فاستجبت لك ، ولم يدعنى بها أحد من ولدك إلا كشفت همومه وغمومه ، ونزعت الفقر من قلبه ، وجعلت الغنى بين عينيه ، واتجرت له من وراء كل متاجر ، وأتته الدنيا وهى راغمة ؛ وإن كان لا يريدها .

قال : فمنذ طاف آدم (عليه السلام) كانت سنة الطواف .

الثالث : بناء أولاد آدم (عليه السلام) الكعبة المعظمة :

روى الأزرقى بسنده إلى وهب بن منبه ، قال : « لما رفعت الخيمة التى عزى الله بها آدم (عليه السلام) من حلية الجنة حين وضعت له بمكة فى موضع البيت، ومات آدم، فبنى بنو آدم من بعده مكانها بيتاً بالطين والحجارة، فلم يزل معموراً يعمرونه هم ومن بعدهم ، حتى كان زمن نوح (عليه السلام) فنسفه الغرق ، وغير مكانه حتى بوأ لإبراهيم » . انتهى .

قال الحافظ أبو القاسم السهيلى [١] فى الفصل الذى عقده لبنيان الكعبة : «وكان بناؤها الأول ، بناها شيث بن آدم (عليه السلام) » . انتهى .

أو لعل مراد السهيلى بالأولوية : بالنسبة إلى بناء البشر ، لا الملائكة ، وأن بناء آدم (عليه السلام) إنما هو الأساس إلى أن ساوى وجه الأرض ، وأنزل الله من الجنة البيت المعمور ، فوضعه على ذلك الأساس .

والمراد بالخيمة المشار إليها فى خبر وهب بن منبه (رضى الله عنه) هو البيت المعمور ، ولعلها رفعت بعد وفاة آدم (عليه السلام) ، وأبقى البيت المعمور إلى أن رفع فى زمن الطوفان .

وفى ذلك من ارتكاب المجاز ما يصح هذه الروايات المتباينة ظواهرها ؛ والله أعلم .

الرابع : بناء إبراهيم الخليل (عليه السلام) :

قال السيد الإمام التقى الفاسى (رحمه الله) : « أما بناء الخليل (عليه السلام) فهو ثابت بالكتاب والسنة الشريفة ، وهو أول من بنى البيت ؛ على ما ذكره الفاكهى ، عن على بن أبى طالب (كرّم الله وجهه) .

وجزم الشيخ عماد الدين بن كثير فى تفسيره ، وقال : لم يرد عن معصوم أن البيت كان مبنياً قبل الخليل (عليه السلام) » . انتهى . فهو ينكر ما قدمناه من الآثار .

---

(١) أبو القاسم السهيلى ؛ هو : عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أصبغ بن حسن بن حسين بن سعدون الخثعمى الأندلسى المالقى ؛ أبو القاسم ، وأبو زيد ، صاحب « الروض الأنف » ، و« التعريفات فى مبهمات القرآن » ، وغير ذلك . ولد سنة ٥٠٨ هـ ، سمع من ابن العربى وطائفة ، وأخذ النحو والأدب عن ابن الطراوة والقراءات عن أبى داود والصغير ؛ سليمان ابن يحيى ، كان جامعاً بين علوم كثيرة ؛ التاريخ والحديث والتفسير وأصول الفقه وعلم الرجال والأنساب . مات السهيلى سنة ٥٨١ هـ . طبقات الحفاظ : ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، البداية والنهاية : ٣١٩/١٢ ، طبقات المفسرين : ٢٦٦/١ ، أنباه الرواه : ١٦٢/٢ ، وفيات الأعيان : ٢٨٠/١ .

وأمّا ما قدمناه من الآثار : فبناء إبراهيم (عليه السلام) أول مبنى بالنسبة إلى من بناه بعده ، لا أول حقيقة ؛ والله أعلم .

قال الأزرقى (رحمه الله تعالى) فى تاريخه ، عن ابن إسحاق : أن الخليل (عليه السلام) لما بنى البيت جعل طوله فى السماء سبعة أذرع ، وجعل طوله فى الأرض من قبل وجه البيت الشريف من الحجر الأسود إلى الركن الشامى : اثنين وثلاثين ذراعاً ، وجعل عرضه فى الأرض من قبل الميزاب من الركن الشامى إلى الركن الغربى ؛ الذى يسمى الآن : الركن العراقى : اثنين وعشرين ذراعاً ، وجعل طوله فى الأرض من جانب ركن ظهر البيت الشريف من الركن الغربى المذكور إلى الركن اليمانى : إحدى وثلاثون ذراعاً ، وطول عرضه فى الأرض من الركن اليمانى إلى الحجر الأسود : عشرون ذراعاً ، وجعل الباب لاصقاً بالأرض غير مرتفع عنها ولا مبوب ، حتى جعل لها تبع الحميرى باباً وغلقاً بعد ذلك .

وحفر إبراهيم (عليه السلام) فى بطن البيت عن يمين من دخله حفرة لتكون خزانة للبيت يوضع فيها ما يهدى إلى البيت ، فكان إبراهيم (عليه السلام) يبنى وإسماعيل (عليه السلام) ينقل له الحجارة على عاتقه .

فلما ارتفع البنيان قرب له المقام ، فكان يقوم عليه ويبنى ، ويحوله إسماعيل (عليه السلام) فى نواحى البيت حتى انتهى إلى موضع الحجر الأسود .

فقال إبراهيم لإسماعيل (عليهما السلام) : يا إسماعيل ، إئتنى بحجر أضعه هنا ، يكون علماً للناس ، يبتدءون منه الطواف ، فذهب إسماعيل فى طلبه ، فجاء جبريل (عليه السلام) إلى سيدنا إبراهيم (عليه السلام) بالحجر الأسود ، وكان الله عز جل استودعه جبل أبى قبيس حين طوفان نوح، فوضعه جبريل فى مكانه ، وبنى عليه إبراهيم (عليه السلام) ، وهو حينئذ نور يتلألأ ، فأضاء بنوره شرقاً وغرباً وشمالاً ويميناً إلى منتهى أنصاب الحرم فى كل ناحية ، وإنما سوده أنجاس الجاهلية وأرجاسها .

قال : ولم يكن إبراهيم (عليه السلام) سقف البيت ، ولا بناه بمدر ، وإنما رصه رصاً .

قال : وذكر سنده إلى عبد الله بن عمر : « أن جبريل (عليه السلام) نزل بالحجر على إبراهيم من الجنة ، وأنه وضعه حيث رأيتم ، وأنتم لا تزالون بخير ما دام [1] بين ظهرانيكم ، فتمسكوا به ما استطعتم فإنه يوشك أن يجئ جبريل (عليه السلام) فيرجع به من حيث ما جاء به » . انتهى .

قال السيد الإمام تقى الدين القاشانى (رحمه الله تعالى) : « روينا عن قتادة ، قال : ذكر لنا: أن الخليل (عليه السلام) بنى البيت من خمسة أجبل؛ من طور سينا ، وطور زيتا ، ولبنان ، والجدوى ، وحراء » .

قال : « وذكر لنا : أن قواعده من حراء » .

قال : « ويروى : أن الخليل (عليه السلام) أسس البيت من ستة أجبل ؛ من أبى قبيس ، ومن الطور ، ومن القدس ، ومن ورقان ، ومن رضوا ، ومن أحد » .

وقال الأزرقى (رحمه الله تعالى) : « قال أبى : وحدثنى جدى ، عن سعيد بن سالم ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، أنه قال : موضع الكعبة قد خفى ودس زمن الطوفان فيما بين نوح وإبراهيم (عليهما السلام) .

قال : كان موضعه أكمة حمراء لا تعلوها السيول ، غير أن الناس كانوا يعلمون أن موضع البيت فيما هناك من غير تعيين محله ، وكان يأتيه المظلوم والمتعوذ من أقطار الأرض ، ويدعو عنده المكروب ، وما دعا عنده أحد إلا استجيب له .

وكان الناس يحجون إلى موضع البيت حتى بوأ الله مكانه لإبراهيم (عليه السلام) لما أراد عمارة بيته وإظهار نبيه وشعائره ، فلم يزل منذ أهبط الله آدم إلى الأرض معظماً محترماً عند الأمم والملك » .

---

(١) فى (س) : ما زال .

قال الإمام أبو إسحاق وأحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي في كتاب «العرائس» في قصص الأنبياء (عليهم السلام) : « لما نجى الله خليله (عليه السلام) من نار النمرود ، وآمن به من آمن خرج مهاجراً إلى ربه ، وتزوج ابنة عمه سارة ، وخرج بها يلتمس الفرار بدينه ، والأمان على نفسه ومن معه، فقدم إلى مصر ، وبها فرعون من الفراعنة الأول (١) ، وكانت (٢) سارة من أحسن النساء ، وكانت لا تعصى إبراهيم ؛ وبذلك أكرمها الله تعالى ، وأتي إبليس إلى فرعون ، وقال : إن هاهنا رجلاً معه امرأة من أحسن النساء، فأرسل الجبار إلى إبراهيم ، وقال له : ما هذه المرأة منك ؟ فقال له : هي أختي ، وخاف إن قال : هي امرأتي أن يقتله ، فقال له : زينها ، وأرسلها إليّ ، فرجع إبراهيم إلى سارة ، وقال لها : إن هذا الجبار قد سألني عنك فأخبرته أنك أختي ، فلا تكذبيني عنده ، فإنك أختي في كتاب الله ، فإنه ليس مسلم في هذه (٣) الأرض غيري وغيرك .

ثم أقبلت سارة إلى الجبار ، وقام إبراهيم يصلي ؛ وقد رفع الله الحجاب بين إبراهيم وسارة ؛ ينظر إليها منذ فارقته إلى أن عادت إليه إكراماً له وتطييباً لقلب إبراهيم ، فلما دخلت سارة على الجبار ، ورآها ، فدهش من حسنها، ولم يملك نفسه إلى أن مد يده إليها ، فيبست يده على صدره ، فلما رأى ذلك أعظم أمرها ، وقال لها : سلي ربكي أن يطلق يدي ، فوالله إني لا أؤذيك . فقالت سارة : اللّهم إن كان صادقاً فاطلق له يده ، فوهب لها هجر ؛ وهي جارية قبطية جميلة ، فردها إلى إبراهيم ، فأقبلت إليه ، فلما أحس بها انفتل من صلاته ، وقال : مه مه ، فقالت : كفى الله كيد الفاجر ، فوهبني هاجر، وقد وهبتها لك ، فلعل الله يرزقك منها ولداً .

وكانت سارة قد وضعت الولد حتى أيست ، فوقع إبراهيم على هاجر ، فحملت ، وولدت له إسماعيل ، وقام إبراهيم بناحية من أرض فلسطين من

---

(١) في (س) : الأولى . (٢) في (س) : وكان .
(٣) في (س) : هذا .

الرملة وإيلياء ، وهو يضيف من يأتيه ، وقد وسع الله عليه ، وبسط له من الرزق والمال والخدم ، فلما أراد الله تعالى هلاك قوم لوط بعث رسله يزمرونه بالخروج من بين ظهرانيهم ، وأمرهم أن يبشروا ، فيبشرون سارة بإسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب ، فلما نزلوا عليهم سر بهم ، فقال : لا يخدم هؤلاء القوم إلا أنا ، فخرج ، فجاء بعجل سمين مشوى بالحجارة ، فقربه إليهم ، فأمسكوا أيديهم ، فنكرهم ، وأوجس منهم خيفة ؛ حيث لم يأكلوا من طعامه ، ثم قالوا : لا تخف ، إنا أُرسلنا إلى قوم لوط ، وامرأته سارة قائمة تخدمهم ، فبشروه بإسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب ، فضحكت سارة .

قال ابن عباس : ضحكت تعجباً من أن يكون له ولد على كبر سنها ، وكانت بلغت تسعين سنة ، وبلغ إبراهيم مائة وعشرين سنة .

وقال مجاهد وعكرمة : تقول العرب : « ضحكت الأرنب إذا حاضت ».

قال السندى : « حملت سارة بإسحاق ، وكانت حملت هاجر بإسماعيل، فوضعتا ، وشبا الغلامان ، فتسابقا ، فسبق إسماعيل ، وأخذه إبراهيم ، وأجلسه فى حجره ، وأخذ إسحاق إلى جانبه ، فغضبت سارة ، فقالت : عمدت إلى ابن الأمة فأجلسته فى حجرك ، وعمدت إلى ابنى فأجلسته إلى جنبك ، فأخذها ما يأخذ النساء من الغيرة ، فحلفت لتقطعن منها بضعة ، ولتغيرن خلقها ، ثم عاد إليها عقلها ، فتحيرت فى يمينها .

قال إبراهيم : اخفضيها ، واثقبى أذنها ، ففعلت ذلك ، فصارت سنة فى السناء . والخفاض ؛ بالمعجمات ، للنساء كالختان للرجال .

ثم تضارب إسماعيل وإسحاق كما يتهارش الأطفال ، فغضبت سارة على هاجر ، وحلفت أن لا تساكنها فى بلد واحد ، وأمرت إبراهيم أن يعزلها عنها فأوحى الله تعالى إلى إبراهيم أن يأتى بهاجر وابنها إلى مكة ، فذهب بهما ، حتى قدم مكة ؛ وهى إذ ذاك عضاة وسلم ، وموضع البيت ربوة حمراء ، فعمد بهما إلى موضع الحجر ؛ بسكون الجيم ، فأنزلهما فيه ، وأمرهما أن

يتخذا عريشاً ، ثم انصرف فتبعته هاجر ، فقالت : ألله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذاً لن يضيعنا ، فرجعت عنه ، فكان معها شن ماء ، فنفذ ، فعطشت ، وعطش ولدها ، فنظرت إلى الجبل ، فلم ترد داعياً ولا مجيباً ، فصعدت على الصفا فلم تر أحداً ، ثم هبطت وعينها من ولدها حتى نزلت الوادى ، فغابت عنه ، فهرولت حتى صعدت من الجانب الآخر ، فرأته ، واستمرت إلى أن صعدت المروة ، وترددت فلم تر أحداً ، وترددت [١] كذلك سبعاً ، فعادت إلى ولدها ، وقد نزل جبريل (عليه السلام) ، فضرب موضع زمزم بجناحه ، فنبع الماء ، فبادرت هاجر إليه ، وحبسته من السيلان كيلا يضيع الماء .

وفى لفظ النبوة : « لولا أنها عجلت لكان عيناً معيناً » ، فشربت وأرضعت ولدها .

وقال لها جبريل : لا تخافى الضيعة ؛ فإن هاهنا بيت الله عز وجل بنيته لهذا الغلام وأبيه [٢] ، وأن الله لا يضيع أهله .

قال الإمام أبو عبد الله ؛ محمد بن أحمد بن أبى بكر القرطبى [٣] فى تفسيره : « لا يجوز لأحد أن يتعلق بهذا فى جواز طرح ولده وعياله بأرض مضيعة اتكالاً على العزيز الرحيم ، واقتداءً بفعل إبراهيم الخليل (عليه السلام) فإنه فعل ذلك بأمر الله تعالى » .

وقد روى : أن سارة لما غارت من هاجر بعد أن ولدت إسماعيل خرج بها إبراهيم (عليه السلام) إلى مكة ، وأنزل ابنه وأمه هناك ، وركب منصرفاً فى يومه ، وكان ذلك كله بوحى من الله تعالى .

---

(١) فى (س) : وترددت .　　(٢) فى (س) : وأبوه .

(٣) القرطبى : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر فرج الأنصارى الخزرجى ، شمس الدين ، المالكى ، المتوفى سنة ٦٧١ هـ ، من تصانيفه : الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى ، الإعلام بما فى دين النصارى وإظهار محاسن دين الإسلام ، التذكار فى فضل الأذكار ، التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة ، جامع أحكام القرآن ، والمبين لما تضمنه من السنة وآى الفرقان، شرح التقصى ، قمع الحرص بالزهد والقناعة ، ورد ذل السؤال بالكتب والشفاعة ، وغير ذلك . هدية العارفين : ٦/ ١٢٩ .

ولماء زمزم من الشرف والخواص والمزايا العظام ما لا يوجد لغيره .

ففى المستدرك ، من حديث ابن عباس (رضى الله عنهما) ؛ مرفوعاً : «ماء زمزم لما شرب له » ورجاله موثوقون ، إلا أنه اختلف فى إرساله [١] ، ووصله [٢] ، وإرساله أصح ؛ كذا فى فتح البارى بشرح البخارى .

وروى الدارقطنى ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله (ﷺ) : «ماء زمزم لما شُرب له ، فإن شربته لشبعك أشبعك الله تعالى ، وإن شربته لقطع ظمإ قطعه ، وهى ظربة جبريل ، وسقيا الله إسماعيل » .

وعن عكرمة ، قال : كان ابن عباس إذا شرب ماء زمزم قال : « اللّهم إنى أسألك علماً نافعاً ، ورزقاً واسعاً ، وشفاءً من كل داء » .

وفى « صحيح البخارى » قال أبو ذر (رضى الله عنه) : « ما كان طعامى إلا ماء زمزم ، فنمت حتى تكسرت على بطنى ، وما أجد على كبدى سحقة جوع » .

وذكر : أنه أجزأ به ثلاثين ما بين يوم وليلة .

وفى صحيح مسلم من حديث أبى ذر : « أنه طعام طعم » .

زاد الطيالسى فى الوجه الذى أخرجه مسلم : « وشفاء سقم » .

قال القاضى أبو بكر بن العربى (رضى الله عنه) : « وهذا موجود فيه إلى يوم القيامة ؛ لمن صحت نيته ، وسلمت طويته ،ولم يكن مكف بأولاء فشربه مجرباً » .

قلت : ومن عجبت ما اطلعت عليه فى كتاب « وفاء الوفا من أخبار دار

---

(١) الإرسال : صورته التى لا خلاف فيها : حديث التابع الكبير الذى لقى جماعة من الصحابة وجالسهم ، إذا قال : قال رسول الله ﷺ ، والمشهور التسوية بين التابعين . مقدمة ابن الصلاح : ٢٠٣ .

(٢) الوصل ، ومطلقه يقع على المرفوع والموقوف ، وهو الذى اتصل إسناده إلى منتهاه ، مثل المتصل المرفوع ، والمتصل الموقوف . مقدمة ابن الصلاح : ١٩٢

المصطفى »[1] للسيد نور الدين على السمهودى الشافعى ؛ عالم المدينة فى عصره ، ومؤرخها ومحدثها، وقد أخذنا عمن أخذ منه، فنروى عنه بواسطة.

قال : « إن بالمدينة بئراً يعرف بـ : بئر زمزم ، لم يزل أهل المدينة ، قديماً، وحديثاً يتبركون بها ، ويشربون من مائها ، وينقل عنها ماؤها إلى الآفاق ، كما ينقل ماء زمزم ، ويسمونها : بئر زمزم ؛ لبركتها » . انتهى .

رجعنا إلى القضية : قالوا : ومرت رفقة من جرهم يريدون الشام ، فرأوا طيراً يحوم على جبل أبى قبيس، فقالوا: إن هذا الطير يحوم على ماء فتبعوه؛ فأشرفوا على بئر زمزم ، فقالوا لهاجر : إن شئت نزلنا معك ، وآنسناك والماء ماؤك نشرب منه ؛ فأذنت لهم فنزلوا معها وهم أول سكان مكة ، ونوفيت هاجر وقبرها فى الحجر ؛ بسكون الجيم ، وشب إسماعيل ، وتزوج من جرهم فتكلم بلسانهم فتعرب ؛ فيقال لبنى إسماعيل : العرب المتعربة ، ويقال لجرهم وقحطان : العرب العاربة والعرب العرباء ، فكان لسان إبراهيم عبرانياً ولسان إسماعيل عربياً ، ثم إن إبراهيم (عليه السلام) استأذن سارة أن يزورها هى وابنها ؛ فأذنت له ، واشترطت أن لا ينزل عندها ، فقدم إبراهيم مكة وقد ماتت هاجر ؛ فأتى إلى بيت إسماعيل (عليه السلام) ؛ يخرج من الحرم إلى الحل يتصيد ما يعيش به ، فقال لها : هل عندك ضيافة من الطعام والشراب ؟ قالت : ليس عندى شيء ، فقال لها : إذا جاء زوجك فاقرئيه منى السلام ، وقولى له : غير عتبة بابك ، وذهب إبرهيم عليه السلام ؛ فلما جاء إسماعيل عليه السلام ، قالت له : جاءنى شيخ صفته كذا ، أقرأك السلام ، وقال لك : غير عتبة بابك ، فقال لها : الحقى بأهلك ، وتزوج غيرها ، فملكت إبراهيم مدة .

---

(١) وفاء الوفا من أخبار دار المصطفى : لنور الدين على بن أحمد السمهودى ، أوله : «أما بعد ؛ حمداً لله على آلائه . . . » ، وفرغ منه فى ٢٤ جمادى الأولى سنة ٨٨٦ بالمدينة ، ثم رحل إلى مكة المكرمة ، فبلغه حريق المسجد النبوى فألحقه فى موضعه من الكتاب المذكور وبيضه بمكة المكرمة فى شوال سنة ٨٨٦ هـ ، ألحق به عمارة المسجد النبوى بعد الرجوع إليها فى سنة ٨٨٨ هـ ، ورتبه على ثمانية أبواب . كشف الظنون : ٢/٢٠١٦ ، ٢٠١٧ .

ثم استأذن سارة أن يزور إسماعيل ؛ فأذنت له ، واشترطت عليه بأن لا ينزل ، فجاء إبراهيم إلى مكة ، وقدم على منزل إسماعيل فوجده غائباً فى الصيد ؛ فقال لامرأته : أين صاحبك ، قالت : ذهب يتصيد ، ورحبت به ، وقالت له : اجلس رحمك الله ، وجاءته بلحم ولبن وماء ؛ فأكل وشرب ، وقالت له : يا عم هلم حتى أغسل رأسك وألم شعثك ، وجاءته بحجر وهو حجر المقام الذى بنى عليه الكعبة فيما بعد ، فجلس عليه ؛ فغاصت رجلاه فى الحجر فغسلت شقه الأيمن ثم الأيسر ، ثم أفاضت الماء على رأسه وبدنه إلى أن فزعت من تنظيفه ، فقام من عندها ، وتوجه من حيث جاء ، وقال لها : إذا جاء صاحبك فاقرئيه منى السلام ، وقولى له : قد استقامت عتبة بابك ، فألزمها ، فلما جاء إسماعيل وجد رائحة أبيه ، فقال لها : هل جاء أحد ، فقالت : نعم ، جاءنى شيخ من الشيوخ ، أحسن الناس وجهاً ، وأطيبهم ريحاً ؛ فاضفته ، وسقيته ، وغسلته ، وهذا موضع قدميه ، وحين توجه أقرأك السلام ، وقال لك كذا وكذا ؛ فقال : نعم ، أمرنى أن أثبت معك ، ونقل موضع قدم أبيه من الحجر وحفظه يتبرك به إلى أن بنى عليه فيما بعد إبراهيم (عليه السلام) الكعبة لما بناها هكذا فى قصص الأنبياء .

وروى فيها أيضاً عن عبد الله بن عُمر (رضى الله عنه) أنه قال : « أشهد بالله ثلاث مرات أنى سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : « الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة ، طمس الله نورهما ، ولولا أن طمس نورهما لأضاء ما بين المشرق والمغرب » ، ثم لما أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام ببناء بيته الشريف ؛ قدم إلى مكة وبناه كما قدمناه .

فلما فرغ من بناء بيت الله المحرم أمره أن يؤذن فى الناس بالحج ؛ فقال : يا رب ، وما عسى أن يبلغ مد صوتى ، فقال : عليك الآذان وعلىّ الإبلاغ ؛ فطلع على جبل ثبير ، ونادى يا عباد الله ؛ إن ربكم قد بنى لكم بيتاً ، وأمركم أن تحجوه فحجوه وأجيبوا داعى الله ، فأسمع الله سبحانه تبارك وتعالى عز وجل ، تعالى صوته جميع من فى الدنيا ، ومن سيولد ممن هو فى أصلاب الآباء وأرحام الأمهات إلى يوم القيامة ؛ فأجابه من سبق فى علم

الله تعالى أنه سيحج كل واحد ، ولبى كل واحد بعدد حجه فى أصلاب الآباء وأرحام الأمهات .

وأما أمر الله تعالى إبراهيم بذبح ولده إسماعيل (عليه السلام) قد اختلف العلماء فى أن المأمور بذبحه إسماعيل أو إسحاق ، فقال قوم : هو إسحاق ، وذهب إليه عمر بن الخطاب وعلىّ بن أبى طالب (رضى الله عنهم) ، وذهب عبد الله بن عمرو ، وابن المسيب ، والشعبى ، ومجاهد ، والحسن البصرى (رضى الله عنهم أجمعين) ؛ أنه إسماعيل ، وقال الإمام أبو زكريا النووى (رحمه الله تعالى) فى كتابه التهذيب [١] : « اختلف العلماء رحمهم الله فى الذبيح هل هو إسماعيل ، أو إسحاق ، فقال قوم : الأكثرون على إسماعيل (عليه السلام) ، وممن حج كون الذبيح إسماعيل عليه السلام الحافظ عماد الدين إسماعيل عليه السلام ، وممن حج بإسماعيل بن كثير (رحمه الله) قال : ترحمته ؛ وهو الصحيح ، وروى كعب الأحبار عن رجال قالوا : لما رأى إبراهيم فى المنام أنه يذبح ابنه ، ووتحقق أنه أمر ربه ، قال لابنه : يا بنى خذ الحبل والمدية ، وانطلق بنا هذا الشّعب لنحتطب لأهلنا ؛ فأخذ المدية والحبل ، وتبع والده ، فقال الشيطان : لئن لم أفتن عند هذا آل إبراهيم ، لا أفتن أحداً منهم أبداً ؛ فتمثل الشيطان رجلاً فأتى إلى أم الغلام، فقال لها : أتدرين أين ذهب إبراهيم بابنك ؟ قالت : ذهب ليحتطب لنا من هذا الشِّعب ، فقال لها الشيطان : لا والله ما ذهب به إلا ليذبحه ، قالت : كلا هو أشفق به ، وأشد حاً له ، فقال لها : أنه يزعم أن الله أمره بذلك ، قالت : فإن كان الله تعالى أمره بذلك فليطع أمره فخرج الشيطان من عندها

---

(١) كتاب التهذيب ، وهو كتاب : تهذيب الأسماء واللغات ، للإمام محيى الدين ؛ يحيى ابن شرف النووى ، المتوفى سنة ٦٧٦ هـ ، أوله : الحمد لله خالق المصنوعات ، جمع فيه الألفاظ الموجودة فى مختصر المزنى والمهذب والوسيط والتنبيه والوجيز والروضة ، وقال : إن هذه الست تجمع ما يحتاج إليه من اللغات ، وضم إلى ما فيها جملاء مما يحتاج إليه مما ليس فيهما من أسماء الرجال والملائكة والجن ليعم الانتفاع ، ورتب على قسمين ؛ الأول فى الأسماء ، والثانى فى اللغات . كشف الظنون : ١/ ٥١٤

حتى أدرك الابن ، وهو يمشى على إثر أبيه ، فقال له : يا غلام ، هل تدرى أين يذهب بك أبوك ؟ قال : نحتطب لأهلنا من هذا الشِّعب ، فقال له : والله ما يريد إلا ذبحك ، قال : لأى شيء ؟ قال : زعم أن الله تعالى أمره بذلك ، قال : فليفعل ما أمره الله تعالى سمعاً وطاعة لأمر الله تعالى .

فأقبل الشيطان إلى إبراهيم (عليه السلام) ، فقال له : أين تريد أيها الشيخ ؟ فقال : أريد هذا الشعب لحاجة لى فيه ، فقال : إنى أرى الشيطان خدعك بهذا المنام الذى رأيته ، إنه يريد ذبح ولدك وقطعة كبدك ؛ فتندم بعد ذلك حيث لا ينفعك الندم ، فعرفه إبراهيم ، فقال : إليك عنى يا معلون ، والله لأمضين لأمر ربى ، فنكص إبليس على عقبيه ، ورجع بخزيه وغيظه ، ولم ينل من إبراهيم شيء .

فلما خلا إبراهيم فى الشِّعب ، وقال : ذلك فى تبين ، فقال : يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك ؛ فانظر ماذا ترى ، قال : يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين (١) .

فحدثت : أن إسماعيل قال له عند ذلك : يا أبتاه ،ك إن أردت ذبحى فاشدد وثاقى ، لا يصدنك من دمى ، فينقص أجرى ، فإن الموت شديد ولا أود أن اصطرب عنده إذا وجدت مسه ، واستحد شفرتك حتى تجهز علىّ فتذبحنى ، فإذا أنت ضجعتنى لتذبحنى فاكفنى على وجهى ، ولا تضجعنى لشقى ؛ فإنى أخشى إن أنت نظرت إلى وجهى أن تدركك الرقة ؛ فيحول بينك وبين أمر ربك فىّ ، وإن رأيت أن ترد قميصى إلى أمى ؛ فإنه عسى أن يكون إسلالها فافعل ، فقال إبراهيم : نعم ، العون أنت يا بنى على أمر الله تعالى .

ويقال : إنه ربطه كما أمره بحبل فأوثقه ، ثم استحد شفرته ، ثم تله للجبين واتقى النظر إلى وجهه ، ثم أدخل الشفرة حلقه فقلبها جبريل (عليه السلام) فى يده ثم اجتذبها إليه ، ونودى : أن إبراهيم قد صدقت الرؤيا ؛

---

(١) الآية رقم ١٠٢ من سورة الصافات ، مكية .

فهذه ذبيحتك لابنك فداء فاذبحها دونه ، وآتاه بكبش من الجنة ، قيل : رعى قبل ذلك بأربعين خريفاً ، وقال الفاكهى : ذكر الكتاب وكثير من العلماء أن الكبش الذى فدى به إبراهيم (عليه السلام) كبش أملح أمرن أعين .

وقد روى بسنده عن ابن عباس (رضى الله عنهما) أنه هو القربان المتقبل من أحد بنى آدم ، فانظر (رحمك الله) إلى طاعة هذا الوالد ، أمر الله تعالى بذبح ابنه قرة عينه ، وقطعة كبده ، وإلى طاعة هذا الولد وانقياده كل ذلك راضياً مستسلماً باذلاً وجهه لله تعالى ، وانظر إلى هذه الوالدة الشفيقة الرحيمة ، وإطاعتها لأمر الله تعالى ، وإطاعة زوجها ، اللّهم صلّى وسلم عليهم أفضل صلواتك وسلامك وعلى سائر الأنبياء والمرسلين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وانفعنا ببركاتهم أجمعين ، وارزقنا التوفيق وحسن اليقين أمين .

قال الأزرقى : ثم ولد لإسماعيل ابن إبراهيم (عليهما السلام) من زوجته السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمى اثنى عشر رجلاً ، منهم ثابت بن إسماعيل ، وقيدار بن إسماعيل ، وقطور بن إسماعيل ، وكان عمر إسماعيل مائة وثلاثين عاماً ، ومات ودفن فى الحجر مع أمه ، ثم تولى البيت بعده ثابت بن إسماعيل ، ونشر الله العرب من نابت وقيدار فكثروا ونموا ، ثم توفى نابت ؛ فولى البيت بعده جده لأمه مضاض بن عمرو الجرهمى ، وضم بنى نابت بن إسماعيل ، وصار ملكاً عليهم وعلى جرهم ، ونزلوا بقعيقعان بأعلا مكة ، وكانوا أصحاب صلاح كثيرة ، ويتقعقع فيهم ، وصارت العمالقة وكانوا نازلين بأسفل مكة إلى رجل منهم ولوه ملكاً عليهم ، يقال له : السميدع ، ونزلوا بأجياد ، وكانوا أصحاب خيل وعز ، وكان الأمر بمكة لمضاض بن عمر دون السميدع ، إلى أن حدث بنيهما البغى ؛ فاقتتلوا ، فقتلوا السميدع ، وتمّ الأمر لمضاض بن عمرو .

وفى ذلك يقول :

ونحن قتلنا ســـيد الحى عنوة   فأصبح فينا وهو حيران موجع
وما كان يبغى أن يكون خلافنا   بها ملكاً حتى أتانا الســـميدع

فذاق وبالا حين حاول ملكنا وعالج منا غصة تتجرع

ونحن عمرنا البيت كنا ولاته ندافع عنه من أتانا وندفع

وما كان يبغى أن يلى ذاك غيرنا ولم يك حى بعدنا ثم يمنع

وكنا ملوكاً فى الدهور التى مضت ورثنا ملوكاً لا ترام فتوضع

ثم نشر الله أبناء إسماعيل وأخوالهم جرهم ، وكانت جرهم ولاة البيت لا ينازعهم بنو إسماعيل لخئولتهم وقرابتهم ، فلما ضاقت عليهم مكة انتشروا فى الآفاق ؛ فلا يأتون قوماً ، ولا ينزلون بلداً إلا أظهرهم الله عليهم بدينهم ، وهو يومئذ دين إبراهيم حتى ملؤا البلاد ، ونفوا عنها العمالقة ، وكانوا ولاة مكة ؛ فكانوا ضيعوا حرمة الحرم واستحلوها ، واستخفوا بها ؛ فأخرجهم الله من أرض الحرم .

قال : بم أن جرهماً استخفت بأمر البيت الحرام ، وارتكبوا الأمور العظام، وأحدثوا فيها ما لم يكن قبل ذلك ؛ فقام عليهم مضاض بن عمرو خطيباً ، فقال : يا قوم احذروا البغى فقد رأيتم من كان قبلكم من العماليق، كيف استخفوا بالبيت ، فلم يعظموه ، فسلطكم الله عليهم ؛ فأخرجتموهم ، فتفرقوا فى البلاد ، وتمزقوا كل ممزق ، فلا تستخفوا بحرم الله تعالى فيخرجكم منه ، فلم يطيعوه وولوهم بالغرور ، وقالوا : من يخرجنا ونحن أعز العرب وأكثر رجالاً وسلاحاً ؛ فقال لهم : إذا جاء أمر الله بطل ما تقولون ، فلما رأى مضاض بن عمرو ذلك عمد إلى غزالتين من ذهب كانتا فى الكعبة ، وما وجد فيها من الأموال التى كانت تهدى إلى الكعبة ، ودفنها فى بئر زمزم ، وكانت بئر زمزم قد نضب ماؤها ؛ فحفرها بالليل ، وأعمق الحفر ، ودفن فيها تلك الغزالتين والأموال ، وطم البئر ، وأعزل جرهم وأخذ منهم بنى إسماعيل ، وكانوا قد اعتزلوا عنهم حرب خزاعة [1] ؛ فأخرجت

---

(١) خزاعة : قبيلة من الأزد من القحطانية ، وهم : بنو عمرو بن ربيعة بن حارثة بن مزيقياء . قال أبو عبيد : عمرو هذا أبو خزاعة كلها ، ومنه تفرقت بطونها . نهاية الأرب : ٢٤٤ .

جرهماً من البلاد ، ووليت أمر مكة وصاروا أهلها فجاءهم بنو إسماعيل ، وسألوا الخزاعة السكن معهم ، فأذنوا لهم وسألهم فى ذلك مضاض بن عمرو الجرهمى ، وكان قد اعتزل أيضاً حرب جرهم وخزاعة ، ولم يدخل بينهم ، واستأذنهم أن يساكنهم ؛ فأبت خزاعة ، وقالوا : من قارب الحرم من جرهم فدمه هدر ، فنزلت إبل لمضاض بن عمرو ودخلت مكة ؛ فأخذتها خزاعة وصارت تنحرها وتأكلها ، فتبع مضاض أثرها فوجدها دخلت مكة ، فسلك الجبال حتى طلع على جبل أبى قبيس ، يتبصر لأهله من بطن وادى مكة ، فأبصر الإبل تنحر وتوكل ولا سبيل إليها ، ورأى إن هبط الوادى قتل ، فولى منصرفاً إلى أهله ، وأنشأ يقول :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصّفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر

ولم يتربع واسطاً فجنوبه ... إلى المنحنا من ذى الأراكة حاضر

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا ... صروف الليالى والجدود الغوائر

وأبدلنا عنها الأسا دار غربة ... بها الذيب يأوى والعدو محاصر

وكنا ولاة البيت من بعد نابت ... نطوف بهذا البيت والخير ظاهر

وكنا لإسماعيل صهراً وجيرة ... فأبناؤه منا ونحن الأصاهر

فأخرجنا منها المليك بقدرة ... كذاك يا للناس تجرى المقادر

وصرنا أحاديث وكنا بغبطة ... كذلك عضدتنا السنون الغوائر

وسحت دموع العين تبكى لبلدة ... بها حرم أمين وفيها المشاعر

بواد أنيس لا يصاد حمامة ... ولا ينفرن يوماً لديه العصافر

وفيها وحوش لا تراب أنيسة ... إذا خرجت منها فما أن تغادر

فيا ليت شعرى هل تعما بعدنا ... جبال وتقضى سيله والظواهر

وهل فرج يأتى بشىء تريده ... وهل جذع ينجيك مما تحاذر

وانطلق مضاض بن عمرو ومن معه إلى اليمن ، يحزنون على مفارقة مكة، وصارت خزاعة حجابة بيت الله الحرام ، وولاه أمر مكة ، وفيهم بنو إسماعيل لا ينازعوهم فى شىء ولا يطلبون إلى أن كثر شأن قصى بن كلاب بن مرة ، واستولى على حجابة البيت وأمر مكة ، وقالوا : قصى أول رجل من بنى كنانة أصاب ملكاً بمكة ، فكانت إليه الحجابة والرفادة والسقاية والندوة واللواء والقيادة ، وهو الذى جمع أمر قريش ، فسمى مجمعاً ؛ بكسر الميم المشددة ، وفى ذلك قول القائل :

أبوهم قصى كان يدعى مجـمعاً　　به جـــمع الله القبائل من فهـر

هموا ملكوا البطحاء مجداً وسؤدداً　　وهم طردوا عنها غزاة بنى عمرو

وقيل : سميت قريش قريشاً ، لتجمعهم على قصى ، والتقرش هو الاجتماع ، وما كان يسمى قبل ذلك قريشاً .

وقيل : إن النضر بن كنانة كان يسمى « قريشاً » ، واستمر بنو قصى كذلك إلى زمن ظهور النبى (ﷺ) .

وقد أطلنا الكلام فى هذا المقام ، وهو مع ذلك قطرة بحر فانتخبنا منه هذا المقدار لاشتماله على فنون من الاعتبار الخامس ، والسادس : بناء جرهم والعمالقة .

ذكر الأزرقى ذلك ، وذكر بسنده إلى سيدنا أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب (رضى الله عنه) أنه قال فى خبر بناء جرهم الكعبة : ثم انهدم ، فبنته العمالقة ، ثم انهدم ، فبنته قبيلة من جرهم . قال : وذكر الفاكهى بسنده إلى علىّ بن أبى طالب (رضى الله عنه) ، أنه قال : أول من بنى البيت إبراهيم (عليه السلام) ، ثم انهدم ؛ فبنته جرهم ، ثم انهدم فبنته العمالقة .

قال السيد التقى الفاسى (رحمه الله تعالى) : قلت : هذا يقتضى أن جرهماً بنت البيت الشريف قبل العمالقة ، والخبر الأول يقتضى أن العمالقة بنته قبل جرهم ، وبه جزم المحب الطبرى فى القرى ، وذكر المسعودى فى

مروج الذهب [١] : أن الذى بنى الكعبة من جرهم هو « الحارث بن مضاض الأصغر ، وأنه زاد فى بناء البيت ورفعه ، كما كان على بناء إبراهيم ، والله سبحانه أعلم بحقيقة الحال .

وذكر الأزرقى شيئاً من خبر العمالقة ، يقتضى سبقهم على جرهم ، فإنّه روى سنده إلى سيدنا عبد الله بن عباس (رضى الله عنهما) ، أنه قال : كان بمكة حى يقال لهم العماليق كانوا فى غزو ثروة ، وكانت لهم خيل وإبل وماشية تسعى حول مكة وما بينها ، وكانت العضا ملتفة والأرض مبقلة ، وكانوا فى عيش رخى ، فعاثوا فى الأرض وأسرفوا على أنفسهم ، وأظهروا المظالم والإلحاد ، وتركوا شكر الله ؛ فسلبوا نعمتهم ، وكانوا بمكة يكرون الظل ويبيعون الماء ؛ فأخرجهم الله تعالى من مكة ، بأن سلط عليهم النمل ، حتى خرجوا من الحرم ثم سقاهم بالجدب حتى ألحقهم الله تعالى بمساقط رؤوس آبائهم ببلاد اليمن ، فتفرقوا وهلكوا وأبدل الله تعالى بعدهم الحرم لجرهم ؛ فكانوا سكانه إلى أن بغوا فيه أيضاً فأهلكوا أجمعين . انتهى .

السابع - بناء قصى الكعبة الشريفة :

ذكر الزّبير بن بكار قاضى مكة فى كتاب النسب : أن قصى بن كلاب لما ولى أمر البيت ، جمع نفقته ، ثم هدم الكعبة فبناها بناء لم يبنه أحد ممن بناها قبله مثله .

وقال أبو عبد الله محمد بن عائذ الدمشقى فى مغازيه : أن قصى بن كلاب

---

(١) مروج الذهب ؛ هو كتاب : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، فى التاريخ ، لأبى الحسن على بن الحسين بن على المسعودى المتوفى سنة ٣٤٦ هـ ، أوله : الحمد لله أهل الحمد ، ومستوجب الثناء والمجد ، ذكر فيه : أنه صنف أولاً كتاباً كبيراً سماه أخبار الزمان ، ثم اختصره وسماه الأوسطى ، ثم أراد إجمال ما بسطه ، واختصار ما وسطه فى هذا الكتاب ، وقال : نودعه لمع ما فى ذينك الكتابين مما ضمناهما وغير ذلك من أنواع العلوم والأخبار الأمم. كشف الظنون : ١٦٥٨/٢ ، ١٦٥٩ .

بنى البيت الشريف ، وجزم الإمام الماوردى فى الأحكام السلطانية (١) ، فإنه قال فيها : « أول من حدد بناء الكعبة الشريفة من قريش بعد إبراهيم (عليه السلام) قصى بن كلاب ، وسقفها بخشب الدّوم وجريد النخل » . انتهى .

قال السيد التقى الفاسى فى « شفاء الغرام » ، وما رواه القاضى الزبير بن بكار : « أن قصياً بنى الكعبة على خمسة وعشرين ذراعاً ، ففيه نظر لما استشهر فى الأحكام أن إبراهيم الخليل (عليه السلام) بنى طول الكعبة تسعة أذرع ، وأن قريش لما بنت الكعبة زادت فى طولها تسعة أذرع ، وأن قصياً أراد أن يجعل عرضها خمسة وعشرين ذراعاً » .

فالمعروف أن عرضها من الجهة الشامية ، واليمانية ، فعرضها فى هاتيني الجهتين ينقص عن خمسة وعشرين ذراعاً ، ثلاثة أذرع أو أزيد .

وكل من بنى الكعبة بعد إبراهيم (عليه السلام) لم يبنها إلا على قواعد إبراهيم ،غير أن قريشاً اقتصرت من أرضها من جهة الحجر الشريف لأمر اقتضاه الحال ، وصنع ذلك الحجاج بعد عبد الله بن الزبير (رضى الله تعالى عنه) عناداً له والله أعلم .

وكان مبدؤ أمر قصى أن أباه كلاب بن مرة تزوج فاطمة بنت سعد بن سهل؛ فولدت له زهره وقصياً ؛ فهلك كلاب وقُصى صغير ، وهو بضم القاف وفتح الصاد المهملة تصغير قصى بفتح القاف وكسر الصاد ، بمعنى بعيد، واسمه زيد .

وإنما لقب قصياً لأنه بعد من أهله ووطنه مع أمه ، لما توفى أبوه تزوجت ربيعة بن حزام ، فدخل بها إلى الشام ، فولدت له رزاحاً ، فلما كبر قصى وقع بينه وبين آل ربيعة شر ؛ فعيروه بالغربة ، وقالوا له : ألا تلحق بقومك .

---

(١) الأحكام السلطانية : مجلد أوله : الحمد لله الذى أوضح لنا معالم الدين ، للشيخ الإمام بى الحسن على بن محمد الماوردى الشافعى ، المتوفى سنة ٤٥٠ هـ ، رتبه على عشرين باباً ، واختصره الشيخ جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى ، المتوفى سنة ٩١١هـ، والماوردى نسبة إلى بيع الماورد . كشف الظنون : ١/ ١٩ .

وكان لا يعرف أبا غير ربيعة بن حزام ، زوج أمه ؛ فشكى إليها ما عيروه به، فقالت له : يا ولدى أنت أكرم أبا منهم ، أنت ابن كلاب بن مرة ، وقومك بمكة عند البيت الحرام ، فقدم لمكة ، فعرف له قومه فضله وقدموه وأكرموه ، وكانت خزاعة مستولية على البيت وعلى مكة وكان كبيرهم « خليل ابن حبشية الخزاعى » بيده البيت الشريف ، وسدانته ، فخطب إلى خليل ابنته، فعرف خليل نسبه ؛ فزوجه ابنته حىّ ، فتزوجها قصى ،ك فكثرت أمواله وأولاده ، وعظم بشرفه ، وأوصى بمفتاح البيت الشريف لابنته حىّ ، فقالت: لا أقدر على السدانة فجعلت ذلك لأبى غبشان ، وكان يسكر يحب الخمر فأعوزه فى بعض الأوقات ما يشربه من الخمر ، فباع مفتاح البيت بزق خمر فاشتراه منه قصى ، وصار فى الأمثال أخسر صفقة من أبى غشان .

فلما صار المفتاح إلى قصى تناكرت خزاعة ، وكثر كلامها عليه ؛ فاجتمع على حربهم ، فحاربهم وأخرجهم من مكة ، وولى قصى أمر الكعبة ومكة ، وجمع فى قومه فملكوه على أنفسهم وكانوا يحترمون أن يسكنوا مكة ويعظمونها ، على أن يبنوا بها بيتاً مع بيت الله تعالى ، وكانوا يكمنون بها نهاراً ، فإذا مسوا خرجوا إلى الحل ، ولا يستحلون الجنابة بمكة ، فلما جمع قصى قومه إليه أذن لهم يبنوا بيوتاً بمكة مع بيت الله تعالى ، وأن يسكنوا ، وقال لهم : إنكم إن سكنتم حول الحرم هابتكم العرب ، ولم تستحل قتالكم ولا يستطيع أحد إخراجكم ؛ فقالوا له : أنت سيدنا ، ورأينا تابع لرأيك .

وجمعهم حول البيت ، وفى ذلك قال القائل :

أبوهم قصى كان يدعى مجمعاً ... به جمع الله القبائل من فهر

وأنتم بنو زيد ، وزيد أبوكم ... به زيدت البطحاء فخراً على فخر

وابتدأ هو فبنى دار الندوة ، والندوة فى اللغة « الاجتماع » ، وكانوا يجتمعون فيها للمشورة وغيرها من المهمات ، فلا تنكح امرأة ، ولا يتزوج رجل من قريش إلا فيها .

قال الأزرقى : « ولم يدخل من قريش ولا غيرهم إلا ابن أربعين سنة ، وكان ولد قصى يدخلها كلهم أجمعين » .

وقسم طوائف قريش، فبنو دورهم حول البيت الشريف من الجهات الأربع، وتركوا لطواف بيت الله تعالى مقداراً يقال له المفروش الآن حول البيت الشريف بالحجر المنحوت المسمى بالمطاف الشريف ، وشرعوا أبواب بيوتهم إلى نحو البيت ، وتركوا ما بين بيتين طريق ينفد منه إلى المطاف ، إلى أن زاد عمر (رضى الله تعالى عنه) فى المسجد الحرام ، وتبعه عثمان (رضى الله عنه) ، وتبعهما غيرهما ، على ما سيأتى تفصيله إن شاء الله تعالى .

وكان قصى أول ملك من بنى كعب بن لؤى أصاب ملكاً ؛ فأطاعه به قومه، وله كلمات ؛ حكم تؤثر عنه ، منها : من أكرم لئيماً أشركه فى لؤمه، ومن استحسن قبيحاً ترك إلى قبحه ، ومن لم تصلحه الكرامة أصلحه الهوان، ومن طلب فوق قدره استحق الحرمان .

وكان اجتمع لقصى ما لم يجتمع لغيره من المناصب ، وكان بيده الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء والقيادة .

فالحجابة : وهى سدانة البيت الشريف ، أى تولية مفتاح بيت الله تعالى .

والسقاية : هى إسقاء الحجيج كلهم الماء العذب ؛ وكان عزيزاً بمكة يجلب إليها من الخارج فيسقى الحجاج منه ، وينبذ لهم التمر والزبيب ؛ فيسقونه للحجاج ، وكانت وظيفة فيهم .

والرفادة : وذلك إطعام الطعام لسائر الحجاج ، تمد لهم الأسمطة فى أيام الحج .

وكانت السقاية والرفادة مستمرة إلى أيام الخلفاء ، ومن بعدهم من الملوك والسلاطين .

قال السيد التقى الفاسى (رحمه الله تعالى) : « الرفادة كانت فى أيام الجاهلية وصدر الإسلام ، واستمر ذلك إلى أيامنا ، وقال : وهو الطعام يصنع بأمر السلطان كل عام بمعنى للناس ، حتى ينقضى الحج ؛ قلت : وأما فى زماننا فلا يفعل شىء من ذلك ، ولا أدرى متى انقطع .

وأما الندوة : فقد تقدم بيانها .

وأما اللواء : فراية يلوونها على رمح ؛ فينصبونها علامة للعسكر إذا توجهوا إلى محاربة عدو ؛ فيجتمعون تحتها ويعاملون عندها .

والقيادة : إمارة الجيش إذا خرجوا إلى حرب ؛ وهذه كلها اجتمعت فى قصى .

فلما كبر سنه وضعف بدنه ، قسمها بين أولاده ، وكان عبد الدار أكبر أولاده ، وكان لعبد مناف شرف فى زمان أبيه ، فقال قصى لعبد الدار : لألحقنك يا بنى بالقوم وإن شرفوا عليك ، فأعطاه الحجابة وسلم إليه مفتاح البيت ، وقال : لا يدخل رجل منكم الكعبة حتى يكون أنت تفتحها له ، وأعطاه السقاية واللواء ، وقال : لا يشرب أحد إلا من سقايتك ، ولا يعقد لواء لقريش لحربها إلا أنت بيدك ، وجعل له الرفادة ، وقال : لا يأكل أحد من أهل الموسم طعام إلا طعامك ، فكانت الرفادة خرجاً تخرجه قريش من أموالها فى كل موسم فتدفعه إلى قصى فيصنع به طعاماً للحجاج ؛ فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد ، وكان قصى فرض ذلك على قريش حين جمعهم ، وقال لهم : يا معاشر قريش إنكم جيران الله ، وأهل حرمه وأهل بيته ، وإن الحجاج ضياف الله ، وزوار بيته ، وهم أحق الأضياف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحاج حتى يصدر عنكم .

فجعل قصى حكماً كان بيده من أمر قومه إلى عبد الدار ، وكان قصى لا يخالف ، ولا يرد عليه شيء صنعه ؛ لعظم شأنه ، ونفاذ سلطانه .

قال ابن إسحاق : « إن قصياً هلك فأقام على أمره بنوه ممن بعده ، ثم إن بنى عبد مناف ؛ هاشماً وعبد شمس والمطلب ونوفلاً أجمعوا على أن يأخذوا ما بيدى بنى عبد الدار من الحجابة واللواء والسقاية والرفادة ، ورأوا أنهم أولى بذلك منهم ، لشرفهم عليهم وفضلهم » .

وتفرقت قريش ، وكانت طائفة منهم يرون أن بنى عبد مناف أحق من بنى عبد الدار ، وطائفة يرون إبقاء بنى عبد الله على ما جعله قصى لأبيهم ، فأجمعوا على الحرب ، ثم اصطلحوا على أن تكون السقاية والرفادة لبنى عبد مناف .

وتحالفوا على ذلك فولى الرفادة والسقاية هاشم ، وكان عبد شمس سفاراً مقلاداً ، ولد ، وكان هاشم موسراً ، وهو أول من سن الرحلتين لقريش ؛ رحلة الشتاء ، ورحلة الصيف ، وهو أول من طعم الثريد بمكة ، واسمه عمرو ، وإنما سمى هاشماً لهشمه الخبز وثرده لقومه .

كما قال القائل :

عمر والذى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

سنت لديه الرحلتان كلاهما سفر الشتاء ورحلة الأصياف

ثم هلك هاشم بغزة من أرض الشام تاجراً ، فولى السقاية والرفادة بعد عمه المطلب ؛ فأقام لقومه ما كانت تقيمه آباؤه من قبله ، وشرف فى قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه ؛ فأحبه قومه ، وعظم خطره فيهم .

وكان أكبر أولاد الحارث لم يكن أول أمره غيره ، وبه كان يكنى ، فقال له عدى بن نوفل بن عبد مناف : يا عبد المطلب أتستطيل علينا وأنت فذٌ لا ولد لك ؟ فقال له عبد المطلب : أو بالقلة تعيرنى ؟ فوالله لئن أتانى الله عشرة من الولد لأنحرنّ أحدهم عند الكعبة .

فلما كمل له عشرة ، جمعهم ثم أخبرهم بنذره ، ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك فأطاعوه ، وقالوا له : أوف بنذرك ، وافعل ما شئت ، قال : ليأخذ كل واحد منكم قدحاً ، فيكتب فيه اسمه ، ثم ائتونى ، ففعلوا ، ودخلوا على هبل - وهو صنم كان يعبد فى جوف الكعبة - فقال عبد المطلب لصاحب القداح : اضرب على هؤلاء بقدحهم .

فأعطاه كل واحد قدحه ، وكان عبد الله بن عبد المطلب أصغرهمم سناً وأحبهم إلى والده ، ثم ضرب صاحب القداح ؛ فخرج السهم على عبد الله، فأخذه عبد المطلب بيده ، وأخذ الشفرة ، ثم أقبل به على إساف - وهو صنم كان على الصفا - ليذبحه عنده ، فجذب العباس عبد الله من تحت رجل أبيه حتى أثر فى وجهه شجة ولم تزل فى وجه عبد الله إلى أن مات ، فقامت قريش فى أنديتها ، وقالوا : لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتى بابنه يذبحه فما بقى الناس على هذا ؛ ولكن أعذر فيه فنفديه بأموالنا .

وكان بالحجاز عرافة كاهنة لها تابع من الجن ، فانطلقوا به حتى قدموا عليها ، وقصّ عليها عبد المطلب خبر نذره ، فقالت لهم : ارجعوا عنى اليوم حتى يأتينى تابعى « وساخ » ، فرجعوا من عندها ثم غدوا عليها ، فقالت لهم : كم الدية فيكم ؟ فقالوا : عشرة من الإبل ، فقالت : قربوا عن ولدكم عشرة من الإبل ، ثم اضربوا عليها وعلى ولدكم فإن خرجت على ولدكم ؛ فزيدوا عشرة أخرى ، واضربوا عليها وعلى ولدكم ، واستمروا كذلك إلى أن تخرج السهم عن الإبل فانحروها عنه ، فقد رضى ربكم ونجى ولدكم .

فخرجوا حتى قدموا مكة ، فقدموا عشرة من الإبل ، وضربوا القداح ، فخرج القداح على عبد الله فزادوا عشرة فخرج عبد الله واستمروا يزيدون عشرة فعشرة حتى بلغت الإبل مائة فخرج القدح على الإيل فأعادها ثانية ثم ثالثة ، فخرج القدح على الإبل ، فأتى فنحرت ثم تركت لا يمنع من شحومها آدمى ولا وحش ولا طير .

قال الزهيرى : وكان عبد المطلب أول من سن ديّة النفس مائة من الإبل ، فجرت فى قريش ، ثم فشا فى العرب ، فأقرها رسول الله (ﷺ) ، وشرف وكرم .

الثامن – بناء قريش الكعبة المشرفة :

قال خاتمة الحفاظ والمحدثين ، مولانا الشيخ « محمد الصالحى » (قد الله تعالى روحه) فى كتاب « سبل الهداية والرشاد فى سيرة خير العباد » [(١)] ؛ وهو أحسن كتاب للمتأخرين واسطة فى السيرة النبوية ، ولنا به إجازة عامة (رحمه الله تعالى) : إن امرأة جمرت الكعبة بالبخور ، فطارت شرارة من

---

(١) سبل الهداية والرشاد فى سيرة خيري العباد : فى كشف الظنون : سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد للشيخ محمد بن يوسف الدمشقى الصالحى ، وهو من أبسط كتب السير ، النبوية ، ذكر مؤلف هذا الكتاب الذى بين يدى القارئ أن كتاب سبل الهدى والرشاد منتخب من أكثر من ثلثمائة كتاب وآت من الفوائد بالعجب العجاب وقد زادت أبواه على سبعمائة باب. كشف الظنون : ٢/ ٩٧٨ .

مجمرها فى ثياب الكعبة فأحرقت أكثر أخشابها ، ودخل سيل عظيم وصدع جدرانها بعد توهينها ، فأرادوا أن يشيدوا بنيانها ويرفعوا بابها حتى لا يدخلها أحد إلا من قريش ، وإذا كان البحر قد رمى سفينة إلى ساحل جده لتاجر رومى اسمه « باقوم » بموحدة وقاف مضمومة ، وكان تجاراً بناءً ، فخرج الوليد ابن المغيرة فى نفر من قريش إلى جدة ، فابتاعوا منه خشب السفينة وكلموا باقوم الرومى أن يقدم معهم إلى مكة ، فقدموا إليها ، وأخذوا أخشاب السفينة ، وأعدوها لسقف الكعبة .

قال الأموى : « كانت هذه السفينة لقيصر ملك الروم ، يحمل فيها الخشب والرخام والحديد مع باقوم إلى السفينة التى أحرقها الذين بالحبشة ، فلما بلغت قريب مرسى جدة ، بعث الله عليها ريحاً فحطمها » . انتهى .

قلت : لا يعرف طريق بين بحر الروم والحبشة ، يمر فيها على جده إلا أن يكون ملك الروم طلب ذلك من ملك يهجزها له من بندر السويس أو الطور أو نحو ذلك .

قال ابن إسحاق : « وكان بمكة قبطى يعرف نجر الخشب وتسويته ، فوافقهم أن يعمل لهم سقف الكعبة ، ويساعده باقوم ، قال : وكانت حية عظيمة تخرج من بئر الكعبة - التى يطرح فيها ما يهدى إلى الكعبة - تشرف على جدار الكعبة ، لا يدنو منها أحد إلا كشت وفتحت فاهاً ، وكانوا يهابونها ويزعمون أنها تحفظ الكعبة وهداياها ، وأن رأسها كرأس الجدى ، وظهرها وبطنها أسود ، وأنها أقامت فيها خمسمائة سنة » .

وقال ابن عتبة : « فبعث الله تعالى طائراً فاختطفها ، وذهب بها ، قالت قريش : نرجوا أن يكون الله تعالى رضى لنا بما أردنا فعله ؛ فأجمع رأيهم على هدمها وبنائها » .

قال ابن هشام : « فتقدم عائذ بن عمران بن مخزوم ، وهو خال أبى النبى (ﷺ) ، فتناول حجراً من الكعبة ، فوثب من يده حتى رجع إلى مكانه ،

فقال : يا معاشر قريش لا تدخلوا من مالكم فى ثبيانها إلا حلالاً طيباً ليس فيه مهر بغى ولا ربا ولا مظلمة ، ثم إن قريشاً اقتسمت جوانب البيت فكان شق البيت لبنى زهرة (١) ، وبنى عبد مناف (٢) ، وما بين الركن الأسود والركن اليمانى لبنى مخزوم (٣) ، ومن انضم إليهم من قريش ، وكان ظهر الكعبة لبنى جمح (٤) وبنى سهم (٥) ، وكان شق الحجر لبنى عبد الدار (٦)،

---

(١) بنو زهرة : بطن من مرة بن كلاب ؛ من قريش ؛ من العدنانية ، وهم : بنو زهرة بن كلاب بن مرة ، منهم : سعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف من العشرة المقطوع لهم بالجنة ، ومنهم : آمنة بنت وهب أم رسول الله (ﷺ) . انظر : نهايةي الأرب فى معرفة أنساب العرب ص ٢٧٥ .

(٢) بنو عبد مناف : بطن من قريش ؛ من العدنانية ، وهم : بنو عبد مناف بن قصى ، وأمه : حبى بنت خليل . نهاية الأرب : ٣٤٢ .

(٣) بنو مخزوم : بطن من لؤى بن غالب ؛ من قريش ، وكان لمخزوم من الولد : عمرو، وعامر ، وعمران . منهم : خالد بن الوليد (رضى الله عنه) ، ومنهم : أبو جهل ؛ عدو رسول الله ، وأخوه العاص قتلا كافرين ببدر ، وأخوهما سلمة بن هشام أسلم فكان من خيار المسلمين ، ومنهم : سعيد بن المسيب التابعى المشهور . نهاية الأرب : ٤١٦ .

(٤) بنو جمح : بطن من هصيص ؛ من قريش ؛ من العدنانية ، وهم : بنو جمح بن عمرو بن هصيص ، كان له من الولد : حذافة ، وسعد . من بنى سعد بن جمح : أبو محذورة ؛ مؤذن رسول الله (ﷺ) ، وأخوه أبى بن خلف عدو رسول الله (ﷺ) ، وكلده ابن خلف بن حذافة بن جمح . نهاية الأرب : ٢١٨ .

(٥) بنو سهم : بطن من هصيص ، من قريش ، من العدنانية ، وهم : بنو عمرو بن هصيص ، كان له من الولد : سعد ، وسعيد ، فمن بنى سعيد بن سهم : قيس بن عدى بن سهم ، وابنه الحارث بن قيس من المستهزئين برسول الله (ﷺ) ، ومنهم عبد الله بن الزبعرى الشاعر . ومن بنى سعد بن سهم : عمرو بن العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سهم . نهاية الأرب : ٢٩٨ .

(٦) بنو عبد الدار : بطن من قصى بن كلاب ؛ من العدنانية ، وكان لعبد الدار من الولد: عثمان ، وعبد مناف ، والسباق . منهم : عثمان بن طلحة بن أبى طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار ، وهو الذى أخذ منه النبى (ﷺ) مفتاح الكعبة يوم الفتح . نهاية الأرب: ٣٣٦ .

وبنى أسد بن عبد العزى [(١)] ، وبنى عدى بن كعب [(٢)] ، وجمعوا الحجارة، وكان رسول الله (ﷺ) ينقل معهم حتى إذا انتهى الهدم إلى الأساس ، فأفضوا إلى حجارة خضر كالأسنمة ، فضربوا عليها بالمعول ، فخرج برق كاد أن يخطف البصر ، فانتهوا عند ذلك الأساس ، ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن ، فاختصم فيه القبائل ، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه ، وكادوا أن يقتتلوا على ذلك ، فقال لهم أبو أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، وكان شريفاً مطاعاً : اجعلوا الحكم بينكم سواءً فيما اختلفتم فيه ، أول من يدخل من باب الصفا ؛ فقبلوا ذلك منه ، وكان أول داخل من ذلك رسول الله (ﷺ) ، فلما رأوه قالوا : هذا محمد الأمين ، وكان يسمى قبل أن يوحى إليه أميناً ؛ لأمانته وصدقه ، فقالوا جميعاً : رضينا بحكمه ، ثم قصوا عليه قصتهم فقال عليه الصلاة والسلام : هلمّ إليّ ثوباً ، فأتى به ، فأخذ الركن ؛ فوضعه بيده ، ثم قال : ليأخذ كبير كل قبيلة بطرف من هذا الثوب ، فحملوه جميعاً ، وأتوا به ، ورفعوه إلى ما يحازى موضعه؛ فتناوله رسول الله (ﷺ) من الثوب، ووضعه بيده الشريفة في محله.

وذلك يقول هبيرة بن وهب المخزومى :

تشاجرت الأحياء فى فضل حطه   جرت طيرهم بالنحر من بعد أسعد
تلاقوا بها بالبغض بعد مـودة   وأوقد ناراً بينهم شـر موقـد
فلما رأينا الأمر قد جـد جـده   ولم يبق شيئاً غير سـهل المهند

---

(١) بنو أسد بن عبد العزى : يبدو أنهم أحد بطون بنى أسد بن قصى بن كلاب الذين منهم : الزبير بن العوام ، وحكيم بن حزام بن خويلد بن أسد ، وهو ابن عم الزبير بن العوام ، ومنهم أيضاً : خديجة بنت خويلد زوجة النبى (ﷺ) ، وورقة ن نوفل كذلك من بنى أسد . نهاية الأرب : ٣٨ .

(٢) بنو عدى بن كعب : بطن من لؤى بن غالب ؛ من العدنانية ، وهم : بنو عدى بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ، وكان لكعب من الولد : رزاح ، وعويج ، فمن بنى رزاح : أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) ، ومن بنى عويج : نعيم بن عبد الله ، المعروف بالنحام ؛ بفتح النون وتشديد الحاء . نهاية الأرب : ٣٥٨ .

رضـــينا وقلنا العدل أول طـالع
يجيئ من البطحاء من غير موعد

فقـد جـاءنا هذا الأمين محـــمد
فقلنا رضـــينا بالأمين محـــمد

بخـــير قريش كلها أمسى نســمة
وفى اليوم مهما يحدث الله فى غد

فجـــاء بأمر لم ير الناس مثـــله
أعم وأرضـــى فى العواقد واليد

أخـــذنا بأطـــراف الرداء وكلنا
له حصـــة من رفعه قبضـة اليد

فقال ارفعوا حتى إذا ما علت بـه
أكـفهم وافى به خـير مســند

وكـل رضـــينا فعله وصـــنيعه
فأعظـــم به من رأى هادٍ ومهتدِ

وتلك يـد منـه علينا عظـــيمة
نروح بها هـذا الزمان ونقـــتدى

ولما بنت قريش الكعبة جعلت ارتفاعها من خارجها ثمانية عشر ذراعاً ، منها تسعة أذرع زائدة على ما عمره الخليل (عليه السلام) ، ونقصوا من عرضها أذرعاً من جهة الحجر لقصر النفقة الحلال التى أعدوها لعمارة الكعبة، ورفعوا بابها عن الأرض ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا ، جعلوا فى داخلها ست دعائم فى صفين ، ثلاث فى صف من شق الحجر إلى الشق اليمانى ، وجعلوا فى ركنها الشامى من داخلها درجة ، يصعد منها إلى سطح الكعبة .

● **تنبيه :**

اختلف فى سن رسول الله (ﷺ) حين بنت قريش الكعبة ؛ فقيل : كان ابن خمس وثلاثين سنة ، وهو أشهر الأقوال .

وروى عن مجاهد أن ذلك قبل البعث بخمسة عشر عاماً ، والذى جزم به ابن إسحاق أنه كان قبل البعث بخمس سنين ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

التاسع - بناء سيدنا عبد الله بن الزبير الكعبة الشريفة فى زمن الإسلام :

وسيأتى تفصيل ذلك ، وما وقع له فى الباب الثالث فى بيان ما كان عليه وضع المسجد الحرام فى الجاهلية وصدر الإسلام إن شاء الله تعالى .

العاشر - بناء الحجاج بن يوسيف الثقفى بعد بناء سيدنا عبد الله بن الزبير (رضى الله تعالى عنه) :

وسيأتى بيانه عقيب ذكر بناء عبد الله بن الزبير الكعبة إن شاء الله تعالى ، وبناء الحجاج هو جهة الميزاب والحجر (بسكون الجيم) ، ونقله جوف الكعبة، ورفع الباب الشريف الذى لصق الملتزم وسد الباب الغربى الذى يلصق المستجاز لا غير ، وما عدا ذلك فى الجهات ، وهو وجه الكعبة الشريفة وجهة ظاهرها ، وما بين الركن اليمانى والحجر الأسود .

فهو بناء عد الله بن الزبير إلى الآن ، كما سنذكره في زيادة عبد الله بن الزبير فى المسجد الحرام ، وهو الكعبة ، وبناءها على قواعد إبراهيم (عليه السلام) .

★ ★ ★

(فصل فى تحلية الكعبة الشريفة : وبابها الشريف بالذهب والفضة وقناديلها الشريفة)

قال أبو الوليد الأزرقى (رحمه الله تعالى) : « أول من حلى الكعبة الشريفة فى الجاهلية عبد المطلب جد النبى (ﷺ) بالغزالتين اللتين وجدا فى بئري زمزم حين حفرها » ، ثم قال : « وأول من ذهّب البيت فى الإسلام عبد الملك بن مروان » ، وقال المسجى ما يقتضى خلاف ذلك . فقال : « أول من حلى البيت عبد الله بن الزبير ، جعل على الكعبة وأساطينها صفائح الذهب ، وجعل مفاتيحها من الذهب » .

وذكر الفاكهى : « أن الوليد بن عبد الملك بعث إلى واليه على مكة خالد ابن عبد الله القسرى بستة وثلاثين ألف دينار ، يضرب منها على باب الكعبة صفائحي الذهب ، وعلى ميزاب الكعبة ، وعلى الأساطين التى فى جوف الكعبة ، وعلى أركانها من داخل » .

وذكر الأزرقى : « أن الأمين بن هارون الرشيد ، أرسل إلى عامله على

مكة سالم بن الحجاج بثمانية عشر ألف دينار ؛ ليضرب بها صفائح الذهب على باب الكعبة ، فقلع على ما كان على الباب من الصفائح ، وزاد عليها الثمانية عشر ألف دينار ، فضربها صفائح ، وزاد عليها ثمانية عشر ألف دينار فضربها صفائح استمرت على الباب ، وجعل مساميرها وحلقة الباب وأعتابه من الذهب .

وذكر أيضاً : أن حجبة الكعبة أرسلوا إلى المتوكل العباسى يذكرون له أن زاويتين من زوايا الكعبة من داخلها تصفح بالذهب ، وزاويتين تصفح بالفضة، والأحسن أن تكون كلها ذهباً .

فأرسل المتوكل إلى إسحاق بن سلمة الصائغ بذهب ، وأمره بعمل ذلك ؛ فكسر إسحاق تلك الزاويات ، وأعادها من الذهب وعمل منطقة من فضة ركبها فوق إزار الكعبة داخلها ، عرضها ثلاثة أذرع ، وجعل لها طوقاً من الذهب مفصلاً بهذه المنطقة .

قال : وكان أسفل الباب عتبة من خشب ساج ، قد دثرت وتآكلت فأبدلها بخشب آخر ، ألبسه صفائح من فضة .

قال إسحاق الصائغ : فكان مجموع الزوايا وطوق الذهب ثمانية آلاف مثقال ، ومنطقة الفضة ، وما عمل على الباب من فضة ، وما حلى به المقام من الفضة سبعين ألف درهم .

وذكر السيد القاضى تقى الدين الفاسى (رحمه الله تعالى) : ما وقع بعد الأزرقى فى تحلية البيت فقال : « من ذلك أن الحجبة كتبوا إلى المعتضد العباسى أن بعض ولاة مكة ، قلع أيام الفتنة عضادتى باب الكعبة وغيّرها وسكها دنانير وأسرفها على دفع الفتنة ، فأمر المعتضد بإعادة ذلك جميعه ، فأعيدت كما أشار به » . قال : « ومن ذلك أن أم المقتدر الخليفة العباسى أمرت غلامها لؤلؤ أن يلبس جميع أسطوانات البيت ذهباً ، ففعل ذلك فى سنة ٣١ هـ » .

قال : « ومن ذلك أن الوزير جمال الدين محمد بن على بن منصور

المعروف بالجواد ، وزير صاحب مصر ، أنقذ فى سنة ١٢٩ هـ صاحبه إلى مكة ومعه خمسة آلاف دينار ليعمل بها صفائح الذهب والفضة وأركان الكعبة من داخلها . قال : وممن حلاها الملك المظفر العباسى صاحب اليمن أيضاً ، ثم إن الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى ، صاحب مصر حلى باب الكعبة الذى يعمله لها بخمسة وثلاثين ألف درهم ، أن حفيده الملك الأشرف شعبان حلى باب الكعبة فى سنة ٧٧ هـ » . انتهى ما ذكره التقى الفاسى (رحمه الله) .

وقلت : وقد أدركنا الباب الشريف مصفحاً بالفضة ، وكان يختلس من فضته أوقات الغفلة من قل دينه ، وخفت يده ، إلى أن انكشف سفل الباب الشريف عن خشبة الباب ، ومسك مراراً من يفعل ذلك وحبسه ، وبهذله فعرض ذلك على الأبواب الشريفة السلطانية فى أيام المرحوم المقدس سليمان خان ، أسكنه الله تعالى فسيح الجنات فى سنة ٩٧١ هـ .

فبرز الأمر الشريف السلطانى بتصفيح الباب الشريف بالفضة إلى ناظر الحرم الشريف المقيم بمكة فى منصب نظارة الحرم الشريف المقيم بمكة يومئذ وهو من فضلاء كتبة مصر أحمد حلبى المقاطع جى صهر المرحوم محمد بن سليمان دفتردار مصر إذ ذاك (رحمه الله تعالى) .

كان له شعرٌ لطيف بالتركى ، وترجم باللسان العربى الزكى فى كتاب «روضة الشهداء» [١] لمولانا جامى ، زاده وضمنه من لطائف النظم والنثر ما يستحسنه الطبع ، ومن محاسن السجع ما يخف على السمع ، وهو كتاب مقبول متداول بين اللطافة ، وكان وصوله إلى مكة فى افتتاح سنة ٩٥٨ هـ ، وكان فى البيت الشريف خشبة من أخشاب سقفه المنيف انكسرت ، وصار الماء ينزل من موضع الكسر إلى جوف البيت المعظم ، وكان قاضى مصر يومئذ قدوة الموالى العظام ، مولانا حامد أفندى ، وهو الآن مفتى ممالك الإسلام

---

(١) روضة الشهداء : فارسى ، لحسين بن على الكاشفى المعروف بالواعظ البيهقى المتوفى سنة ٩١٠ هـ ، وترجمه الفضولى محمد بن سليمان البغدادى (المتوفى سنة ٩٧٠ هـ) ، وسماه حديقة السعداء . كشف الظنون : ١/ ٩٢٦ .

بالباب العالى ، أطال الله عمره المديد ، وأدام بقاءه السعيد ، قد حج إلى بيت الله الحرام ، وقاضى مكة يومئذ المرحوم مولانا محمد بن محمود المعروف بخواجة أفندى ، أسكنهما الله فسيحي الجنان وصف تربتهما بالروح والريحان ؛ فأطلعا على هذا الاختلال وعرض على أبواب الشريف السلطانية .

فلما وصل العرض إلى المرحوم المقدس المغفور له الأقدس سليمان خان بوأه الله عرف الجنان ، أرسل إلى مفتى الإسلام سلطان العلماء العظام مولانا أبى السعود أفندى المفتى الأعظم قدس الله روحه وكرم يستفتيه عن حكم الله تعالى فى المسألة جواز وعدم جواز .

فكتب إليه بجواز ذلك إن دعت الضرورة إليه ؛ فأرسل بجواز المفتى الأعظم إلى صاحب مصر يومئذ الوزير الأعظم على باشا المرحوم ؛ فأرسل الوزير المذكور إلى ناظر الحرم المشار إليه وقاضى مكة يومئذ مع مرسوم سلطانى مضمونه العمل بمقتضى الفتوى ؛ فجمع أحمد جلبى مؤن العمارة والأخشاب اللائقة بهذا العمل .

وكان كاتبه صولو مصطفى جلبى ومعماره مصطفى المعمار ، وقبل الشروع فى العمل اقتضى رأيهم مشاورة العلماء فى ذلك ؛ فجلس مولانا أفندى محمد بن محمود بن كمال بعد صلاة الجمعة لأربعة عشر ليلة ، خلت من شهر ربيع الأول سنة ٩٥٩ هـ فى الحرم الشريف واستحضر مفتى العلماء الشافعية المرحوم مولانا الشيخ : شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمى ، ومولانا الشيخ نور الدين على بن إبراهيم العسيلى ، ومولانا القاضى يحيى ابن طهيرة ، ومؤلف هذا الكتاب ، وتفاوضوا فى هذه المسألة ، فذكر مصطفى المعمار ، أنه شاهد عودين من أعواد سقف الكعة مكسورين ،ك نزلا على محاذاة بقية أخشاب السقف الشريف ، من وسطهما اثنى عشر قيراطاً .

وذكر أن عوداً ثالثاً أرخى بهما لنحو الباب الشريف ، ونزلا أيضاً تسعة أصابع عن محاذاة أعواد السقف الصحيحة هبوطاً إلى أسفل ، وأنه يحتمل أن يكون مكسوراً ، ويحتمل أن يكون صحيحياً ، ولكنه أعوج باعوجاج ما إلى

جانبه من العود المكسور وشهد معه المعلم أحمد الحميماتى المصرى وغيره . وذكروا أنه إن لم يتدارك تغير الخشب المذكور بخشب صحيح ، فالغالب من أمثال ذلك أن يسقط إلى أسفل ، وتتزعزع الجدران لسقوطه ، ويغلب فى الظن اختلال فى جانب السطح يؤدى إلى سقوط السطح جميعه ، وتشقق الجدران وسقوطها ؛ فأنفقت آراء الحاضرين على الإقدام على تعمير السطح ، وتبديل تلك الأعواد .

وعينوا أن يشرعوا حج يوم السبت منتصف شهر ربيع الأول سنة ٩٥٩ هـ ، فتصعبت طائفة حركهم الهوى والغرض بمخالفة ما رأيناه صواباً وحركوا طائفة من العلماء إلى الخلاف ، وزعموا : أن من تعظيم البيت الشريف لا يتعرض له بترميم ولا إصلاح ، وأن قيام الكعبة الشريفة هذه المدة المديدة والرياح تنسفها من الجوانب الأربع ، ولا يشرفها ولا يضرها ؛ ذلك دليل على أن قيامها ليس بقوة البناء ، بل بقدرة الله تعالى ، وأنه لا يجوز تغيير أخشابها إلا إذا سقطت بنفسها ، وغير ذلك من التمويهات والتهويلات التى تنبو عن مسامع العقلاء ، وهوّلوا الأمر على هؤلاء الناس بإغرائهم .

وحاول أن يقوم لذلك فتنة من العوام ، وكتب مولانا الشيخ شهاب الدين أحمد بن حجر تأليفاً واسعاً بالرد على أولئك المعاندين ، واستند إلى نقول كثيرة ، وصمم على الجواز ، وجاءنى رحمه الله تعالى يحرضنى على الثبات على ما صدر منى من القول بالجواز .

ونقل لى عن المحب الطبرى فى كتابه استقصاء البيان فى مسألة الشاذروان بعد ذكر حديث عائشة (رضى الله عنها) فى هدم الكعبة ما نصه : «ومدلول هذا الحديث تصريحاً وهو أنه كما يجوز التغيير فى الكعبة لمصلحة ضرورية وحاجة مستحسنة » . انتهى .

ولما بلغ سيدنا ومولانا المقام الشريف العالى السيد الشريف شهاب الدين أحمد بن أبى نمر صاحب مكة إذ ذاك ، تغمده الله برحمته ورضوانه وأسكنه فسيح جنانه ، وحضر بنفسه فى البر إلى مكة المشرفة ، وسيدنا سلطان العلماء لإعلام شيخ الإسلام شمس الملة والدين الشيخ محمد بن مولانا الشيخ أبى

الحسن البكرى ، نفع الله به وبأسلافه الكرام ، وشيد به إذار شريعة سيد الأنام (عليه أفضل الصلاة والسلام) ، ومولانا شيخ الإسلام قاضى القضاة ومرجع أهل بلد الله الحرام القاضى تاج الدين عبد الوهاب بن يعقوب المالكى طيب الله ثراه ، وجعل الفردوس أعلى مأواه ، وناظر الحرم الشريف المكى يومئذ أحمد جلبى المذكور ؛ فحضروا جميعاً تجاه البيت الشريف عند مقام إبراهيم (عليه السلام) .

وأُشير إلى سيدنا ومولانا الشيخ محمد البكرى أن يلقى درساً يتكلم فيه على قوله تعالى : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ [١] فتكلم على جارى عادته بلسان طلق فصيح ولفظ منتظم مليح ، أقهر به الحاضرين ، وأدهش به الناظرين ، وأفاد وأجاد وقلد نفائس الدر الأجياد .

فلما انقضى الدرس أخرج الناظر فتوى المفتى للناس ، قرأها مولانا الشيخ الأعظم الشيخ محمد البكرى ، فقال : ومن يخالف هذا من الناس ؟! هذا هو عين الصواب ، ومحض الحق .

فأمر مولانا السيد الشريف الشيخ أحمد العمار بالشروع فى العمل ؛ فشرعوا وسكنت الفتنة ولله الحمد .

وكل ذلك كان تدبير المرحوم القاضى تاج الدين المالكى (رحمه الله) ، وكان له عقل مجسماً ورأى صواب محضاً ، وله فضل تام وفكر صائب تمام، توفى إلى رحمة الله تعالى فى سنة ٩٩ هـ .

ولما كشف عن تلك الأعواد التى فى السقف الشريف وجدها مكسورة ؛ كما ظنوا ، فأبدلها بأعواد جيدة فى غاية الأحكام والاستقامة ، وأعادوا السقف والسطح كما كان بغاية الإتقان .

ويسطر ذلك فى صحائف مولانا المرحوم السلطان سليمان (عليه الرحمة

---

(١) الآية رقم ١٢٧ من سورة البقرة ، مدنية .

والرضوان) ، ثم بعد الفراغ طلبوا منا شيئاً يمكن كتابته ؛ فكتب لهم كتاباً يتضمن التاريخ ، وهو : والحمد لله الذى عمرا الكعبة الشريفة بالشريعة المحمدية ، فغدت وهى البيت المعمور حساً ومعنى .

وشيد قواعد ملك من جدد سقفها تشيد : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ربنا تقبل منا ﴾ [(١)] ، وأصلح الوجود بوجود من وجد فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه [(٢)] وخصّه بكنز : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ [(٣)] ، فكان له بذلك عظمة وكرامة ، وإنا له الحظ الأوفر من ملك سميه نبى الله سيدنا سليمان ، بن السلطان سليم خان الخالد عزه من ملوك بنى عثمان خادم الحرمين الشريفين الخافقة ألوية نصره ورايات ظفره فى الخافقين .

فلقد جدد سقف الكعبة المعظمة ، حفظ الله دولتها حفظ البيت المعمور والسقف المرفوع وأصلح أرضها المقدسة ، وجدارها ، المتخذة قبلة للسجود والركوع ، وغرد خير تاريخ تجديد عمارته على غصون حساب الجد ، فكان مجدد سطح بيت الله مالك الدولة السلطان سليم ملكه الله دول الأرض السلطانية ومن عليها ، وجعل باب سعادته قبلة تسجد جباة المطالب إليها .

ثم لما فرغ من تجديد سطح البيت الشريف ، وما يتعلق به شرع فى تسوية فرش المطاف الشريف ، فإن أحجاره انفصلت ، وصار بين كل حجر حفر ، وكانت تلك الحفر تسد تارة بالنوّرة وتدلك ، وتارة بالرصاص وتسمر بمسامير الحديد ، فأزال ما بين الأحجار من الحفر وتحت طرف الحجر إلى أن ألصقه بطرف الحجر الآخر من جوانبه الأربع .

واستمر فى فرش المطاف الشريف على هذا الأسلوب إلى أن فرغ من ذلك، وأصلح أبواب المسجد الشريف بالفضة وفرش المسجد جميعه بالجص ،

---

(١) الآية رقم ١٢٧ من سورة البقرة ، مدنية .

(٢) الآية رقم ٧٧ من سورة الكهف ، مكية .

(٣) الآية رقم ١٨ من سورة التوبة ، مدنية .

ثم ورد حكم السلطان بتصفيح الباب الشريف بالفضة ، وأخرجوا جميع فضة الباب ، وزادوا عليها فضة ، وجعلت صفائح ، وصفح منها باب الكعبة الشريفة وسمرت الصفائح بمسامير الفضة ، وأُعيدت الحلقات الأربع على الباب الشريف ، وأصلح الميزاب الشريف وصفح بالفضة المموهة بالذهب ، إلى أن غير بعد ذلك وعمل الميزاب والباب السلطانى مصفحاً بالذهب ؛ وأرسل إلى هنا ، فوضع موضع الميزاب الذى كان فى الكعبة ، وجهز إلى الباب الخاقان ؛ فوصل ووضع فى الخزينة العامرية .

وأما عمارة المطاف الشريف فوقع فى سنة ٩٨١ هـ ، وكنت قد أمرت بتاريخ يكتب على بعض مواضع المطاف ؛ فكتب : « بسم الله الرحمن الرحيم » : ﴿ « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ﴾ (١) .

تقرب إلى الله تعالى بتجديد فرش أحجار المطاف وتسويتها تحت أقدام الطائفين فى الطواف ، وتحلية الباب الشريف والميزاب المعظم المنيف خليفة الله الأعظم سلطان الروم والعرب ، والعجم من اصطفاه الله تعاللى فى أرضه واجتباه لترميم بيته الحرام ، واختاره وارتضاه لخدمة الركن والمقام السلطان بن السلطان الملك المظفر أبو الفتوحات والنصر سليمان خان تقبل الله منه صالح الأعمال ، وبلغه ما يؤمله من السعادة والإقبال ، ولما تم غرد بالتاريخ طير الهنا ، عمر الله قبلتنا .

★ ★ ★

(فصل فى ذكر معاليق الكعبة المعظمة وكسوتها)

أما المعاليق فقد ذكر المسعودى رحمه الله تعالى فى « مروج الذهب » : «كانت الفرس تهدى إلى الكعبة أموالاً وجواهر فى الزمان الأول ساسان ابن تابك أهدى غزالتين من ذهب وجواهر وسيوفاً وذهباً كثيراً إلى الكعبة » .

---

(١) الآية رقم ٩٧ من سورة آل عمران ، مدنية .

وقال الشريف التقى الفاسى فى « شفاء الغرام » : يقال : إن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة القرشى ، أول من علق فى الكعبة السيوف المحلاة بالذهب والفضة وصيره للكعبة .

منها : أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) ، لما افتتح مدائن كسرى كان مما أهدى إليه هلالان ، فبعث بها ، فعلقها بالكعبة ، وبعث السفاح [1] بالصحيفة الخضر فعلقت فى الكعبة ، وبعث المأمون الياقوت التى تعلق فى كل موسم فى سلسلة من الذهب فى وجه الكعبة ، وبعث المتوكل [2] على الله بشمسة من ذهب مكللة بالدر الفاخر والياقوتي الرفيع والزبرجد ؛ تعلق فى سلسلة من الذهب فى وجه البيت فى كل موسم.

وأهدى المعتصم [3] العباسى قفلاً لباب الكعبة فيه ألف مثقال ذهب فى سنة

---

(١) السفاح ؛ هو : أبو العباس عبد الله بن محمد بن على بني عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، أمه : رابطة بنت عد الله الحارثية ، ولد بناحية البلقاء سنة ١٠٨ هـ ، بويعي بالخلافة سنة ١٣٢ هـ ، عاش السفاح ثلاثاً وثلاثين سنة ، ومات سنة ١٣٦ هـ . تاريخ الخميس : ٢/ ٣٢٤ .

(٢) المتوكل على الله ؛ هو : جعفر بن المعتصم محمد بن الرشيد هارون الهاشمى العباسى البغدادى ، أبو الفضل ، أمه : أم ولد تركية تسمى : شجاع ومولده فى سنة ٢٠٥ هـ ، وقيل: ٢٠٧ هـ ، وبويع بالخلافة بعد موت أخيهي الواثق فى ذى الحجة من سنة ٢٣٢ هـ ، وقتل فى ليلة الأربعاء ثالث أو رابع شوال سنة ٢٤٧ هـ فى القصر الجعفرى ، وكانت خلافته أربع عشرة سنة وتسعة شهر وتسعة أو ثمانية أيام ، ومات وعمره إحدى وأربعون سنة ، وتخلف بعده ابنه المنتصر . تاريخ الخميس : ٢/ ٢٣٧ ، ٢٣٩ .

(٣) المعتصم ؛ هو : محمد بن الرشيد هارون بن المهدى محمد بن أبى جعفر المنصور ، أمه : أم ولد اسمها : ماردة . بويع بالخلافة بعد أخيه المأمون بعهد منه إليه لما احتضر ، وكان أبوه قد أخرجه من الخلافة وعهد إلى الأمين والمأمون والمؤتمن فساق الله إليه الخلافة وجعل الخلفاء العباسيين بعد ذلك من ولده ، ولم يكن من نسل أولئك خليفة ، وكان المعتصم يلقب بالثمانى ؛ فإنه ثامن خلفاء بنى العباس ، وملك ثمانى سنين وثمانية أشهر ، وزاد بعضهم وثمانية أيام ، وافتتح ثمان حصون ، وقيل : إنه ولد فى شعبان وهو الثامن من شهور السنة وكان نقش خاتمه الحمد لله ، وهى ثمانى حروف ، وبويع بالخلافة سنة ٢١٨ هـ ، ومولده سنة ١٨٠ هـ ، وقهر ثمانية أعداء ، ووقف ببابه ثمان ملوك، وخلف من الذهب ثمانية آلاف ألف=

٢١٩ هـ ، وكان والى مكة يومئذ من قبله صالح بن العباس ماراً إلى الحجبة ليقبضهم ، فمضى إلى الحجبة ليسلم إليهم القفل ؛ فأبوا أن يأخذوه منه ، وأراد أن يأخذ القفل الأول ويرسل به إلى الخليفة ، فأبوا أن يعطوه ذلك ، وتوجهوا إلى بغداد ، وتكلموا مع المعتصم ، فترك قفل الكعبة عليها ، وأعطاهم القفل الذى كان بعثه إليها ، فاقتسموه بينهم .

وذكر الفاكهى : أن من أهدى إلى الكعبة طوق من ذهب مكلل بالزمرد والياقوت مع ياقوتة كبيرة خضراء ، أرسله ملك السند لما أسيلم فى سنة ٣٥٩هـ ، فعرض أمره على المعتمد على الله [١] ، وتبعه أحمد الموفق بالله بن أخى المعتمد على الله ، فأمر بتعليقها فى البيت الشريف ؛ فعلقت .

قال الشريف التقى الفاسى (رحمه الله) : « ومما علق بعد الأزرقى فى قصبة من فضة فيها كتاب بيعة ابن جعفر أمير المؤمنين ، قد أمر بها الفضيل بن عياض فى موسم سنة ٣٩١ هـ ، وكان وزن القصبة ثلثمائة وتسعين درهماً فضة ، وعليها خارجاً من ذلك ثلاثة أزرار ملآنة سلاسل من فضة ، ودخل الكعبة يوم الاثنين لأربع ليال خلون من صفر ، فعلق هذه القصبة مع معاليق الكعبة » .

= دينار ، ومن الدراهم مثلها ، وخلف من الجمال والبغال ثمانية آلاف ، ومن الجوارى مثلها ، وبنى ثمانى حصون ، وأنشأ مدينة سر من رأى وهى سامرا ، ومات بها فى يوم الخميس تاسع عشر ربيع الأول ، ومات وعمره سبع وأربعون سنة وسبعة أشهر . تاريخ الخميس : ٢/٣٣٦، ٣٣٧ .

(١) المعتمد على الله ؛ هو : أحمد بن المتوكل على الله جعفر بن المعتصم محمد بن الرشيد هارون بن المهدى بن المنصور ، أُمه : أم ولد رومية اسمها : فتيان ، ولد سنة ٢٢٩ هـ بسر من رأى ، كان يميل إلى اللذات والسكر ، جعل أخاه الموفق طلحة ولى عهده على الأمور حتى قوى أمر طلحة وصار إليه الحل والعقد وانقهر معه المعتمد وصار كالمحجور عليه معه ، ثم مات المعتمد فجأة وهو سكران ولم تطل أيا.. بعد فوت أخيه الموفق طلحة ، وقيل : سم فى لحم ، وقيل : رمى فى رصاص مذاب ، وقيل : وقع فى حفرة ببغداد فى سنة ٢٧٩ هـ ، فكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة ، وفى سيرة مغلطاى اثنتين وعشرين وأحد عشر شهراً وخمسة عشر يوماً . تاريخ الخميس : ٢/٣٤٢ ، ٣٤٣ .

قلت : وسيأتى أن هارون الرشيد كتب : أن يكون ولى عهده بعده محمد الأمين [1] ثم عبد الله المأمون [2] ، وبايع لهما على ذلك أعيان مملكته ، وكتب مبايعتهم ، وأرسل نسخة ذلك العهد وعلقها فى الكعبة .

ثم لما وقع بعد الاختلاف بينهما وأرسل الأمين عسكراً لقتال أخيه المزمون ، أرسل إلى مكة ، وأخرج كتاب العهد من الكعبة ومزقه ؛ فمزق الله ملكه ، وانكسر عسكره ، وانتصر المأمون وجاء إلى بغداد وحاصر الأمين ، إلى أن أمسكه عبد الله بن طاهر وقتله ، وأتى برأسه إلى المأمون ، وسيأتى تفصيل ذلك جميعه إن شاء الله تعالى .

ثم لما وقعت الفتن بمكة أُخذت تلك المعاليق من الكعبة ، فصرفت فى ذلك، وقد كانت الملوك ترسل بقناديل الذّهب وتعلق فى الكعبة .

وكانت شيوخ سدنة البيت الشريف إذا احتاجت اختلست منها ما تسد به خللها ، وتدفع به فقرها واحتياجها ، وقد أدركناه فى زمن الصبا ، وقد خفت القناديل .

---

(١) محمد الأمين ؛ هو : محمد بن الرشيد هارون بن المهدى بن محمد بن المنصور الهاشمي القرشى العباسى البغدادى ، أمه : زبيدة بنت جعفر المنصور الهاشمية العباسية ، وهو ثالث خليفة تخلف أبواه هاشميان ؛ الأول : على بن أبى طالب ، والثانى : ابنه الحسن، والثالث : محمد هذا ، ولى الخلافة بعد موت أبيه ، واستناب أخاه المزمون على ممالك خراسان ، وفى أيامه فتحت أهواز .

وفى يوم السبت الخامس والعشرين من المحرم سنة ١٩٨ هـ ، ظفر ظاهر بن الحسين بالأمين فقتله بظاهر بغداد وشال رأسه على رمح وطيف به ، وكانت خلافته أربع سنين وأيام ، وفى سيرة مغلطاى : أربع سنين وستة أشهر وعشرة أيام . تاريخ الخميس : ٢/ ٣٣٣ ، ٣٣٤ .

(٢) المأمون ؛ هو : عبد الله بن الرشيد هارون بن المهدى محمد بن أبى جعفر المنصور ، أمه : أم ولد تسمى : مراجل ، ماتت أيام نفاسها به ، ولد سنة ١٧٠ هـ عندما استخلف أبوه بويع بالخلافة بمرو ، له اعتناء بالفلسفة وعلوم الأوائل ، وعاش المأمون ثمانياً وأربعين سنة ، وكانت وفاته فى ثانى عشر رجب سنة ثمانى عشرة ومائتين ، وكانت خلافته إحدى وعشرين سنة إلا ستة أشهر ، وفى سيرة مغلطاى اثنتين وعشرين سنة ، وفى دول الإسلام نيفاً وأربعين سنة ، وتوفى بالبدنرون من طرسوس ليلة الخميس لإحدى عشرة ليلة بقيت من رج سنة ٢١٨هـ . تاريخ الخميس : ٢/ ٣٥ ، ٣٣٦ .

وأدركنا من شيوخ الكعبة من كان يتهم بذلك ، بل أخبرنى نجار أنه عمل محطاً لأحدهم مركباً من الخشب مربعاً من عدة أعواد ، طول كل واحدة منها نحو دراع تركب فتطول ، ثم تفك وتحمل فى الكم ، فإذا دخل الشيخ يوم فتح الكعبة ابتدأ فدخل وحده كما هو عليه مشايخ الكعبة ، وركب ذلك المحط، ونزل قنديلاً وفك تلك الأعواد ، وغمس ذلك القنديل ، ووضعه فى كمه الواسع .

ثم أُذّن للناس بالدخول إلى البيت الشريف ، وما يحمله على ذلك غير فقره واحتياجه تجاوز الله عنه ، وافتقد مرة أمير من أمراء جده قنديلاً كان علق قريباً فى البيت الشريف ؛ فكلم على ذلك الشيخ ، ووأراد إهانته فلم يقدر على ذلك ، وتكلم الناس عليه ، وكان يقول : الحافظة على هيئة الإنسان أوجب من المحافظة على قناديل معلقة فى الكعبة لا ينفعها تعليقه ، ولا يضرها فقده ، وقد وصلنا إلى حد المخمصة ، فنعذر فى ذلك إن وقع فعله منا ، والبيت الشريف الآن ولله الحمد والشكر فى غاية الصون فى أيام هذا الشيخ الموجود الآن لعفته وأمانته علقت فى أيامه قناديل كثيرة أهداها الملوك إلى الكعبة الشريفة ، وهى محفوظة معلومة عند الناس ، باقية يرونها فى سقف البيت الشريف ، أوقات فتح الكعبة لسائر الناس .

وقد وصل فى وسط سنة ٩٧١ من الباب الشريف العالى السلطانى جاويش اسمه « محمد جاويش » كان قبل ذلك كاتباً للحرم الشريف على عمارة المسجد الحرام ، وكان توجه بشارة إتمام عمل المسجد الشريف على عمارة المسجد الشريف إلى الباب العالى السلطانى ، وهو رجل فى غاية الأمانة والاستقامة وحسن الخدمة وفضيلة الكتابة ، وحسن الخط والمروءة ، وعلو الهمة سلمه الله تعالى .

وأقبلت عليه السلطنة نصرها الله تعالى ، وأنعمت عليه بأنواع الإنعام والترقى وغير ذلك من الإكرام، وصار فى عدد خواص جاويشية الباب العالى.

وأرسل إلى الحرمين الشريفين الخلع الشريفة السلطانية لمن باشر خدمة الحرم الشريف من هذه العمارة ، وأجلسهم سيدنا ومولانا المقام الشريف العالى ، سيد السادات الأشراف وصفوة الصفوة من شرفاء بنى عبد مناف السيد الشريف الحسيب النسيب المستغنى بشرف ذاته عن التوصيف والتلقيب بدر الدنيا مولانا السيد حسن بن أبى نمى (خلد الله تعالى دولتهما وسعادتهما وأدام غرهما وسيادتهما) .

وكذلك شيخ مشايخ الإسلام سيد العلماء العظام ، وسند الفضلاء الكرام، ناظر المسجد الحرام ، ومدرس أعظم مدارس سلاطين الأنام صفوة نخبة آل سيد المرسلين (عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام) .

وقاضى المدينة المنورة سابقاً بدر الملة والدين ، مولانا السيد حسين الحسينى المالكى ، لا زال حرم الآمنين مشمولاً فى أيام نظارته بالعز والتمكين ، وأهل الحرمين الشريفيين غارقتين فى بحر إحسانه كل وقت وحين .

وكذلك قاضى مكة المشرفة يومئذ ، قاضى قضاة المسلمين أولى ولاة الموحدين ، معدن الفضل واليقين ، وارث علوم سيد الأنبياء والمرسلين ، مولانا مصلح الدين لطفى بك زاده ذكره الله تعيالى بالصالحات وأفاض عليه سوابع الخيرات .

وكذلك أمين العمارة الشريفة افتخار الأمراء العظام معمر المسجد الحرام الأمير أحمد وفقه الله تعالى وسدده وأكرمه وأسعده .

وجهزت السلطنة الشريفة نصر الله بها الإسلام ، وأيد بتأييدها دين سيدنا محمد (عليه الصلاة والسلام) مع الجاويش المشار إليه ثلاث قناديل من الذهب مرصعة بالجواهر ، ليعلق اثنان منها فى سقف بيت الله تعالى ، زاده الله تعالى تشريفاً تعظيماً .

والثالث فى الحجرة الشريفة النبوية تجاه الوجه الشريف النبوى تعظيماً لسيد الأنام على ذلك الوجه المليح ، تحية مباركة من ربنا وسلام .

فلما وصل محمد جاويش إلى مكة المشرفة شرفها الله تعالى بما فى يده من

الخلع والتشاويف والقناديل المعظمة ، قوبل بغاية التعظيم والإجلال ، وعومل بنهايات الاحترام والإقبال ، وألبس الخلع الشريفة الفاخرة ، وأنعم عليه بالضيافة والإنعامات الوافرة ، وحضر إلى المسجد الحرام بنفسه النفيسة سيدنا ومولانا ، المقام العالى السيد حسن المشار إلى حضرته العالية ، أدام الله عزه وإقباله ، ومعه أكابر السادات الأشراف ، وجلس فى الحطيم الكريم تجاه بيت الله المنيف ، ومعه سيدنا ومولانا ناظر حرم الله تعالى شيخ مشايخ الإسلام ، القاضى حسين الحسينى المومئ إليه ، خلد الله عظمته وإجلاله عليه ، وباقى من ذكرنا وسائر الأعيان والأهالى وكافة العلماء والفقهاء والموالى ، واجتمعت الناس حول الكعبة الشريفة ما امتلأ الحرم الشريف بذلك الموكب المنيف ، وفتح باب بيت الله تعالى ، وأحضرت الخلع الشريفة السلطانية والقناديل الخاقانية السنية ، وقرأت المراسيم الشريفة المطاعة فى الأقطار والجهات فوق منبر لطيف بصوت جوهرى يسمعه الخاص والعام ، وألبس سيدنا ومولانا الشريف حسن (نصره الله) خلعتين فاخرتين ، ثم مولانا ناظر الحرم الشريف ثم من كان له خلعة من السلطنة ثم طاف سيدنا ومولانا السيد حسن بالبيت بخلعته على المعتاد والرئيس والمؤذن على يدو للسلطنة الشريفة وله بعلو زمزم علىّ والناس كلهم رافعون أكفهم للدعاء ، إلى أن فرغ سيدنا ومولانا من الطواف ، ودعا بالملتزم الشريف، ثم صلى ركعتى الطواف فى مقام إبراهيم.

ثم طلع هو ومولانا ناظر الحرم الشريف وبقية الأعيان إلى باب بيت الله تعالى ، ودخلوا الكعبة وأُحضرت القناديل الشريفة ، واختاروا لها مكاناً بائناً يقع نظر الداخل إلى باب البيت الشريف ، فى أول دخوله إلى الكعبة المعظمة عليها .

وأُحضر سلّم يصعد عليه ، وعلقها سيدنا ومولانا السيد حسن بيده الشريفة تعظيماً لأمر السلطنة العلية المنيفة، وقرأت الفواتح فى الكعبة الشريفة وحولها، ودعت الناس أجمعون ، ورفعوا أصواتهم ، وهم إلى الله تعالى يتدرعون بدوام دولة هذا السلطان الأعظم، سلطان سلاطين العالم، خلد الله تعالى خلافته الزاهرة ، وأيد أيام سلطنته القاهرة ، وجمع له بين سعادة الدنيا والآخرة .

ثم انقضى ذلك المجلس العظيم ، وانقضى ذلك الموكب الشريف الوسيم ، وكان يوماً شريفاً مشهوداً ووقتاً مباركاً متيمناً مسعوداً ، رقمته الليالى يوالأيام فى صفحات أوراقها ، وأثبتته فى جدار دفاترها ، وأطباقها .

قال [1] :

وإنما المرء حـــديث بعـــده فكن حديثا حسناً لمن روى

ثم توجه محمد جاويش المذكور بالقنديل الذى بقى معه إلى المدينة المنورة، ووصل إلى تلك الروضة الشريفة المطهرة ، واجتمعت له أكابر المدينة الشريفة وأعيانها وعلماؤها وصلحاؤها وأركانها ، وشيخ حرمها ، ونوابها ، ومن له شأن وقدر من مجاوريها وسكانها ؛ فحصل موكب عظيم فى الحرم الشريف النبوى ، وفتحت الحجرة الشريفة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، وعلق ذلك القندل تجاه الوجه الشريف النبوى عليه الصلاة والسلام .

وقرأت الفواتح وحصل الدعاء من سائر جيران سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والتحية والسلام ، بدوام دولة هذا السلطان الأعظم سلطان سلاطين العالم ؛ خلد الله تعالى ملكه السعيد ، وأيد معدلته وفضله وإحسانه المزيد ، فالله تعالى يُطيل عمره ويسعده ، ويوفقه للخيرات ، ويرشده ويوفقه إلى الأعمال الصالحات من أعمال الخير ، ويسدده ، وهو أول من علق القناديل الذهب فى الحرمين الشريفين من سلاطين آل عثمان، خلد الله تعالى سلطانته، وأيد دولته إلى انتهاء الزمان .

وقد سبق لهذه الخدمة الشريفة آباؤه السلاطين العظام ، وفاق بهذه المزية الكريمة أجداده وأسلافه الكرام ، لا زال فائقاً كبار سلاطين العالم وخلفائها وراق بأقدام أقدام عزمه هام ملوك الدنيا وعظمائها ، وفى ذلك قال :

هو العادل الظلام للمال والعدا خـــائنه قد أكفـــرت وديارهـــا
عـليم بنور الله ينظـــــر قـلبه فلم يغن أسرار القلوب استتارها

---

(١) فى (س) : قال قال قال .

به دمر الله الصـــــليب وأهله　　به ملة الإســـلام عالٍ منارها
فلا زالت الأفلاك تجرى بأمره　　ولا زال عنه قطبـــها ومدارها

★ ★ ★

(فصل فى ذكر كسوة الكعبة الشريفة قديماً وحديثاً وحكم بيعها وشرائها أو التزكى بها)

ذكر الأزرقى ، وابن جريج (رحمهم الله تعالى) : أن أول من كسى الكعبة تبع الحميرى ؛ من ملوك اليمن فى الجاهلية ، تعظيماً لها ، واسم هذا التبع : أسعد ، وأنه رأى فى منامه أنه يكسو الكعبة ؛ فكساها الأنطاع ، ثم رأى أنه يكسوها ؛ فكساها من خز اليمن ، وجعل لها باباً يغلق ، وقال سعد فى ذلك :

فكسونا البيت الذى حرم الله　　مــلاءً مقصّـــــباً وبــــرودا
وأقمـــنا من الشـــهر عشـــراً　　وجــــعلنا لبابه إقــــــليدا
وخرجـــنا منه إلى حيث كنا　　ورفعـــنا لواءنا المعقـــــودا

وقال الأزرقى أيضاً : حدثنى جدى ، حدثنا سعيد بن سالم ، عن ابن جريج ، عن ابن أبى مليكة ، قال : كان يهدى للكعبة هدايا شتى من أكسية وحبرة وأنماط ، ويكسوبها الكعبة ، فإذا بلى شىء منها جعل فوقه ثوب آخر ولا ينزع مما عليها شىء .

وكانت قريش فى الجاهلية ترفد فى كسوة البيت ؛ فيضربون على القبائل بقدر احتمالهم من عهد قصى بن كلاب ، حتى نشأ أبو ربيعة بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم ، وكان سوياً يتجر فى المال ، فقال لقريش : أنا أكسو الكعبة وحدى سنة ، وجميع قريش سنة ، وكان يفعل ذلك إلى أن مات ؛ فسمته قريش العدل ؛ لأنه عدل قريشاً وحده فى كسوة البيت الشريف .

ويقال لبنيه بنو العدل ، وقال أيضاً : أخبرنى محمد بن يحيى عن الفضل، عن الواقدى ، عن إسماعيل بن إبراهيم بن أبى حبشية ، عن أبيه قال : كسى

النبى (ﷺ) البيت الثياب اليمنية ، ثم كساه عمر وعثمان (رضى الله عنهما) القباطى ، وكان يكسى الديباج بعد ذلك أيضاً .

وقال أيضاً : حدثنى جدى قال : كانت الكعبة كل سنة تكسى كسوتين ، فتكسى أولاً - الديباج قميصاً تدلى عليها يوم التروية ، ولا يحاط ، ويترك الإزار حتى [1] لا يذهب الحجاج ليلاً يخرقونه ، فإذا كان العاشوراء علقوا عليها الإزار ، وأوصلوا بالقميص الديباج ، فلا يزال عليها إلى يوم السابع والعشرين من شهر رمضان ؛ فيكسوها الكسوة الثانية ، وهى من القباطى .

فلما كان أيام خلافة المأمون أمر أن تكسى الكعبة ثلاث مرات كل سنة ، فتكسى الديباج الأحمر يوم التروية ، وتكسى القباطى أول رجب ، وتكسى الديباج الأبيض فى عشر رمضان .

واستمر على ذلك ثم انتهى إليه : أن الإزار التى تكسى بها الكعبة العاشوراء ، ويلصق بالقميص الديباج الأحمر التى هو تكسى به يوم التروية ، لا يصير إلى تمام السنة ، وأنه يحتاج إلى أن يجدد لها إزار على عشر رمضان مع قميص الديباج الأبيض التى تكسى به على العيد .

فأمر أن تكسى إزار آخر على عشر رمضان ، ثم بلغ المتوكل على الله تعالى أن الإزار يبلى قبل شهر رمضان من كثرة مس أيادى الناس ، فزادها إزارين ، وأمر بإزيال قميص الديباج الأحمر إلى الأرض ، ثم جعل فوقه فى كل شهرين إزاراً ، وذلك فى سنة ٣١٢ هـ ، ثم بعد الخلفاء العباسيين وأيام وهنهم وضعفهم ، كانت كسوة الكعبة تارة من قبل سلاطين مصر ، وتارة من قبل سلاطين اليمن ، بحسب قوتهم وضعفهم إلى أن استمرت الكسوة الشريفة من سلاطين مصر ، إلى أن اشترى السلطان الملك الصالح بن الناصر قلاوون قريبتين بمصر ، وقفها على عمل كسوة الكعبة الشريفة ، اسمها يسوس وسندبيس .

ثم استمرت سلاطين مصر من بعده ترسل كسوة الكعبة فى كل عام ،

---

(١) سقط من (س) .

وكانوا يرسلون عند تجدد كل سلطان مع الكسوة السود التى تكسى من جانب البيت الشريف كسوة لداخل البيت الشريف ، وكسوة خضراء للحجرة الشريفة النبوية الشريفة ، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، مكتوب على كل من الكسوة السود والحمر والخضر ، (لا إله إلا الله محمد رسول الله) دالات فى قلب دالات ، وقد يزاد فى حواشى تلك الدالات آيات أخرى مناسبة ، أو أسماء أصحاب رسول الله (ﷺ) ، أو تترك سادجة بحسب ما يؤمر به النساج .

فلما آلت سلطنة مماليك العرب إلى سلاطين آل عثمان خلد الله أيام سلطنتهم القاهرة ، ما دام الدوران وراء [(١)] الزمان ، وأخذ المرحوم المقدس السلطان سليم خان بن السلطان بايزيد خان (عليه الرحمة والرضوان) مملكة العرب من الجراكسة بالسيف والسنان ، جهزت كسوة الكعبة الشريفة داخلاً وخارجاً ، وكسوة المدينة الشريفة على ما جرت به العادة .

وأمر باستمرار الكسوة السود الكعبة الشريفة على الوجه المعتاد لما آلت السلطنة العظمى إلى المغفور له المرحوم السلطان سليمان خان ؛ أمر باستمرار الكسوة الشريفة على عوائدها السابقة ، ثم إن قريتى يبسوس وسندبيس الموقوفتين على كسوة الكعبة الشريفة خربتا ، وضعف ريعهما على الوفاء بمصروف الكسوة ، وأمر أن تكمل من الخزائن السلطانية بمصر .

ثم أضاف إلى تلك القريتين الموقوفتين قرى أخرى أوقفهما على كسوة الكعبة الشريفة ، فصار وقفاً عامراً فائضاً مستمراً ، وذلك من أعظم مزايا السلاطين العظام الذى يفتخرون بها على ملوك الأنام ، ولا يصل إلى ذلك إلا أعظم السلاطين الفخام ، وهى الآن من خصوصيات آل عثمان زيد الله تعالى بمزاياهم أجياد الليالى والأيام ، وخلد ذكر محاسنهم فى صفحات دفاتر الدهر إلى يوم القيامة إن شاء الله الملك العلام .

وأما نزع الكسوة الشريفة المعظمة وتقسيمها بين الناس ، فقد ذكر الأزرقى

---

(١) فى (س) : ورر .

(رحمه الله تعالى) ، قال : « حدثنى جدى عن سالم بن خالد : أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) كان ينزع كسوة البيت فى كل سنة، فيقسمها على الحاج » ، وقال أيضاً : « حدثنى جدى ، حدثنا عبد الجبار بن الوردى المكى ، قال : سمعت ابن أبى مليكة يقول : كان على الكعبة الشريفة من كسوة الجاهلية بعضها فوق بعض ، فلما كسيت فى الإسلام من بيت المال خففت عنها تلك الكساوى شيئاً فشيئاً ، وكان أول من ظاهر لها بكسوتين أمير المؤمنين عثمان بن عفان (رضى الله عنه) ، فلما كان أيام معاوية بن أبى سفيان كساها الديباج مع القباطى ، ثم إنه بعث إليها بكسوة ديباج وقباطى وحبرة ، وأمر شيبة بن عثمان أن يجرد الكعبة عن الكساوى ، وتخلقها بالطيب ، ويلبسها ما جهزه إليها ، فجردها وطيب جدرانها بالخلوق، وكساها تلك الكسوة التى بعث بها معاوية ، وقسم الثياب التى كانت عليها من أهل مكة .

وكان سيدنا عبد الله بن عمر (رضى الله عنه) حاضر فى المسجد الحرام فما أنكر ذلك ولا كرهه ، وجاب شيبة بكسوتها حتى رأى على امرأة حائض من كسوتها ، فما أنكر ذلك عليها » .

وقال أيضاً : « حدثنى محمد بن يحيى ، عن الواقدى ، عن عبد الحكم، عن عبد الله بن فروة ، عن هلال بن أسامة ، عن عطاء بن يسار ، قال : قدمت مكة معتمراً ، فجلست إلى عبد الله بن عباس فى صفة زمزم وشيبة بن عثمان يجرد الكعبة ، ورأيته يحلق جدورها ويطيبها ، ورأيت ثيابها التى جردها عنها قد وضعت ، ورأيت شيبة بن عثمان يومئذ ، فلم أر ابن عباس أنكر شيئاً من ذلك فيما صنع شيبة بن عثمان » .

وقال أيضاً : « حدثنى جدى ، حدثنا إبراهيم بن محمد بن يحيى ، حدثنا علقمة عن أمه ، عن أم المؤمنين عائشة (رضى الله عنها) : أن شيبة بن عثمان دخل عليها وقال لها : أيا أم المؤمنين تكرر ثياب الكعبة عليها ، فنجردها من خلقائها ، ونحفر لها حفرة يدفن فيها ما يلى منها ، ولا يلبسها

الحائض والجنب ، فقالت له عائشة رضى الله عنها : ما أصبت فيما فعلت ، فلا تعد إلى ذلك، فإن ثياب الكعبة إذا نزعت من عليها لا يضرها من لبسها».

ومذهب علمائنا (رضى الله عنهم) فى ذلك رجوع أمره إلى السلطان .

قال الإمام فخر الدين قاضى خان (رحمه الله تعالى) فى كتاب « الوقف» من فتواه : ديباج الكعبة إذا صارت خلقاً يبيعه السلطان ، ويستعين به فى أمر الكعبة ؛ لأن الولاية فيه للسلطان لا لغيره .

وفى تتمة الفتوى عن الإمام محمد (رحمه الله تعالى) فى ستر الكعبة يعطى منه إنسان ، فإن كان شيئاً له ثمن لا يأخذه ، وإن لم يكن له ثمن فلا بأس به .

قال الإمام نجم الدين الطرسوسى (رحمه الله تعالى) فى منظومته ، قال:

وما على الكـعبة من لباس إن رث جـــاز بيعه للناس

ولا يجـــوز أخذه بلا شراء للأغـــنياء وللفقـــــــراء

قال الإمام الفقيه أبو بكر الحدادى فى السراج الوهاج [1] : لا يجوز قطع شىء من الكعبة ، ولا بيعه ، ولا شراؤه ، ولا وضعه بين أوراق المصحف ، ومن حمل شيئاً من ذلك فعليه رده ، ولا عبرة بما يتوهمه الناس ، أنهم يشترون ذلك من بنى شيبة [2] فإنهم لا يملكونه ، فقد روى عن ان عباس وعائشة أنهما قالا : لا يبيع ذلك ، ويجعل ثمنه فى سبيل الله تعالى .

---

(١) السراج الوهاج ؛ هو كتاب : السراج الوهاج الموضح لكل طالب محتاج للإمام أبى بكر بن على المعروف بالحدادى العبادى المتوفى فى حدود سنة ٨٠٠ ، والكتاب باختصار لكتاب القدورى فى فروع الحنفية للإمام أبى الحسين أحمد بن محمد القدورى البغدادى الحنفى المتوفى سنة ٤٢٨ هـ . وقد عد المولى بركلى كتاب السراج الوهاج للحدادى من الكتب المتداولة المعروفة الضعيفة غير المعتبرة ، ثم اختصر هذا الشرح وسماه : الجوهرة النيرة . كشف الظنون: ٢/ ١٦٣١ .

(٢) بنو شيبة : بطن من عبد الدار ، من قريش ، من العدنانية ، وهم : بنو شيبة بن عثمان بن طلحة بن عبد الدار ، وهم : حجبة الكعبة المعروفون ، وانتهت إليهم من قبل جدهم عبد الدار . نهاية الأرب .

وروى فى الحديث الصحيح : « لولا حداثة قومك بكفر لأنفقت كنز الكعبة فى سبيل الله تعالى » .

قال القرطبى [١] من علماء المالكية (رحمه الله تعالى) : « كنز الكعبة المال المجتمع مما يهدى إليها بعد نفقة ما يحتاج الكعبة إليه ، وليس من كنز الكعبة ما تحلى به من الذهب والفضة ؛ لأن حليها حبس عليه لحصرها وقناديلها لا يجوز صرفها فى غيرها » . انتهى .

فعلى قول القرطبى يكون كسوتها أيضاً حبس عليها لحصرها وقناديلها ، فلا يملكها أحد . انتهى .

وقال الزركشى من علماء الشافعية (رحمه الله تعالى) فى قواعده : « قال ابن عبد الحكم : إن امتنع من بيع كسوة الكعبة ، وأوجب رد من حمل منها شيئاً » .

وقال ابن الصلاح [٢] : « هى رأى الإمام ، والذى يقتضيه القياس : أن العادة استمرت قديماً بابتدال كل سنة ، ويأخذ بنو شيبة تلك العتيقة ، فيتصرفون فيها بالبيع وغيره ، ويقرهم الأئمة على ذلك فى كلٍ ، ولا تردد فى جوازه » .

والذى يظهر لى : أن كسوة الكعبة الشريفة إن كانت من قبل السلطان من

---

(١) القرطبى : سبقت الإشارة إليه .

(٢) ابن الصلاح ؛ هو : تقى الدين أبو عمرو الشهرزورى ؛ عثمان بن الصلاح عبد الرحمن بن موسى بن أبى النصر الشافعى ، ولد سنة ٥٧٧ هـ فى بلد شرخان قرب شهرزور من أعمال إربل ، وغلب عليه لقب أبيه الصلاح عبد الرحمن ، وينسب إلى جده الثالث أبى النصر ، فيقال : النصرى ، وإلى بلده : الشهرزورى الشرخان . له مصنفات عدة منها : كتابه « المقدمة فى علم الحديث » ، شرح صحيح مسلم ، الأحاديث الكلية التى عليها مدار الدين ، الأمالى وغيرها كثير . انظر مقدمة الدكتورة عائشة عد الرحمن فى تحقيقها كتاب مقدمة ابن الصلاح .

بيت مال المسلمين فأمرها راجع لمن يعطها من قبله ، لمن يشاء من الشيبيين أو غيرهم ، وإن كانت من أوقاف السلطان وغيره فأمرها راجع إلى شرط الواقف فيها ، فهى لمن عينها لهم ، وإن جهل شرط الواقف فيها عمل بما جرت به العوائد السابقة ، كما هو الحكم فى سائر الأوقاف .

وكسوة الكعبة الشريفة الآن من أوقاف السلاطين ، ولم يعلم شروط الواقف فيها ، وقد جرت عادة بنى شيبة أنهم يأخذون لنفسهم الكسوة العتيقة بعد وصول الكسوة الجديدة ؛ فيبقون على عاداتهم فيها .

وللعلماء المتأخرين رسائل فى حكم كسوة الكعبة لم يتيسر لى الآن الوقوف على شيء منها .

★ ★ ★

الباب الثالث

● فى بيان ما كان عليه وضع المسجد الحرام فى الجاهلية ، وصدر الإسلام .

● وما أحدث فيه من التوسع والزيادة فى زمن سيدنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) ، وزمن خلافة سيدنا أمير المؤمنين عثمان بن عفان (رضى الله عنه) ، وزمن سيدنا عبد الله بن الزبير (رضى الله عنه) .

● وهدم عبد الله بن الزبير بناء قريش للكعبة ، وإعادتها على قواعد إبراهيم (عليه السلام) .

● ثم هدم الحجاج جانب الحجر والميزاب من الكعبة ، وإعادتها على ما بنته قريش فى زمن النبى (ﷺ) قبل مبعثه الشريف .

اعلم أن الكعبة الشريفة لما بناها سيدنا إبراهيم (عليه السلام) لم يكن حولها داراً ، ولا جداراً، استمرت كذلك فى أيام العمالقة وجرهم وخزاعة، لا يستجرئ أحد أن يبنى عليه داراً ولا جداراً احتراماً للكعبة الشريفه ، فلما آل أمر البيت إلى قصى بن كلاب واستولى على مفتاح الكعبة - كما تقدم بيانه - جمع قصى قومه وأذن لهم أن يبنوا بمكة حول البيت الشريف بيوتاً من جهاتها الأربع ، وكانوا يعظمون الكعبة أن يبنوا حولها بيوتاً ، أو يدخل إلى الكعة على جنابة ، وكانوا يقيمون بها نهاراً ، فإذا أمسوا خرجا إلى الحل ، فقال لهم قصى بن كلاب : إن سكنتم حول البيت هابتكم الناس ، ولم يستحل أحد قتالكم والهجوم عليكم .

وبنى هو دار الندوة من الجانب الشامى - كما تقدم بيانه - ويقال : إنها محل مقام الحنفية ، الذى يصلى فيه الآن الإمام الحنفى الصلوات الخمس .

وقسم قصى باقى الجهات بين قبائل قريش ؛ فبنوا دورهم وشرعوا أبوابها إلى نحو الكعبة الشريفة ، وتركا للطائفين مقدار الطواف الشريف ، بحيث يقال : إن القدر المفروش الآن بالحجر المنحوت إلى حاشيته المطاف الشريف الآن ، وجعلوا بين كل دارين من دورهم مسلكاً شارعاً فيه باب يسلك منه إلى بيت الله الحرام ، ثم كثرت البيوت ، واتصلت إلى زمن النبى (ﷺ) فولد (عليه أفضل الصلاة والسلام) على أشهر الأقوال بشعب بنى هاشم بقرب من المحل المسمى الآن بشعب على .

وكان (عليه الصلاة والسلام) يسكن دار سيدة النساء ، خديجة الكبرى (رضوان الله عليها) .

ثم لما ظهر الإسلام ، وكثر المسلمون ، استمر الحال على ذلك الوضع فى زمن النبى (ﷺ) ، وزمان خلافة سيدنا أبى بكر الصديق .

ثم زاد ظهور الإسلام وتكاثر المسلمون فى زمن أمير المؤمنين عمر الفاروق (رضى الله عنه) ؛ فرأى أن يزيد فى المسجد الحرام ، فأول زيادة زيدت فى المسجد الحرام زيادته ، فنبدأ بذكرها ، فنقول : روينا بالسند المذكور سابقاً فى المقدمة عن الإمام أبى الوليد الأزرقى قال : « أخبرنى جدى ، قال : أخبرنا مسلم عن خالد بن جريج ، قال : كان المسجد الحرام ، ليس عليه جدران يحيط به ، وإنما كانت دور قريش محدقة به من كل جانب ، غير أن بين الدور أبواباً يدخل منها إلى المسجد الحرام ، فلما كان زمان أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب ، وضاق المسجد الحرام بالناس لزم توسيعه ، اشترى دوراً حول المسجد وهدمها وأدخلها فى المسجد ، وبقيت دوراً احتيج إلى إدخالها فى المسجد ، وأبى أصحابها من بيعها ، فقال لهم عمر (رضى الله عنه) : أنتم نزلتم فى فناء الكعبة وبنيتم به دوراً ، فلا تملكون فناء الكعبة ، وما نزلت الكعبة فى سوحكم وفنائكم ؛ فقومت الدور ووضع ثمنها فى جوف الكعبة ، ثم هدمت وأدخلت فى المسجد ثم طلب أصحابها الثمن .

فسلم إليهم ذلك ، وأمر ببناء جدار قصير أحاط بالمسجد ، وجعل فيه أبواباً كما كانت بين الدور قبل أن تهدم ، وجعلها فى محاذاة الأبواب السابقة .

ثم كثر الناس فى زمان أمير المؤمنين سيدنا عثمان بن عفان (رضى الله عنه، فأمر بتوسيع المسجد ، واشترى دوراً حول المسجد ، هدمها وأدخلها فى المسجد، رأبى جماعة عن بيع دورهم، ففعل كما فعل عمر (رضى الله عنه).

وهدم دورهم ، وأدخلها في المسجد، فضجوا أصحاب الدور ، وصاحوا؛ فدعا بهم ، وقال لهم : إنّما جدأكم على حلمى عليكم ، ألم يفعل بكم ذلك (رضى الله عنه) ؟ فلاضح به أحد ولا صاح عليه ، وقد احتذيت حذوه؛ فضجرتم منى ، وصحتم علىّ و ثم أمر بهم إلى الحبس ، فشفع فيهم عبد الله بن خالد بن أسيد ؛ فتركهم » .

ولم يذكر الأزرقى (رحمه الله) متى كانت يادة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) ، ولا عمارة ، أمير المؤمنين عثمان بن عفان (رضى الله عنه) .

و ذكر ابن جرير الطبرى ، وابن الأثير ، والجوزى فى تأريخهم : « أن زيادة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) ، كانت فى سنة ١٦ من الهجرة ؛ بتقديم السين ، وأن زيادة أمير المؤمنين عثمان بن عفان (رضى الله عنه) كانت فى سنة ٣١ من الهجرة » .

أقول : زيادة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) ، وعمارته للمسجد كانت عقب السيل العظيم فى سنة ١٧ من الهجرة ؛ وتخريبه معالم الحرم الشريف ، ويقال لذلك السيل « سيل أم نهشل » .

قال شيخ شيوخنا ، حافظ وقته ، الشيخ عمر بن الحافظ التقى محمد بن فهد الهاشمى العلوى (رحمه الله تعالى) ، فى كتابه « إتحاف الورى بأخبار أم القرى » [(١)] : « من حوادث سنة ١٧ هـ : فيها جاء سيل عظيم ، يعرف

---

(١) إتحاف الورى بأخبار أم القرى : للشيخ نجم الدين عمر بن فهد المكى المتوفى سنة ٨٨٥، كشف الظنون : ١/٧ .

بسيل أم نهشل ، من أعلى من طريق الرّدم ؛ فذهل المسجد الحرام ، واقتلع مقام إبراهيم من موضعه ، وذهب به حتى وجد بأسفل مكة ، وغير مكانه الذى كان فيه لما عفاه السيل ؛ فأتى به ، وربط بلصق الكعبة فى وجهها ، وذهب السيل بأم نهشل بنت عبيدة بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف بن قصى بن كلاب ؛ فماتت فيه ، واستخرجت بأسفل مكة .

وكان سيلاً هائلاً ؛ فكتب بذلك إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) ، وهو بالمدينة الشريفة ، فأهاله ذلك وركب فزعاً مرعوباً إلى مكة؛ فدخلها بعمرة فى شهر رمضان ، فلما وصل إلى مكة وقف على حجر المقام، وهو ملصوق بالبيت الشريف ، فتهول من ذلك ثم قال : أنشد الله عبداً عنده علم من هذا المقام .

فقال المطلب بن وداعة السهمى (رحمه الله تعالى) : أنا يا أمير المؤمنين عندى علم بذلك ، قد كنت أخشى عليه مثل هذا الأمر ، فأخذت قدره من موضعه إلى باب الحجرة ، ومن موضعه إلى زمزم لحفظه ، وهى عندى فى البيت ، فقال له عمر (رضى الله عنه) : اجلس عندى وأرسل إليها ، وأْتِ بها ، فقيس بها .

ووضع حجر المقام فى ذلك المحل - يعنى الذى هو فيه الآن - واحكم ذلك واستمر فيه إلى الآن » .

قال : « وفيها وسع أمير المؤمنين عمر (رضى الله عنه) المسجد الحرام بدور اشتراها ، وهدمها وأدخلها المسجد . . . . » ، وذكر ما قدمناه آنفاً .

قال : « وفيها عمل أمير المؤمنين عمر (رضى الله عنه) الردم الذى بأعلى مكة ؛ صوناً للمسجد ، بناه بالصغائر والصخر العظام ، وكبسه بالتراب ، فلم يعله سيل بعد ذلك ، غير أنه جاء سيل عظيم فى سنة ٣٠٢ هـ ؛ فكشف عن بعض أحجاره ، وشوهدت فيه صغار عظيمة ، لم ير مثلها .

والأقدمون يسمون هذا الردّم ردم بنى جمح - بضم الجيم ، وفتح ، وبعد حاء مهملة - وهم بطن من قريش ، ينسبون إلى جمح بن عمرو بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك » .

أقول : المراد بهذا الردم الموضع الذى يقال له - الآن - المدعى ، وهو مكان كان يرى منه البيت الشريف أول ما يُرى ، وكان الناس خصوصاً حين يرد الحج من ثنية كذا .

وهى الحجون إذا وصلوا ذلك المحل ، شاهدوا منه البيت الشريف ، والدعاء مستجاب عند رؤية بيت الله الشريف ، ومع ذلك يقف الناس للدعاء لله تعالى ، وكانوا يقفون هنالك للدعاء ، وأما الآن بعدما حالت الأبنية عن رؤية البيت الشريف يقف الناس للدعاء فيه على العادة القديمة ، وعن يمينه ويساره ميلان للإشارة إلى أنه المدعى .

قال مولانا القاضى جمال الدين محمد أبو البقاء بن الضياء [(١)] الحنيفى فى كتابه « البحر العميق فى مناسك الحج إلى بيت الله العتيق » [(٢)] : « إنه كان يرى فى زمنه رأس الكعبة ، لا كلها من رأس الردم - يعنى المدعى - فإذا ظهر له ، يقف ويدعو ويسأل الله تعالى حاجته ، فإن الدعاء مستجاب عند رؤية الكعبة » .

وسُئل حافظ الدين النسفى (رحمه الله تعالى) فى المنافع عن صاحب الهداية (رحمه الله تعالى) : أنه استوصى عن شيخ له شكاه ، فقال له : إذا وصلت سوق كذا ، ورأيت الكعبة ، فادع الله تعالى أن يجعلك مجاب الدعاء ، فإن من رآها أولاً ، ودعا كانت دعوته مستجابة . انتهى .

---

(١) القاضى جمال الدين محمد أبو البقاء بن الضياء ، هو : محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن محمد ؛ أبو البقاء ، ابن الضياء المكى ، المتوفى سنة ٨٨٥ هـ ، له كتاب : تاريخ مكة المشرفة المسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف ، والباحث عادل عبد الحميد العدوى بصدد تحقيقه الآن فى سلسلة موسوعة مكة والمدينة . انظر : معجم المؤلفين : ١١/١٨٩ ، هدية العارفين : ٦/٢١١ ، الضوء اللامع : ٩/٤١ ، ٤٢ .

(٢) البحر العميق فى مناسك الحج إلى بيت الله العتيق : فى كشف الظنون : البحر العميق فى مناسك المعتمر والحاج إلى البيت العتيق ، لأبى البقاء محمد بن أحمد بن محمد ابن الضياء المكى العمرى القرشى الحنفى ، المتوفى سنة ٨٥٤ هـ ، أوله : الحمد لله الذى جعل البيت الحرام قياماً للناس ، رتبه على عشرين باباً . كشف الظنون : ١/٢٢٥ .

وكان القاضى أبو البقاء بن الضياء المذكور فى أوسط المائة الثامنة [١] ، ووفاته فى سنة ٧٥٣ هـ ، ولا شك أن من عهد الصحابة (رضى الله عنهم) إلى زمانه ، كان الناس يقفون ويدعون عند مشاهدتهم الكعبة .

ولا أعلم هل وقف النبى (ﷺ) فيه ؟ أم كان ذلك المحل غير مرتفع فى عهده عليه الصلاة والسلام ؟

وما وقع إلى سيدنا عمر (رضى الله تعالى عنه) بالردّم الذى بناه ، وارتفع عن الأرض ، وصار البيت الشريف يشاهد حينئذ ؛ فوقف الناس عنده بعد ذلك لمشاهدة البيت الشريف منه .

وبالجملة - فالآن - لا يرى البيت الشريف منه ؛ ولكنى أنظر فى جميع عمرى فى المدعى ، يقف الناس فيه ، فاللائق استمرار وقوف الناس بهذاي المحل الشريف ، والدعاء تبركاً بوقوف من سلف للدعاء فيه ، والله تعالى أعلم .

ولما ردم هذا المكان صار السيل إذا وصل من أعلى مكة لا يعلو هذاي المكان ، بل كان ينحرف عنه إلى جهة الشمال المستقبل البيت الشريف للبناء الذى بناه عمر (رضى الله تعالى عنه) ، فلا يصل هذا السيل إلى المسعى ، ولا إلى باب السلام إلى الآن .

فصارت هذه الجهة من يومئذ إلى أننا هذا مرتفعة عن ممر السيل ، وصار السيل كله ينحدر إلى جهة السوق ، ويمر بالجانب الجنوبى من المسجد إلى أن يخرج من أسفل مكة ، وهذا السيل سيل وادى إبراهيم ، فيقف ويتراكم ، ويدخل المسجد الحرام ويقع مثل هذا السيل من كل عشرة أعوام تقريباً مرة ؛ فيدخل المسجد الحرام ويحتاج إلى تنظيف ، وتبديل الحصا ، ونحو ذلك .

وقد عمل المتقدمون والمتأخرون لذلك طرقاً ، واهتموا غاية الاهتمام ؛ فاندثرت أعمالهم بطول الزمان ، ولم تفطن الملوك بعدهم لذلك ، واستمرت السيول العظيمة كل مرة تدخل المسجد ، فلسنا الآن بصدد شرح ذلك .

---

(١) فى (س) : التاسعة .

وأما زيادة أمير المؤمنين عثمان (رضى الله عنه) فى المسجد الحرام ، فقد ذكر الإمام أبو زكريا النووى ، نقلاً عن أبى الوليد الأزرقى ، والإمام أقضى القضاة الماوردى ، فى كتاب أحكام السلطانية ، وغيرها من الأئمة المعتمدين (رحمه الله تعالى) ، وفى كلام بعضهم زيادة على بعض ، فقالوا : أما المسجد الحرام فكان فناء حول الكعبة وفضاءً للطائفين ، ولم يكن على عهد النبى (ﷺ) ، وأبى بكر جدار محيط به محدقة به ، وبين الدور أبواب ، يدخل الناس من كل ناحية .

فلما استخلف عمر بن الخطاب (رضى الله تعالى عنه) ، وكثر الناس وسع المسجد ، واشترى دوراً وهدمها ، وزاد فيها ، واتخذ للمسجد جداراً قصيراً دون القامة ، وكانت المصابيح توضع عليه ، وكان عمر (رضى الله عنه) أول من اتخذ الجدار للمسجد الحرام .

فلما استخلف عثمان (رضى الله عنه) ، ابتاع منازل ووسعه بها أيضاً وبنى المسجد الحرام والأروقة ، وكان عثمان (رضى الله تعالى عنه) أول من اتخذ للمسجد الأروقة . انتهى .

قال الحافظ النجم عمر بن فهد فى تاريخه فى حادث سنة ٣٣ هـ : « فيها اعتمر أمير المؤمنين عثمان بن عفان (رضى الله عنه) من المدينة ، فأتى ليلاً فدخلها ، فطاف وسعى ، وأمر بتوسيع المسجد الحرام » فذكر ما قدمناه .

قال : « وجدد أيضاً الحرم ، وكلّم أهل مكة عثمان (رضى الله تعالى عنه) أن يحول الساحلة من الشعيبة ، وهى ساحل مكة قديماً فى مساحلها اليوم ، وهى جدة لقربها من مكة ، فخرج عثمان (رضى الله عنه) إلى جدة ، ورأى موضعها ، وأمر بتحويل الساحل إليها ، ودخل البحر ، واغتسل فيه ، وقال: إنه مبارك ، وقال لمن معه : ادخلوا البحر للاغتسال ، ولا يدخله أحد إلا بمئزر ، ثم خرج عند جده على طريق عسفان إلى المدينة ، وترك ساحل الشعيبة فى ذلك الزمان ، واستمرت جده بندر إلى الآن بمكة المشرفة ، وهى على مرحلتين طويلتين من مكة بسير الأثقال ، يستوعب إحداهما الليل كله فى

أيام اعتدال الليل والنهار ، وتزيد المرحلة الثانية على جميع الليل بشىء قليل، وأما الراكب المجد والساعى على قدميه فيقطعهما فى ليلة واحدة » .

وما رأيت من علمائنا من صرح بجواز القصر فيها ، بل رأيت من أدركت من مشايخى المنفية ، كانوا يكملون الصلاة .

وأما أنا فأرى لزوم يالقصر فيها ؛ لأن مدة القصر عندنا ثلاث مراحل ، تقطع كل مرحلة فى أكثر من نصف يوم بسير الأثقال ، وهاتان المرحلتان يكونان على هذاي الحال ثلاب برد فأزيد .

ثم رأيت فى موطأ الإمام مالك (رضى الله عنه) حديثاً صحيحاً ، يدل على صحة ما جنحت إليه صورته ، عن مالك ، أنه بلغه ، أن ابن عباس كان يقصر الصلاة فى مثل ما بين مكة والطائف وعسفان ، وفى مثل ما بين مكة وجده . انتهى ، والله تعالى أعلم .

ثم وقعت زيادة عبد الله بن الزبير (رضى الله تعالى عنه) ، وهو صحابى ابن صحابى ، أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأمه أسماء بنت أبى بكر الصديق (رضى الله عنهما) ذات النطاقين ، وخالته عائشة الصديقة (رضى الله عنهما) .

ولد بالمدينة بعد عشرين شهر من هجرة النبى (ﷺ) وهو أول مولود للمهاجرين بعد الهجرة ، وفرح المسلمون بولادته فرحاً شديداً ، إلا أن اليهود زعموا أنهم سحروا المسلمين فلم يولد لهم ولد ، وحنكه رسول الله (ﷺ) بتمرة لأكلها ، وسماه عبد الله ، وكناه أبا بكر ؛ باسم جده الصديق (رضى الله عنهم) .

وكان صواماً قواماً طويل الصلاة ، وصلاً للرحم عظيم الشجاعة قوياً ، قسم الليالى إلى ثلاث ، فليلة يصلى قائماً إلى الصبح ، وليلة يصلى ويستمر راكعاً إلى الصبح ، وليلة يصلى ويستمر ساجداً إلى الصبح .

وروى عن النبى (ﷺ) ثلاثة وثلاثين حديثاً ، وكان ممن أبى البيعة ليزيد، وفر إلى مكة ، وأطاعه أهل الحجاز واليمن والعراق وخراسان ، ولم يخرج

عن طاعته إلا أهل مصر والشام ، فإنهم بايعوا ليزيد ، فلما هلك أطاع أهلها عبد الله بن الزبير ، ثم خرج مروان ابن الحكم فتغلب على مصر والشام ، إلى أن ولى عبد الملك ؛ فجهز جيشاً كثيفاً على ابن الزبير ، وأمر عليهم الحجاج بن يوسف الثقفى ، فخاصره ، ورمى بالمنزنيق ، وخذل ابن الزبير وأصحابه ، فخرج ابن الزبير ، وقاتل قتالاً عظيماً ، إلى أن استشهد (رضى الله عنه) فى سنة ٧٣ من الهجرة ، وأنشد فيه النابغة الجعدى :

حكيت لنا الصديق لما وليتنا وعثمان والفاروق فاختار معدم
وسـويت بين الناس فاعتدى وعاد صباحاً هالك اليوم أسجم

وكان لما حاصره الحصين بن نمير فى عسكر جهزه يزيد عليه التجأ بالمسجد الحرام ، فنصب عليه المناجيق ، وأصاب بعض حجارته الكعبة الشريفة ؛ فتهدم بعض جدارها ، واحترق بعض أخشابها وكسوتها .

وانهزم الحصين بعسكره ؛ لهلاك يزيد وبلوغ خبر نعيه ، فرأى عبد الله بن الزبير أن يهدم الكعبة ويحكم بناءها ، ويبنيها على قواعد إبراهيم عليه السلام؛ لما سمع من حديث عائشة (رضى الله عنها) ، قالت : قال رسول الله (ﷺ) : « يا عائشة ، لولا أن قومك حديثو عهد بشرك ، لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض ، وجعلت لها باباً شرقياً وباباً غربياً ، وزدت فيها ستة أذرع من الحجر ، فإن قريشاً استقصرتها حين بنت الكعبة ، فإن بدا لقومك أن يبنوه من بعدى فهلمى ، لأريك ما تركوه فأراها قريباً من سبعة أذرع » أخرجهما الشيخان فى صحيحيهما .

وفى رواية عن مسلم ،ك عن عطاء ، قال : قال ابن الزبير : سمعت عائشة (رضى الله عنها) تقول : إن رسول الله (ﷺ) قال : « لولا أن الناس حديث عهدهم بكفر ، وليس عندى من النفقة ما يقوى على بنائه ، لكنت أدخلت من الحجر خمسة أذرع » . انتهى .

واستشار عبد الله بن الزبير من بقى من الصحابة (رضى الله عنهم) فى ذلك ، فكان منهم من أبى ، ومنهم من وافق على ذلك .

فصمم أقدم على ذلك ، ولما أراد هدم البيت الشريف ، وبناه خرج أهل مكة خوفاً ، وتلكأ العمال عن ذلك ، فأرقى عبد الله بن الزبير عبداً رقيق الساقين ، وعبيداً له من الجيوش بهدمونها رجاء أن يكون فيهم الحبشى الذى قال فيه رسول الله (ﷺ) : « يخرب الكعبة ذو السوقتين من الحبشة » .

قال الإمام عبد الله بن أسعد اليافعى (رحمه الله تعالى) فى تاريخه « مرآة الزمان » : أراد عبد الله بن الزبير أن يجعل الطين الذى تبنى به الكعبة من الورس ، فقيل له : إنه [1] لا يستمسك به البنيان كما يستمسك بالجص ، فأرسل إلى صنعاء اليمن ، طلب منها جصاً نظيفاً محكماً ؛ فأتوه فبنى الكعبة ، فلما أكملوا هدمها ، كشف عن أساس إبراهيم (عليه السلام) فوجد الحجر داخلاً فى البيت ؛ فبنى البيت على ذلك الأساس وكان أدار ستراً على فناء البيت ، فكان البناة يبنونه من وراء ذلك الستر ، والناس يطوفون من خارج ، فأدخل الحجر فى البيت ، وألصق باب الكعبة بالحجر ؛ ليدخل الناس منه ، وفتح لها باباً غربياً فى مقابلة هذا الباب ، ليخرج الناس منه ، كما كان عليه لما جددت قريش الكعبة ، قبل مبعث النبى (ﷺ) ، وخصوا النبى (ﷺ) ، وعمره الشريف يومئذ خمس وعشرون سنة .

وكانت النفقة قصرت بقريش لما بنوا الكعبة يومئذ ؛ فأخرجوا الحجر من البيت ، وجعلوا عليه حائطاً قصيراً علامة على أنه من الكعبة ، فأزال عبد الله ابن الزبير ذلك الوضع ، وأعادها على ما كانت عليه فى الجاهلية ، وبنى على قواعد إبراهيم (عليه السلام) ، وكان طول الكعبة قبل قريش تسعة أذرع ، فلما أكمل عبد الله بن الزبير طولها ثمانية عشر ذراعاً رآها عريضة لا طول لها ، زاد فى طولها تسعة أذرع ؛ فصار لها فى السماء سبعة وعشرون ذراعاً.

فلما فرغ من بنائها طيبها بالمسك والعنبر ، داخلاً وخارجاً ، من أعلاها إلى أسفلها ، وكساها من الديباج ، وبقيت من الحجارة بقية فرشها حول البيت الشريف ، نحواً من عشرة أذرع .

---

(١) فى (س) : لأنه .

وكان فراغه من عمارة البيت الشريف فى سابع عشر رجب سنة ٦٤ من الهجرة النبوية ، فخرج إلى التنعيم هو وأهل قلة معتمرين شكراً لله تعالى ، وذبح مائة بدنة ، وذبح كل واحد على قدر سعته ، وكان ذلك اليوم عيداً مشهوراً ، وبقيت هذه العمرة سُنة عند أهل مكة إلى اليوم يجتمعون للاعتمار فيه ، ولا يكادون يتخلفون عن العمرة فى هذا اليوم فى كل عام ، ويأتون من البر بقصد هذه العمرة .

وكان اعتناء الناس بهذه العمرة قبل الآن أكثر وأعظم من الآن ، بحيث يقال: إن صاحب الينبع يومئذ السيد قتادة بن إدريس بن مطاعن الحسنى ، جد سادتنا الأشراف ، ولاة مكة الآن ، آدام الله تعالى عزهم وسعادتهم لما علم من أمر مكة يومئذ ، وهم طائفة أخرى من بنى حسن يقال لهم : الهواشم ، لانهماك على اللهو واللذات ، وكثرة الظلم من عبيدهم على الناس ، واستيلاء الغرور عليهم ، ونفرت القلوب عنهم وعدم توجههم إلى أحوال البلد .

ارتقب الشريف قتادة اليوم السابع والعشرين من رجب ، واغتنم الفرصة ، لاشتغال أهل مكة بهذه العمرة ، وخروجهم بتحملاتهم إلى التنعيم ، فهجم بعبيده وذويه ؛ ودخل عليه من أعلاها ، ومنع ولاتها السابقين من الدخول إليها ، وكانت مكة يومئذ مستورة وولاتها يومئذ من بنى حسن الهواشم [1] ، أخوهم الشريف مكثر بن عيسى بن قليبة ، فمر بمن معه إلى جهات اليمن ، وتمكن السيد قتادة من البلاد ، وذلك فى سنة ٥٩٩ هـ ، واستمرت الولايةي فى ولده إلى الآن ، وإلى أن يرث الله الأرض ، ومن عليها ، وهو خير الوارثين .

وفى سنة ٧١ من الهجرة كتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان ، يذكر له أن عبد الله بن الزبير زاد فى الكعبة ما ليس منها ، وأحدث فيه باباً آخر ، فكتب إليه عبد الملك بن مروان يعيدها على ما كانت على عهد رسول الله (ﷺ) .

---

(١) فى (س) : الهوامش .

فهدم الحجاج من جانبها الشامى قدر ستة أذرع وشبراً ، وبنى ذلك الجدار على أساس قريش ، وكبس أرضها بالحجارة التى فضلت ، ورفع الباب الشرقى ، وسد الباب الغربى ، وترك سائرهم لم يغير شيئاً منها .

فهى الآن جوانبها الثلاثة من بناء عبد الله بن الزبير ، والجانب الرابع الثانى بناء الحجاج ، وهو ظاهر أن يتصل على بناء عبد الله بن الزبير ، فلما فرغ الحجاج من ذلك ، وفد عبد الملك بن مروان وحج فى ذلك العام مع الحارث ابن عبد الله بن ربيعة المخزومى ، وهو من ثقاة الرواة ، فقال عبد الملك : ما أظن أن ابنيس الزبير سمع من عائشة ، ما كان يزعم أنه سمع منها فى أمر الكعبة ، فقال الحارث : إنما سمعت ذلك من عائشة (رضى الله عنها) ، تقول : قال رسول الله (ﷺ) : « إن قومك استقصروا فى بناء الكعبة ، ولولا حدثان عهد قومك بالكفر ، أعدت فيه ما تركوا ، وأعدته على ما كان عليه فى زمن إبراهيم عليه السلام ، فإن بدا لقومك أن يبنوه فهلمى لأريك ما تركوا منه فأراها قريباً من سبعة أذرع » .

وقال (عليه الصلاة والسلام) : « وجعلت لها بابان موضوعان على الأرض ، باباً شرقياً يدخل الناس منه ، وباباً غربياً يخرج الناس منه » .

فقال عبد الملك بن مروان : أنت سمعتها تقول ذلك ، قال : أنا سمعت هذا منها ، قال : فجعل ينكث الأرض بقضيب فى يده متكئاً ساعة طويلة ، ثم قال : وودت والله أنى تركت ابن الزبير ، وما تحمل من ذلك كذا .

ذكر النجم عمر بن فهد ، وقد ذكرنا ذلك جميعه بالاستطراد ، لاشتماله له على الفوائد المهمة ، والحديثق شجون - رجعنا إلى ما نحن بصدده - وذكر زيادة سيدنا عبد الله بن الزبير فى المسجد الحرام ، وسندنا المتقدم ذكره ؛ متصلاً مرفوعاً إلى الإمام أبى الوليد محمد بن عبد الله بن محمد الأزرقى قال: « حدثنى جدى ، قال : كان المسجد الحرام محاطاً بجدار قصير غير مسقف ، وكان الناس يجلسون حول الكعبة بالغداة والعشى يبيعون ، فإذا قلص الحر قامت المجالس .

قال : حدثنى جدى ، قال : حدثنا عبد الرحمن بن الحسن بنى القاسم ابن عتبة عن أبيه ، قال : زاد عبد الله بن الزبير فى المسجد الحرام ؛ فاشترى دوراً ودخلها فى المسجد ، وكان ممن اشترى بعض دارنا - يعنى دار جدنا الأزرق - وكانت لاصقة بالمسجد الحرام ، وبابها شارع على باب بنى شيبة ، على يسار الداخل إلى المسجد الحرام ، وكانت دوراً كثيرة اشترى بعضها ببضعة عشر ألف دينار ، وأدخله إلى المسجد الحرام ، وكتب لنا ، إلى أخيه مصعب بن الزبير بالعراق يدفعها إلينا .

قال : فركب رجل منا إلى العراق فوجدوا مصعباً يقاتل عبد الملك بن مروان ، فلم يلبث إلا يسيراً حتى قتل مصعب ورجعوا إلى مكة ، فصار ابني الزبير يعدنا ويدافعنا حتى جاء حتى جاء الحجاج بن يوسف وحاصره ، وقتل، ولم يأخذ منه شيء » .

قال : وذكر جدى أنه سمع بعض مشايخه أهل مكة يذكرون : أن عبد الله ابن الزبير سقف المسجد غير أنهم لا يدرون أكله سقف أم بعضه » ؟

قال : « ثم عمره عبد الملك بن مروان ولم يزد فيه ؛ لكنه رفع جدرانه وسقفه بالساج ، وعمر عمارة حسنة » .

قال : « وحدثنى جدى عن سفيان بن عيينة ، عن سعيد بن فرقد ، عن أبيه ، قال : كنت على عمل المسجد فى زمان عبد الملك بن مروان ؛ فأمر أن يجعل فى رأس كل أسطوانة خمسين مثقالاً من الذهب » .

قال : « وروى جدى عن سفيان ، عن عمرو بن دينار عن يحيى بن حفيدة عن داوان بن روح قال : مسجد الكوفة تسعة أجزئة ، ومسجد مكة سبعة أجزئه ، وذلك فى زمان عبد الله بن الزبير (رضى الله عنه) » .

*** ذكر عمارة الوليد بن عبد الملك للمسجد الحرام :**

قال شيخ شيوخنا الحافظ السيوطى (رحمه الله تعالى) : كان الوليد جباراً ، أخرج أبو نعيم .

قال عمر بن عبد العزيز : الوليد بالشام ، والحجاج بالعراق ، وعثمان بن عباد بالحجاز ، وفرقد بن يزيد بمصر : امتلأت الأرض جوراً وظلماً .

قال الحافظ السيوطى (رحمه الله تعالى) : لكنه أقام الجهاد فى أيامه ، وفتحت فى دولته الفتوحات العظيمة كأيام عمر بن الخطاب (رضى الله عنه).

وقال ابن أبى عبيدة : وأين مثل الوليد ؟ افتتح الهند واليمن والأندلس ، وبنى مسجده دمشق ، وكتب بتوسيع المسجد النبوى وبنائه .

قال أبو الوليد الأزرقى : « قال جدى : عمر حدد الوليد بن عبد الملك ، ونقض عمل عبد الملك ، وعمل عملاً محكماً ، وكان إذا عمل المساجد زخرفها ، وهو أول من نقل الأساطين الرخام وسقفه بالساج المزخرف ، وجعل على رأس الأساطين صفائح الذهب ، وأزان المسجد بالرخام ، وجعل للمسجد سرادقات » .

قال النجم عمر بن فهد (رحمه الله تعالى) : « بعث الوليد بن عبد الملك إلى واليه إلى مكة خالد بن عبد الله الأسلاى بستة وثلاثين ألف دينار يضرب بها على باب الكعبة صفائح الذهب وعلى ميزاب الكعبة وعلى الأساطين ، التى فى باطنها ، وعلى الأركان التى فى جوفها ، ويقال : إن الحلية التى حلاها الوليدَ بن عبد الملك الكعبةْ هى ما كانت فى مائدة سليمان داود من ذهب وفضة ، وكانت قد احتملت مكن طليطلة من جزيرة الأندلس على نغل قوى ، تفسخ بها ، وكانت بها أطواق من ياقوت وزبرجد .

★ ★ ★

الباب الرابع

فى ذكر ما زاد العباسيون فى المسجد الحرام لما انطوى بساط ملك بنى مروان ، وآل إلى آل العباس الأمرة والسلاطين

مزقت بنى أمية كل ممزق ، وفتق الدهر حلل أثيابهم ومزق وحرق بنار اللهيب لباسهم وحُرق ، وكان رقص لهم الدهر ، وصفق ، وكان يعور أموالهم بمواسم وغرر أيامهم بصنوف اللهو مواسم ورياح عزتهم فى أرض عزتهم بواسم .

وكانت تضيق بجيوشهم الفضاء ، وتجرى على حسب مطلوبهم خيول القدر والقضاء ، ثم انحرقت عنهم الأيام فأظلمت غرر إشراقهم ، وأزوى بلهيب العكس يانع أوراقهم ، فأدمتهم بصواعق إرعادهم ، وإبراقهم ، فلم يدفع عنهم الرمح ولا الحسام .

ولم ينفع ما سبق لهم من المن الحسام ، وأذاقوا الموت الأحمر مروان الحمار ، ونزع من تحت الملك التى تحت حافر الحمار ، فما بكت عليهم السماء والأرض ، وما بقى لهم إلا ما قدموه من نفل وفرض ، ونزعوا من الأثواب إلى بطن التراب ، وسيقوا للحساب إلى يوم الحساب .

فوفاء لدينا لا وفا فيها لبننيها ، ولا بقا لحالتى تمنيها وتحينها ولا ارتقى فيها على مجليها ، ذللت عزة عاد وهدمت قصر شداد ، وأخربت إرم ذات العماد، فاق على الدنيا وزخرفها .

والحذر الحذر من هجوم صرفها وتصرفها ، كم نادتهم ، حذار حذار من بطش وفتكى .

وكم صاحت عليهم ، لا تغتر ، وانصحكى ، ولا يغرركم منى ابتسام ، فقولى : مضحك ، والفعل مبك .

وكانت مدة ملكهم ألف شهر ، وكان ما تحملوه من الوزر والقهر ، تلك المدة كالمهر ، وجعل الله تعالى لبيت النبوة عوض ذلك ، ليلة القدر : ﴿ وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ (١) .

قال الحافظ شيخ الإسلام السيوطى (رحمه الله تعالى) فى الدر المنثور : « أخرج ابن أبى حاتم ، عمر رضى الله عنهما ، أن النبى (ﷺ) قال : (رأيت ولد الحكم بن العاص على المنابر ، كأنهم القردة ، وأنزل الله فى ذلك : ﴿ وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس ﴾ (٢) ، والشجرة الملعونة فى القرآن - يعنى الحكم وولده) » .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة (رضى الله عنها) أنها قالت لمروان بن الحكم : سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : « لأبيك وجدك : إنكم الشجرة الملعونة فى القرآن » .

وأخرج ابن مردويه ، عن الحسن بن على (رضى الله عنهما) ، أن رسول الله (ﷺ) ، أصبح وهو مهموم ، فقيل له : مالك يا رسول الله ، قال : «إنى رأيت فى المنام كأن بنى أمية يتعاورون منبرى » هذا ، فقيل : يا رسول الله ، لا تهتم ، فإنها دنياتنا لهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وما جعنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس ﴾ (٢) .

قال ابن عطية فى تفسيره : ولا يدخل فى هذه الرؤيا عثمان (رضى الله عنه) ، ولا معاوية ، ولا عمر بن عبد العزيز . انتهى .

وما كانت فى هذه الحقيقة ولاية بنى أمية إلا فتنة للناس ، وآل الملك بعدهم إلى آل العباس ، وأضحكهم الدهر بعد العبوس والبأس ، وألبسهم حلل

---

(١) الآية رقم ٢ ، ٣ من سورة القدر ، مكيتان .

(٢) الآية رقم ٦٠ من سورة الإسراء ، مكية .

الأمر والنهى ، وأفرحهم بذلك الإلباس ، وآنسهم بعد الوحشة ، وما دام لهم ذلك الإيناس ، وهكذا الدنيا تدول وتدال ، وما زال علكل زمان دولة ورجال، أول من ولى منهم السفاح أبو العباس عبد الله بن محمد بن على بني عبد الله بن العباس (رضى الله عنهم) ، وكان أصغر من أخيه أبى جعفر المنصور .

قال ابن جرير الطبرى : كان بدوء أمر بنى العباس ، أن رسول الله (ﷺ) أعلم العباس عمه ، أن الخلافة تؤول إلى ولده ، فلم يزل ولده يتوقعون ذلك إلى أن بويع لابنه محمد سراً ، فلما مات محمد عهد لولده إبراهيم فسجنه مروان ، وقتله فى الحبس ، فعهد إبراهيم لأخيه عبد الله هذا ، وبويع فى الكوفة فى ثالث ربيع الأول سنة ١٣٢ هـ ، وكان مولده سنة ١٠٨ هـ ، وتوفى بالجدرى فى ذى الحجة سنة ١٣٦ هـ .

وكان نقش خاتمه : الله ثقة عبد الله ، وبه يؤمن ، وكان عدولاً سفلحاً قتل فى مبايعته من بنى أمية وأتباعهم لا يحصى كثرة ، وتوطدت له الممالك من الشرق إلى أقصى الغرب ، وكان عمره ثمانية وعشرون عاماً ، ومدة إمارته أربعة أعوام ، وجرت عادة الله فى الملوك والسلاطين قصر أعمار من أكثر سفك الدماء منهم .

وولى بعده أخوه أبو جعفر عبد الله المنصور ، هو أحسن من أخيه ، وبويع له من أخيه ، فى أول سنة ١٣٧ هـ ، وكان ظلوماً عشوماً ، هو أول من أوقع الفتنة بين العباسيين والعلويين ، وقتل الأخوين محمد وإبراهيم ابنى محمد بن عبد الله بن الحسن بن على (رضى الله عنهم) .

وكانا خرجا عليه ، وآذى بسببهما خلقاً كثير من العلماء قتلاً وضرباً - ممن أفتى بجواز الخروج عليه - منهم الإمام أبى حنيفة (رضى الله تعالى عنه) ، أكرهه على القضاء ؛ فأبى ، فسجنه فمات فى السجن .

وقيل : إنه سمه فى السجن لكونه أفتى بجواز الخروج عليه ، وسمى لنجله أبا الدوانق ؛ لمحاسبة العمال والصناع على الدانق والحبة .

وقتل أبا مسلم الخراسانى ، وهو الذى قام بدعوة الناس إلى بنى العباس ، وشرح ذلك يطول .

ووليت له المماليك ، ودانت له الأمصار ، ولم يخرج عنه غير جزيرة الأندلس ؛ ملكها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الأموى ، وانفرد بالأندلس ، وطالت مدته ، وملكها أبوه واستمرت فى يدهم مدة .

وفى المحرم سنة ١٣٨ هـ ، قيل : وفى سنة ٨٣٩ هـ : أمر أبو جعفر المنصور بالزيادة فى المسجد الحرام ؛ فزيد فى شقه الشامى الذى يلى دار الندوة، وزاد فى أسفله إلى أن انتهى إلى المنارة التى فى ركن باب بنى سهم ، ولم يزد فى الجانب الجنوبى شيئاً ؛ لاتصاله بمسيل الوادى وصعوبة البناء فيه وعدم ثباته إذا قوى السيل عليه ، وكذلك لم يزل فى أعلا المسجد .

واشترى من الناس دورهم وهدمها ، وأدخلها فى المسجد الحرام ، وكان الذى ولى عمارة المسجد لأبى جعفر أمير مكة يومئذ من جانبه زياد بن عبد الله الحارثى ، وكان من شرطة عبد العزيز بن عبد الله بن مسافع ، جد نافع بني عبد الرحمن الشيبى ، وكان زياد أجحف بدار شيبة بن عثمان ، وأدخل كثيرها فى الجانب الأعلا من المسجد ، فتكلم مع زياد فى أن يميل عنه قليلاً ففعل ، وكان فى هذا المحل أزورار فى المسجد ، وأمر أبو جعفر المنصور بعمارة منارة هناك ؛ فعملت .

واتصل عمله فى أعلا المسجد بعمل الوليد بن عبد الملك ، وكان عمل أبو جعفر طاقاً واحداً بأساطين الرخام ، دائراً على صحن المسجد ، وكان الذى زاد فيه مقدار الضعف مما كان قبله .

وزخرف المسجد بالفسيفساء والذهب ، وزينه بأنواع النقوش ، ورخم الحجر ؛ بالحاء المهملة المكسورة ثم الجيم ، وهو أول من رخمه .

وكان كل ذلك على يد زياد بن عبد الله الحارثى ، وإلى الحرمين والطائف من قبل المنصور ، وفرغ من ذلك فى عامين ، وقيل فى ثلاثة أعوام .

وكتب على باب بنى جمح ، أحد أبواب المسجد الحرام من جهة الصفا :

بسم الله الرحمن الرحيم ، محمد رسول الله ، أرسله بالهدى ، ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون [(١)] ، ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً ، وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمناً ﴾ [(٢)] ، ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين ﴾ [(٣)] .

أمر عبد الله أمير المؤمنين (أكرمه الله تعالى) بتوسعة المسجد الحرام وعمارته والزيادة فيه ؛ نظراً منه للمسلمين واهتماماً بأمورهم ، والذى زاد فيه الضعف مما كان عليه قبل ، وفرغ منه ، ورفعت الأيدى عنه فى ذى الحجة سنة ١١ هـ ، وذلك بتيسير الله تعالى على أمير المؤمنين ، وحسن رعايته وكفايته وإكرامه له بأعظم كرامة .

وأعظم الله تعالى أجر أمير المؤمنين فيما نوى من توسعة المسجد الحرام ، وأحسن ثوابه ، وجمع له بين خيرى الدنيا والآخرة ، وأعز نصره وأيده آمين.

وحج المنصور فى ذلك العام ، وأحرم من الحيرة ، وبذل على نجله الأموال العظيمة ، أعطى أشراف قريش لكل نفر منهم ألف دينار ، وأعطى أهل المدينة عطايا لم يعطها أحد كان قبله .

ولما قضى الحج والزيارة توجه إلى زيارة بيتي المقدس ثم سلك إلى الشام ثم إلى القة ، فنزلها .

كذا ذكره الحافظ عمر بن فهد (رحمه الله) ، وذكر حكاية مفيدة ، أذكرها استطراداً ، وإن كانت خارجة عن مقصودنا لعظم فائدتها ، وهى : لما حج المنصور ، كان يخرج من دار الندوة إلى الطواف آخر الليل يطوف ويصلى ، ولم يعلم أحد ، فإذا طلع الفجر رجع إلى دار الندوة ، فيجئ

---

(١) المقصود الآية رقم ٩ من سورة الصف ، مدنية .

(٢) الآية سبقت الإشارة إليها .

(٣) الآية رقم ٩٧ من سورة آل عمران ، مدنية .

المؤذنون ، ويسلمون عليه ، ويؤذنون الفجر ويقيمون الصلاة ؛ فيخرج ويصلى بالناس ، فخرج ذات ليلة فى السحر ، وشرع يطوف ، إذ سمع رجلاً عند الملتزم يقول : اللّهم إنى أشكو إليك ظهور البغى والفساد فى الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع ، فأسرع المنصور فى مشيته حتى ملأ مسامعه من كلامه ، ثم خرج من الطواف إلى ناحية المسجد ، ثم أرسل إلى ذلك الرجل ، فصلى ركعتين ، وقبل الحجر ، ثم أقبل مع الرسول وسلم على المنصور ؛ فقال له المنصور : ما هذا الذى سمعتك تقوله ، من ظهور البغى والفساد فى الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الظلم . فوالله لقد حشوت مسامعى ما أقلقنى ، وأمرضنى ، وأشغل خاطرى ، فقال: يا أمير المؤمنين ، إن آمنتنى على نفسى ، وأصغيت إلىّ بأذن واعية ، أنبأتك بالأمور من أصلها ؛ وإلا احتجبت عنك بقدرة الله تعالى ، ولم تصل إلىّ ، واقتصرت على نفسى ففيها شغل شاغل عن غيرى ، فقال : آمن على نفسك، فقل ؛ فإنى ألقى عليك السمع ، وأنا شهيد بالقلب ، فقال : إن الذى داخله الطمع ، حتى حال بينه وبين الحق ، ومنع من إصلاح ما ظهر من الفساد والبغى فى الأرض هو أنت ، فقال : أيها الرجل ، كيف يدخلنى الطمع ، والصفراء والبيضاء بيدى ، والحلو والحامض فى قبضتى ، ومن يحول بينى وبين ما أريد من ذلك ، فقال : هل داخل الطمع أحد من الناس ، ما داخلك يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل استرعاك أمور المسلمين، وأنفسهم، وأموالهم، فأغفلت عن أمورهم ، واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الحجر والطين ، وأبواباً من الخشب والحديد ، وحجاباً معهم السلاح ، واتخذت وزراء فجرة ، وأعواناً ظلمة ، إن نسيت لا يذكرونك ، وإن أحسنت لا يعينونك ، وقويتهم على ظلم الناس بالأموال والسلاح والرجال ، وأمرت ألا يدخل عليك غيرهم من الناس ، ولم تأمر بإنصار المظلوم إليك ، ومنعت من إدخال الملهوف عليك ، وحجبت الجائع والعارى والمحتاج عنك ، وما أحد منهم إلا وله حق فى هذا المال ، فما زال هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك ، وآثرتهم على رعيتك ، وأمرتهم ألا يحجبوا

عنك ، يقولون فى أنفسهم : هذا قد خان الله ، فما لنا لا نخونه ، فاتفقوا على ألا يصل إليك من أخبار الناس إلا ما أرادوا ، ولا يخالف أمرهم عامل إلا أقضوه عنك وأبعدوه ، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم ، عظمتهم الناس ، وهابوهم وأكرموهم ، وكان أول من صانعهم وداراهم عمالك بالأموال والهدايا والرشا ، فتقووا بها على ظلم رعيتك ، وتبعهم من كان ذا قدرة وثروة من رعيتك ؛ ليظلموا من دونهم ، فامتلأت بلادك بالظلم والغم ، وزاد طمعهم وبغيهم وكثر فسادهم وإفسادهم ، وصار هؤلاء شركاؤك فى سلطانك فأنت غافل ، فإن جاءك متظلم حيل بينه وبين الوصول إليه ، وإن أراد رفع قصته إليك ، وصرخ بين يديك ، ضرب ضرباً مبرحاً ؛ ليكون نكالاً لغيره .

وأنت تنظر بعينك ولا ترحم بقلبك ، فإن سألتهم عنه ، قالوا : أساء الأدب ؛ فأدبناه ، وجهل مقامك ؛ فضربناه ، فأبقى الإسلام على ظهور هذه المظالم والآثام ، فإنى سافرت لأرض الصين ، فقدمتها ، وقد أصاب ملكهم آفة أذهبت سمعه فجعل يبكى ؛ فقال له وزراؤه : مالك تبكى ، لأبكت عيناك ، فقال : إنى لا أبكى على فقد سمعى ؛ ولكن أبكى على المظلوم يصرخ ببالى ، يطلب رفع ظلامته ؛ فلا أسمع صوته ، وحيث أُذهب سمعى، فإن بصرى لم يذهب ، فنادوا فى الناس : أن لا يلبس أحمر إلا المظلوم لأميزه بالنظر ؛ فأعينه ، وكان يركب الفيل كل يوم ليرى المظلومين ، ويستدنيهم ، ويرفع عنهم ظلامتهم .

انظر يا مسكين ، هذا مشرك بالله ، غلبت رأفته بالمشركين على رأفتك بالمسلمين ، وأنت تؤمن بالله ، وابن عم نبيه (ﷺ) ، وأن الأموال لا تجمع رلا لواحد من ثلاثة أمور : إن قلت أجمعها لولدى ي، فقد أراك الله تعالى عبراً فى الطفل ، يخرج من بطن أمه عرياناً ، ماله على وجه مال ، وما [illegible] مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه وتصونه عن كل أحد ، فما زال الله يلطف بذلك الغلام حتي يسوق إليه ما قدره له من المال ويحويه كما [illegible]اه غيره .

ولست الذى تعطى ، بل الله يعطى من يشاء ، ويمنع ممن يشاء ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع .

وإن قلت أجمع المال لأشيد به سلطاني ، فقد أراك الله تعالى عبراً ممن كان قبلك ، ما أغنى عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة ، وما أعدوا من السلاح والكراع ، وما ضرك ما كنت أنت فيه .

فوالله ما فوق ما أنت فيه منزلة تدرك إلا بالعمل الصالح ، واعلم أنك لا تعاقب أحداً من رعيتك إذا عصاك بأعظم من القتل ، والله تعالى يعاقب من عصاه بالعذاب الأليم ، وأنه يعلم خائنة الأعين ، وما تخفى الصدور ، فكيف يكون وقوفك غداً بين يديه ؟ وقد نزع ملك الدنيا من يدك ، ودعاك إلى الحساب ، هل يغنى عنك ما كنت فيه شيئاً ؟

قال : فبكى المنصور بكاءً شديداً ، حتى ارتفع صوته ، ثم قال : كيف احتيالى فيما خولت ، ولم أر من الناس إلا جانباً عنى ، قال : يا أمير المؤمنين عليك بالأعلام الراشدين ، قال : ومن هم ؟ قال : العلماء العالمون. قال : فإنهم قد فروا منى ، قال : نعم ، فروا منك مخافة أن تحملهم على ما ظهر لهم من طريقك ، فإذا فتحت الأبواب ، وأسهلت الحجاب ، ونصرت المظلوم ومنعت المظالم ، وظهرت بالعدل ، ونشرت الفضل ؛ فأنا ضامن لمن هرب منك أن يعود إليك .

وجاء حينئذ المؤذن ، وسلموا عليه ، أذنوا للفجر ، وأقاموا ؛ فقام المنصور إلى الصلاة ، فصلى بالناس ، وإذا بالرجل قد غاب من بين أيديهم ، فلما فرغ من الصلاة ، سأل عنه ، فقالوا : ذهب ، فقال : إن لم تأتونى به عاقبتكم عقاباً شديداً ، فذهبوا يلتمسوه ، فوجدوه فى الطواف ، فتقدم إليه الحرس ، فقال : انطلق معى ، وإلا هلكت ، وهلك من معى ، فقال : كلا لست بذاهب معك ، فقال : إنه يقتلنى إن لم آته بك ، فقال : كلا إنه لا يقدر على ذلك ، وأخرج من جيبه ورقة ، وقال : ضعها فى جيبك ، فلا يصيبك منه شيء ، فإنه دعاء الفرج ، قال : وما دعاء الفرج ؟ قال : لا يرزقه الله إلا للسعداء ، من دعا به صباحاً ومساء هدمت ذنوبه واستجيب دعاؤه ، وبسط الله تعالى رزقه ، وأعطاه أمله ، وأعانه على عدوه ، وكتب عند الله صديقاً ، فقال : اقرأه لى عندوا تلنته منك ، قال : قل : اللهم كما لطفت

فى عظمتك دون اللطف ، وعلوت بعظمتك على العظماء ، وعلمت ما تحت أرضك ، كما علمت ما فوق عرشك ، وكان وسواس الصدور كالعلانية عندك ، وعلانية القول كالسر فى علمك ، فاتكاد كل شىء لعظمتك ، وخضع كل سلطان لسلطانك ، وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك ، اجعل لى من كل هم أمسيت فيه فرجاً ومخرجاً ، اللهم إن عفوك عن ذنوبى وتجاوزك عن خطيئتى ، وسترك على قبيح عملى ، أطمعنى أن أسألك مالاً استوجبه منك ، فصرت أدعوك آمناً ، وأسألك مستأنساً ، وإنك أنت المحسن إلىّ ، وإنى المسيئ إلى نفسى فيما بينى وبينك ، أتودد وأتبغض إليك ، ولكن الثقة حملتنى على الجرأة عليك ؛ فعد بفضلك وإحسانك إلىّ ، إنك أنت التواب الرحيم .

قال : فقرأته ، وأخذت الورقة فى جيبى ، وإذا بالرسل تسعى إلىّ ؛ فأتيته وإذا حمى يتلظى ، فلما وقع نظره علىّ سكن غيظه ، وتبسم ، وقال لى: ويلك أنت تحسن السحر ، فقلت : لا والله يا أمير المؤمنين ، ثم قصصت عليه أمرى ، ثم قال : هات الورقة ، فناولته إياها ؛ فأخذها وصار يبكى ، إلى أن بل لحيته وأمر لى بعشرة آلاف درهم ، ثم قال : أتعرف الرجل ؟ فقلت : لا ، قال : ذلك الخضر عليه السلام .

قلت : وإنى أروى هذه الحكاية عن والدى الشيخ علاء الدين أحمد القادرى النهروالى ، الخرقانى الحنفى نزيل مكة المشرفة ، وحمداً لله تعالى ، قال : أنبأنى بهذه الحكاية ، العز عبد العزيز بن النجم بن فهد ، عن والده ، عن القاضى زين الدين أبو بكر بن الحسين العثمانى المراغى ، عن الحافظ يوسف بن عبد الرحمن ، قال : أخبرنا الإمام أبو الحسن على بن أحمد البخارىّ عن الحافظ أبى الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزى قال : أخبرنا محمد بن ناصر ، أخبرنا المبارك بن عبد الجبار ، أخبرنا محمد بن على بن الفتح ، حدثنا أبو نصر محمد بن محمد النيسابورى ، عن إبراهيم بن أحمد الخشاب ، حدثنا أبو على الحسن بن عبد الله الرازى ، حدثنا المثنى بن سلمة القرشى ، قاضى اليمن ، قال : سمعت أبا المهاجر المكى يقول : قدم أبو

جعفر المنصور مكة ، وكان يخرج من وسط دار الندوة إلى الطواف آخر الليل، وساق الحكاية بطولها .

قال النجم عمر بن فهد (رحمه الله تعالى) : وفى سنة ٥٨ هـ ، عزم على الحج أبو جعفر المنصور ، وكان يريد قتل سفيان الثورى (رضى الله عنه) فلما وصل إلى بئر ميمون ، بعث إلى الخشابين ، فقال لهم : إن رأيتم سفيان الثورى ، فأصلبوه ، فجاءوا ونصبوا له الخشب ، وكان جالساً بفناء الكعبة ، ورأسه فى حجر فضيل بن عياض ورجلاه فى حجر سفيان بن عيينة، فقيل له: يا أبا عبد الله ، قم واختف ، ولا تشمت بنا الأعداء ، فقام إلى أستار الكعبة ، وأخذها ثم قال : برئت منه إن دخلها أبو جعفر ، وعاد إلى مكانه فركب أبو جعفر من بئر ميمون ، فلما كان بين الحجون سقط عن فرسه؛ فاندقت عنقه ، فمات لوقته .

فمن سابع ذى الحجة ، وقت السحر ، فحروا له مائة قبر ، ودفنوه فى واحد منها ، ليعمى قبره عن الناس ، وبرأ الله منهم ، قسم عبده سفيان ، فانظر إلى عباد الله المخلصين ، وإدلالهم على جناب قدس رب العالمين ، وكيف حال أهل الدنيا المغرورين ؟ وكيف تضمحل عظمتهم فى عظمة سلطان السلاطين ؟ وما أحقر سلطنة البشر المخلوق من ماء مهين ، وما أسرع زوال ملكه ، وصيروره عبرة للمعتبرين ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ، وعظمة لمن أراد أن يتذكر عواقب هذه الاغترار ، ويعلم أن الملك لله الواحد القهار ، ولا شريك له فى الملك ، ولا ولى له من الذل علتى الدوام والاستمرار .

والمنصور هو الذى بنى مدينة بغداد ، ومولده فى سنة ٣٥ هـ ، ومدة ملكه اثنين وعشرين سنة ، وثلاثة أشهر ، وعاش أربع وستين سنة ، وكان رأى مناماً يدل على قرب أجله ؛ فعهد إلى ولده محمد ، وصار إلى الحج ، وتوفى كما ذكر .

وولى بعده الملك والخلافة أبو عبد الله ، ولقبه المهدى ، ثالث من ولى

الخلافة من العباسيين ، وقام بالبيعة له بمكة كما مات أبوه الربيّع بن يونس الحاجب ، وأسرع بإرسال الخبر إليه ، فوصل إليه الخبر من بغداد ، فكتم الأمر ، ثم جمع الناس فخطبهم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن المنصور أمير المؤمنين ، دعى ؛ فأجاب ، وأمر ؛ فأطاع ثم ذرفت عينه ثم قال: لقد بلى رسول الله (ﷺ) بفراق الأحبة ، وقد فارقت عظيماً وقلدت جسيماً ، فعند الله احتسبت أمير المؤمنين ، وبه أستعين على تقليد أمور المسلمين ، ونزل فيما بعد الناس ، وأول من جمع تعزيته وتهنئته أبو دلامة الشاعر حيث قال :

عينـاى واحـدة ترى مسـرورة	بأميرها جذلى وأخـرى تذرف
تبكى وتضحـك تارة ويشوبها	ما أنكرت ويسـرها ما تعرف
فيسـوؤها موت الخليفة محرماً	ويسـرها أن قام هذا يخـلف
ما إن رأيت كما رأيت ولا أرى	شـعراً أسـرحه وآخـر أنتف
هـذا حـباه الله فضـل خـلافة	ولداً كجـنات النعيم تزخرف

وكان المهدى لما شب ولاه أبوه طبرستان والرى وما يليها ، فتأدب وتميز ، وجالس العلماء ، وكان كريماً مليح الشكل ، شجاعاً محباً للعلماء ، وكان يقول : ادخلوا علىّ العلماء والقضاة ، وأحضروهم عندى ، ولو لم يكن فى حضورهم إلا رد المظالم حياءً منهم لكان خيراً كثيراً .

وقدم عليه مروان أن أبا حفصة الشاعر ؛ أنشده قصيدة ، فلما وصل إلى قوله :

إليك قصرنا النصـف من صـلواتنا	مسـيرة شـهر نواصـله
وما نحن نخشى أن تخيب مصيرنا	إليـك أمـنا البـر عاجـله

فضحك المهدى ، وقال : كم بيت قصيدتك ، قال : سبعون بيتاً ، فأمر له بسبعين ألف درهم ، قبل أن يتم إنشادها ، وله شعر رقيق لطيف ، أحسن من شعر أبيه وأولاده بكثير ، ومنه ما ذكر الصولى ، وهو يقول :

ما يكف الناس عنا ما يريد الناس منا إنما همهم أن ينبشوا ما قد دفنا
لو سكنا باطن الأرض لكانوا حيث كنا إن المراد واكشف أمر قد سترنه كشفنا

ومن نظمه هذا البيت من عدة أبيات نظمها فى جارية كان يحبها حباً شديداً:

أما يكفيك أنك تملكينى وأن الناس كلهم عبيدى

وكان المهدى يحب الحمام ، فدخل عليه غياث ، وكان يروى الحديث ، فقال : روى عن أبى هريرة (رضى الله عنه) مرفوعاً [(١)] : « الأسبق فى حافر أو نصل ، وزاد فيه : أو جناح » ، ففهم المهدى أنه وضع له هذه الزيادة فى حديث رسول الله (ﷺ) ؛ فلم يجبه بالرد تأدباً ، وأمر له بعشرة آلاف درهم ، فلما قام له المهدى قال : أشهد أن قفاك قفاً كذاب ، ثم أمر بذبح ما عنده من الجناح ؛ فذبحت .

ذكره غير واحد من علماء الحديث ، منهم الحافظ السيوطى (رحمه الله تعالى) ، وكان نقش خاتم المهدى : الله ثقة محمد ، وبه يؤمن .

وحكى الربيع قال : عرض على المنصور يوماً خزائن مروان بن محمد ، وكان من جملتها اثنى عشر ألف ، عدله ثياب خزافاً ، فأخرج منها ثوباً واحداً ، ودعا بالخياط ، وقال : فصل من هذا جبة لى ، وجبة لولدى محمد، فقال : لا يجئ منه جبتان ، فقال : فصلة جبة وقلنسوة ، ونجدان ، يخرج ثوباً آخر ، فلما أفضت الخلافة إلى ولده محمد أمر بترك الثياب كلها بعينها ، فيغرقها جميعاً فى عبيده وخدمه فى ساعة واحدة ، وكان جواداً شجاعاً كثيراً اللهو والصيد ، إلا أنه كان يكره الزنادقة ، وقتل منهم خلقاً كثيراً، ووصى ابنه الهادى بقتلهم حيث وجدهم .

قال النجم عمر بن فهد فى حوادث سنة ١٦٠ هـ : « وفيها حج أمير المؤمنين المهدى العباسى ، وحمل لهُ الأمير محمد بن سليمان الثلج ؛ حتى

---

(١) الحديث المرفوع : هو ما أضيف إلى رسول الله ﷺ خاصة ، فهو والمسند عند قوم سواء مقدمة ابن الصلاح : ١٩٣

وافى مكة ، وهذا شىء لا يتم قبله ، ونزل المهدى دار الندوة وجاءه عبد الله ابن عثمان بن إبراهيم الحجبى ، فى ساعة خالية ، نصف النهار ، فأدخل عليه ، فقال : إن معى شيئاً لم يحمل إلى أحد قبلك ؛ فكشف له عن الحجر الذى فيه صورة قدمى خليل الله إبراهيم (عليه السلام) ، وهو الذى يزار الآن ، بمقام إبراهيم .

فسّر المهدى ، وقبله ، وتمسح به ، وصب فيه ماء فشربه وأرسله إلى أهله وأولاده ، فتمسحوا به ، وشربوا الماء منه ، ثم احتمله وأعاده إلى مقام إبراهيم ، وأعطاه المهدى جزائر كثيرة ، وأقطعه ضيعاً بوادى نخلة ، يقال له ذات القريع ، فباعه بعد ذلك بسبعة آلاف دينار .

وذكر حجبة الكعبة للمهدى : أنه تراكم على الكعبة كسوة كثيرة ، أثقلها ، ويخاف على جدرانها من ثقله ، فأمر بنزعها ، فنزعت حتى بقيت مجردة ووجدنا كسوة هشام من الديباج التخين ، وكسوة من قبله ، عامتها من ثياب اليمن ، فجردت الكعبة منها ، وطلى جدرانها من داخلها وخارجها بالغالية والمسك والعنبر ، وصعد الخدام على سطح الكعبة ، وصاروا يسكبون قوارير المسك المطيبة على جدران الكعبة من الجوانب الأربع وتعلقوا بالبكرات التى يخاط عليها ثياب الكعبة ، وهم يمسحون الطيب على الكعبة ، إلى أن استوعبوها .

ثم كسيت ثلاث كساوى من القباطى والخز والديباج ، وقسم المهدى فى الحرمين الشريفين أموالاً عظيمة ، وهى ثلاثون ألف ألف درهم وصل بها معه من العراق .

وثلثمائة ألف دينار وصلت إليه من مصر ، ومائة ألف دينار وصلت إليه من اليمن ، ومائة ألف ثوب ، وخمسين ألف ثوب .

فرق جميع ذلك على أهل الحرمين ، واستدعى قاضى مكة يومئذ ، وهو محمد الأوفص بن محمد بن عبد الرحمن المخزومى وأمره أن يشترى دوراً فى أعلا المسجد ، ويهدمها ، ويدخلها فى المسجد الحرام .

وأعد لذلك أموالاً عظيمة ، فاشترى القاضى جميع ما كان من المسجد الحرام والمسعى من الدور ، فما كانت من الصدقات والأوقات للمسجد بدلها داراً فى فجاج مكة ، واشترى فى كل ذراع فى مثله ، فما دخل فى المسجد بخمسة وعشرين ديناراً ، وما دخل فى مسيل الوادى بخمسة عشر ديناراً ، وكان مما دخل فى ذلك الهدم دار الأزرقى ، وهى يومئذ لاصقة بالمسجد الحرام من أعلاه على يمين الخارج من باب بنى شيبة ، وكان ثمن ناحية بها ثمانية عشر ألف دينار ، وكان أكثرها دخل فى المسجد الحرام فى زيادة عبد الله بن الزبير (رضى الله عنه) ، ودخلت أيضاً دار خيرة بنت سباع الخزاعية ، وكان ثمنها ثمانمائة وأربعين ألف دينار دفعت إليها ، وكانت شارعة على المسعى يومئذ قبل أن تؤخر المسعى ، ودخلت أيضاً دار لآل جبير بن مطعم ، ودار شيبة بن عثمان ، اشترى جميع ذلك ، وهدم وأدخل فى المسجد الحرام.

وجعل دار القوارير رحبة بين المسجد الحرام والمسعى ، ثم استقطعها جعفر البرمكى من الرشيد لما آلت الخلافة إليه ، فبناها داراً ثم صارت إلى حماد البربرى فغمرها ، وزين باطنها بالقوارير وظاهرها بالرخام والفسيفساء .

قلت : وتداولت الأيدى عليها بعد ذلك إلى أن صارت رباطين متلاصقين، أحدهما كان يعرف برباط المراغى ، والثانى كان يعرف برباط السدرة ؛ فاستبدلهما السلطان قايتباى ، فبناهما مدرسة ورباطاً فى سنة ٨٨٣ هـ ، ووقف عليها مسقفات بمكة ، وأقطاعاً بمصر ، وهو باق إلى الآن صدقة جارية على سكانها ، غير أنه شرع فى أوقافه الخراب لاستيلاء الأيادى الحادثة عليها، عمر الله عمرها وأحسن نظرها .

وهذه الزيادة الأولى للمهدى فى أعلى المسجد ، كذلك فى أسفله إلى أن انتهى به باب بنى سهم ، ويقال له الآن باب العمرة ، وإلى باب الخياطين ، ويقال له الآن باب إبراهيم ، وكذلك زاد من الجانب الشامى إلى منتهاه الآن، وكذلك زاد فى الجانب اليمانى أيضاً إلى قبة الشراب وتسمى الآن : قبة العباس ، والى حاصل الزيت .

وكان بين جدار الركن اليمانى ، وجدار المسجد الحرام الذى يلى الصفا

تسعة وأربعون ذراعاً ونصف ذراع ، وكان ما وراءه مسيل الوادى ، فهذه الزيادة كلها الأولى للمهدى ، وأمر بالأساطين فحملت من مصر ومن الشام، وحملت إلى قرب جده فى موضع كان فى أيام الجاهلية ساحلاً لمكة ، يقال له: الشعبية ؛ فجمعت هناك ، لأن مرساه قريب بخلاف بندر جده ؛ لأن مرساه الذى تقف فيه السفينة بعيد عن البر .

وصارت أساطين الرخام تحمل منها على العجل إلى مكة ، ويتحاكى العربان إلى الآن بقايا الأساطين الرخام دفنها الريح بالرمل ، والله أعلم بحقيقة ذلك ، وعمل الأساس لتلك الأساطين بحيث حفر لها فى الأرض جدران على شكل الصليب ، أقاموا كل أسطوانة على موضع التقاطيع ، كشف عنه السيل العظيم الواقع فى سنة ٩٣ هـ فشاهدنا أساس الأساطين على هذا الوجه ، واستمر عليهم إلى سنة ١٩١ هـ .

فحج المهدى من ذلك العام ، وشاهد الكعبة العظيمة ، ليست فى وسط المسجد بل فى جانب منه ، ورأى المسجد قد اتسع من أعلاه وأسفله ، ومن جانبه الشامى .

وضاق من الجانب اليمانى الذى يلى مسيل الوادى ، وكان فى محل المسيل الآن بيوت الناس يسلكون من المسجد فى بطن الوادى ثم يسلكون زقاقاً ضيقاً، ثم يصعدون إلى الصفا ، وكان السعى فى موضع المسجد الحرام ، وكان باب دار محمد بن عباد بن جعفر العابدى عند حد ركن المسجد اليوم ؛ فهدموا أكثر دار محمد بن عباد بن جعفر العابدى ، وجعلوا المشعر والوادى فيها ، وكان عرض الوادى من الميل الأخضر الملاصق للمئذنة التى فى الركن الشرقى للمسجد إلى الميل الآخر الثانى الملاصق الآن لرباط العباس .

وكان هذا الوادى مستطيلاً إلى أسفل المسجد الآن يجرى فيه السيل ملاصقاً لجدار المسجد إذ ذاك ، وهو الآن بطن المسجد من الجانب اليمانى .

فلما رأى المهدى تربيع المسجد الحرام ، ليس على الاستواء ، ورأى الكعبة الشريفة فى الجانب اليمانى من المسجد ؛ جمع المهندسين ، وقال لهم : أريدر

أن أزيد فى الجانب اليمانى من المسجد ، لتكون الكعبة فى وسط المسجد ، فقالوا له : ما يمكن ذلك إلا بأن تهدم البيوت التى على حافة المسيل فى مقابلة هذا الجدر اليمانى مني المسجد ، وينقل المسيل إلى تلك البيوت ، ويدخل المسيل فى المسجد ، كما قدمناه .

ومع ذلك كان وادى إبراهيم له سيول عظيمة عارمة وهو واد حدور يخاف إن حولناه من مكانه ، أن لا يثبت أساس البناء فيه على ما يزيد من الاستحكام فتذهب به السيول ، وتعلو السيول فيه ، وتنصب فى المسجد ، ويلزم هدم دور كثيرة ، وتكثر المؤنة ، ولعل ذلك لا يتم .

فقال المهدى : لا بد أن أزيد هذه الزيادة، ولو أنفقت جميع بيوت الأموال، وصمم على ذلك ، وعظمت نيته ، واشتدت رغبته ، فصار يلهج به ، فهندس المهندسون ذلك بحضوره ، وربطوا الرماح ، ونصبوها على أسطحة الدور ، من أول الوادى إلى آخره ، وربعوا المسجد وشوهد من فوق الأسطحة ، وطلع المهدى إلى جبل أبى قبيس وشاهد تربيع المسجد ، وشاهد الكعبة فى وسط المسجد ، ورأى ما يهدم من البيوت ، ويجعل مسيلاً محلاً للسعى ، وشخصوا له تلك الرماح المربوطة من الأسطحة ، ووازنوا ذلك مرة أخرى حتى رضى به ، ثم توجه إلى العراق ، وخلف الأموال الكثيرة لتشترى هذه البيوت والصوف على هذه العمارة العظيمة ، وهذه هى الزيادة الثانية للمهدى فى المسجد الحرام .

وهذا ملخص ما ذكره الأزرقى والفاكهى والحافظ نجم الدين عمر بن فهد فى تواريخهم .

وهاهنا إشكال عظيم ؛ ما رأيت من تعرض له ، وهو أن السعى بين الصفا والمروة من الأمور التعبدية التى أوجبها الله تعالى علينا فى ذلك المحل المخصوص ، ولا يجوز لنا العدول عنه .

ولا تعتبر هذه العبادة إلا فى هذا المكان المخصوص ، الذى سعى رسول الله (ﷺ) فيه ، وعلى ما ذكره هؤلاء الثقات ، أدخل المسعى فى المسجد الشريف ، وحول ذلك المسعى إلى دار بن عباد ، كما تقدم .

وأما المكان الذى يسعى فيه الآن ، فلا يتحقق أنه بعض من المسعى ، الذى سعى فيه رسول الله (ﷺ) أو غيره ، فكيف يصح السعى فيه ؟ وقد حول محله ، كما ذكره هؤلاء الثقات .

ولعل الجواب عن ذلك : أن المسعى فى عهد رسول الله (ﷺ) كان عريضاً ، وبنيت تلك الدور بعد ذلك فى بعض عرض المسعى القديم ، فهدمها المهدى وأدخل بعضها فى المسجد الحرام ، وترك بعضها للسعى فيه ، ولا تحول تحويلاً كلياً ، وإلا لأنكره علماء الدين من الأئمة المجتهدين (رضى الله تعالى عنهم) ، مع توفرهم [١] إذ ذاك .

وكان الإمامان أبو يوسف ، ومحمد بن الحسن (رضى الله عنهما) والإمام مالك بن أنس (رضى الله عنه) موجودين يومئذ ، وقد أقروا ذلك ، وسكتوا عليه ، وكذلك من صار بعد ذلك الوقت فى مرتبة الاجتهاد ، كالإمام الشافعى ، وأحمد بن حنبل ، وبقية المجتهدين (رضى الله عنهم) ، وكان إجماعاً منهم على صحة السعى ، من غير نقل عنهم .

وبقى الإشكال فى جواز إدخال شىء من المسعى فى المسجد وكيف يصير حال الاعتكاف فيه ؟ وحكمه : بأن يجعل حكم المسعى حكم الطريق العام .

وقال علماؤنا : يجوز إدخال الطريق فى المسجد ، إذا لم يضر بأصحاب الطريق ؛ فيصير مسجداً ، ويصح الاعتكاف فيه ، حيث لم يضر بمن يسعى ، فاعلم ذلك ، وهذا مما تقرر بيانه ، ولله الحمد على التوفيق لتبيانه .

★ ★ ★

فصل

ومما يلائم ما نحن فيه ، من عجيب ما نقل ، فى التعدى على المسعى الشريف ، واغتصابه ، ما وقع قبل عصرنا هذا بنحو مائة عام فى أيام دولة الجراكسة فى سلطنة الملك الأشرف قايتباى المحمودى ، سامحه الله تعالى .

---

(١) فى (س) : توفيرهم .

ومحصله : أنه كان له تاجر يستخدمه قبل سلطنته فى زمن إمارته ، اسمه الخوجا شمس الدين محمد بن عمر بن الزمن ، كان مقرباً منه بعد سلطنته ، ويتعاطى له متاجراً مع دينه وخيرته ، ومآثره الجميلة ، واعتقاده فى العلماء والصلحاء ، واتصافه بطلب العلم أيضاً .

وكان السلطان قايتباى أرسله إلى مكة ليتعاطى له تجارة ، وليعمر له جانباً من الحرم الشريف ، ومن الحجر الشريف ، ومن جوف الكعبة .

وهو الذى أمره بعمارة المسجد الشريف النبوى بعد الحريق المشهور الواقع فى سنة ٨٨ هـ ، وبنى له المدرسة التى فى المدينة الشريفة ، وأجرى عين الزرقاء بالمدينة ، وعين خليص من طريق المدينة ، وعين عرفات ، وغير ذلك من الخيرات الجارية إلى الآن .

غيري أن حب الجاه ، ونفاد الأمر أوقعه فيما نذكره ، وهو أنه كان يبنى ميضأة أمر بعملها السلطان الملك الأشرف بن الناصر حسن بن قلاوون ، وكانت فى مقابلة باب على ، يحدها من الشرق بيوت الناس ، ومن الغرب المسعى الشريف ، ومن الجنوب مسيل وادى إبراهيم الذى يقال له الآن : سوق الليل ، ومن الشمال دار سيدنا العباس (رضى الله عنه) الذى هو الآن رباط يسكنه الفقراء ، واستأجر الخوجا شمس الدين بن الزمن هذا الميضأة ، وهدمها وهدم من المسعى مقدار ثلاثة أذرع ، وحفر ساسه ليبنى بها رباطاً لسكن الفقراء ؛ فمنعه من ذلك قاضى القضاة بمكة ، عالم المسلمين وقاضى الشرع المبين ، القاضى برهان الدين إبراهيم بن على بن ظهيرة الشافعى ، فلم يمتنع من ذلك ؛ فجمع القاضى إبراهيم محضراً حافلاً ، حضره علماء المذاهب الأربع ، ومن أجلهم مولانا الشيخ زين الدين قاسم قالطو بغا الحنفى رئيس العلماء الحنفية يومئذ ، والشيخ شرف الدين محمد بن عبيد الحنفى ، والشيخ علاء الدين الزواوى الحنبلى ، وبقية العلماء المكيين والقضاة والفقهاء.

وطلب الخوجا شمس الدين بن زمن ، وأنكر عليه جميع الحاضرين وقالوا له : فى وجهك ، إن أرض المسعى كان خمساً وثلاثون ذراعاً ، وأحضر النقل

من تاريخ الفاكهى ، وذرعوا من ركن المسجد إلى المحل الذى وضع فيه ابن الزمن أساسه ، فكان سبعة وعشرين ذراعاً ، فقال ابن الزمن : المنع قاصر لى وبجمع الناس ، فقال له القاضى : أمنعك الآن ، لأنك مباشر فى هذا الحال لهذا الفعل الحرام ، وأمر الغيب أيضاً بإزالة تعديه .

وتوجه القاضى بنفسه إلى محل الأساس ، ومنع البنائين والعمال من العمل وأرسل عرضاً ومحضراً فيه خطوط العلماء إلى السلطان قايتباى .

وكتب بن الزمن أيضاً إليه ؛ وكانت الجراكسة لهم تعصب وقيام فى مساعدة من يلوذ بهم ، ولو على الباطل ، فلما وقف على تلك الأحوال السلطان قايتباى ، نصر ابن الزمن ، وعزل القاضى إبراهيم وولى خصمه المنصب ، وأمر أمير الحاج أن يضع الأساس على مراد ابن الزمن ، ويقف عليه بنفسه ، وكان أمير الحاج يشبك الجمالى .

فوصل فى موسم سنة ٨٧٥ هـ ، ووقف بنفسه بالليل ، وأوقد المشاعل وأمر البنائين والعمال بالبناء ؛ خوفاً من الإطالة العامة عليهم ، فبنوه إلى أن صعد ، وآبه وجه الأرض .

وجعل ابن الزمن ذلك رباطاً وسبيلاً ، وبنى فى جانبه داراً، وحفر الميضأة، وجعل لها باباً فى سوق الليل ، وجعل فى جانب الميضأة مطبخاً يطبخ فيه الدشيشة ، ويقسم على الفقراء ، ووقف على ذلك دوراً بمكة، ومزارع بمصر، واستمر إلى أن انقطع ذلك المطبخ فى عهدنا .

وبيعت القدور بل الدور ، وبالله العجب من ابن الزمن ، وما ذكرناه من ضله ، وخبرته ، كيف ارتكب هذا المحرم بإجماع المسلمين طالباً به الثواب ؟ وكيف تعصب له سلطان عصره الأشرف قايتباى مع أمه أحسن ملوك الجراكسة عقلاً وديناً ، وخيرية ؛ وهو يأمر بفعل هذا الأمر المجمع على مرمته فى مشعر من مشاعر الله تعالى ؟ وكيف يعزل قاضى الشرع الشريف لكونه نهى عن منكر ظاهر الإنكار ؟ فرحم الله الجميع وغفر لهم .

وأين هذا عما حكى عن أنوشروان العادل ، وهو من أهل الكفر ، لما أراد

المهندسون تسوية إيوانه ، بإدخال قطعة أرض لعجوز بعد أن بذلوا لها أضعاف ثمن أرضها ؛ فأبت ، فأمر بعدم التعرض لعرضها ؛ فبقى فى إيوانه ازدوار بسبب ذلك ، فقال : هذا الازدوار خير من الاستقامة ، وصار ذلك مثلاً يذكر بعد ألوف من السنين :

وإنما المـرء حـــــديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن روى

★ ★ ★

فصــل

قال الحافظ نجم الدين عمر بن فهد فى حوادث سنة ١٩٧ ما ملخصه :

« فيها هدمت الدور التى اشتريت لتوسعة المسجد والزيادة فيه الزيادة الثانية للمهدى ، فهدموا أكثر دور ان عباد ، وجعلوا المسعى والوادى فيها ، وهدموا ما بين الصفا والوادى من الدور ، وحرثوا الوادى من موضع الدور ، حتى وصلوا إلى مجرى الوادى القديم فى الأجياد الكبير ؛ وهو الآن الطريق ، الذى يمر منه إلى دور السادة الأشراف ؛ أمراء مكة المشرفة ، عمّر الله بهم البلاد ، وأزال بوجودهم موارد الفتنة والفساد .

وابتدؤوا من باب بنى هاشم من على المسجد ، ويقال له الآن : باب علىّ (رضى الله عنه) .

ووسع المسجد يمنه إلى أسفل ، وجعل فى مقابلة هذا الباب باب فى المسجد ، يعرف الآن بباب حزورة ، ويحرفونه العوام ، ويسمونه باب عزورة، لأن السيل إذا زاد على مجرى الوادى ، ودخل المسجد وخرج من هذا الباب إلى أسفل مكة ، فإذا طفح غير ذلك ، خرج من باب الخياطين أيضاً ، ويسمى الآن باب إبراهيم ، فيمر السيل ولا يصل إلى جدار الكعبة الشريفة من الجانب اليمانى ، فكان من جدار الكعبة إلى الجدار اليمانى من المسجد المتصل بالوادى تسعة وأربعون ذراعاً ونصف ذراع .

فلما زيدت هذه الزيادة الثانية فيه صار من جدار المسجد أولاً إلى الجدار الذى عمل آخر ، وهو باق إلى اليوم تسعون ذراعاً ، فاتسع المسجد غاية

ومن هذا الباب يدخل إلى المسجد شرفاء مكة ؛ آل الحسن بن على بن أبى طالب (رضى الله عنه) ، وكانت عند دار أم هانئ (رضى الله تعالى عنها) بئر جاهلية ، حفرها قصى بن كلاب أحد أجداد النبى (ﷺ) ؛ فأدخلت تلك البئر أيضاً فى المسجد الحرام .

وحفر المهدى عونها بئر خارج باب الحزورة ، يغسّلون عندها الموتى من الفقراء إلى الآن ، ومن المسجد الحرام من أسفله باب بنى سهم يعرف الآن بباب العمرة ، لأن المعتمر من التنعيم ، يدخلون منه إلى المسجد ، يستقربونه بالنسبة إلى الدخول إلى المسجد الحرام من أعلى مكة ، كما هو السنة الشريفة» .

وذكر بقية أبواب المسجد الحرام عند ذكر العمارة الشريفة السلطانية والعثمانية، خلد الله تعالى ملك سلاطينها إلى قيام الساعة إن شاء الله تعالى، واستمر البناة والمهندسون فى بناء هذه الزيادة ، ووضع الأعمدة الرخام ، وتسقيف المسجد بالخشب الساج المنقش بالألوان نقراً فى نفس الخشب .

كما أدركناه ، وكان فى غاية الزخرفة والإحكام ، باقية فيه لون اللازورود فى غاية الصفاء والتزويق بالنسبة إلى لازورود هذا الزمان .

واستمر عملهم المذكور إلى أن توفى المهدى (رحمه الله تعالى) لثمان بقين من المحرم سنة ١٩٩ هـ قبل أن يتم عمارة المسجد الحرام على الوجه الذى أراده ، وكان مولده فى جمادى الآخر سنة ١٣٧ هـ ، ومدة ملكه عشر سنين وشهراً ، وعاش ثلاثاً وأربعين سنة، وعقد الأمر لولده موسى الهادى .

★ ★ ★

فصـــل

فى ولاية أبى موسى الهادى بن المهدى بن المنصور العباسى ولد بالرى فى سنة ١٣٧ ، وأمه أم ولد ، تسمى : الخيزران والدة هارون الرشيد ، وكان حين موت والده بجرجان ، وقد عهد له والده بالخلافة فأخذ له البيعة هارون الرشيد لما مات أبوه ، لثمان بقين من المحرم سنة ١٣٩ ، ولم يلى الخلافة قبله أحداً فى مقدار سنة .

وركب خيل البريد من جرجان إلى بغداد ، لما بويع له بالخلافة ، وما ركبها خليفة غيره ، وكان طويلٌ جسيماً أبيضاً ، بشفته العليا تلقيص ؛ فيكثر لذلك فتح فمه ، ويغفل عن ذلك ؛ فيستمر فمه مفتوحاً ، فوكل به أبوه فى صباه خادماً كلما رآه مفتوح الفم ، قال له : موسى أطبق ، فينفق على نفسه، ويضم شفته ؛ فلقبه الناس : موسى أطبق ؛ فعرف بهذا اللقب .

وكان أوصاه أبوه بقتل الزنادقة ، فقتل منهم خلقاً كثيراً وكان شجاعاً كريماً، يعجبه المدح ، دخل عليه ابن أبى حفصة ، فأنشده قصيدة فى مدحه ، فلما بلغ إلى قوله :

تتشـــابه يومـاً بأســــه ونواله   فما أحد يدرى لأيهما الفضل

فقال له الهادى ، قبل أن يتمها : أيهما أحب إليك ، ثلاثون ألفاً معجلة ، أو سبعون ألفاً مؤجلة ؟ فقال : اجعلها لك كلها ، المعجل والمؤجل ، وعجلنا لك بهما ، وأمر له بمائة ألف .

وقد مدحه إبراهيم الموصلى بقصيدة أولها :

سليمى أزمعت بينا   فأيـن لقـــاؤنا أين

فأعطاه سبعمائة ألف .

وكان إكمال المسجد الحرام أول شىء ، أمر به الهادى ، وبادر الموكلون بذلك إلى إتمامه ، وكملوه إلى أن اتصل بعمارة المهدى ؛ وبنوا بعض أساطين الحرم الشريف من جانب باب أم هانئ الحجارة ؛ ثم طليت بالجص .

وكان العمل فى خلافة الهادى دون العمل فى خلافة المهدى ؛ فى الاستحكام والزينة والاهتمام ؛ ولكن كملت عمارة المسجد على الوجه الذى كان باقياً إلى هذه الأيام ، وما زيد بعد ذلك إلا الزيادتين ؛ كما نشرحهما إن شاء الله تعالى .

وهذه الأساطين الرخام جلبها المهدى من بلاد مصر والشام ، وأكثرها مجلوب من بلاد أخميم من أعمال مصر ، وهى بلدة خراب الآن من بلدان إقليم مصر القديمة كيرة الرخام ، يجلب منها إلى مصر وإلى غيرها من البلدان الرخام العظيمة والأعمدة اللطيفة المنحوتة المخروطة من الرخام الأبيض .

يقال : إن أكثر رخام المسجد منها .

ولم تطل مدة موسى الهادى ، وكان مدة ملكه ستة وشهراً ، وتوفى شاباً عمره أربع وعشرون سنة ، فى منتصف ربيع الأول سنة ١٧٠ ، واختلف فى سبب موته ، فقيل : أنه وقع نديماً له ، فتعلق به ، فوقع فى مقصبة ، فدخلت قصب فى مخارجها ، فماتا جميعاً .

وقيل : بل قتلته أمه الخيزران ؛ لأنه عمل على قتلها ، وأراد قتل أخيه هارون الرشيد ، ليولى العهد ولداً صغيراً من أولاده ، وعمره عشر سنين ، وكانت أمه الخيزران قد استبدت بالأمور العظام ، وكانت المواكب تقف على بابها ، فزجرها الهادى عن ذلك ، وقال لها : إن وقف أمير على بابك ، ضربت عنقه ، أما لك معزل يشغلك ، أو مصحف ، أو سبحة ؟ فقامت من عنده غضبى ، فبعث إليها طعاماً مسموماً ؛ فأطعمه للكلب ؛ فانتثر لحمه ، فعملت على قتله لما دخل للمنام ، وأمرت جواريها بأن يغمى وجهه بساط يجلس على جانبه ، فاشتد نفسه إلى أن مات .

وولى الخلافة من بعده ، بعهد من أبيه أخوه هارون الرشيد العباسى ، الخامس من العباسيين ، ليلة السبت ، لأربع عشرة ليلة ، بقيت من ربيع الأول سنة ١٧٠ هجرياً ، وأمه الخيزران أم الهادى ، وفيها قال مروان بن أبى حفص الشاعر :

يا خـــيزرانة هناك ثم هناك أضحى يسوس العالمين ابناك

وكان فصيحاً بليغاً كثير العبادة ، كثير الحج والغزو ، وكذلك يقول بعض الشعراء :

فمن يطــلب لقاءك أو يرده ففى الحرمين أو أقصى الثغور

وكان يحج عاماً ويغزو عاماً ، وقد يجمع بينهما فى عام واحد ، وكان يصلى فى خلافته كل يوم مائة ركعة ، لا يتركها إلا لعلة ، ويتصدق كل يوم بألف درهم ، ويحب العلم وأهله ، ويعظم حرمات الإسلام ، وبلغه عن بشر المريسى ، أنه كان يقول بخلق القرآن ، فقال : لئن ظفرت به ؛ لأضربن عنقه .

وكان يأتى بنفسه إلى بيت الفضل بن عياض (رضى الله عنه) ، ويعظمه، وكان يبكى على نفسه وعلى إسرافه وذنوبه ، وكان قاضيه الإمام ، أبو يوسف (رضى الله تعالى عنه) ، وكان يعظمه كثيراً ، ويمتثل أمره ، ويروى عن أبى معاوية الضرير ، قال : أكلت مع الرشيد يوماً ، وصب على يدى من لا أعرفه ، ثم قال : أتدرى من صب عليك ؟ قال : أنا ؛ إجلالاً للعلم .

وأراد الرشيد أن يوصل ما بين بحر الروم والقلزم ، ليهيأ له أن يغزو الروم ببلادهم ، فقال له يحيى بن خالد البرمكى : لو فعلت ذلك دخلت سفائن الروم أرض العرب ، واختطفوا المسلمين من المسجد الحرام ، فتركه ، وكانت أيام الرشيد أيام خير كأنها أعراس .

وله أخبار فى اللهو والملزات ، سامحه الله تعالى ، وله مناقب لا تحصى ، ومحاسن لا تستقصى ، وأنشد الصولى بن يعقوب بن جعفر :

خرج الرشيد فى السنة التى ولى فيها الخلافة إلى أطراف بلاد الروم ، وظفر ، وعاد ؛ فحج بالناس آخر السنة ، وفرق بالحرمين مالاً كثيراً ، وكان رأى النبى (ﷺ) فى النوم ، فقال له : إن هذا الأمر قد صار إليك فى هذا الشهر ، فاغزو وحج ، ووسع على الحرمين ؛ ففعل هذا كله فى عام واحد أول خلافته ؛ ذكر ذلك الحافظ السيوطى وغيره .

قال الحافظ النجم عمر بن فهد (رحمه الله تعالى) فى حوادث سنة ١٧٠هـ : « فيها حج هارون الرشيد بالناس، وفرق مالاً كثيراً ، وكان حجه، ما يشاء على اللبود ، تفرش له من منزل ، وقيل : إن الحجة التى حج فيها ما يشاء هى حجته فى سنة ١٧٧ هـ، وقال : وفى بعض حجات هارون الرشيد، أخلى له السعى ، ليسعى فتعلق ببغلته أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) ، فوقف له هارون ، وأقبل عليه ، فصاح به : يا هارون ، فقال : لبيك يا عم ، قال : ارق إلى الصفا، فلما رقاه قال : ارم بطرفك إلى البيت ، قال : قد فعلت ، فقال : كم هم (يعنى الحجيج) قال : ومن يحصيهم إلا الله تعالى ، قال : فاعلم أيها الرجل أن كل واحد من هذه الخلائق يحاسب عن خاصه نفسه ، ويسأل عنها وحدها يوم القيامة ، وأما أنت وحدك فتسأل عنهم أجمعين ، فانظر كيف جوابك حين تسأل يوم القيامة ؟ فبكى هارون بكاءً شديداً ، وجلس وخدمه يعطونه منديلاً ، بعد منديل ، وهو يبلها بدموعه ، فقال له : وأخرى أقولها، قال : قل يا عم ، فقال : إن الرجل إذا أساء التصريف فى ماله حجر عليه ، فكيف تسرف فى مال المسلمين وتسئ التصرف فيه وأنت تحاسب بين يدى الله تعالى على جميع ذلك ؟ فازداد بكاؤه ، وازداد نحيبه ، وأراد جنده أن يطرد الرجل عنه فكفهم عنه إلى أن فرغ من نصائحه ، وقام عنه بنفسه هارون يبكى ويتضرع ، ويستغفر .

★ ★ ★

فصل

وفى أثناء دولة الرشيد ، قدمت الخيزران أم الرشيد والهادى إلى مكة قبل الحج فى سنة ١٧١ هـ ، فأقامت إلى أن حجت ، وعملت الخيزران الخيرات، واشترت دوراً بالصفا إلى جانب دار الأرقم المخزومى ، التى تشتمل على مسجد مأثور ، يقال له « المجتبا » لأن النبى (ﷺ) كان يدعو فيه إلى الإسلام خفية من صولة المشركين فى أول البعث .

وأسلم فيه جماعة من الصحابة (رضى الله عنهم) ، ولما أسلم فيه عمر (رضى الله عنه) ظهر الإسلام ، وفيه الآن قبه ومزار يسمى « قبة الرحمن » .

وهذه الدور التى اشترتها الخيزران متصلة بهذا المزار الشريف ، وتسمى الآن دار الخيزران ، وكانت قد آلت إلى بعض الأشراف من بنى حسن ، ثم اشتراها صاحبها المرحوم المغفور المبرور المحسن المشكور الأمير المأمون بأجر عين عرفة إلى بلد الله المعمور ، الباذل نفسه وأولاده فى سبيل الله ؛ طلباً لنيل الثواب والأجور - دفتر دار مصر سابقاً صاحب اللواء السلطانى المنصور السعيد الشهيد المشهور المذكور بالإحسان إلى يوم النشور إبراهيم بيك بن تغرى بردى ، المهمندار أسكنه الله فى دار القرار جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار ، ثم ملكها من المرحوم بطريق الهدية على يد المرحوم رجب جلبى أفندى ، ناظر الدقات السليمية ، حضرة السلطان الأعظم سلطان ملوك العام ، ذى الخلق الحليم والطبع السليم المرحوم المغفور السلطان سليم ، نقله الله إلى جنات النعيم ، وملكه ملكاً أعظم من ملكه العظيم ، فملكها ، فهو نشأه زاده يومئذ قبل أن يلى تحت السلطانة العظمى ؛ ففرح بها كثيراً ، واستبشر بحصولها ، ونوى أن ينشئ فيها عمارة وخيرات ، وجهات تصرف إلى فقر هذه الجهات ، فلم يقدر على ذلك ، وزاحمته أمور الملك والسلطنة ، ومحى هذه الكفار ، وافتتاح بلاد قبرص وغيرها ، ولم يمكنه الزمان الجائر ، ولا ساعده الدهر الغادر ؛ ومكن حصل له ثواب ما نواه من الخيرات ، فالأعمال بالنيات ، وإن الأرض لله ، يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

هذه الدار من أملاك ملك العصر والزمان سلطان سلاطين الدهر ، فى هذا الأوان ، صاحب تخت السعادة والإسعاد ، وارث سريره الملك من الآباد والأجداد ، السلطان الأعظم الأكرم السلطان مراد ، خلد الله تعالى أيام سلطنته القاهرة إلى يوم الحشر ، والتناد والهمة العدل فى الرعية لإحياء رسوم المعدلة من العباد .

قلت : ولم أطلع للرشيد مع كثرة خيره على أنه عمر فى أيامه شيئاً من المسجد الحرام ، غير أن عامله بمصر موسى بن عيسى أهدى إلى مكة المشرفة

منبراً منقوشاً مكلفاً له سبع درجات ، فجعل فى المسجد الحرام أخذ المنبر القديم الذى يخطب عليه بمكة ، ووضع بعرفه ، وذلك فى أول حجات الرشيد ، وقيل : فى سنة من الهجرة ، ووصل إلى مكة المشرفة منبر صغير له ثلاث درجات ، ووضع فى وجه البيت الشريف ، فخطب عليه معاوية بن أبى سفيان ، وهو أول من خطب بمكة .

فكان الخلفاء والولاة بها قبل ذلك يخطبون بها قياماً على أقدامهم فى وجه الكعبة والحجر .

قال أبو الوليد الأزرقى : « حدثنى جدى عن عبد الرحمن بن حسن ، عن أبيه ، قال : أول من خطب بمكة على منبر معاوية بن أبى سفيان » ، وساق ما قدمناه فى ذلك ، ثم قال : « وذلك المنبر الذى جاء به معاوية ربما خرب ، وكان يعمر ، ولا يزاد فيه حتى حج الرشيد ، فأتى بمنبر له تسع درجات ، وخطب عليه ، وكان منبر مكة لم يغير إلى أيام الواثق بالله العباسى ، فأراد أن يحج ؛ فأمر أن يعمل له ثلاث منابر ، منبر بمكة ، ومنبر بمنى ، ومنبر بعرفات ، وحج وخطب عليها ، وفرق بالحرمين مالاً كثيراً .

وفى أيامنا التى أدركناها من الشباب إلى المشيب ، شاهدنا منابر عملها سلاطين عصرنا ، وسنذكرها إن شاء الله تعالى .

★ ★ ★

فصـــل

اعلم أن ما يتحققه العاقل ، ولا يذهل عنه إلا الأبله : أن الدنيا دار الأكدار ومحل الهموم والغموم والخسران ، وأن أخف الخلق بلاءً دائماً الفقراء ، وأعظم الناس تعباً وهماً وغماً ، هم الملوك والأمراء والكبراء .

ويقال : لكل شبر قامة من الهمٍّ .

وقيل شعر فى ذلك :

لقد قنعت همتى بالخمول وصدت عن الرتب العالية

وما جهلت طعم العلا ولكنهـا تورث العافية

وقيل فى ذلك أيضاً :

بقدر الصـعود يكون الهبوط فإيـاك والرتـب العـــالية

وكن فى مقامٍ إذا ما سقطت تقوم ورجـــلاك فى عافية

وطالما رضيت الملوك والسلاطين بحال الفقراء والضعفاء والمساكين شعر :

فـى كل بيت كربة ومصيبة ولعل بيتك إن رأيت أقلها

فارض بحال فقرك واشكر الله تعالى على خفة ظهرك ، ولا تتعد ، وقف على حدك تجد ذلك ؛ نعمة خفية ساقها الله تعالى إليك ، ورأفة ورحمة أفاضها الله تعالى من خزائن لطفه عليك .

فاعتبر بهذه الكلمات ، وخذ لنفسك حظاً وافراً من هذه العطايات .

وذلك أن هارون الرشيد ، من أعقل الخلفاد العباسيين وأكلمهم رأياً وتدبيراً وفطنة وقوة واتساع مملكة ، وكثرة خزائن ، بحيث كان يقول للسحاب : امطرى حيث شئت ، فإن خراج الأرض التى تمطرى فيها يحيى إلى .

ومع ذلك كان أتعبهم خاطراً ، وأسهر فكراً ، وأشغلهم قلباً ، وكان أولاده محمد الأمين من زبيدة بنت أبى جعفر القاسم .

● تقسيم الرشيد مملكته ما بين ولده الأمين والمأمون ، وما وقع :

وكانت زبيدة قد استولت على عقل الرشيد ، تتصرف فيه كيف أرادت ، وكان ولده منها - محمد الأمين - كثير الترف والدلال، كثير اللهو واللعب ، ملعوباً على عقله ، لا يصلح للملك ولا يستحق الخلافة .

وولده الثانى من جارية سوداء ، اسمها مراجل ، من جوارى المطبخ ، ماتت فى نفاسها ، وهو عبد الله المأمون أتم عقلاً وأكمل رأياً ، وأصح تدبيراً وأكثر فضلاً ومعرفة ، فيه صلاح لتدبير الملك وأهلية لأن يصير خلفاً عن أبيه فى خلافته .

وما قدر أبوه أن يجعله ولى عهده من بعده ، محاذرة على خاطر زبيدة من ذلك ؛ فجعل محمد الأمين ولى عهده فى سنة ١٧٥ هـ ، ولقبه بالأمين وعمره يومئذ سنين ، تحرص أمه زبيدة على ذلك .

وجعل عبد الله المأمون ولى العهد بعد محمد الأمين ، فى سنة ١٧٩ ، وولاه ممالك خراسان بأسرها ، وعهد إلى ولده في الثالث فى سنة ١٨٩ ، وولاه الجزيرة والثغور وهو صبى ، ولقبه المؤتمن ، وقسم مملكته بين هذه الثلاثة ، فقالت العقلاء : لقد ألقى بينهم ، وأضر الرعية بهم .

قال عبد الملك بن صالح :

الله قلدها هارون خلافته ... لما اصطفاه فأحيا الدين والسننا
وقلد الأمر هارون لرأفته ... بنى أميناً ومأموناً ومؤتمناً

وطوى الرشيد الملك عن ولده الرابع ، وهو المعتصم ؛ لكونه أمياً ، فأراد الله تعالى خلاف ما أراد به الرشيد ، وقتل محمد الأمين على يد عبد الله المأمون ، وصارت الخلافة بعد المأمون إلى محمد المعتصم ، ساقها الله تعالى إليه وجعل الخلفاء كلهم من نسله ، ولم يجعلها من غير نسله من أولاد الرشيد ، وأن الملك بيد الله يومئذ يؤتيه من يشاء .

وكان الرشيد لما كمل عهده لأولاده المذكورين ، فبايعوهم وعاهدوهم ، وكتب بذلك عهداً محكماً ، وكتاباً مبرماً ، ووضع الأعيان والأكابر والأركان والأمراء والكبراء خطوطهم عليه ، وجهزهم إلى بيت الله تعالى ، وأمر بتعليقه فى وسط الكعبة الشريفة ليشتد الوثوق به ، ولا يقع خلافه .

وفى ذلك قال إبراهيم الموصلى :

خير الأمور معية ... وأحق الأمر بالتمام
أمر قضى أحكامه ... مولاى فى البيت الحرام

ولم يغن ذلك التدبير عما رقمه قلم التدبير فى لوح المقادير ، والله على كل شيء قدير :

ولو كانت الدنيا تنال بغبطة وتدبير رأى نيل أعلى المطالب
ولكنما الأقدار تجرى بقدرة من الله لا يجدى تدابير طالب

قال شيخ شيوخنا الحافظ السيوطى (رحمه الله تعالى) ، وذكر محمد بن الصباح الطبرى : أن أباه شيع الرشيد من خراسان إلى النهروان ، فجعل يحادثه فى الطريق ، ويشكو الرشيد همومه ، ويتنفس عنده نفاثات الصدور إلى أن قال له : يا صباح ، أظنك لا ترانى بعد هذا ، فقلت : بل يطيل الله عمر أمير المؤمنين ، ونفديه بأرواحنا ويعيش سالماً من الآفات ، فقال : إنك لا تدرى ما أجد ، فقلت : لا والله ، فقال : تعالى حتى أريك ما أخفيه عن غيرك ، وتنحى عن الطريق ، وأومأ إلى من عنده بالتنحى عنه ، فأبعد عنهم وهم يرمقونه بطرف خفى ، ثم قال : أمانة الله يا صباح اكتم امرى ، فقلت: نعم ، فكشف عن بطنه ، فإذا عصابة جرير عريض معصوبة على بطنه ، فقال : اكتمها عن كل أحد وحولى رقباء ، وكل واحد من أولادى يعدون أنفاسى علىّ .

فمسرور رقيب المأمون ، وجبريل بن يختيشوع رقيب الأمين ، وفلان ، وعد ثلاثاً ، والسينة رقيب المؤتمن ، وكل منهم يحصى أيامى وساعاتى ، ويستطيل عمرى وحياتى ، ويظهر ذلك الآن منهم ، فإن طلبت برذوناً لركوبى، فيأتون به أعجف ضعيفاً ، يزيد فى علتى ، ويضاعف علىّ مرضى، ثم طلب منهم برذوناً لركوبه ، فأتوه ببرذون عاجز منقطع يتعب راكبه ، كما ذكر - وهو يدارمهم ويصبر على ما يكابده منهم ، فنظر إلىّ نظرة حزين مكروب وركب ذلك البرذون ، فقبلت رجله وأودعته ، وفارقته ، وهم ينظرون إلىّ نظرة خفت عاقبتها ، وكف الله تعالى شرهم .

واستمر الرشيد عليلاً إلى أن بلغنى وفاته بطوس (رحمه الله تعالى) انظر إلى هذا الملك الجليل، والخليفة النبيل، والسلطان الذى قل أن يوجد له مثيل، وهو عاجز فى يد غلمانه مغلوب عليه فى ملكه وسلطانه متحسر على عظم شأنه ، متأسف على علو مكانه ، بيده خزائن الأرض ، وما يملك منها نقيراً ولا قطميراً ، ولا يقدر على شىء ، وكان ربك قديراً .

ولما جردت المنية موسى الحمام على هارون ، ومزق ثياب رشد الرشيد ، مخالب المنون ، وخلعت عنه خلع الخلافة ، والسلطان ، وغسلته سماء الدموع بماء الأجفان ، وحنطته بحنوط أعماله ، وأدرجته فى أكفان خصاله وحلالته ، ونقلته من سرور السعود إلى حدود اللحود ؛ فمضى كأن لم يكن شيئاً مذكوراً ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً (١) .

وقد حكى : أن الرشيد كان رأى مناماً أنه يموت بطوس ، فلما وصل إلى طوسى ، وقد غلب عليه الوعك عرف أنه ميت فبكى ، واختار لنفسه مدفناً ، وقال : احفروا لى قبراً فى هذا المحل ، فحفروا له ، فقال : قربونى شفيرة ، فحملوه فى قبة ؛ إلى أن أتى القبر ؛ فسالت عبرته ، وزادت عبرته ، وقال : يا ابن آدم إلى أن تصير ، ولا بد من هذا المصير .

وأمر أن ينزل إلى لحده من يقرأ ختمة فيه ، ففعلوا ذلك ؛ فمات وصلى عليه ابنه صالح ، وأُلحِد فى القبر بطوس لثلاث مضين من جمادى الآخر سنة ١٩١ هـ ، وتقدم أن مولده بالرى ، وكانت مدة ملكه ثلاثاً وعشرين سنة وشهرين ، ونصف شهر رحمه الله تعالى .

★ ★ ★

فصل

لما توفى الرشيد ولى الخلافة ولده محمد الأمين ، وكان مليح الصورة أبيضاً فصيحاً جميلاً بليغاً ، سبى التدبير كثير التبذير ، ضعيف الرأى أرعن ، لا يصغى إلى قول المشير .

ولما ولى الخلافة اتخذ اللهو شعاراً ، وشرب الخمر خماراً ، وخلع العذار فى العذارى ، واشترى عريب المغنية بمائة ألف دينار ، وأخذ جارية ان عمه إبراهيم المهدى بعشرين ألف دينار ، وعزل أخاه المؤتمن ، وخلع أخاه المأمون،

---

(١) المقصود الآية رقم ٣٨ من سورة الأحزاب ، مدنية .

وأرسل إلى الكعبة المعظمة من جاءه بصحيفة عهد والده له ولأخوته ؛ فمزقها، وعهد إلى ولد له رضيع سماه الناطق بالحق ، ودعا له على المنابر .

وممن نصح الأمين ، ومنعه من هذا الغدر والنكث خادم ابن ابن حريمة ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ، لن ينصحك من كذبك ، ولم يغشك من صدقك ، وإنى أنصحك ولا أصدقك ، ولا أكذب فى نصحك ، لا تجرى العواد على الخلع ؛ فيخلعوك ، ولا تحملهم على نكث العهد ؛ فينكثون عهدك ، وإن الغدر رشوم ، والناكث منكوب مغلوب ، وصاحب الحق مظلوم وجرت العادة بنصرة المظلوم ، وتوجه القلوب إليه ، ورقة النفوس له .

ولذلك تأثير فى الظاهر والباطن ، فأبى الأمين منه ، ونبذ كلامه ، وعمل برأيه السقيم وصمم على ذلك أشد تصميم ، وأرسل المأمون لقتاله طاهر بن الحسين ، ومعه أربعة آلاف مقاتل .

وأرسل جيشاً مع على بن عيسى على أخيه المأمون ، عدتهم أربعون ألفاً ، فانهزم عيسى بن على ، وقتل وذبح وتشتت عسكره ، وجاء طاهر بن حسين برأسه إلى المأمون لذلك : ﴿وكم من فئة قليلة ، غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾(١) فقوى قلب المأمون لذلك ، وكثر أتباعه ، ومال الناس إليه ، فجمع الجموع، وسار إلى بغداد لقتال أخيه الأمين، ولا زال أمر المأمون يحسن بحسن تدبيره، وإتيان الناس إليه ، ويضعف أمر الأمين بكثرة لهوه ، وتقصيره ، ونفور القلوب عنه ، إلى أن حضر فى بغداد ، وتفرقت عنه جنوده ، وهربوا إلى المأمون ، كل ذلك والأمين فى لهوه وغفلته ، ولعبه مع نسائه بحضرته واحتجابه عن أهل دولته ، إلى أن هجم طاهر بن الحسين ، ودخل بغداد ، فجاء مسرور الخادم إلى الأمين ، وهو فى جنب حوض ماء ، مع جواريه يصيد معهن السمك فى ذلك الحوض .

وكان وضع فى أنف كل سمكة درة نفيسة ، شبكتها بقصب الذهب ، فكل من صادت من جواريه سمكة كانت الدرة التى فى أنفها لصائدتها ، فرفع

---

(١) الآية رقم ٢٤٩ من سورة البقرة ، مدنية .

الأمين رأسه إلى مسرور ، فقال له : إن طاهر بن الحسين دخل بعسكره إلى بغداد ، فقال : دعنى ، فإن الجارية فلانة صادت مشنقتين ، وأنا ما صدت شيئاً ، فرجع مسرور باهتاً ، وإذا بالجند قد حاطوا بدار الخلافة ونهبوها ، وأمسك طاهر بن الحسين الأمين بيده ، وحبسه ، فلما شاهد الأمين هذاي الحال ، قال لظاهر بن الحسين : يا طاهر ؛ اعلم أنه ما قام لنا قائم قط ، وكان جزاؤه عندنا إلا السيف ، انظر لنفسك ، أو دع يلوح بأبى مسلم وأمثاله الذى بذلوا أموالهم فى قيام الدولة ، فكان مالهم إلى القتل ، فهذه عادة الله تعالى فى مقيمى الدولة كعمرو بن سعيد ، أقام دولة عبد الملك بن مروان ؛ فقتله ، وأبى مسلم الخراسانى قام بدولة السفاح فقتله المنصور ، وكعبد الله القائم بدولة العبيديين ، قتله عبد الله المهدى .

وأمثال ذلك كثيرة - فيمن ذكرت - فأثرن هذه الكلمات فى قلب طاهر ، وصار يخدر منها ، إلى أن كان آخر قتله بيد المأمون .

ولما رأى طاهر بن الحسين بعد الاستيلاء على الأمين ، وحسه ، عدم سكون الفتنة ، أدخل عجماً لا يعرفون اللسان على الأمين وأمرهم بقتله ، فقتلوه ، وأخذ برأسه وطيف بها فى مدينة بغداد ، ونودى عليه هذا رأس المخلوع ، إلى أن سكنت الفتنة وكان ذلك فى محرم سنة ١٩٨ هـ .

قال محمد بن راشد : أخبرنى إبراهيم بن المهدى : أنه كان مع الأمين لما حوصر ؛ فطلبنى فى ليلة مقمرة ؛ فجئته ، فقال : ما ترى فى حسن هذه الليلة ، وضوء هذا القمر ، فاشرب معى نبيذاً ، فقلت : نعم ، فسقانى ، ثم طلب جارية مغنية ، فجأت جارية اسمها ضعف فتطيرت منها ، وغنت بشعر النابغة الجعدى :

كليب لعمرى كان أكثر صراً   وأيسر ذنياً منك صرح بالدّم

فتطيب من ذلك ، وقال : غنى غير هذا ، فغنت :

أبكى فراقهم يوماً فأرقنى   إن التفرق للأحباب بكاء

ما زال يعد وعليهم ذئب دهرهم   حتى تفانوا وريب الدهر عداء

فقال لها : لعنك الله ، أما تعرفين غير هذا ؟ فقالت :

أما ورب السـكون والحرك إن المنايا كـثيرة الشـرك
ما اختلف الليل والنهار ولا دارت نجوم السماء فى الفلك
إلا لنقل السلطان عن ملكٍ قد زال سـلطانه إلى ملك
وملك ذو العرش دائماً أبداً ليس بفـانٍ ولا مشـترك

فقال لها : قومى لعنك الله ، فقامت ، فعثرت فى كأس بلور ؛ فكسرته ، فازداد تطيره ، فقال له إبراهيم : ما أظن أمرى إلا قد قرب ، وإذا بصوت سمعناه فى الشارع ، قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ؛ فقام مغتماً ، وقمت عنه ، فأخذ بعد ليلتين وقتل (تجاوز الله عنه) .

وعظم قتل الأمين على المأمون ، وكان يريد أن يرسل به طاهر بن الحسين إليه ، ليرى رأيه فيه ، فحقد ذلك عن طاهر حتى عاش طريداً بعيداً ، وآل عمره إلى ما آل .

★ ★ ★

فصـل

لما تم على الأمين ما تم ، وكان على أمه زبيدة أشد ما تم ، آل الملك إلى عبد الله المأمون بعد قتل أخيه فى سنة ١٩٨ هـ ، وكان من رجال بنى العباس حزماً وعلماً وحلماً وفراسة ، وفيها سمع الحديث على جماعة ، وتأدب وفقه وبرع فى فنون التاريخ والأدب .

ولما كبر اعتنى بالفلسفة ، وفنون علم الأوائل ، فضلّ وأضل ، ومحن الناس بالقول بخلق القرآن ، ولولا ذلك لكان يعد من أكمل الخلفاء ، وكان يضرب المثل بحمله ومن أنصافه : أنه رأى أن آل بيت النبى (ﷺ) أحق بالخلافة من غيرهم ؛ فهم بخلع نفسه وتفويض الأمر إلى على بن عيسى الكاظم ، وهو الذى لقبه بالرّضى ، وضرب الدراهم والدنانير باسمه ، وزوجه ابنته ، وأمره بترك السواد ، ولبس الخضرة ، وجعله ولى عهد فى

الخلافة ، فاشتد ذلك على بنى العباس وخرجوا عليه ، وبايعوا إبراهيم بن المهدى ، ولقبوه المبارك فسار المأمون عليه ؛ فهرب منه ، واختفى ثمان سنين ، ثم جاء إلى المأمون فى صفر سنة ٢١٠ هـ ، وتوفى على بن موسى الرّضا فى سنة ٢٣٠ ، وأسف عليه المأمون ، وأراد إقامة غيره .

وذكر الصولى : أن بعض أصحابه ، قال له : إنك فى بركة بأولاد على بن أبى طالب (رضى الله عنه) ، والأمر على برهم ، والأمر فيهم وكلمه العباسيون فى إعادة لبس السّواد ؛ فأبى ، فكرروا عليه ذلك ، إلى أن أجابهم إلى ذلك ، وأعاد شعار السواد ، وكان كثير الجهاد ، وهو الذى فتح قرة حصار ، وكان كثير العبادة ، فقيل : إنه ختم فى شهر رمضان ثلاثة وستين ختمة ، وكان العلماء محجوبين فى أيامه ، يجبرهم على القول بخلق القرآن؛ فدعوا عليه ، فأهلكه الله تعالى ، ويقال : أن سبب موته ، أنه اشترى كل سمكة تسمى الرعادة إن لمسها أحد ، أخذته النفاضة من ساعته لشدة بردها ؛ فأكل منها فمات لوقته .

وما أمن المأمون من إطهار ويب المنون ، ونقل من الملك جسمه إلى الهلك المصون ، وأولاه التراب عن الأحباب ، وسالت عليه العيون ، ورجع إلى ربه الكريم ، فإنا لله وإنا إليه راجعون (١) .

وكانت وفاته لاثنى عشر ليلة ، بقيت من رجب سنة ٢١٨ ، بأرض الروم، ودفن بطرسوس ، وفيه قال أبو سعد المخزومى :

خلفوه بعريصتى طرسوس مثلما خلفوا أباه بطوس

هل رأيت النجوم أغنت عن المأمون أو عن ملكه المأسوس

★ ★ ★

فصل

لما مات المأمون ، ولى بعده الخلافة ، أبو إسحاق محمد المعتصم بن

---

(١) المقصود الآية رقم ١٥٦ من سورة البقرة ، مدنية .

هارون الرشيد ، مولده سنة ١٨٠ هـ ، وكان يقال له المثمن ؛ لأنه ثامن الخلفاء ، وثامن أولاد الرشيد ، والثامن من أولاد العباس ، واستخلف سنة ٣١٢ هـ ، وملك ثمانية أعوام ، وعاش ثمانية وأربعين سنة .

قال الصولى : كان مع المعتصم غلام فى الكتاب يتعلم معه القرآن ، فمات الغلام ، فقال له الرشيد : يا محمد مات غلامك ، فقال : يا سيدى قد استراح من الكتاب ، فقال : يا ولدى ، إن الكتاب يبلغ منك هذا المبلغ ؟! وقال لمعلمه : اتركه لا تعلمه شيئاً ، فانتشأ عامياً يكتب كتابة مغشوشة ، ويقرأ قراءة ضعيفة .

وقال نفطويه : كان المعتصم من أشد الناس قوة وبطشاً ، كان يجعل زند الرجل بين إصبعيه ؛ فيكسره .

نقل ذلك الحافظ السيوطى ، وتلك قوة عظيمة ما وصل إليها أحد ، وهو أول من أدخل الأتراك الدواوين ، وكان يشبه بملوك الأعاجم ، وبلغ غلمانه الأتراك ثمانية عشر ألفاً ، وبعث إلى سمرقند، وفرغانة أموالاً لشراء الأتراك، وألبسهم أطواق الذهب والديباج ، وكانوا يطردون الخيل فى بغداد ، ويؤذون الناس ، وضاقت بهم البلد ، فشكاهم أهل بغداد إلى المعتصم ، واجتمعوا على بابه ، وقالوا : إن لم تخرج جندك الأتراك عنا ، حاربناك ، قال : تحاربونى ، وأنتم عاجزون عن حربى ؟ فقالوا : نرمك بسهام الأسحار ، ونسل عليك بسيوف الدعاء ، فقال : والله لا أطيق ذلك ؛ ولكن انظرنى لأنظر لى إلى بلدٍ أنتقل بهم فيها ، ولا تتضرروا واد ، وكفوا عنى سهام دعائكم ، فبنى مدينة « سر من رأى » بقرب بغداد ، وانتقل إليها فى سنة ٢٠٣ ، وللمعتصم عدة غزوات مع الكفار ، أشهرها غزوة عمورية ظهرت له فيها اليد البيضاء ، ونصر فيها الملة المحمدية الغراء وخذل فيها الكفار أعداد الدين ، وأعز فيها يالإسلام والمسلمين .

وملخصها أن ملك الروم أرسل كتاباً إلى المعتصم يهدده ؛ فاستشاط غضباً، وأمر بجوابه ، فكتب له الجواب ، فلم يرضه شىء منها ، ومزق الكتاب الذى ورد عليه .

وأمر أن يكتب فى ظهره قطعة منها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الجواب ما تراه لا ما تقرؤه ، وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار » ، وتجهز من ساعته ؛ فمنعه المنجمون ، وقالوا : إن الطالع نحس .

فقال : هو نحس عليهم لا علينا ، وتلاحقته العكسر ، ووقع فيه حرب عظيم ، قتل ستون ألفاً من النصارى ، وأسر منهم ستون ألفاً ، وهرب ملكهم ، وتحصن بحصن عمورية ، فخاصره المعتصم ، ونزل به إلى أن فتحه، وأسر ذلك الملك الكافر ، وقتله وكان ذلك فتحاً عظيماً من أعظم فتوح الإسلام ، ومدحه الشعراء بقصائد طنانة .

وأحسن ما قيل فيها قصيدة أبى تمام التى سارت بها الركبان ، وطنت حصارتها فيها الأسماع والأذهان ، وهى هذه القصيدة :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف من ... متونهن جلاء الشك والريب
والعلم فى شهب الأرماح لامعة ... بين الخميسين لا فى السعة الشهب
أين الرواية بل أين النجوم وما ... صاغوه من زخرف منها ومن كذب
ولو تبين أمر قبل موقعه ... ما يخف ما حل بالأوثان والصلب
فيه تفتح أبواب السماء له ... وهزت الأرض من أثوابها القشب
تدبير معتصم بالله منتقم ... لله مرتقب فى الله مرتغب
لم يغز قوماً ولم ينهض إلى بلد ... إلا تقدمه جيش من الرعب
ولم يقد جحفلاً يوم الوغى لغدا ... من نفسه وحدها فى عسكر لجب
غداك جر الثغور المستضافة عن ... برق الثغور وعن سلسالها الخصب
حتى تركت عمود الشرك منعفراً ... ولم تعرج على الأوتاد والطنب
إن الأسود أسود القاب هِمتها ... يوم الكريهة فى المسلوب لا السلب
خليفة الله جاز الله سعيك عن ... جرثومة الدين والإسلام والحسب

إن كان بين ضروب الدهر من رحم ... موصولة أو ذمامٍ غير منعصب
بين أيامك التى نصـــرت بها ... وبين أيـام دراً قــر النســب

انظر هذا الدر المندور ، والجوهر الذى يزرى بجواهر العقود ، وتنزه فى رياض ألفاظه ومعانيه ، واجن ثمار البلاغة من معاطف أزهاره ومجانية .

وخذ بالحظ الوافر ، من ذوق تراكيبه ومبانيه ، وكان المعتصم من أغلظ الخلفاء الذين ألزموا الناس بالقول بخلق القرآن ، وهذه من أعظم خصاله الردّية ، مع أنه كان عامياً ، لاحظ له من الكمالات العلمية ، بل جهله على ذلك مجرد الجهل والعصبية وما كان أغناه هو وأخوه عن إلزام العلماء بهذه الجهليات عدواً وبغياً .

وما لهم والدخول فى هذه المسالك الضيقة ، ضلالاً وغياماً ، وما حملهم على ذلك غير الجهل والغرور بهذه الدنيا ، حاضراً ولا يظلم ربك أحد .

ولما جرد عليه الأجل سيف المنون ، فاعصم المعتصم ظهور الحسن ، ولا منعه من جسام الحمام ، مال ولا بنون .

كل حــى فى الحــمام فؤادى ... مالحـــى مؤمـل من خـــلود
لا يهــاب المنون شـــىء ولا ... يرعـى عـلى والـد ولا مولـــود
يقدح الدهر فى تباريح رضـوى ... ويحــط الصخـــور من هبود
ولقــد تركت الحــوادث والأيام ... أيـام وهـناً فى الصخرة الجــلود
كأنــا كالزرع يحصـــــدنا الد ... هـر فمــن بين قائـم وحصـــيد
يحكــم الله مـا يشـاء ويمضـى ... ليس حـــكم الله بالمــردود
ليس ينجــى مـن المنون حصـون ... عاليات ، ولا حصـــار جديد

ومن أرجى دعائه لما احتضر : اللهم إنك تعلم أنى أخافك من قبلى لا من قبلك ، وأرجوك من قبلك لا من قبلي ، فيا من لا يزول ملكه ، ارحم ملكاً

★ ★ ★

فصــل

ولى الخلافة بعد المعتصم أبو جعفر هارون ، ولقب الواثق بالله [1] فى تاسع ربيع الأول سنة ٣٣٨ هـ ، ومولده لعشر بقين من شعبان سنة ٢٩٩ هـ، وأمه أم ولد رومية اسمها قراخيس .

واستخلف تركياً اسمه أنساس ، ولقبه السلطان ، وهو أول خليفة استخلف سلطاناً ، وألبسه وشاحين مجوهرين ، وتاجاً مجوهراً ، وتبع أباه فى الأمر بالقول بخلق القرآن ، ثم رجع عن ذلك فى آخر أمره .

قال الخطيب [2] : كان أحمد بن أبى داود قد استولى على الواثق ، حمله على التشديد بالقول بخلق القرآن ، فحمل إليه رجل ممن خالفه فى هذه المحنة وابن أبى داود حاضر ، فقال الرجل ، وهو مكبل فى الحديد : أخبرونى عن هذا الراوى الذى دعوتم الناس إليه ، هل هو شيء علمه رسول الله (ﷺ) فلم يدع الناس إليه ، أو هو شيء لم يعلمه ؟

فقال ابن داود : بل علمه ، فقال الرجل : وسع النبى (ﷺ) أن يسكت عنه ، وأنتم لا يسعكم ، فبهتوا ، وضحك الواثق ، وقام قابضاً على فمه ، ودخل بيته ، ومد رجله ، وهو يقول : وسع النبى أن يسكت عنه ، ونحن لا

---

(١) الواثق بالله ؛ هو : هارون بن المعتصم بالله محمد بن الرشيد هارون الهاشمى العباسى البغدادى ؛ أبو جعفر ، أمه : أم ولد رومية تسمى : قراطيس ، ولد لعشر بقين من شعبان سنة ١٩٦ هـ ، كان من القائلين بخلق القرآن ، توفى بسامرا فى يوم الأربعاء لست بقين من ذى الحجة من سنة ٢٣٢ هـ . تاريخي الخميس : ٢/ ٣٣٧ .

(٢) الخطيب ؛ هو : الحافظ أبو بكر أحمد بن على المعروف بالخطيب البغدادى ، توفى سنة ٤٦٣ هـ ، هو ثانى من كتب فى تاريخ بغداد بعد أحمد بن أبى طاهر البغدادى ، وقد كتب الخطيب البغدادى تاريخه على طريقة المحدثين جمع فيه رجالها ومن ورد بها وضم إليه فوائد جمة ، فصار كتاباً عظيم الحجم والنفع . كشف الظنون : ١/ ٢٨٨ .

يسعنا ، وأمر أن يعطى الرجل ثلثمائة دينار ، وأن يرد إلى بلده ولم يمتحن أحد بعد ، ومقت ابن أبى داود من يومئذ ، ولم يرتفع له شأن .

والرجل هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن محمد الأزدى ، شيخ النسائى ، كان الواثق عالماً شاعراً ، حاذقاً كبيراً ، لا كل أكثر بنى العباس رواية للشعر، ومن شعره فى واقعة حال هذه الأبيات :

حياك بالنرجس والورد   معتدل القامة والقد

فألهبت عينيه نار الجوى   وزاد فى اللوعة والوجد

آملت بالملك وصالاً به   فصار ملكى سبب البعد

مولى يشكو الظلم من عبده   فانصفوا المولى من العبد

قال الصولى: أجمعوا على أنه ليس لأحد من الخلفاء مثل هذه الأبيات، فى الرقة واللطافة .

مات من رأى : يوم الأربعاء لست بقين من ذى الحجة فى سنة ٣٣٣ ، وحكى : أنه لما مات ترك وحده ، وانشغل الناس بالبيعة للمتوكل ، فجاء حردون واستل عينه ، وأكلها ؛ فسبحان العزيز المتعال ، وتبارك القوى القادر ذو الجلال بيده الملك ، لا يزول ولا يزال ، ثم ولى بعده أخوه المتوكل على الله بن المعتصم بن الرشيد العباسى ، مولده سنة ٣٣٥ هـ ، وبويع له بالخلافة فى اليوم الذى مات فيه أخوه .

وأمه أم ولد تركيه اسمها سجاع ، وكان كريماً ، ما أعطى خليفة شاعراً ما أعطاه المتوكل ، وكان سنياً ، أظهر السنة وأكرم علم الحديث ، وأمات البدع ومنع القول بخلق القرآن ، وألزم النصارى بلبس الزرقى وشيع على الجهمية والمعتزلة ، وأمر نائبه بمصر أن يحلق لحيه قاضى مصر محمد بن أبى الليث ، ويطوف به على الأسواق على حمار لأنه كان جهمياً معتزلاً ، يقول بالجهمية وخلق القرآن ، ففعل به ذلك .

ومن أفعاله بالشيعة ؛ أنه هدم قبر الحسين بن على بن أبى طالب (رضى

الله عنه) فى سنة ٣٣٧ هـ ، وهدم ما حوله من الدور ، وجعله مزرعة ، ومنع من زيارته ، فتألم الناس من ذلك ، وكتبوا اسمه على الحيطان ، وقيل فيه شعر :

تا الله إن كانت أمية قد أتت   قبل بيت بنيها مظلوماً
فلقد أتى بنو أبيه بمثله   هذا لعمرى قبره مهدوماً
أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا   فى قتله ، فتتبعوه رميماً

وهذا الفعل السيئ ، محى جميع محاسنه ، وصار ما عذب من زلال إحسانه ، مغلوباً بأجاجه وأسنه ، وعدت عليه هذه الزلة أفضح فضيحة وهذه الخلة الشنيعة أقبح قبيحة ، ووقعت فى أيامه عجائب منها :

أن النجوم ماجت فى السماء ، وتناثرت الكواك بالجراد ، ولم يعهد قط مثل ذلك ، ورجمت قرية السويدا بناحية مصر ، بجبل باليمن عليه مزارع إلى آخر ، ووقع فى جبل طائر أبيض ، دون الرحمة ، فصاح : يا معشر الناس اتقوا الله أربعين مرة ، وجاء من الغد ، ففعل كذلك ؛ فكتبوا خبر ذلك على البريد إلى بغداد ، وكتبوا فيه شهادة خمسمائة إنسان سمعوا ذلك بآذانهم ، وذلك فى رمضان سنة ٣٣١ هـ .

وحصلت الزلازل ، وغارت عيون مكة ، فأرسل المتوكل إلى مكة مائة ألف ديناراً ذهباً ؛ لإجراء عين عرفات إليها ، فصرفت فيها إلى أن جرت ؛ كذا ذكره السيوطى (رحمه الله تعالى) .

وذكر الحافظ نجم الدين عمر بن فهد فى كتابه « إتحاف الورى بأخبار أم القرى » : « فى حوادث سنة ٣٥٢ هـ ، فيها غارت « عين مشاش » ، وهى عين مكة ، فبلغ ثمن القربة درهماً ، فبعث المتوكل إلى الله ، جعفر بن المعتصم مالاً ، فأنفق عليه حتى جرت ؛ كذا ذكره بن الأثير فى تاريخه .

وهذه العين من عمل زبيدة وهى عين باذان ظناً » . انتهى .

قلت : عين مشاش : موجودة إلى الآن ، وهى من جملة العيون ، التى

تنضب فى ذيل عين حنين ، وهى تجرى ، وتضعف أحياناً لقلة المطر ، ومحلها معروف .

ولما كثر المماليك الأتاك فى بغداد ، وادّخلوا فى أمر الملك استولوا على المملكة ، وصار بيدهم الحل والعقد والولاية ، والعزل إلى أن حملهم الطغيان على العدوان ، وسطوا على الخليفة المتوكل لما أراد أن يصادر مملوك أبيه وصيف التركى ؛ لكثرة أمواله ، وخزائنه ؛ فتعصب له باعز التركى ، وانحرف الأتراك عنه ؛ فدخل باعز عليه ومعه عشرة أتراك ، وهو فى مجلس أنسه ، وعند - وزيره ، الفتح بن خاقان ، بعد أن مضى من الليل ثلاث ساعات .

فصاح الفتح : ويلكم هذا سيدكم ، وابن سيدكم ، وهرب من كان حوله من الغلمان والندماء على وجوههم ، وبقى الفتح وحده ، والمتوكل غائب عن نفسه من السكر ؛ فضربه باعذ بالسيف على عاتقه ، فقده إلى خصره ، فطرح الفتح نفسه عليه ، فضربهما باعذ ضربة ثانية ، فماتا جميعاً ، فلفهما معاً فى بساط ، ومضى هو ومن معه ، ولم يتضح فى ذلك شاتان .

وكان قتله فى ليلة الأربعاء ، لليلتين مضتا من شوال سنة ٣٣٧ فى القصر الجعفرى ، وكان بناه المتوكل - ولما قتل دفن فيه (رحمه الله) هو ووزيره الفتح بن خاقان الذى قتل معه (رحمه الله) .

وكانت ولايته وخلافته عشرين عاماً ، وعمره إحدى وأربعون سنة ، وولى بعده ولده محمد أبو جعفر المنتصر بالله (١) بن المتوكل على الله بن المعتصم ابن هارون الرشيد ، بويع له بالخلافة بعد قتل أبيه ، ولم يتهن بالملك لاستيلاء المماليك الأتراك على المملكة .

وقيل : إنه واطأ الأتراك على قتل أبيه ، ليلى الخلافة بعده ، والله أعلم بذلك ، وكان على حذر من الأتراك ، ويسبهم ، ويقول : هؤلاء قتلة الخلفاء

---

(١) المنتصر بالله ؛ هو : محمد بن المتوكل جعفر بن المعتصم محمد بن الرشيد هارن بن المهدى محمد بن أبى جعفر ، أمه : أم ولد رومية اسمها : حبشة ، تسلم الخلافة صبيحة قتل والده المتوكل . مات بعد أن ولى الخلافة بستة أشهر فقد وليها فى شوال ، ومات فى شهر ربيع الآخر ، وكان مدة عمره ستاً وعشرين سنة . تاريخ الخميس : ٢/٣٣٩ ، ٣٤٠ .

فلم يأمنوه ، وأرادوا قتله ؛ فما أمكنهم الإقدام على ذلك لشدة محازرته منهم، فدسوا إلى طبيبه ابن طيفون ثلاثين ألف دينار عند توعيكه ؛ ليسمه ، فقصده بمبضع مسموم ، فأحسن بذلك ، وأراد قتل الطبيب ، قال : إنك تصبح طيب وتندم على قتلى ، فأمهلنى إلى الصبح ، فأمهله فأصبح ميتاً .

ويحكى أنه بات ليلة فى وعكه ، وابنه فزعاً ، وهو يبكى ، فسألته أمه : ما يبكيك ؟ فقال : أفسدت فيها دينى ودنياى ، رأيت أبى الساعة ، وهو يقول : قتلتنى يا محمد لأجل الخلافة ، والله لا تتمتع بها إلا أيام قلائل ، ثم مصيرك إلى النار ، فاستمر موهوماً من هذا المنام ، فما عاش بعد ذلك ، إلا أياماً قليلة .

وذكر ابن يحيى المنجم : أن المنتصر جلس يوماً للهو ، وأمر بفرش بساط من زخائر الخزينة ، تداولته الملوك ، ففرش ، فرأى فيه صورة رأس ، رأى عليه نساج وعليه كتابة فارسية فطلب من يستخرج تلك الكتابة ، أحضر لذلك رجل من الأعاجم ، فقرأه بلسانه ، وعبس عند قرأتها ، فسأله المنتصر عنها ، فقال : لا معنى لها ، فألح عليه ، فقال : أنا الملك شرويه بن كسرى بن هرمز ، قتلت أبى لم أتمتع بالملك بعده إلا ستة أشهر ، فتغير وجه المنتصر لذلك ، وقام من ذلك المجلس وترك اللهو الذى أراده ، صار مغتماً لذلك ، مهتماً به .

وكان على خلاف رأى أبيه فى آل أبى طالب ، وأعاد قبر الإمام الحسين (رضى الله عنه) بعد ما كان هدمه أبوه وأمر بزيارته ، ورد على آل الحسين حايها فذك هى أرض بأرض الحجاز ، وقصته مشهورة ، وهى مما تنقمه الشيعة على يد سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وإنما فعل ذلك بحديث سمعه من النبى (ﷺ) ورضى الله به سيدنا علىّ بن أبى طالب ، ولم ينقض ذلك الحكم لما آلت الخلافة إليه ، لعلمه أن ذلك هو الحق ، وما ذا بعد الحق إلا الضلال ؟

وكانت خلافة المنتصر ستة أشهر ، كما توهمه .

قال أبو المنصور الثعالبى ، فى العجائب : « أن أعراق الأكاسرة فى الملك شيرويه قتل أبيه ، فلم يعيش بعده إلا ستة أشهر » . انتهى .

قلت : وكل منهما مات مسموماً ، وكانت وفاة المنتصر بمبضع سموم - كما قدمناه - بخمس مضين فى ربيع الآخر سنة ٣٤٨ ، وكان عمره ستاً وعشرون سنة (رحمه الله تعالى) .

ثم ولى بعده أبو العباس ؛ أحمد ، المستعين بالله [١] ابن المعتصم بالله عم المقتدر أخو المتكل على الله ، وإنما قدمته الأتراك ، واختاروه ، وعدوا عن أولاد المتوكل ، لأنهم قتلوه ، فخافوا أن يلى الخلافة أحد من أولاده ، فيأخذ بثأر أبيه ، واختاروا من أولاد المعتصم المستعين بالله ، ومولده سنة ٣٣١ هـ ، وأمه أم ولد محارف ، وما كان له من الخلافة إلا الاسم .

وكانت المماليك والأتراك المتولين على الملك ، وكان الأمر جميعه لوصيف التركى ، وبغى التركى .

وقيل فى ذلك : خليفة فى قفص بين وصيف وبغا ، يقول كما قالا له ، كما تقول البيغا ، واستمر كذلك ، وهو يترصد لهما ؛ فظفر بوصيف التركى وقتله ، وبقى باعز التركى ، الذى كان سطى على المتوكل ، وفتك به ، فتذكر حالة الأتراك ، فخرج عليهم من سائر إلى بغداد ، فأرسلوا إليه يعتذروا، ويسألونه عن العود إلى سامراء ، وهو محل الأتراك، فامتنع فيهم.

وكان المستعين فاضلاً أديباً ، إخبارياً مطلعاً على التواريخ ، متجملاً فى ملبسه ، وهو أول من أحدث الأكمام العراض ؛ فجعل لكم ثلاث عرض أشباراً ، وهو الآن من شعار ساداتنا أشراف مكة بنى حسن (أعزهم الله تعالى) .

ولما أبى المستعين عن العود إلى الأتراك فى سامراء ، قصدوا الأتراك خلعه،

---

(١) أبو العباس أحمد المستعين بالله ؛ هو : أحمد بن المعتصم بالله محمد بن الرشيد هارون بن المهدى محمد بن أبى جعفر المنصور الهاشمى العباسى ، أمه : أم ولد رومية تسمى: مخارق ، ولد سنة ٢٢١ هـ ، وقتل فى الثالث من شوال يوم الأربعاء سنة ٢٥٢ هـ ، وله إحدى وثلاثون سنة ، وكان الذى قتله سعيد بن صالح الحاجب ، بعثه إليه المعتز . تاريخ الخميس : ٢/ ٣٤٠ .

فأتوا إلى الحبس ، واستخرجوا منه أبا محمد عبد الله بن المتوكل على الله ، ولقبوه المعتز بالله (١) ، وبايعوه ، وعمره تسعة عشر عاماً ، ولم يلى الخلافة أصغر سناً منه ، وخلعوا المستعين بالله فى أول سنة ٣٣ هـ .

وجيشوا إلى بغداد جيشاً كثيراً إلى المستعين بالله ، وقاتلوه وقاتلهم ، ودام القتال شهراً ، وكثر القتل ، وغلت الأسعار وعظم البلاد ، وتلاشى أمر المستعين بالله إلى أن خلع نفسه ، وأشهد القضاة والعدول على نفسه بذلك ؛ فأخذوه ، وانحدروا به إلى وسط ، وحبسوه تسعة أشهر .

ثم ندب لما سعد الحاجب ، فذبحه فى الحبس ، فى ثالث شوال سنة ٣٥٣ هـ ، وله إحدى وثلاثون سنة .

واستمر المعتز بالله خليفة ، وكان بديع الحسن ، حسن الصورة ، وليس من الخلفاء أجمل منه حسناً ، وكان متضعفاً مع الأتراك ، وكان صالح بن وصيف مستولياً على المعتز ، خائفاً منه ؛ فاجتمع الجند عليه ، فطلبوا منه أرزاقهم ، ووعدوه إذا أنفق عليهم فقتلوه أشر قتلة .

ركبوا له على صالح بن وصيف ، فصفوا له الملك ، ولم يكن فى خزائنه مال يصرف عليهم ، فطلب من أمه ، وكانت تركية ، اسمها قبيحة ؛ لفرط جمالها بين النساء ، فأبت عليه وشحت بالمال ، وشحت بولدها وهو خليفة، وكان معها مال عظيم ؛ فاتفق الأتراك على خلعه ، وركب عليه صالح بن وصيف ومحمد بن بغا ، أو أتوا إلى دار الخلافة وهجموا على المعتز ، وجروا برجله ، ووقفوه فى الشمس وعذبوه حتى خلع نفسه ، وأدخلوه الحمام ، ومنعوه من شرب الماء ، إلى أن مات عطشاناً (رحمه الله تعالى) .

---

(١) المعتز بالله ؛ هو : محمد بن المتوكل على الله جعفر بن المعتصم محمد بن الرشيد هارون بن المهدى محمد بن أبى جعفر المنصور ، أمه : أم ولد تسمى : قبيحة ؛ لجمال صورتها ، ولد سنة ٢٣٢ هـ ، وبويع بالخلافة عند خلع المستعين بالله ؛ عمه نفسه فى أول سنة ٢٥٢ هـ ، مات فى شعبان سنة ٢٥٥ هـ . تاريخ الخميس : ٢/ ٣٤٠ ، ٣٤١ .

وأحضروا أبا عبد الله محمد بن الواثق ، ولقبوه المهتدى بالله [1] ، ابن الواثق بن المعتصم بالله بن الرشيد ، وبايعوه الخلافة لليلة بقيت من رجب سنة ٣٥١ ، وله بضع وثلاثون سنة ، وصار صالح بن وصيف على قبيحة أم المعتز وعذبها حتى أخذ منها ألف ألف دينار ذهباً جديداً ونصف أردب لؤلؤ ، ومثله زمرد ، وسدس أردب ياقوت أحمر ، ثم خرجت إلى مكة ، وقامت بها إلى أن ماتت ، وأقل الناس الترحم عليها ، حيث ظهر هذا المال عندها ، وشحت به على ولدها .

وكان المهتدى كثير العبادة ، ليس له من الأمر شيء ، وكان قد أطرح الملاهى ، ومنع الظلمة من المظالم ، فاتفقوا الأتراك على خلعه ، وركبوا عليه فخرج إليهم ، وقاتلهم بنفسه ، إلى أن أمسكوه باليد ، وعصروا على بطنه إلى أن مات (رحمه الله تعالى) فى رجب سنة ٣٥٧ هـ .

وكانت خلافته ستة أشهر إلا خمسة عشر يوماً ، ثم ولى الخلافة بعده ابن عمه أبو جعفر أحمد ، ويلقب المعتمد على الله [2] ، وسيأتى ذكره إن شاء الله تعالى .

★ ★ ★

---

(١) المهتدى بالله ؛ هو : محمد بن الواثق هارون بن المعتصم محمد بن الرشيد هارون بن المهدى محمد بن أبى جعفر المنصور ، أمه : أم ولد رومية تسمى : قرب ولد فى خلافة جده سنة بضع عشرة ومائتين ، بويع بالخلافة بعد ابن عمه المعتز بالله فى التاسع والعشرين من رجب سنة ٢٥٥ هـ ، وله بضع وثلاثون سنة ، وقتل فى شهر رجب سنة ٢٥٦ هـ ، فكانت خلافته سنة إلا خمسة عشر يوماً . تاريخ الخميس : ٢/ ٢٤١ ، ٢٤٢ .

(٢) المعتمد على الله ؛ هو : أحمد بن المتوكل على الله جعفر بن المعتصم محمد بن الرشيد هارون بن المهدى بن المنصور ، وقد سبقت الإشارة إليه .

الباب الخامس

فى ذكر الزيادتين اللتين زيدتا فى المسجد الحرام بعد تربيعه الذى أمر به المهدى المنصور العباسى وشرع فيه . فأدركته الوفاة قبل إتمامه . وأتم فى ولاية الهادى بن المهدى المذكور كما سبق شرحه مما تقدم

ووقع ترميم فى الجانب الغربى من المسجد الحرام ، قبل الزيادتين فى أيام المعتمد على الله العباسى ، ثم بنيت الزيادة الكبرى من المسجد الحرام من الجانب الشمالى أيام المقتدر بالله .

فلنذكر تراجم هذه الخلفاء ، ونذكر ما أحدثوه فى المسجد الحرام من تجديد وزيادة وترميم ، على الترتيب إن شاء الله تعالى ، مع ما نذكره من ضمن ذلك من الفوائد الاستطرادية ، ترويحاً للنفس وتسبيباً لحصول الفوائد ، وتوفيقاً على أحوال الدهر وتعريفاً بما يحدث من الحوادث فى كل عصر ، لئلا يعتمد العاقل على هذه الدنيا ، ويعتبر بمن قبله فى غدر هذه العجوز العمياء ، وهذه الفائدة فى الحقيقة نتائج الأخبار ليعتبر المعتبر حال نفسه بحال غيره من هذه الدار .

وأن من قواعد الحكمة : أن أفعال الفاعل الواحد متشابهة الآثار ، والله تعالى هو الفاعل المختار ، والعبد العاجز غير مختار ، وربك يفعل ما يشاء ويختار .

وقد وجدت محل القول ذا سعة ، فإن وجدت لساناً قائلاً ؛ فقل لما قتل متغلبة العبيد الأتراك الخليفة المهتدى بالله صبراً ، عمدوا إلى الحبس ،

فأخرجوا منه ابن عمه أبا جعفر أحمد بن المتوكل على الله بن المعتصم بن الرشيد العباسى .

ولقبوه المعتمد على الله ، بايعوه على الخلافة فى رجب سنة ٣٥٩ هـ ، مولده سنة ٣٣٧ هـ ، وأمه أم ولد رومية اسمها فتيان ، وكان له انهماك على اللهو واللذات ، فقدم أخاه طلحة بن المتوكل على الله ، ولقبه الموفق بالله ، وجعله ولى عهده ، وولاه المشرق والحجاز واليمن وفارس وطبرستان وسجستان والسند .

وكان له ولد صغير اسمه جعفر ، لقبه المفوض إلى الله ، وولاه المغرب والشام ، والجزيرة ، وعقد لهما لوائين ، أبيض وأسود ، وعقد لهما البيعة ، وشرط على أخيه الموفق ، أنه إذا حدث به الموت وولده صغير ، كان المفق ولى عهده ، وإن كان حينئذ ولده كبيراً كان ولده ولى عهده ، وكت بذلك معاقداً ، كتب كل منهما خطه عليها ، وكتب عليها القضاة والعدول خطوطهم ، وأرسلها إلى مكة لتعلق فى الكعبة ، فعلقت فيها .

وما أفاد مع هذه التدابير حذر من قدر ، وما وقع إلا ما قدره الله تعالى .

وكان الموفق عاقلاً مدبراً شجاعاً مستقلاً بأمور المملكة ملتفتاً لأمور الرعية ، وكان أخوه المعتمد مكباً على لهوه ولذاته ، مهملاً لأحوال الرعية ، غير ملتفت لأمور المملكة ؛ فكرهه الناس ، وأحبوا أخوه طلحة الموفق بالله .

وظهرت فيه نجابات كثيرة ، وكان ميمون النفس ، مظفراً فى الحروب ، وكان ظهر فى أيام المعتمد على الله طائفة الزنج ، وتغلبوا على المسلمين ، وكان لهم رأس اسمه المهبول ، يدّعى أنه أرسله الله تعالى إلى الخلق ، وادعى علم الغيبيات ، وفتك فى المسلمين .

ذكر الصولى : أنه قتل ألف ألف وخمسمائة ألف [١] مسلم ، وكان يستأسر نساء المسلمين ، ويبيعهن بأبخس الأثمان ، وينادى على العلوية

(١) فى (س) : ألف ألف مسلم .

والشريفة بدرهمين ، وكان عند الزنجى عشر نساء شرائف ، يطأهن ويمتهنهن في الخدمة الشاقة .

وكان ذلك من أعظم المصائب فى الإسلام ، وتملك هذا الكافر مدناً كثيرة، أخذها من المسلمين ، واستأسر أهلها ، وجعلها دار مملكته كواسط ورمهرمز ومال وإلا هما ، فانتدب لقتاله الموفق بالله ، وجمع الجموع والعساكر من حنكته وقائع الحروب ، ووسمته قوارع الخطوب فاتخذه جناباً وبدأ ، ورضى بهم ساعداً وعضداً ، وتعصب بعمود الإسلام ، وأعد السويف والسهام والرماح ، فركض بجهله إلى الكفرة ، والأعداء اللئام ، إلى أن التقت الفئتان على صومة الحرب ، وتساقيا كؤوس الطعن والضرب ، فجفلت السودان من لمعان الصارم الأبيض ، وولوا أدبارهم للفرار كما يفر الليل الأسود من النهار الأبيض ، وانهزموا ما بين مقتول ومأمور ومجروح ومكسور ، إلى أن قتل كبيرهم الهبول ، ووجوه عسكره المخزول ، ويضر الله ملة الإسلام ، ومحى الله تعالى بنوره تلك الظلام ، واستمرت المدن التى أخذها بالكفر والعناد تواصد ، ويهرمز وغيرها من البلاد ، واطمأن المسلمون وكافة العباد ، ولقبوه الناصر لدين الله ، وصار له حينئذ لقبان .

ودخل إلى بغداد في نصرة وعلو شأن ، ورأس ذلك الكافر على رمح ، ورؤوس كبار عساكره على الأرماح ، وأحبه الناس ، ودعا له المسلمون ، وقصد الشعراء بالقصائد والأمداح ، وبعد صيته وكثر فى بابه المداح ، واستفحل أمره ، ولاحت له السعادة والفلاح ، واستمر أخوه المعتمد على حاله ، منهمكاً على هواه ولذاته ، وله اسم الخلافة ، وجميع الأمور يتلقاها الموفق بصدر منشرح ، وسد غاية السداد ، وفى أيامه فى سنة ٣٧١ هـ وقع وهن فى بعض جدران المسجد الحرام من الجانب الغربى ، قبل زيادة دار إبراهيم ، وكان فى يمين الجدار الغربى من المسجد الحرام الشريف باب كان يقال له « باب الخياطين » ، وكان بقربه دار تسمى زبيدة بنت أبى جعفر المنصور ، فسقطت تلك الدار ، على سقف المسجد الحرام ، فانكسرت أخشابه وانهدم أسطوانتان من ساطين الحرم الشريف .

ومات تحت ذلك عشرة أنفس من خيار الناس ، وكان عامله بمكة يومئذ هارون بن محمد بن إسحاق ، وقاضيها يعقوب بن يوسف القاضى .

فلما رفع أمر هذا الهدم إلى بغداد ، أمر أبو أحمد الموفق بالله ، عامله إلى مكة هارون المذكور ، بعمارة ما انهدم من المسجد الحرام الشريف ، وجهز إليه مالاً بسبب ذلك ، وشرع فى عمارته ، وجدد له سقفاً من خشب الساج، ونقشه بالألوان المختلفة ، وأقام الأسطوانتين الساقطتين ، وبنى عقودهما وركب السقف ، وركب فى أيام عمارته سرادق بين العمال والبنائين وبين الناس ليسترهم عن أعين الناس بالمسجد الحرام ، إلى أن أكمل ذلك فى سنة ٣٧٣ هـ ، فركب من الحجر لوحين فى جدار المسجد الشريف ، فى ذلك الجانب ، نقش على أحدهما بالنقر فى لوح الحجر ، ما صورته :

بسم الله الرحمن الرحيم : « أمر أبو أحمد الموفق بالله ، الناصر لدين الله، ولى عهد المسلمين - أطال الله تعالى بقاءه - بعمارة المسجد الحرام ؛ رجاء ثواب الله تعالى ، والزلفة إليه ، وتم ذلك على يد عامله على مكة ، هارون بن إسحاق بن موسى فى سنة ٣٧٣ هـ » .

وعلى اللوح الثانى نقر كتابة صورتها :

بسم الله الرحمن الرحيم : « أمر الناصر لدين الله ، ولى عهد المسلمين ، أبو أحمد الموفق بالله ، أخو أمير المؤمنين (أطال الله بقاءهما) القاضى يوسف بن يعقوب ، بعمارة المسجد الحرام ، لما فى ذلك من رجاء ثواب الله تعالى ، أجزل الله تعالى ثوابه وأجره ، وأتم ذلك على يد محمد بن العلاء ابن عبد الجبار فى سنة ٣٧٣ هـ .

والحجرين المذكورين لا وجود لهما الآن ، محاهما الدهر والزمان ، وعفى أثرهما القديم الجديدان ، كما عفى أثر غيرهما من العمائر والبنيان ، ودار عليهما الدوران ، ولا يبقى الأثر بعد زمان :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر   فما البكاء على الأشباح والصور

وقد نقلت صورة تلك الكتابة من تاريخ مكة ، للإمام أبى عبد الله محمد ابن إسحاق الفاكهى (رحمه الله) .

وكان للموفق بالله ولد نجيب ، هو أحمد أبو العباس ، جعله الموفق ولى عهده ، واستعان به فى حروبه ، وأحواله وظهرت به نجابة وقوة ، فخشى الموفق منه على نفسه ، وعلى أخيه المعتمد ، لما رأى من شجاعته وإسالته ، فأودعه بطن الحبس ، ووكل به من يثق به فى أمره ، واستمر محبوساً إلى الزمان الذى قدره الله .

ثم وقعت الوحشة بين الخليفة والمعتمد على الله ، وعلى أخيه الموفق بالله المذكور ، وتباغضت قلوبهما ، وتشاحنت الصدور ، فإن الرئاسة الدنيوية ، لا تقبل الاشتراك والغيرة على الملك والسلطنة أسرع شيء توغر صدور الأملاك والانفراد والاستقلال ، مما يتفانى عليه أبناء الدنيا من أصحاب الأملاك .

ومما قيل :

وما هـى إلا جـيفة مستحيلة ... عليها كلاب هممن اجتذابها
فإن تجتنبها كنت سلماً لأهلها ... وإن تجتذبها نازعتك كلابهـا

ولما كان المعتمد على الله مع كونه عاجزاً عن أخيه الموفق كان يريد هضمه، لاستيلائه على المملكة ، ورضاء الناس عنه ، واشتغاله بالفحص عن أحوال الرعية عن الملاهى والملاذ ، واستعان المعتمد على الله فى هضم جانب أخيه ، بصاحب مصر يومئذ أحمد بن طولون ، وكان ملكاً شجاعاً فاتكاً ، صاحب جيوش وجنود ، كثير الأموال والخزائن ، مستقلاً بمملكة مصر ، يأخذ خراجها ، وكانت يومئذ عامرة بأهلها كثيرة المحصول ، لرفقه برعيته وتقويته لهم ، وعدم ظلمه وجوره عليهم .

وكان يحصل منها أموالاً كثيرة جداً ؛ بسبب عمرتها وكانت كالروض البهيج على زهرتها ونضارتها ، وكانت خراباً أكثرها مأوى والسعداء .

ولا يفرق أهلها ورعيتها ، من جور ولاتها بدداً ، عمرها الله تعالى ، بمعدلة سلطاننا الأعظم ، وخليفة عصرنا الأكرم الأفخم ، الذى عمر بمعدلته البلاد سلطان السلاطين ، السلطان مراد ألهمه الله تعالى العدل والرفق بالعباد .

ومحى بسيفه الصارم أهل الظلم والفساد ، وأطال عمره ودولته ، حتى يلحق الأحفاد بالأجداد ، فكاتب المعتمد على الله أحمد بن طولون ، وأمره أن يقاتل أخاه الموفق ، ليخف أمره على ذلك ، ويهون .

وجرت بينهما من ذلك شئون ، واشتغل الموفق بذلك عن أخيه ، وصار يواليه تارة ، ويداريه ، ويباعده تارة ويدانيه ، ومضى على ذلك أيام ، وانقضى عليه أعوام ، إلى أن مالت قناة حياة الموفق كل الميل ، ولزم بطون الفراش بعد شئون سوابق الخيل ، ووهى حده ، ووهنت قواه وصانه حصانه ووقاه ، وخانه يده عن حمله ، قلما من بعد حطم القنا فى لبه الأسد ، فلما اشتد حاله وتحقق عنه علمانه وماله ، وبادروه إلى الحبس ، وكسروه وأخرجوا منه ولده المعتضد وأووه ونصروه ، وجاءوه إلى والده الموفق .

فلما أيقن بالموت وتحقق ، وقال له : يا ولدى لهذا اليوم خبأتك ، وفوض إليه ، وأوصاه بعمه المعتمد ، وكان ذلك قبل موت الموفق بثلاثة أيام (فعطف الموت على الموفق عطف النسق) ، فركب طبقاً على طبق إلى أطباق الثرى والعبق ، ومضى عن الدار الفانية ، إلى دار البقاء والتحقق ، وكانت وفاته رحمه الله تعالى فى سنة ٣٧٨ هـ .

فشمت فى بوته أخيه المعتمد ، وظن أنه استراح من الموفق وما علم ، أنه عن قليل بأخيه يلحق ، وحسب أنه صفى له الدهر ، وما علم أن الصفاء يعقبه الكدر ، وأن الدهر ما يبقى لأحد من البشر ، وأن صروف الدهر تأتى بالغير والعبر ، وأنها لا تبقى ، ولا تذر ، فما حال عليه الحول حتى استلب ذلك الطول والخول ولم يكن له بعد خزلان الناصر قوة ولا ناصر ، ولا طال عمره القصية ، ولا استطال حوله القاصر .

ولم يبقى للمعتمد عماد ولا اعتماد على الدهر الخون الغادر ، فانتقل من سرير الملك إلى حظير الهلك ، ومضى كأن لم يكن شيئاً مذكوراً ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، وكانت وفاته ليلة الاثنين لإحدى عشر ليلة بقيت من رجب سنة ٣٧٩ هـ (رحمه الله تعالى) .

وولى الخلافة فى تاريخه ، ابن أخيه أبى العباس بن أحمد المعتضد بالله ، ابن طلحة الموفق بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد العباس ، مولده سنة ٣٣ هـ ، وبويع له بالخلافة بعد عمه المعتمد فى تاريخ وفاته المذكور آنفاً، وأمه أم ولد اسمها صواب ، وكان ملكاً مهيباً ، ظاهر الجبروت ، وافر العقل شجاعاً ، يقدم على الأسد وحده شديد السياسة ، قليل الرحمة إذا غضب على أحد ، ألقاه فى حفرة وطم عليه التراب .

وكان أسقط المكوس فى أيامه ، ورفع الظلم عن الرعية ، جدد ملك بنى العباس ، بعد ما تضعضع ووهن ، وأظهر عزم الملك بعد ما تذلل وامتهن .

وكان يسمى السفاح الثانى ، حيث جدد كلاً منهما ملك بنى العباس .

وفى ذلك يقول ابن الرومى :

هـنيئاً بنـى العبـاس إن إمامكـــم ... إمام الهدى والبأس والجود أحمد

كما بأبى العباس إن شاء ملككم ... كذا بأبى العبـــاس أيضاً يجـــدد

إمام تظل الأسد تشـــكو فراقه ... تأســف ملهوف ومشـــــتاقة غد

وقال عبد الله بن المعتز :

أما نرى ملك بنى هاشم ... عـاد عزيــزاً بعد ما ذلل

يا طـالب الملك كن مثله ... نستوجب الملك وإلا فلا

وكان مع سطوته وبأسه يتوخى المعدلة ، ويبرز أموراً فى صورة الجبروت والعنف ، وهو فى الباطن بحق فيما يفعله ، وهذا هو الرأى السديد للحاكم الرشيد بجمعه ما بين سياسته الدنيا ، وملاحظة ما هو الحق عند الله تعالى .

وقد نقل الحافظ السيوطى (رحمه الله) فى تاريخ الخلفاء عن عبد الله بن حمدون قال : خرج المعتضد يوماً للصيد ، وأنا معه ، فمر بمقتاة فعاث بعض جنوده فيها ، فصاح صاحبها ؛ فاستغاث بالمعتضد فأحضره وسأله عن سبب بصياحه ، فقال : ثلاثة من غلمانك نزلوا المقتاه ، فأضربوها ، فأمر عبيده بإحضارهم ، فحضروا ، فضرب أعناقهم ، ومضى وهو يحادثنى ، فقال :

أدقنى يا عبد الله ، ما الذى تنكره من أحوالى ؟ فقلت له : تسفك الدماء كثيراً ، فقال : ما سفكت دماً حراماً قط ، فقلت له : بأى ذنب قتلت أحمد ابن الطيب ؟ فقال : إنه دعانى إلى إلحاد ، وظهر لى إلحاده ؛ فقتله ، لنصرة الدين ، فقلت له : فالثلاثة الذين نزلوا المقتاة الآن ، بما استحللت دماءهم ؟ ولأى شيء قتلتهم ؟ فقال : والله ما قتلتهم ، وإنما أحضرت ثلاثة من قطاع الطريق ووهمت الناس أنهم هم الذين نزلوا المقتاة ، فأمرت بضرب أعناقهم ، ثم أحضر صاحب الشرطة ، فأمره بإحضار الثلاثة الذين تولوا المقتاة ، فأحضرهم بأنفسهم ، وشاهدتهم ، ثم أمرهم بإعادتهم إلى الحبس ، وهكذا ينبغى تدبير السياسة ، وإظهار النصفة وتخويف الجند وإرهابهم .

ومن معدلته : أنه كتب إلى الآفاق ، بإبطال ديوان المواريث ، والأمر بتوريث ذوى الأرحام ، وكانوا يحرمونهم الميراث وكانوا يستولون على مخلفات الأموال بالظلم .

ولا يصل الوارث جميع حقه من الأرث ، بل يأخذ كثير من غير حقه ، بأنواع التغلبات ، وكان يحصل على الرعية ظلم كثير بسبب ذلك ، وبعض الظلم باق إلى الآن ، ييسر الله تعالى إزالته على يد سلطان عصرنا ، وفقه الله تعالى لإحياء المكارم ، وإزاء المراحم ، وأعانه على إبطال المظالم .

ولما أمر المعتضد بإبطال ديوان المواريث فى سائر مملكته ، فرح الناس بذلك الخبر (١) ؛ ودعوا بدوام دولته ، وصار له بذلك صيت عظيم ، وأجر جميل عند الله الكريم ، ولعله هو الذى نفعه فى يوم آخرته ، ودخله الله جنات النعيم .

وكان من قضاته الإمام القاضى ، أبو خارم - بالخاء المعجمة والراء - وهو من أكابر العلماء ، أهل الدين والتقوى .

فكان من بعض تحلياته فى الدين أن شخصاً انكسر عليه مال كثير للناس ، وثبت ذلك عليه عند القاضى المذكور ؛ فأمر بتوزيع ماله على [غرمائه] (٢)

---

(١) فى (س) : وأخبره .

(٢) سقط من (س) .

عن مائة بالمحاصة ، وكان قد انكسر على ذلك المديون مال للخليفة المعتضد أيضاً ، فأرسل المعتضد إلى القاضى ، أبو خارم يقول له : اشركنى مع غرماء هذا المديون بالمحاصة ، فإن لى مالاً أيضاً فى ذمته ، فاجعلنى كأحد غرمائه .

فقال أبو خارم : إنى لا أحكم لمدعى بدون بينه عادله ، فأرسل وكيلاً ، وبينة أرضاها ، لتكون مأسوة غرماء هذا المديون ، فاحكم لكم بعد سماع الدعة والبينة والتزكية ، سراً وجهراً .

فأمر المعتضد مشهوداً يشهدون عند القاضى خوفاً من رد شهادتهم ، ولم يحكم القاضى للمعتضد أن يكون بأسوة غرماء ذلك المديون ، فأعجب المعتضد ديانة القاضى وثباته على الحق ، وتصميمه على ذلك وعدم ميله إليه .

وما أحوج زماننا هذا إلى قاصد مثل هذا ، خصوصاً فى أطراف البلاد ، يقول الحق ويثبت ، ولا يميل إلى خواطر العباد .

وكان المعتضد ينظم شعراً حسناً ، ومن نظمه ، ما رثى به جاريته ذريرة :

يا حـــــبيباً لم يكد ... يعد له عندى حبيب
أنت عن عينى بعـيد ... ومن القلب قــريب
ليس لى بعــدك فى ... شىء من اللهو نصيب
لك من قــلبى على ... قلبى وإن غبت رقيب
لو ترانى كيف حـالى ... فـرط عول ونحيب
وفؤادى حشـوه من ... حـرق القلب لهيب
فتيقـــــنت بأنـــــى ... فيك محزون كئيب

وقال (رحمه الله تعالى) لما احتضر :

تمتـع مـن الدنيـا فإنـك لا تبقى ... وخذ صفوها لما صفت ودع الرنقا
ولا تأمنـن الدهـر ، إنى أمنتـه ... عدواً ولم أمهل على حب وحلقا
قبلت صناديد الرجـال ولـم أدع ... فلم يبق لى حالاً، ولم يرع لى حقاً

وأخليت دور الملك عن كل نازل ... رفرقتهـم غرباً ومزقتهم شـرقاً
فلما بلغت النجـم عزاً ورفعـة ... ودانت رقاب الخلق أجمع لى رقاً
رمانى الردى سهماً، فأخمد جمرتى ... فهـذا رآنى حفرتى عاجـلاً بلقا
وأفسدت الدنيا آبي ودينى سفاهة ... فمـن ذا الذى منى بمصرعه أشقا
فيا ليت شعرى بعد موتى ما أرى ... إلى رحـمة الله أم نـاره ألقـا

● ومما وقع فى أيام المعتضد من عمارة المسجد الحرام :

زيادة دار الندوة ، وإدخالها فى المسجد الشريف من الجانب الشرقى ، وهى أول الزيادتين .

وهى : صحن ربع بأربعة أروقة من جوانبه الأربع ، أضيف إلى المسجد الشريف فى وسط الجانب الشامى ، يلصقه إلى رواق الجانب المذكور ، وهذا المحل يسمى : دار الندوة .

وهى كانت فى زمن الجاهلية : دار تجتمع صناديد قريش فيها عند نزول حادث بهم للاستشارة فى دفع ذلك الحادث عنهم بالاتفاق على رأى يجمعون على كونه صواباً ، فيأتون بعد ذلك .

وكانت دار الندوة مما تتفاخر به قريش فى الجاهلية ، وكان قد اجتمع فى قصى بن كلاب الرفادة ، والسقاية ، والسدانة ، والندوة ، واللواء ، ففرقها فى أولاده .

ولما ظهر شأن النبى (ﷺ) ، وآمن به كثير من قريش ، ومن الأنصار ، حاصرته كفار قريش ، واجتمعوا فى دار الندوة ، وتشاوروا فى قتله (ﷺ)، فظهر لهم إبليس اللعين فى صورة شيخ نجدى ، واختار لهم من الرأى ما اختاره ، فنجاه الله تعالى من كيد المشركين ، فأذن له فى الهجرة ؛ كما هو مذكور مشهور فى كتب السيرة .

وذكر الله ذلك فى كتابه العزيز ؛ حيث قال : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ (١) .

---

(١) الآية رقم ٣٠ من سورة الأنفال ، مكية .

وليست الزيادة هى غير دار الندوة قبل محلها فى تلك الأماكن لا على التنحين من خلف مقام الحنفى إلى آخر هذه الزيادة .

وكانت دار الندوة بعد ظهور الإسلام أكثر مرسا [١] الدور بمكة دار واسعة ينزل بها الخلفاء إذا وردوا مكة ويخرجون منها إلى المسجد الحرام للطواف والصلاة .

وكان لها فناء واسع صار بساطه ترمى فيه القمايم ، فإذا حصلت الأمطار القوية سال من الجبال التى فى يسار الكعبة مثل جبل قعيقعان وما حوله من الجبال سيول عظيمة إلى ذلك الفناء وحملت أوساخه وقمايمه إلى دار الندوة إلى المسجد الحرام ، واحتيج إلى تنظيف تلك الأوساخ والقمايم من المسجد الرشيف كلما سالت سيول هذا الجانب الشمالى فصار ضرراً على المسجد الحرام .

فكتب قاضى مكة يومئذ من قبل المعتضد العباسى القاضى محمد بن عبد الله المقدسى وأمير مكة يوسف من قبله أيضاً عج بن حاج مولى المعتضد والمذكور مكاتبات إلى مهزير المعتضد يومئذ ، وهو عبد الله بن سليمان بن وهب يتضمن :

« أن دار الندوة قد عظم خراها ، وتهدمت ، وكثيراً ما يلقى فيها القمايم حتى صارت ضرراً على المسجد الحرام وجيرانه ، وإذا جاء المطر سالت السيول من بابها إلى بطن المسجد وجمله تلك القمايم إلى المسجد الحرام ، وأنها لو أخرج ما فيها من القمايم وهدمت وبنيت مسجداً يوصل بالمسجد وجعلت رحبة يصلى الناس فيها وينتفع الحجاج بها كانت مكرمة لم يتهيأ لأحد من الخلفاء بعد المهدى والهادى ، ومنقبة تامة وشرفاً وأجراً باقياً على طول الزمان .

وأن بالمسجد خراباً كبيراً وإن سقفه يسيل منه الماء إذا جاء المطر ، وأن وادى مكة قد انكبس بالأتربة فعلت الأرض عما كانت وصارت السيول تدخل من

(١) هكذا فى (أ) ، (س) ، ولعله يقصد أكثر الدور التى بمكة التى يجتمع فيها الناس .

الجانب اليمانى أيضاً إلى المسجد الحرام ، ولا بد من قطع تلك الأراضى وتمهيدها وتنزيلها إلى حد تمر فيه السيول منحدرة عن الدخول إلى المسجد الحرام ، ووفد أيضاً على بغداد سدنة الكعبة ورفعوا إلى ديوان الخلافة أن وجه جدران الكعبة من داخلها قد تشعث ، وأن الرخام المفروش عن أرضها قد تكسر ، وأن عضادتى باب الكعبة كانت من بعض العلويين فقلع عامل مكة يومئذ مقدار الربع من الذهب الذى كان مصفحاً على باب الكعبة ومن أسفله وما على الباب الشريف من الذهب ، فضربه دنانير واستعان به على دفع تلك الفتنة ، وجعل بدل الذهب فضة مموهة على الباب الشريف ، وعلى أنف الباب المنيف ، فإذا تمسح الحجاج أيام الحج تبركاً بذلك المكان الشريف ذهب صنع الذهب ، وانكشفت الفضة فيجدد تمويهها كل سنة ، والمناسب إعادة ذلك ذهباً صرفاً كما كان ، وأن رخام الحجْر - بسكون الجيم - قد انكسر ويحتاج إلى التجدد ، وأن بلاط المطاف حول الكعبة الشريفة لم يكن تاماً ، ويحتاج إلى أن يتمم من جوانبها كلها ، وأن ذلك من أعظم القربات وأكبر المثوبات ، وقد رفع ذلك إلى الديوان العزيز للمبادرة إلى انتهاز ذلك .

والأمر راجع إلى آراء (١) الخلافة الشريفة ، والسلام » .

فلما أشرف على هذه المكاتبات (٢) كاتب الخلافة المعتضد - يومئذ - الوزير عبد الله بن سليمان بن وهب الكاتب ، وكان من أهل الخير له قدم راسخ فى قصد الجميل وفعل الخيرات ونية جميلة فى إحراز الأجر والثواب بادر إلى عرض ذلك على أسماع الخليفة المعتضد ، وحسن له اغتنام هذهي الفرصة ، والمبادرة إليها ، وبذل المقدور فيها فبرز آمر المعتضد إليه وإلى غلامه المومى بالحضرة بعمل ما ترفع إليه من ترميم الكعبة الشريفة ، والحجر ، والمطاف ، والمسجد الحرام ، وأن يهدم دار الندوة ويجعل مسجداً يلحق بالمسجد الحرام ويوصل به ، وأن يحفر الوادى ، والمسيل ، والمسعى ، وما حول المسجد الحرام ، ويعمق حفرها إلى أن يعود إلى حاله الأول ، ويجرى السيل إليه ، وأن يحكم ذلك غاية الإحكام .

---

(١) فى (أ) : إيراء .   (٢) فى (س) : المكايتبات .

وأمر أن يحمل من خزائنه مالاً عظيماً لهذا العمل ، وأمر قاضي بغداد - يومئذ - وهو القاضي يوسف بن يعقوب - أن يرتب ذلك ويجهر لعمله من يعتمد عليه ، وأمر أن يحمل المال إليه فجهز بعضه نقداً فى أيام الحج مع ولده وكان مقدماً على حوائج الخلافة ومصالح الحج وعمرتها ، وأرسل بباقى المال سفايحاً سلمها إلى ولده أبى بكر بن عبد الله بن يوسف المذكور ليستلمها ، فمن كتب اسمه من تلك السفايح بمكة ، وعين معه لهذه الخدمة رجلاً يقال له أبو الهياج عميرة بن حسان الأسدى له أمانة ، وحسن رأى ونية جميلة وسيرة حسنة ، فوصلا إلى مكة المشرفة فى موسم حج سنة ٢٨١ هـ ، فحلى بالذهب الخالص باب الكعبة الشريفة ، وحج وتخلف بعد الحج بمكة أبو الهياج المذكور ومن معه من العمال والأعوان .

وعاد عبد الله بن القاضي يوسف مع الحجاج إلى بغداد يرسل إليه ما يحتاج إليه من بغداد ليكمل ما أمره به من العمارة المذكورة ، فشرع أبو الهياج فى حفر الوادى وما حول المسجد فحفر حفراً جيداً حتى ظهر من درج المسجد الحرام الشارعة على الوادى اثنا عشر درجة ، وإنما كان الظاهر منها خمس درجات ، فحفر الأرض ورمى بترابها خارج مكة ونظّفت دار الندوة من القمايم والأتربة ، وهدمت ، وحفر أساسها ، وجعلت مسجداً وأدخل فيها أبواب المسجد التى كانت شارعة قبل هذا البناء ثم فتح لها من جدار المسجةد الكبير ستة أبواب كبار سعة كل باب خمسة أذرع وارتفاع كل باب من الأرض إلى جهة السماء إحدى عشر ذراعاً ، وجعل من الأبواب الكبار ستة أبواب صغار ، وارتفاع كل باب ثمانية أذرع وسعة كل باب ذراعان ونصف وجعل فى هذه الزيادات بابين بطاقين شارعين إلى الخارج فى جانبها الشمالى وباب بطاق واحد فى جانبها الغربى ، وأقيمت أروقتها وسقوفها من جوانبها الأربعة، وركبت سقوفها بحسب الساج ، وجعل لها منارة وفرغ من عمارتها فى ثلاث سنين ، ولعل إكمالها فى سنة إلا أنها ما استمرت على هذهي الهيئة بل غيرت بعد قليل إلى وضع آخر أحسن منه بعد المعتضد المذكور .

قال محمد بن إسحاق الفاكهى فى « تاريخ مكة » : « إن أبا الحسن محمد

ابن نافع الخزاعى ذكر فى تعليق له : أن قاضى مكة محمد بن موسى القاضى لما كان إليه أمر البلد جدد بناء زيادة دار الندوة وغير الطاقات التى فتحت فى جدار المسجد الكبير وجعلها متساوية واسعة بحيث صار كل [مستفيد] (١) من زيادة دار الندوة من مصل ومعتكف وجالس بمكة مشاهدة الشريف ، وجعل أساطينها حجراً مدوراً منحوتاً ، وركب عليها سقوفاً من الخشب الساج منقوشاً مزخرفاً وعقوداً مبنية بالآجر والجص ووصل هذه الزيادة بالمسجد الكبير وصولاً أحسن من الأول وجدد شرفاتها وبيضها .

وأنه عمل فى ذلك فى سنة ست وثلثمائة . انتهى .

وبعد : كان ابتداء هذه الزيادة مأثرة عظيمة ، ومنقبة كريمة أتى بها هذا المعتضد بالله وأثراً باقياً له على صفحات هذا الدهر ما قاربها سواه وفاعل الخير لا يزال يذكر وصاحبه يمدح بألسنة الخلق ، ويشكر ، وقد بلى عظامه تحت التراب الأعفر ، فما مات من يذكر بالجميل بعد أن يقبر وما عاش من عاش بالشر :

ما عاش من عاش مذموماً خصائله ولم يمت من يكن بالخير مذكوراً

واستمرت تلك الأساطين المنحوتة من الأحجار السود عليها أسقف الساج المزخرف المنضود مشيدة باقية إلى أن أدركناها فى عصرنا ثم بدلت بالأساطين المنحوتة من الرخام الأبيض المرمر ما بينها لتوثيقها أساطين منحوتة من السميسى الأصغر بعقود محكمة أزين من عقود الجوهر ، وجعل عوض السقف الذى ملئ خشية كل حين قبباً مرفوعة نزهة للناظرين فى غاية الإتقان والتزيين فى زمان سلطاننا الأعظم ودولة خاقاننا الأفخم الأكرم سلطان سلاطين الزمان السلطان مرادخان بن سليم خان بن سليمان خان بن عثمان خلد الله تعالى سلطانه وأفاض على العالمين بره وإحسانه .

نرجع إلى ما كنا فيه من أخبار المعتضد العباسى وما وقع من البأس الذى ليس له منه أسى .

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (س) .

ولما أن عض المعتمد عضد الموت العاضد ، وتطع عرق حياته مباضع الزمان الحاسد ، ولاحمته عن الحمام قوته ولا منعته عن منعته ولا هيبته فأنزلته يد المنايا من سرير الخلافة والملك وأركبته سرير الآلة الجدباء إلى حفير شفير الفناء والهلك ، ودفنته فى تربة عمله الصالح ، وسقت ثراه بما طاب من ثنائه الفاتح .

ومن أغرب ما حكاه المسعدى عن المعتضد فى وفاته : « أنه اعتل من إفراطه فى كثرة الجماع وطالت علته وغشى عليه ، فشك من حوله فى بيته ، وكان لا يحسر عليه أحد لشدة هيبته فتقدم إليه الطبيب يختبره يجس نبضه ففتح عينيه ونظر لذلك فرفس الطبيب برجله رفسة فدجاه أذرعاً ، فمات الطبيب ثم مات المعتضد من ساعته ، وكان وفاته يوم الاثنين لثمان بقين من ربيع الآخر سنة ٢٨٩ هـ ، وخلف من الأولاد أربعة ذكوراً وإحدى عشر بنتاً .

وكان مدة ملك المعتضد تسع ستين وتسعة أشهر ونصف رحمه الله تعالى .

★ ★ ★

فصـــل

لما اشتد المرض بالمعتضد جعل ولى عهده من بعده ولده أبا محمد على ، ولقبه المكتفى بالله ، وأخذ له البيعة قبل موته بثلاثة أيام .

فلما تولى المعتضد إلى رحمة الله تعالى كان المكتفى بالله غائباً بالرق ، فنهض بأعباء البيعة له الوزير أبو الحسين القائم بن عبيد الله ، وكتب إليه فوصل إلى بغداد من الق فى سابع جمادى الأول ، وكان يوم وصوله يوماً مشهوداً زينت له بغداد ونزل دار الضيافة ، وخلع على الوزير المذكور وسيع خلع عظيمه ومدحه الشعراء وأنعم عليهم بالجوائز السخية فى غرة ربيع الأول سنة ٢٩٣ هـ ، وأمه أم ولد تركية اسمها « جيحك » ، وكان مليح الصورة ، يضرب بحسنه المثل وفيه قال القائل يصف الدنيا :

ميزت بين جمالها وفعالها   فإذا الملاحة بالقباحة لا يفى
والله لا اخـــتارها لوانهـا   كالبدر أو كالشمس أو كالمكتفى

وكانت سيرته حسنة وأفعاله جميلة ، فأحبه الناس وفرحوا بخلافته ودعوا له، وذكر عبد الغافر فى « تاريخ نيسابور » عن ابن أبى الدنيا : « وكان للمكتفى قبل أن يلى الخلافة معلم ، فلما أفضت إليه الخلافة المكتفى كتب إليه هذين البيتين :

إن حـــق التأديب حـــق الأبوة   عند أهل الحجاز وأهل المروة

وأحق الرجال أن يحفظوا الود   ويرعـــوه أهـــل بيت النبـــوة

● ومن أعظم الحوادث فى أيامه :

ظهور القرامطة الملحدة بل الكفرة المفسدين أعداء الدين ، فأول من خرج منهم يحيى بن مرويه القرمطى ومحل خروجهم ودار ملكهم هجروه ، طائفة إباحية يستحلون دماء الحجاج والمسلمين ويدعون أن الإمام الحىّ بعد النبى (ﷺ) - محمد بن الحنفية بن على بن أبى طالب ، وينسبون إليه بالباطل ، ويسندون إليه أقاويل باطلة لا أصل لها ويكفرون من عاداهم وهم الكفرة الفجرة قاتلهم الله تعالى .

ولما ظهر بالخروج يحيى المذكور جهز إليه المكتفى بالله جيوشاً ، واستمر القتال بينه وبين عسكر الخليفة ، إلى أن قتل وسيق إلى جهنم وبئس المصير ، فقام بعده أخوه الحسين وأظهر شامة بوجهه الأسود وزعم أنها أية ، وظهر ابن عمه عيسى بن مهدويه ولقب بـ « المدثر » ، وزعم أنه المراد بالسورة الشريفة القرآنية ، ولقب غلاماً له مظلماً المطوق بالنور يسمى أمير المؤمنين ، وزعم أنه المهدى ، ودعا لنفسه على المنابر ، وأفسد بالشام وعاث فيها فخوربوا ، وقتل الثلاثة وجزت رؤوسهم وطيف بها فى البلاد فى سنة ٢٩١ هـ ، وخلف من بعدهم خلف ظهر منهم مفاسد ، وسيأتى ذكرها استطراداً ، وتعب المسلمون كثيراً فى أمرهم إلى أن خذلهم الله تعالى ، وستذكر قريباً إن شاء الله تعالى .

ولم يطل زمان المكتفى بالله ، فكانت مدة هلكه ست أعوام ونصف ، ولما مرض مرض الموت وتيقن بالفناء والفوت سأل عن أخيه أبى الفضل جعفر بن المعتضد فقيل له : إنه احتلم واتضح ذلك عنده فجعله ولى عهده ولقب «المقتدر بالله » ، وبويع له على أن يكون الخليفة من بعده .

قال الصولى : سمعت المكتفى يقول فى علته التى مات فيه : « والله ما آسى إلا سبعمائة ألف دينار صرفتها من بيت مال المسلمين فى أنية وعمارة المُحتاج » .

وذكر أبو منصور الثعالبى قال : حكى إبراهيم بن نوح أن الذى خلفه المكتفى مما جمعه هو وأبوه لا غير مائة ألف دينار وأمتعة وأوانى وغفارات ، وكان من جملة الأمتعة ثلاثة وسبعون ألف ثوب ديباج ، فسبحان من بيده خزائن السموات والأرض وإليه ترجعون .

ولما جاء الأجل المحتوم المقدور وتلا لسان حاله : ﴿ إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ﴾ [١] ، انقصف غصن شبابه القشيب ويبس عود جماله الرطيب ، وصار بدر كماله مخسوفاً وعاد نور محياه المشرق مكسفاً ، فانتقل من دار الفناء إلى دار الخير والبقاء فى ليلة الأحد لثنتى عشر خلت من شهر ذى القعدة الحرام سنة ٢٩٥ هـ رحمه الله تعالى .

وخلف ثمانية أولاد ذكور وثمان بنات ، وولى بعده استخلافه أخوه أبو محمد على المقتدر بالله [٢] بن المعتضد بن الموفق بالله بن المتكل على الله بن المعتضد بن هارون الرشيد العباسى بايعه الناس وعمره ثلاثة عشر سنة ولم يلى الخلافة قبله أصغر منه ، ذكره الجلال السيوطى ، وأمه أم ولد تسمى «معتب» وولى الخلافة ثلاث مرات هذه الأولى منها ، ولم يتم له فيها أمر لصغر سنه، فتغلب الجند عليه واتفقوا على خلعه فخلعوه وعقدوا البيعة لأبى العباس عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد ولقبوه « الغالب بالله » ، وبايعوه لعشر بقين من ربيع الأول سنة ٢٩٦ هـ ، واستمر خليفة ساعة من ذلك النهار ، وعبد الله بن المعتز - لقصد زمن خلافته - لا ينبغى عده من الخلفاد ، ولكن تذكره لفضله وأدبه وهو أشعر بنى هاشم على الإطلاق وأكثرهم أدباً وفضلاً ودخولاً ومعرفة بعلم الموسبقا ، وأشهر الشعراء على الإطلاق فى التشبيهات المبتكرة المخترعة المرفضة المطربة التى لا شق غباره فيها أحد . مولده فى شعبان سنة ٢٤٩ هـ .

---

(١) الآية رقم ٤ من سورة نوح ، مكية .　　(٢) المقتدر بالله : سبقت الإشارة إليه .

قال بن المكافأ بن زكريا : « لما بويع لابن المغتر دخلت على شيخنا محمد ابن جرير الطبرى العالم الكبير المفسر المحدث المخرج رحمه الله تعالى ، فقا لى : ما الخبر ؟ فقلت : بويع بالخلافة لعبد الله ن المعتز ، قال : فمن ترشح لوزاته ؟ قلت : محمد بن داؤد ، قال : فمن قاضيه ؟ قلت : أبو المثنى ، فأطرق قليلاً ! قال : هذا أمر لا يتم ، فقلت : ولم لا يتم ؟ قال : كل واحد ممن ذكرت ذو شأن عظيم متقدم فى علمه وفضله وعقله ، وإن الدنيا مولية والزمان ، وما أرى هذا العقد إلا إلى إغلال واضمحلال ، فقدر الله تعالى أنهم خلعوه فى ذلك اليوم وتلاشى .

فإن عبد الله بن المعتز لما عقدت له الولاية والخلافة أرسل المقتدر بأمره بإخلاء دار الخلافة ، وأن يذهب إلى دار محمد بن طاهر لينظر فى أمره ، فلما جاء الرسول إلى المقتدر وبلغه الرسالة ، قال : « ليس عندى جواب إلا السيف » ، ولبس السلاح وركب معه جماعة قليلة من خدمه وهم مستسلمون للقتل فى غاية الخوف والرعب وهجموا على عبد الله ن المعتز فأهاله ذلك وألقى الله تعالى فى قلبه الرعب فانهزم هو ووزيره وقاضيه وكل من كان فى ديوانه ظناً أن خلف هؤلاء أعواناً وأنهاراً ، وقبض المقتدر على عبد الله بن المغتر وعلى بعض الأمراء والفقهاء ، وسلمهم إلى يونس الحرث وقتل من أراد وحبس عبد الله بن المعتز ثم أخرج من الحبس ميتاً .

واستقام الأمر للمقتدر ، وهذه ولايته الثانية فسار أحسن سيرة واستقام أمره بعد الاضمحلال ، وطلعت شمس سعادته بعد الزوال ، ولاح بدر فلاحه من أوج الكمال ، والعزة لله الكبير المتعال .

وحيث انجر الكلام إلى ذكر عبد الله بن المعتز فلا بأس بتنسيق هذه الرسالة وتزويق هذه العجالة بذكر بعض أشعاره المستطرفة ليعلم البلغاء مرتبته فى البلاغة واقتداره على الكلام ، ونورد قصيدته فى الحماسية التى فاخر بها آل النبى (ﷺ) .

ولا يخفى أن الإقدام على مثل ذلك يدل على قوة الطبع ، فإن الادعاء لمثل

هذا المطلب العالى من آمثاله ممجوج فى الأسماع ، منفور فى الطباع ، فإذا أبرزه مع ذلك فى قالب مطبوع دل ذلك على قوة طبع الشاعر .

كما قال شاعر عهده الأديب المفوه ابن الرومى :

فى زخـرف القول تزيين لباطله	والحق قد يعتريه ســـوء تغيير
تقول هذا مجاج النحـل تمدحه	وإن تعـب قلت : ذانى الزنابير
مدحاً وذماً وما جاوزت حدهما	سحر البيان يرى الظلماء كالنور

وهذا منتخب تلك القصيدة الباسة ، وقد فاخر بها بين قومه بنى العباس وآل ابن أبى طالب (رضى الله عنه) فى الخلافة وما أنصف فيما ادعاه ، ولكنه أتى بشعر بليغ فى معناه .

ألا مـن لعـين وتسـكابها	تشـكى القذا بكامابهـا
ترامت بنا حادثات الزمان	ترامـى القسـى بنشابهـا
ويا رب ألسـنة كالسيو	ف تقطع رقاب أصحابهـا
وكم وهى المرء من نفسه؟	فمـزق حــداً بنأبهـا
وإن فرصة أمكنت فى العدو	فـلا تبد فعـلك إلا بهـا
فإن لم تلج بابها مسـرعاً	أتـاك عـدوك من بابهـا
ومـا نافـع نـدم بعدهـا	وتأميـل أخـرى وإثابهـا
وما ينفض من ثياب الرجا	ل يزد فى بهـا وألبابهـا
نهيت بنى رحمى ناصحـاً	نصيحـة برٍ بأنسـابها
وقد ركبوا بغيهم وارتقـوا	معـارج تهـوى بركابهـا
وراموا فرائس أسد السّرى	وقـد نشـبت بنا أنيابهـا
دعوا الأسد تفرس ثم أسبغوا	بما تفضل الأسد فى غابها
قتلنـا أمـة فـى دارهـا	ونحـن أحـق بأسـلابها

ولما أبى الله أن تملكـــوا نهضـــــنا إليها وقمنا بها

ونحـــن ورثنا ثياب النبى

لكم رحـــــم يا بنى بنته

فمهـــلاً بنى عمنا إنهــا :

وكانت تزلزل فى العـالمين

وأقســـــم أنكم تعلمون

فرد عليه شاعر زمانه ، ونصيح أوانه الصفى الحلى بقوله :

ألا قل لشـــر عبيد الإله وطاغـــى قريش وكذابهـا

أأنت تفاخــــر آل النبى وتجحــدها فضل أنسابهـا

بكم، بأهل المصطفى أم بهـم فرد العـــداوة بأوصابهـــا

أعنكم نفى الرجس أم عنهم؟ لطهــر النفوس وألبابهـــا

أما الشـــرب واللهو من دأبكم وفـرط العبادات من دأبهـا

هم الصائمون، هم القائمون هم العاملـون بأرابهـــــا

هم الزاهدون هم العابدون هم الساجـــدون بمحرابها

هم قطـــب ملة دين الإله ودور الرحـــى بأقطـــابها

تقـول : ورثنا ثياب النبى فكـم تجذبون بأهدابهــا ؟

وعنـدك لا تورث الأنبيـاء فكيف حـفيتم بأثوابهـا ؟

أبوهـــم وصـــى نبى الإله وأهـل الوصـــية أولى بها

أجـدك يرضى بما قلته ؟! ومـا كان يوماً بمرتابهــــا

ولكن: بصفين من حربهم لحـــرب البغاة وأحزابهـــا

وصلى مع الناس طول الحياة وحـيدر فى صدر محرابها

فهـل لا تقمصـــها جدكم وهل كان من بعض خطابها؟!

وإذ جعل الأمر شورى لهم فهل كان من بعض أربابها؟!
وقولك : أنتم بنو بنته ولكن بنو العم أولى بها
بنو البنت أيضاً بنو عمه وذلك أدنى لأنسابها
وقلت : بأنكم القاتلون أسود أمية في غابها
كذبت ، ولولا أبو مسلم لعزت على جهد طلابها
وقد كان عبداً لسهم لا لكم رأى عندكم قرب أنسابها
وكنتم أسارى بطون الحبوس وقد سفكم ثم أعتابها
فأخرجكم وحباكم بها وقميصكم فضل جلبابها
فجازيتموه أشر الجزاء لطغوى النفوس وإعجابها
فدع في الخلافة دعوى الخلاف فلست ذلولاً لركابها
وما أنت والفحص عن شأنها وما قمصوك بأثوابها
وما شاورتك سوى ساعة فما كنت أهلاً لأسبابها
ودع ذكر قوم رضوا بالكفاف وجاءوا القناعة من بابها
عليك بلهوك بالغانيات وخلى المعالي لأربابها !
ووصف العذارى وذات الخمار ونعت العقار بألقابها
فذلك شأنك لا شأنهم وجرى الجياد بأحسابها

ومن الشعر الحلال الذى عقده فى سلك الأُول ورقمه بقلم البلاغة على صحائف الأيام والليالى هذا الموشح الذى يصلح وشاحاً لكواكب الجوزاء وإكليلاً على التاج المحلى بنجوم الثريا صارت به الركبان وتناقلته الرواه بالنسبة للزمان ، قوله :

أيها الساقى إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع

ونديم همت فى غرته

ويشـرب الراح من راحته

كلمـا استيقظ من سكرته

جــذب الرق إليه واتكى وســـقانى أربعــــــاً فى أربــع

ما لعينى عيشة بالنظـــر

أنكرت بعدك ضوء القمر

وإذا ما شئت فاسمع خبر

عشيت عيناى من طول البكـا وبكى بعضى على بعض معى

غصن بان مال من حيث الهوى

مات من يهواه من فرط الجوى

خفق الأحشاء موهن القوى

كلمـــا فكرت فى البين بكا ويحه يبكى لما لسم يقســـع

ليس له صــــــدر ولا جلد

يا لقومى عذلوا واجتهدوا

أنكروا شـــكواى مما أجد

مثل حالى حقها أن يشتكى كمد البأس وذل الطـــــمع

كبد حــــــرّا ودمع يكف

يذرف الدمع ولا يعتـرف

أيها المعرض عما أصـف

قد نما حــبى بقلبى وزكا لا تقل فى الحب أنى مدعى

ومن تشبيهاته الرايقة وأشعاره الفايقة قوله :

ومفرطق يسعى إلى الند ما بعقيقــةٍ فى درة بيضــــاء

والبدر فى أفق السماء كدرهم ... ملقى على ياقوتةٍ زرقاء

وله المثلث وهو معنى بديع :

خليلى طاب الراح من بعد طبخها ... وقد عدت بعد السكر والعود أحمد

فهاتا عقاراً من قميص زجاجةٍ ... كياقوتة فى درة تتوقد

يصوغ عليها الماء شباك فضةٍ ... لها خلق بيض تحل وتعقد

وقتنى من نار الجحيم بنفسها ... وذلك من إحسانها ليس يجحد

وله من التصانيف :

كتاب « الزهرة والرياض » ، كتاب « مفاكهات الإخوان » ، كتاب « الصيد والجوارح » ، كتاب « السرادقات الشعرية » ، كتاب « أشعار الملوك » ، كتاب « طبقات الشعراء » ، و« ديوان شعره » ، وغير ذلك .

ومن كلامه البلاغة البلوغ إلى المعنى ، ولم يطل سفر الكلام ، وأشعاره البليغة ، وتشبيهاته الغريبة كثيرة شهيرة لا يطول بها هذه العجالة .

ولما تقرر المقتدر فى التمكن والاقتدار ، واستقرت خلافته أتم استقراره ، استوزر الحسن على بن محمد بن الفرات فسار أحسن ، واستقر فى الخلافة إلى سنة ٣١٧ ، فخرج مؤنس الخارج على المقتدر فركب ، وركب معه الجيش والأمن .

وجاءوا إلى دار الخلافة فهرب خواص المقتدر من داره ، ونهبوا دار الخلافة وكان مما نهب ستمائة ألف دينار لأم المقتدر ، فأشهد المقتدر على نفسه بالخلع لأربعة عشرة ليلة خلت من المحرم سنة ٣١٧ هـ .

وأحضروا أبا منصور بن المعتضد بن الموفق بالله بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد ، وبايعه « مؤنس » ولقبوه « القاهر بالله » (١) ، وفوضت الوزارة

---

(١) القاهر بالله ؛ هو : أبو منصور محمد القاهر بالله بن المعتضد ، زمه : أم ولد مغربية تسمى « فنون » ، بويع بالخلافة أولاً سنة ٣١٧ هـ ، وثانياً سنة ٣٢٠ هـ ، ومات سنة ٣٣٩هـ فى السجن . تاريخ الخميس : ٢/٣٤٩ - ٣٥١ .

إلى الوزير أبى بن مقلة الكاتب المشهور ، وجلس القاهرة بالله يوم السبت ، وكتب الوزير « ابن مقلة » إلى سائر البلاد ، وعمل يوم الاثنين الديوان ، فجاء العسكر يطلبون منه إنعام الجلوس فارتفعت الأصوات ، فمنعهم الحاجب من الدخول إلى الخليفة فقتلوا الحاجب ، ومالوا إلى دار مؤنس وأخرجوا المقتدر من الحبس وحملوه على أعناقهم إلى دار الخلافة ، فجلس على السرير وأتوا بأخيه محمد القاهر إليه - وهو مقهور يبكى - ويقول : « الله الله يا أخى فى روحى » ، فاستدناه المقتدر ، وقبل بين عينى أخيه ، وقال له : « لا ذنب لك ، وأنت مغلوب على أمرك ، والله ما ينالك منى ما يكره فطب نساً، وقوعيناً » .

ولما زال روعه أوى إليه أخاه وقال : ﴿ إنى أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون ﴾ [1] ، وبذل المقتدر الأموال للجند واسترضاهم ، وثبتت له الخلافة وهذه ثالث مرة والثالثة ثابتة .

★ ★ ★

فصـــل

● **ومن جملة محاسن المقتدر** :

أنه زاد فى المسجد الحرام زيادة « باب إبراهيم » ، وهى الزيادة فى الجانب الغربى من المسجد الحرام ، ويقال لها زيادة « باب إبراهيم » ، وليس المراد به الخليل (عليه وعلى نبينا ، وسائر المرسلين صلاة الله وسلامه » ، بل كان إبراهيم هذا خياطاً يجلس عند هذا الباب ، وعمر د ءراً فعرف به .

وكان قبل هذه الزيادة باب متصل بباب المسجد الحرام بقرب باب « الحزوة » ويقر به باب ثانى يقال له : باب « بنى جُمْح » - بضم الجيم وفتح الميم بعدها حاء مهملة - نسبة لأبى بطن من قريش السمه جمح بن عمرو بن لؤى بن غالب .

---

(١) الآية رقم ٦٩ من سورة يوسف ، مكية .

وخارج هذين البابين : ساحة بين دارين لزبيدة « أم الأمين » بنيت فى سنة ثمان ومائتين ، وما بقى تلك الدارين أثر الآن .

والذى يظهر : أن دارى زبيدة كانت إحداهما : فى الجانب الشامى فى مكان رباط الحوزى الآن ، وكانت الأخرى تقابلها من الجانب اليمانى من تلك الزيادة ، وهو رباط « رامشت » الذى يعرف الآن برباط « ناظر الخاص » فأدخلت هذه الساحة التى بيني الدارين فى المسجد الحرام ، وأبطل البابين ، يعنى باب الخياطين وباب بنى جمح ، حيث دخلا فى المسجد الحرام ، وجعل عوض البابين ، وباب كبير وهو المسمى بباب «إبراهيم» فى غربى هذه الزيادة.

قال الحافظ نجم الدين عمر بن فهد (رحمه الله تعالى) فى حووادث سنة ٣٠٩ هـ فى كتابه « إتحاف الورى بأخبار أم القرى » : « وفيها زاد قاضى مكة يومئذ محمد بن موسى من الجانب الغربى قطعة عند « باب الخياطين » وباب « بنى جُمْح » وهى « السوح » الذى كان بين دار زبيدة أم الأمين ، وعمل ذلك مسجداً أوصله بالمسجد الحرام إلى العتبة التى عليها باب « إبراهيم » سبعة وخمسون ذراعاً إلا سدس ذراع عرض هذه الزيادة من جانبها الشامى إلى جانبها اليمانى ، وذلك من جدر رباط « الجوزى » إلى جذر رباط « رامشت» اثنان وخمسون ذراعاً وربع ذراع ، وفى هذه الزيادة فى جانبها الشرقى المتصل بالمسجد الكبير صفان من الرواق على أساطين منحوتة من الحجارة ، وكذلك فى جانبها الشمالى ، ولم يكن فى جانبها الغربى رواق وفى جانبها اليمانى سبيل ما وسط رواقه ، وكانت بهذه الزيادة منارة ذكرها التقى الفاسى فى الشفاء .

قلت : أما المنارة فلا أدرى من نباها ولا متى بنيت ولا متى هدمت ، وأما السيل فكان موجود إلى سنة ٩٨٣ هـ ، وهدم عند وصول الغمارة السلطانية إليه ، وأعيد بناؤه سبيلاً كما كان ، وهذه الزيادة الثانية وقعت فى أيام المقتدر العباسى (رحمه الله تعالى وعفى عنه) .

★ ★ ★

● **ومن جملة محاسن المقتدر أيضاً :**

أنه أبطل من ديوانه استخدام أهل الذمة من اليهود والنصارى ، وأبطل تصرفهم فى الأموال السلطانية ، وأعاد الأمر بتوريث ذوى الأرحام فى سائر ممالك الإسلام ، وأتلف كثيراً من الأموال ، وأفرغ خزائن بيت المال ، وباع كثيراً من الضياع حتى أرض الجند بإكمال عطيتهم .

وكان يصرف يوم عرفة كل عام من الإبل والبقر أربعين ألف رأس ، ومن الغنم خميسين ألف ، كذا ذكره الجمّال يوسف بن تفرى بردى فى تاريخه «مورد اللطافة فيمن ولى السلطنة والخلافة » .

وقال أبو المحاسن سبط ابن الجوزى (رحمه الله تعالى) : « كان المقتدر يصرف فى كل سنة فى طريق مكة والحرمين ثلثمائة ألف دينار وخمة عشر ألف دينار .

وقال الحافظ السيوطى : « كان النساء غلبن على المقتدر ، فأخرج عليهن جميع جواهر الخلافة ونفائسها وأعطى بعض حظاياه « الدرة التميمية » ، وكان وزنها ثلاث مثاقيل وأعطى زيدان القهرمانية سبحة جواهر لم ير مثلها ، وأعطى بعض حظاياه سبحة جوهر لم ير مثلها .

وكان فى داره إحدى عشر ألف غلام خصى غير الصقالبة والروم والسود ، وكان مبلغ النفقة على « بيمارستان » أم المقتدر فى كل عام سبعة آلاف دينار ، وأنه ختن خمسة من أولاده فصرف فى ختانهم ستمائة ألف دينار ، وقدمت رسل ملك الروم بهدايا تطلب الهدنة فعمل المقتدر مكباً عظيماً لإرهاب العدو فأقام مائة وستين ألف مقاتل بالسلاح الكامل سماطين من باب الشامية إلى دار الخلافة ببغداد ، وتم الرسل بينهما فى هذه المسافة وأقام بعدهم الخدم وهم سبعة آلاف خادم ثم الحجاب وهم سبعمائة حاجب ، وكانت السور التى نصبت عليها حيطان دار الخلافة ثمانية وثلاثون ألف ستر من الديباج ، وكانت البُسُط الفاخرة التى فرشت فى الأرض اثنين وعشريني ألف بساط ، وفى الحضرة ماذة سبع فى سلاسل الذهب والفضة وغير ذلك ، وزاد الجمالى

يوسف بن ثغرى بردى من جملة الزينة شجرة صيغت وصنعت من الذهب والفضة والجواهر تشتمل على ثمانية عشر غصناً أوراقها من الذهب والفضة وأغصانها تتمايل بحركات مصنوعة ، وعلى الأغصان طيور ذهب وفضة تنفخ الريح فيها فتسمع لكل طير تغريد وصفير خاص .

وهذا بعد وهن دولة العباسية وضعفها ، فكيف كان زينتها فى أيام قوة دولتهم فى كمال وصفها فسبحان من لا يزول ولا يزال ولا يفنى ملكه ولا يعتريه الزوال ولا تحوله الأحوال وهو الله الكبير المتعال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ولا ضد ولا ندر ولا مثال ، وقدرها تقديراً .

ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً ولا وزيراً .

تعالى شأنه وعلا سلطانه علواً كبيراً .

﴿ وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك فى الملك ، ولم يكن له ولى من الذل ، وكبره تكبيراً ﴾ (١) .

★ ★ ★

فصل

وأول ما ظهر وهن الخلافة فى أيام المقتدر بالله : ظهور الطائفة الملحدة التى تسمى « القرامطة » .

لهم اعتقاد فاسد ، يؤدى إلى الكفر ، يستبيحون دماء المسلمين ، وينتسبون إلى مولاه محمد بن الحنفية من أولاد سيدنا علىّ بن أبى طالب (رضى الله عنه) ، ويرون كافة ضلال المسلمين .

فأول نجس خبيث ظهر منهم أبو طاهر القرمطى ، وبنى داراً فى هجر سماها « دار الهجرة » ، أراد نقل الحج إليها (لعنه الله تعالى وأخزاه) ، وكثر فتكه فى المسلمين ، وسفك دماء المؤمنين إلى أن اشتد به الخطب ، وانقطع الحج فى أيامه خوفاً منه ، ومن طائفته الفاجرة ، واشتدت شوكتهم .

---

(١) الآية رقم ١١١ من سورة الإسراء ، مكية .

ففى عام ٣١٧ هـ لم يشعروا الحجاج يوم « التروية » بمكة إلا وقد وافاهم - عدو الله - أبو طاهر القرمطى فى عسكر جرار ، فدخلوا بخيلهم وسلاحهم إلى المسجد الحرام ، ووضعوا السيف فى الطائفين ، والمصلين ، والمحرمين ، مجردين فى إحرامهم إلى أن قتلوا فى المسجد الحرام ، وفى مكة، وفى شعابها زهاء ثلاثين ألف إنسان .

وتلك مصيبة ما أصيب الإسلام بمثلها .

وركض أبو طاهر بسيفه مشهوراً فى يده - وهو سكران - يسفر بفرسه عند البيت الشريف فبال ، وراث ! ، والحجاج يطوفون ببيت الله الحرام ، والسيوف تنوشهم إلى أن قتل - فى المطاف الشريف - ألف وسبعمائة طائف محرم ، ولم يقطع طوافه على بن بويه ، وجعل يقول ، وهو ينشد :

ترى المحبين صرعى فى ديارهم كفتية الكهف لا يدرون ما لبثوا

والسويف تقفوه إلى أن سقط ميتاً (رحمه الله تعالى) وطمت بامتلاء الشهداء بئر زمزم وما بمكة من آبار وحفر ، وقد ملئت بهم ، وطلع أبو الطاهر إلى باب الكعبة وقلع بابها وصار يقول : « أنا بالله وبالله أنا ، يخلق الخلق وأفنيهم أنا ، وصاح فى الحجاج : يا حمير ! أنتم ، تقولون : ﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ فأين الأمان ؟! ، وقد فعلنا فأخذ شخص بلجام فرسه ، وقال - وقد استسلم للقتل - : « ليس معنى الآية الشريفة ما ذكرت ، وإنما معناها : « ومن دخل فأمنوه » ، فولاه أبو طاهر عنان فرسه عنه ولم يلتفت إليه وصانه الله تعالى ببركته بذل نفسه فى سبيل الله تعالى والرد على هذاي الكافر - أخزاه الله تعالى - .

وأراد قلع الميزاب ، وكان من ذهب ، فاطلع قرمطياً يقلعه فأصيب بسهم من جبل بى قبيس فأخطأ نحره وخر ميتاً ، وأمر آخر مكانه فسقط من فوق إلى أسفل على رسه ، فهاب الثالث عن الإقدام على القلع فمضى أبو طاهر وتركه - على رغم أنفه - وقال : اتركوه حتى يأتى صاحبه - يعنى المهدى الذى يزعم أنه يخرج فيهم - .

وكان ممن قتل بمكة أميرها أبو المحارم ، والحافظ بن محارب ، والحافظ أبو الفضل محمد بن الحسين بن أحمد الحاروذى الهروى ، أخذته السيوف وهو متعلق بيده بحلقة باب الكعبة حتى سقط رأسه على عتبة بيت الله تعالى وأخوه إمام الفقهاء الحنفية أبو سعيد أحمد بن الحسين البردعى ، والشيخ أبو بكر بن عبد الرحمن بن عبد الله الوهابى ، وشيخ الصوفية على بن مابويه الصوفى ، والشيخ محمد بن خالد بن زين البردعى نزيل مكة ، وجماعة كثيرون من العلماء والصلحاء والصوفية والحجاج من أهل خراسان والمغاربة ونهبت أموالهم وسبيت نساؤهم وذراريهم ونهبت دور الناس وقتل من وجد من أهلها إلا من اختفى فى الجبال وممن هرب من مكة - يومئذ - قاضيها يحيى بن عبد الرحمن بن هارون القرشى مع عياله إلى وادى ريحان ، ونهبت القرامطة من داره وأثاثه وأمواله قيمته مائة ألف دينار وخمسون ألف دينار فافتقر بعد تلك الثروة ، وكذلك نهبت دور أهل مكة ، إلى أن صار الباقى ممن نجا من تلك الواقعة فقراء يستعطون ، ولم يحج فى هذا العام أحد ، ولا وقف بعرفة إلا قدر يسير فادوا بنفسهم ، وسمحوا بأرواحهم ، فوقفوا بدون إمام ، وأتموا حجهم مستسلمون للموت .

وأخذ أبو طاهر خزانة الكعبة ، وما فيها من الذهب والفضة وكسوة الكعبة وحليها ، وما نهبه من أموال الحجاج فقسمها بين أصحابه ، وأراد أخذ حجر المقام الذى فيه صورة قدم سيدنا إبراهيم (صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى أنبياء الله ورسله الكرام) ، فلم يظفر به لأن سدنة الكعبة الشريفة غيبوه فى بعض شعاب مكة ، وتألم لذلك ، واستدعى بجعفر بن أبى علاج البناء ، وأمره بقلع الحجر الأسود من محله فقلعه بعد العصر يوم الاثنين لأربع عشر ليلة خلت من ذى الحجة ذلك العام ، وصار بزندقته (قاتله الله وأخزاه) .

فلـو كـان هـذا البيت لله ربّنا ... لصب علينا النار من فوقنا صباً
لأنا حججـنا حجـة جـاهلية ... محللة لم تبق شرقاً ولا غرباً
وأنا تركـنا بيـن زمـزم والصفا ... خبائز لا تبغى سـوى ربها ربّاً

وقلع ذلك الكافر قبة زمزم ، وباب زمزم والكعبة ، وأقام بمكة أحد عشر يوماً ، وقيل : ستة أيام ، ثم انصرف إلى بلد هجر ، وحمل معه الحجر الأسود يريد أن يحول الحج إلى مسجد الضرار الذى سماه « دار الهجرة » ، وعلته فى الأسطوانة السابعة مما يلى صحن الجامع من الجانب الغربى من المسجد ، وبقى موضع الحجر الأسود من البيت الشريف خالياً يضع الناس أيديهم فيه ويلتمسون تبركاً بمحله .

وأمر هذا الفاجر أن يخطب بعبيد الله المهدى أول الخلفاء العبيديين الفاطميين ، وكان أول ظهوره فبلغ عبيد الله المذكور ذلك فكتب إليه : « إن أعجب العجاب إرسالك - بكتبك - إلينا مهيبنا بما ارتكبت فى بلد الله الأمين من انتهاك حرمة بيت الله الحرام الذى لم يذل محترماً فى الجاهلية والإسلام ، وسفكت فيه دماء المسلمين ، وفتكت بالحجاج والمعتمرين وتعديت وتجرأت على بيت الله تعالى وقلعت الحجر الأسود الذى هو يمين الله فى الأرض يصافح به عباده وحملته إلى منزلك ورجوت أن أشكرك على ذلك ، فلعنك الله ثم لعنك ثم لعنك والسلام على من سلم المسلمون من لسانه ويده ، وقدم فى يومه ما ينجو به فى غده .

فلما وصل كتاب عبيد الله المهدى إلى طاهر القرمطى وعلم ما فيه انحرف عن طاعته واستمر الحجر عندهم أكثر من عشرين سنة ، يستجلبون به الناس طمعاً أن يتحول الحج إلى بلدتهم - ويأبى الله ذلك - والإسلام وشريعة محمد (عليه أفضل الصلاة والسلام) ، وهذه من أعظم مصائب الإسلام وأشدها وهناً فى الدين من أولئك الكفرة اللئام ذابت لها أكباد العباد ، وعمت فتنتها فى الحاضر والباد إلى أن دمر الله تعالى تلك الطائفة القاهرة وابتلى أبو طاهر النجس هذا بالأكلة ، فصار يتناثر لحمه بالدود ، ومات أشقى ميتة إلى دار الخلود وتعذب بأنواع البلاء فى الدنيا : ﴿ ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾[1] .

ولما أيست القرامطة من تحويل الحجاج حجهم إلى هجر ردوا الحجر الأسود إلى محله .

---

(١) الآية رقم ١٢٧ من سورة طه ، مكية .

وورد سنير بن الحسين القرمطى إلى مكة فى يوم النحر يوم الثلاثاء عاشر ذى الحجة سنة ٣٣٩ هـ ، ومعه الحجر الأسود ، فلما صار بفناء الكعبة حضر معه أمير مكة - يومئذ - وهو - ظناً - أبو جعفر محمد بن الحسن بن عبد الله ابن عبد العزيز ، فأظهر سفطاً أخرج منه الحجر الأسود وعليه ضباب من فضة فى طوله وعرضه يضبط شقوقات حدثت فيه بعد قلعه .

وأحضر معه جصاً يشده به فوضع حسن بن المروق البنّاء الحجر فى مكانه الذى قلع منه ، وقيل : بل وضعه « سنبر » بيده ، وقال : « أخذناه بقدرة الله تعالى وأعدناه بمشيئته ، وقد أخذناه بأمر ورددناه بأمره » .

ونظر الناس إلى الحجر فقبلوه واستلموه ، وحمدوا الله تعالى ، وحضر ذلك محمد بن شافع الخزاعى ، ونظر إلى الحجر الأسود وتزمله ، فإذا السواد فى رسه دون سائره وسائره أبيض ، وحضر معهم ممن حج تلك السنة محمد بن عبد الملك بن صفوان الأندلسى ، وشهد ردّ الحجر إلى مكانه .

ولما أعيد الحجر الأسود إلى مكة حمله على قعود هزيل فسمن ، وكان لما مضوا به مات تحته أربعون جملاً ، وكانت مدة استمراره عند القرامطة اثنين وعشرين سنة إلا أربعة أيام .

وكان المنصور بن القائم بني المهدى العبيدى أرسل أحمد بن أبى سعيد القرمطى - أخا طاهر - بخمسين ألف ذهب فى الحجر الأسود لرده فلم يفعل وبذل حكم التركى مدير الخلافة خمسين ألف دينار للقرامطة على رد الحجر وقالوا : « أخذناه بأمر ولا نرده إلا بأمر » ! إلى أن أراد الله تعالى رده على الوجه الذى ذكرناه .

وفى التواريخ صور أُخر لهذه القصة رأيناها متناقضة ، وهذا أصح ما روى فيها فاعتمدنا عليه فعض عليه بالنواجذ .

ثم إن الحجبة خافوا على الحجر الأسود من استطالة يد خائن إليه بعدم استحكام بنائه فقلعوه وجعلوه فى البيت الشريف حفظاً له وصناً عمن أراده بسوء ، ثم أمروا صائغين فصنعوا له طوقاً من فضة وزينة ثلاثة آلاف وسبع

وثلاثون درهماً ، فطوفوا به الحجر وشدوا عليه وأحكموا بناءه فى محله ، كما كان ذلك قديماً وكما هو الآن أيضاً - كذلك - .

وكان قلع الحجر فى أيام المقتدر ، ثم وقع بينه وبين يونس حرب فتوغل فى المعركة فضربه واحد من البربر من خلفه فسقط إلى الأرض ، فقال لهناربه ويحك : أنا الخليفة ، فقال : أنت المطلوب ! وذبحه بالسيوف ورفع رأسه على الرمح وسلب ما عليه ، وبقى مكشوف العورة حتى ستر بالحشيش .

ثم حفر له مكانه وعفى أثره فسبحان المعز المذل السميع البصير له الملك وحده لا شريك له ، وهو على كل شىء قدير .

وكانت مدة خلافة المقتدر أولاً وثانياً وثالثاً خمساً وعشرين سنة إلا أياماً .

وقيل : لثمان بقين من شوال سنة ٣٢٠ هـ ، وولى أخوه مكانه أبو منصور محمد بن المعتضد ولقب « القاهر بالله » ، وقهر القاهر بالله وسمل عينيه .

وجاءوا بأبى العباس محمد بن المقتدر بالله بن المعتضد ولقبوه بـ « الراضى بالله » [(١)] وبايعوه فى سنة ٣٢٢ ، وصار خليفة إلى أن مات فى سنة ٣٢٩هـ.

وبويع لأخيه أبى إسحاق إبراهيم بن المقتدر وبعده المقتى بالله وقبض عليه «نوروز التركى » وسمل عينيه فى صفر سنة ٣٣٣ هـ ، وبويع بعده لابن عمه أبى القاسم الفضل بن المقتدر بالله ، ولقب « المطيع بالله » [(٢)] وبويع له بالخلافة فى سنة ٣٣٤ هـ ، وكان رد الحجر الأسود من بلاد هجر إلى مكانه من البيت الشريف فى أيام المطيع بالله هذا .

وتم أمره على ضعف الخلافة ووهنها واستيلاء بنى بويه على الملك وطالت

---

(١) الراضى بالله ؛ هو : أبو العباس محمد بن المقتدر جعفر بن المعتضد أحمد بن ولى العهد الموفق طلحة بن المتوكل جعفر الهاشمى العباس ، أمه أم ولد رومية تسمى « ظلوم » . ولد سنة ٢٩٧ هـ ، وتوفى سنة ٣٢٩ هـ ، وله اثنتان وثلاثون .

(٢) المطيع لله ، هو : أبو القاسم الفضل بن المقتدر جعفر بن المعتضد أحمد بن ولى العهد الموفق طلحة . أمه : أم ولد تسمى « شعلة » ، ولد سنة ٣٠١ هـ ، بويع بالخلافة سنة ٣٣٤هـ وتوفى سنة ٣٦٤ هـ . تاريخ الخميس : ٢/٣٥٣ ، ٣٥٤ .

أيامه إلى أن خلع نفسه ، وبويع لولده أبى بكر عبد الكريم فى سنة ٣٧٢ هـ، ولقب « الطائع لله » ، وكان مغلوباً عليه من قبل أمرائه ، وما كان له إلا العظمة الظاهرة - لا غير - .

بحيث لما وررد فى سنة ٣٩٩ هـ رسول العزيز بالله من المعز العبيدى صاحب مصر إلى بغداد يسأل عهد الدولة بن بويه وهو - يومئذ - ملقب بالسلطنة من الطابع وبيده أمر المملكة أن يزيد فى ألقابه ، ويقال له : تاج الملة ويحدد عليه خلع ويلبسه التاج ، فأجابه إلى ذلك فجلس الطائع على سرير عال وأوقف حوله مائة سيف مسلولة ، وبين يديه مصحف عثمان (رضى الله تعالى عنه) ، وعلى كتفه بردة النبى (ﷺ) .

وكان ذلك مما يتوارثه الخلفاء ويجعلونه لمواكبهم العامة - واحتجب بستارة عالية حتى لا يقع عليه نظر الجند قبل رفع الستارة ، وحضر الجند من الأتراك والديلم ، ووقف أرباب الستارة صفين ثم أذن لعضد الدولة ، فدخل ثم رفعت الستارة ، وقبل الأرض وأدخل رسول العزيز صاحب مصر فارتاع وأهاله ما رأى وقال لعضد الدولة : هذا هو الله تعالى ؟ فقال له : هذاي خليفة الله فى أرضه ، ثم استمر يمشى ويقبل الأرض سبع مرات فالتفت الطابع إلى خادمه المقرب عنده واسمه « خالص » ، وقال له : « استدنه » ، فقربه إلى رجل السرير وقبل رجله فثنى الطابع يمينه على رأس عضد الدولة ، وأمر أن يجلس على كرسى مرصع وضع له قريباً من السرير ، فاستعنى عضد الدولة من ذلك ، فأقسم عليه ليجلس ! فقبل الكرسى ثم جلس عليه ، فلما استقر جالساً قال له الطايع : « قد فوضت إليك ما وكل الله تعالى إلىّ من أمور العية فى شرق الأرض وغربها » ، فقال : ليعيننى الله تعالى على طاعة أمير المؤمنين ، وقبل الأرض فأمر أن يفاض عليه سبع خلع ، فأفيضت عليه وهو يقبل الأرض فى كل واحدة ، وانصرف الناس من خلفه ، وقد أهالهم ما رأوه واستعظموا ما شاهدوه .

وما كانت هذه العظمة إلا صورة صناعية وكلفة اصطناعية حقيقتها واهية وقوتها واهنة ، فإن السلطنة لما آلت إلى نصر بن بويه ركب الطايع إليه ، وخلع عليه سبع خلع فطوقه بطوق مجوهر سوره بسوارين ولقبه « بهاء الدولة وضياء الملة في سنة ٣٧٩ هـ ثم في سنة ٣٨١ هـ جاء بهاء الدولة إلى الطائع وقبل الأرض بين يديه وجلس على الكرسي ، وأمر خدامه من الديلم فجذبوا الطائع من سريره ولفوه في كساء وأمره بهاء الدولة أن يخلع نفسه ففعل .

وأتى بأبي العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر بالله ولقبه « القادر بالله »(١) وبويع له بالخلافة لعشر مضين من رمضان في ذلك العام ، وكان على غاية من العبادة والديانة والفضل ، وصنف كتاباً في الرد على القائلين بخلق القرآن ، وأمر أن يقرأ في كل جمعة في خلق أصحاب الحديث بحضرة الناس ، وعده ابن الصلاح في علماء الشافعية ، وذكره في طبقاته فطالت مدة خلافته حتى أنافت على إحدى وأربعين سنة وثلاثة أشهر .

وتوفى إلى رحمة الله تعالى في سنة ٤٢٧ هـ ، وولى بعده بعهد منه أبو جعفر عبد الله بن القادر بالله ولقبه « القائم بأمر الله » (٢) ، وكان خيراً ديناً باهراً ، إلا أنه مغلوب بيد أمرائه ، وطالت مع ذلك مدة خلافته وكانت خلافته ٤٠ سنة ، وكانت وفاته في شعبان سنة ٤٦٧ ، وولى الخلافة بعده حفيده أبو القاسم عبد الله بن القائم بأمر الله ، ولقب « المقتدى بالله » وبويع له بالخلافة بعد وفاة جده بحضرة الإمام الكبير المولى الشهير مولانا أبي

---

(١) القادر بالله ؛ هو : أبو العباس أحمد بن الأمير إسحاق بن المقتدر بالله جعفر بن المعتضد أحمد بن ولى العهد الموفق طلحة ، أمه أم ولد تسمى « يمن » . ولد سنة ٣٣٦ هـ ، بويع بالخلافة سنة ٣٨١ هـ ، وتوفى سنة ٤٢٢هـ ، وقيل : ٤٢٣ هـ . تاريخ الخميس : ٣٥٥/٢ - ٣٥٧ .

(٢) القائم بأمر الله ؛ هو : أبو جعفر عبد الله بن القادر أحمد بن الأمير إسحاق بن المقتدر جعفر بن المعتضد أحمد بن ولى العهد الموفق طلحة بن المتوكل . أمه أم ولد تسمى « قطن » . بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه القادر سنة ٤٢٢ هـ ، ومات سنة ٤٦٧ هـ . تاريخ الخميس : ٣٥٧/٢ - ٣٥٩ .

إسحاق الشيرازى ، أحد أركان أئمة الشافعى (رضى الله عنه) ، وكان خيراً ديناً من نجباء بنى العباس وصالحيهم .

★ ★ ★

فصـــل

● **ومن جملة صلاحه وبركته :**

أن السلطان « ملكشاه» من آل « سبكتكين » قصد أن يتحكم عليه ، ويظهر الحيف على الخليفة المذكور فأرسل إليه وهو يقول : « لا بد أن تترك لى بغداد وتذهب إلى أى بلد شئت » ، فأرسل الخليفة إليه يتلطف به فى ذلك فأبى إلا شدة وغلظة ، فقال لرسوله : اسأله المهلة لى ولو شهر » ، فأبى ، وقال : ولا ساعة ! ، فأرسل إليه وزيره فاستمهله عشرة أيام فأمهله ، فصار الخليفة يصومك النهار ، ويقوم الليل ، ويتضرع إلى الله تعالى ، ويضع خده على التراب ، ويناجى رب الأرباب ، ويدعو [(١)] على ملكشاه ، فنفذ دعاءه وهو مظلوم نفوذ السهم المسموم فى كبد المظلوم ، واستجاب الله دعاءه ، وتقبل ضراعته، فهلك السلطان ملكشاه قبل مضى عشرة أيام، وكفاه الله تعالى شره.

﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ [(٢)] .

وعدت هذه كرامة للخليفة المقتدى ، وهذه عقبى كل ظالم ومعتدى ، فرحم الله تعالى من قال :

وكم لله من لطـف خــفى ... يدق خفاه عن فهم الذكى
وكم يسر أتى من بعد عسرٍ ... وفرج كربة القلب الشجى
وكم أمر تُســاء به صباحاً ... وتأتيك المســرة بالعشــى
إذا ضاقت بك الأحوال يوماً ... فثق بالواحـد الأحد العلى
تمســـك بالنبى فكل هم ... يزال إذا تمســـك بالنبى

---

(١) فى (س) : ولا يدعو .

(٢) الآية رقم ٤٦ من سورة فصلت ، مكية .

وكذا من قال :

لا تشتغل بهموم القلب مكتئباً ولا تبيتن إلا خـــالى البال
ما بين غمضـــة عين وانتباهتها يغير الله من حـــالٍ إلى حال

ولكل شيء سبب من الأسباب ، وعلة يدور عليها التقلب والانقلاب .

وكان سبب ضعف خلفاء بنى العباس استيلاء مماليكهم وأمرائهم عليهم ، وتفويض جميع أمور المملكة إليهم وتلقبهم بألقاب السلطان وفرط إدلالهم على موالبهم وامتهانهم غاية الامتهان إلى أن صاروا سمايلاً مسميات وصوراً هيولانية يتصور فيها بالمحو والإثبات .

وصاروا أمراءهم يغثونهم ويغشونهم ويصل أرباب الفرض إلى أغراضهم الفاسدة لما يرشونهم .

فأول زال الملك المنتصر بالله - كان له ولدان أحدهما يسمى بالخفاجى وكان شديد الرأى شجاعاً صعب المراس ، والثانبى المعتصم بالله وكان هيناً ضعيف الرأى ، فاختاره الأمير إقبال الشرانى على أخيه الخفاجى ليستبد بالأمور ويستقبل بأحوال الملك ولا يناله مكروه من المعتصم ولا يخشاه كما يخشاه من أخيه الخفاجى .

فلما تولى المنتصر بالله أخفى الأمير إقبال موته نحو عشرين يوماً حتى دبر لولاية المستعصم وبويع له بالخلافة وفرّ أخوه إلى العربان وتلاشى أمره .

ثم أعظم سبب للزوال أن مؤيد الدين محمد بن محمد بن عبد الملك العلقمى صار وزير المستعصم ، وكان رافضياً سيئاً مستولياً على المعتصم عدواً لأهل السُّنَّة ، يدار بهم فى الظاهر وينافقهم فى الباطن ، وكان يدبر على إزالة الخلافة عن بنى العباس وإعادتها إلى العلويين ، وطمس أنارت أهل السنة وأطفأ نورهم وتقوية أهل البدعة وأبقى ديارهم .

فصار يكاتب هولاكو خان ويطمعه فى ملك بغداد ويطالعه بأخبار بغداد ، يخبره عن صورة أخذها وضعف الخليفة وانحلال العسكر عنه .

وصار يحسن للمستعصم توفير الخزانة وعدم الصرف على العسكر والإذن لهم فى التفرق والذهاب أين شاءوا ويقطع أرزاقهم ويشتت شملهم ، بحيث أذن مرة لعشرين ألف مقاتل أن يذهبوا أين أرادوا ووفر علوفاتهم فى الخزينة وأظهر للمستعصم أنه وفر من علوفاتهم خزائن أموالهم عظيمة فى بيت المال ، فأعجب المعتصم رأيه وتوفيره ، وكان يحب المال ويجمعه لعدوه .

وقد سئلت بنو أمية بعد ذهاب ملكهم : ما الذى كان سبباً قوياً فى ذهاب الملك عنكم ؟ قالوا : أقواها أنا اعتمدنا على المال واستوهنا بالرجال ، فوفرنا المال وقتلنا الرجال ، فأخذنا العدو ومالنا وتقوى به علينا ، وأنا أبعدنا الصديق اعتماداً على صداقته وقربنا العدو استجلاباً لمحبته وصار الصديق عدواً بالإبعاد ، ولم يبصر العدو صديقاً بالاستجلاب .

احـــذر عـــدوك مـــرة واحذر صديقك ألف مرة

فلربما انقـــلب الصـــديق فكـــان أدرى بالمضـــــرة

وكان من قضاء الله وقدره أن هولاكو سلطان المغول وجفناى من دست قبحاوان جفوا على بلاد الإسلام وجاءوا بعسكر جرار - لا يعلم عددهم إلا الله تعالى - .

وكان أقوى سلاطين الإسلام -إذ ذاك- السلطان على الدين خوارزم مشاه، وكان يملك من العراق إلى أقصى بلاد المشرق ، وكان له قوة وشوكة وعسكر وافر وجند متكاثر ، فظهر هولاكو فقاتله خوارزم مشاه وهو ينكسر إلى أن قتل هو وأولاده وجنوده ، واستباح كثيراً من بلاد الإسلام وقتل شرقها بالقتل العام وصار يحول هولاكو فى الديار وتارة فى غاية الاشتغال والاستعار .

والمستعصم - ومن معه - فى غفلة عنه لإخفاء ابن العلقمى عنه سائر الأخبار إلى أن وصل هولاكو إلى بلاد العراق واستأصل من بها قتلاً وأسراً .

وأرسل إلى الخليفة يطلبه إليه فاستيقظ الخليفة من نومه الغرور وندم على غفلته حيث لا ينفعه الندم ، وجمع من قدر عليه وبرز إلى قتاله ، وجمع من أهل بغداد وخاصة عبيده وخدامه ما يقارب أربعين ألف مقاتل لكن مرفهون

بلين المهاد ساكنون على سفط بغداد فى ظل تخين وماء معين وفاكهة وشراب واجتماع أحباب وصحاب ما كابدوا حرباً ولا رفعوا طعناً ولا ضرباً .

وعساكر الهولاكو ينوفون عن مائتين ألف مقاتل ما بين فارس وراجل ، وسالب وباسل ، وفاتك وقاتل يثبون وثوب القردة ويشكلون بأشكال المردة فيقطعون المسافات الطويلة فى ساعة قليلة يخوضون الأوحال ويتعلقون بالجبال ويصيرون على العطش والجوع ، ويهجرون الغض والهجوع ، ولا يبالون بألم الحر والبر والسهل والوعر والبر والبحر طعامهم كن شعير وشرابهم عن طرف البير يكاد أحدهم يتقوت بطرف أذن فرسه ، ويقطعها ويأكلها نيّاً ويصبر على ذلك أياماً عديدة ، ويكتفى هو وفرسه بحشيش الأرض مدة مديدة .

فوقع التصاق والتحم القتال ووقع الطوارق النزال وزحف الجيش إلى الجيش فى يوم الخميس عاشر محرم الحرام سنة ٦٥٦ هـ ، وثبت أهل بغداد مع شرافتهم على حر السيوف وصبروا مضطرين على طعم الحتوف ، وأعطوا الدار حقها ، واستمطروا غمايم السهام ونبلها ودرقها ، واستقبلوا بحر وجوههم حر صواعق الحرب وبرقها ، وزفوا فى تلك الكائدة الفوز بالشهادة وارتقوا فى دار الآخرة رتب السعادة وجادوا بأنفسهم فى سبيل الله وجادوا أحسن إجادة .

واستمروا كذلك من إقبال الفجر إلى إدبار النهار فعجزوا عن الاصطبار وانكسروا أشد انكسار وولوا إدباراً بالإدبار ، وانهزموا وما أغنى عنهم الفرار ، ولزمهم الطراد إلى قتال أخذ سلاسهم منه الفرار مضوا متسابقى الأعضاء فيه لا رؤوسهم بأرجلهم عباد يرون الموت قداماً وخلفاً فيختارون الموت اضطراراً.

وغرق كثير منهم فى دجلة وقتل أكثرهم أشد قتلة وأعقبهم التتار ووضعوا السيف فيهم والنار ، وقتلوا من المسلمين فى ثلاثة أيام ما ينوف على ثلثمائة ألف وسبعين ألف نفس وسبوا النساء والأطفال ونهبوا الخزائن والأموال ، وأخذ هولاكو جميع النقود وأمر بإحراق الباقى ، ورموا كتب مدارس بغداد فى بحر الفرات وكانت لكثرتها جسراً يمرون عليها ركباناً ومشاه ، وتغير لون الماء بهذا والكتابة إلى السواد .

وكانت هذه الفتنة من أعظم مصائب الإسلام (فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم) ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، واستؤسر المعتصم هو وأولاده وجماعته وأتوابه إلى هولاكو أسيراً ذليلاً فقيراً حقيراً .

فسبحان المعز المذل السميع البصير القادر القاهر تعالى شأنه الباهر ، وعلا سلطانه على كل ذى سلطان قاهر .

فاستبقى هولاكو الخليفة أياماً إلى أن استصفى أمواله وخزائنه وذخائره ودفائنه ، ثم رمى رقاب أولاده وذويه وأتباعه ومتعلقه ، وأمر أن يوضع الخليفة فى غرارة ويرفس بالأرجل إلى أن يموت ، ففعل به ذلك .

واستشهد (رحمه الله تعالى) فى يوم الأربعاء رابع عشر ليلة خلت من صفر سنة ٦٥٦ هـ ، وانقطعت خلافة بنى العباس وهم سبع وثلاثون خليفة أولهم السفاح وآخرهم المستعصم .

وبعده صار المسلمون بلا خليفة ولم ينل ابن العلقم ما أراده من نقل الخلافة إلى من أراد ولم يستفد غير سلامة أهل الحلة من النهب والقتل بمساعدتهم لهم .

فإن مجد الدين محمد بن الحسين بن طاوس الحلى ، وسدير الدين بن يبوسف المطهر الحلى أرسلا كتاباً إلى هولاكو على يد ابن العلقمى وفيه كلام يروونه عن أمير المؤمنين على بني أبى طالب رضى الله عنه تعالى هذه صورته : « إذا جاءت العصابة التى لا خلاف بها لتحزنن يا أم الظلمة ومسكن الجبابرة وأم البلاء ، يا ويل لك يا بغداد ؟ ولدارك العامرة التى لها أجنحة كالهواوين تماتين كما يمات الملح فى الماء .

ويأتى بنو قنطورا ومقدمهم جهورى الصوت لهم وجه كالمحان المطوق وخراطيم كخراطيم الفيلة لم يصل إلى بلدة إلا فتحها ولا براية إلا نكسها » .

فلما وصل الكتاب إلى هولاكو أمر أن يترجم له ، فلما قرأه أمر لهم بسهم الأمان ، وسلموا بسبب ذلك من القتل والنهب ، وباء العلقمى بإثمه وإثم من ظلم ، وكان من أهل النار ، وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار ؟

قلت : وأما هذه الكلمات فليس طلاوة كلام سيدنا عليّ (رضى الله عنه) ولا حلاوته وآثار الوضع عليها ظاهرة ، وكأنهم اخترعوه بعد وقوع الطامة ، وعند حصول هذهي الفتنة العامة وإلا لاشتهر ذلك قبل الوقوع وتناقلته الرواة فى كل مجموع والله أعلم بالسرائر وما تخفيه الأحشاء والضمائر .

★ ★ ★

فصـــل

● كان ممن نجا من سيوف هولاكو من بنى العباس :

أبو العباس أحمد ويلقب « المنتصر بن الظاهر الناصر بن المستضئ » بن المستنجد بن المقتفى بالله العباس ، فوصل إلى مصر وافداً على سلطانها - إذ ذاك - وهو الملك الظاهر سيف الدين بيبرس البندقدارى فى سنة ٦٥٦ هـ ، فخرج السلطان بيبرس إلى ملاقاته وأكرمه ، وأثبت نسبه فى موكب عظيم فيه قضاة الشرع الشريف ، وأعانه الظاهر بجيش ، وتوجه إلى بغداد فقتل المستنصر ، ولم ينج منهم إلا القليل ، ولم يتم لهم أمره .

ثم وصل بعد ذلك إلى مصر من بنى العباس : أبو العباس أحمد ، وتلقب بـ « الحاكم بأمر الله » بن الرشيد بن المسترشد بن المستظهر بن المقتدر العباسى فأكرمه الملك الظاهر أيضاً ، وأثبت نسبه من قضاة الشرع بحضرته وبايعه بالخلافة ، وأجرى عليه نفقة وسكن بمصر وليس له من الأمر شيء ، وإنما اسم الخلافة وأولاده من بعده على هذا المنوال ليس له إلا اسم الخلافة ، ويأتون به إلى السلطان الذين يريدون توليته فيبايعونه ويقولون له : وملك السلطنة ، هكذا كانوا بألقاب الخلفاء واحداً بعد واحد ، فكاتب سلاطين الأقاليم يتبركون به ، ويرسلون إليهم أحياناً يطلبون منهم تفويض السلطنة باللسان ، فيكتبون لهم تقليداً ويعهدون إليه بالسلطنة عهداً ، ويولونه سلطنة الجهة التى يطلبها فيتبرك بهذا التقليد ويقمن .

ولا ينبغى : أن هؤلاء ليس لهم الخلافة ، ولا الصورة ! كما كان الخلفاء العباسيين ببغداد المحجور عليهم من جانب أمرائهم صورة الخلافة فقط ،

وهؤلاء ليس لهم ولا تلك - أيضاً - ! ، وإنما لهم الاسم المجرد عن المعنى من كل وجه .

ولكن شيخ شيوخنا الحافظ السيوطى (رحمه الله) عدهم من جملة الخلفاء العباسيين وكتب تاريخ للخلفاء ، ذكر هؤلاء من جملتهم وقام بشأنهم واعتبارهم .

وآخر من ذكر منهم فى تاريخ الخلفاء المتوكل على الله أبو العزيز عبد العزيز ابن يعقوب وأنه بويع له فى يوم الاثنين السادس والعشرين من المحرم سنة ٨٨٤ بحضرة السلطان الأشرف قايتباى والقضاة والأعيان بالقلعة من مصر ، وكان يوماً مشهوداً ، وبه ختم كتابه تاريخ الخلفاء .

ورأيت فى تاريخ لطيف للحافظ السبيوطى - أيضاً - سمّاه « الورقات فى الوفيات فى سنة ٩٣ هـ » ، مات فى المحرم منها الخليفة المتوكل على الله أبو العز العباسى المصرى (رحمه الله تعالى) .

قلت : واستمر يعقوب المستمسك بالله خليفة إلى أن كبر سنة وضعف نظره، ودخلت أيام الدولة الشريفة العثمانية وافتتح السلطان بايزيد خان مصر القاهرة وقهرها وأزال عنها مظالم الجراكسة وعمرها ، وعاد مع الفتح والبشرى إلى دار السلطنة الكبرى قسطنطينية العظمى .

توفى الخليفة المذكور بمصر لعشرين بقين من ربيع الثانى سنة ٩٢٧ هـ ، وولى بعده أبو عبد الله بن يعقوب ولقب « المتوكل على الله » .

وكان السلطان سليم خان (رحمه الله تعالى) لما فتح مصر أخذ شركسياً إلى اسطنبول عوضاً عن يعقب المستمسك بالله لكبر سنه وذهاب نظره .

فلما توفى السلطان سليم (رحمه الله تعالى) عاد المتوكل على الله هذا إلى مصر وصار خليفة بها ، واستمر إلى أن توفى إلى رحمة الله تعالى لاثنى عشر ليلة خلت من شعبان سنة ٩٩٥ هـ فى أيام المرحوم داوود باشا الخادم صاحب مصر .

وبموته انقطعت الخلافة العباسية الصورية أيضاً بمصر ، وكان المتوكل هذا فاضلاً أديباً له شعر حسن منه قوله :

لم يبق محسن يرجى ولا حسن ولا كريم إليه يشـــتكى الحزن
وإنما صار قوم غير ذى حســب ما كنت أوثر أن يمتد بى زمـــن

ضمن قول الطغرائى من لامية العجم :

ما كنت أوثر أن يمتد بى زمنى حتى أرى دولة الأوغاد والسفل

وقد اجتمعت به وأخذت عنه فى رحلتى إلى مصر فى طلب العلم الشريف فى سنة ٩٤٤ هـ ، وكانت مصر - إذ ذاك - مشحونة بالعلماء العظام مملوءة بالفضلاء القحام ميمونة بين بركات المشايخ الكرام كأنها رؤوس تتهادى بين أقمار وشموس :

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنهـا وكأنهـــم أحــــلام

★ ★ ★

الباب السادس

فى ذكر ما عمرته ملوك الجراكسة فى المسجد الحرام

لأن بعضهم وأكثرهم عمر فى المسجد الحرام وسبق له من الترميم والنظام لما صاروا من سلاطين الإسيلام .

واعلم أن الجراكسة جنس من الترك فى جنوب الأرض لهم مدائن عامرة ولهم جمال ومزارع يرعون الغنم ويزرعون ، وهم تابعون السلطان سراى قاعدة ملك خوارزم .

وملوك هذه الطوائف للملك سراى كالرعية يقاتلونهم ويسبون منهم النساء والأولاد ويجلبون إلى أطراف البلاد والأقاليم ، كذا ذكره المقريزى فى «عقوده» قال : « واستكثر الملك المنصور قلاوون صاحب مصر من شر المماليك الجراكسة ، وكذلك ولده وبنوه وأدخلوهم فى الخدم الخاصة فصاروا سلحدارية وجمدارانة جاشكرية ، وأمّروا وكبَّروا عمايمهم وسلكوا طريق أستاذهم من طريق ملوك الترك ودخلوا السلطنة وغلبوا عليها واستقلوا بها واستكثروا من جنسهم وعملوا لها قوانين وقواعد تنظيم بها دولتهم ، وولى منهم ومن أولادهم السلطنة بمصر اثنان وعشرون ملكاً ، وكانت مدة ملكهم مائة وثمانية وعشرون سنة وأولهم السلطان الملك الملقب بالظافر سيف الدين ابن برقوق بن آنض [1] العثمانى الجركسى كما ذكره المقريزى فى عقوده وخططه .

قال الجال يوسف بن تغرى بردى وهو جركسى : « قام بدولة الجراكسة جليه عثمان بن مسافر ، ولذلك يقال له برقوق العثمانى ، فاشتراه الأتابك

---

(١) هكذا فى (أ) ، و(س) .

يلبغا العمرى ، وهو من جملة الأتراك الذين معهم الرق من مماليك بين أيوب المتغلبين عنهم بمصر ، ومات يلبغا وهو من صغار مماليكه .

وإنما سمى برقوق بجحوظ فى عينيه ، وتتقلب به الأحوال إلى أن صار أمير مائة مقدم ألف ، وكان أتابكاً للملك الصالح حاجى بن الأشرف شعبان ابن الأمجد حسين بن الناصر محمد بن قلاوون وهو الرابع والعشرون من ملوك الأتراك من ملوك الأيوبية الأكراد المتغلبين عليهم غير الجراكسة .

وكان سن الملك الصالح حاجى ولىّ السلطنة عشرة أعوام ليس له من السلطنة غير الاسم ، فألزم الأمر إلى أتابك برقوق أن يخلع الملك الصالح ويتولى السلطنة بعده ، فخلعه بعد سنة ونصف سنة ، وذلك فى يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان سنة ٧٨١ هـ .

ومن أثاره : مدرسة أنشأها بمصر بين القصرين كان مشيد عمارتها جركسى الخليلى ، فقيل فى ذلك العمل :

قد أنشأ الظاهر السلطان مدرسة فاقت على أرم مع سرعة العمل

يكنى الخليل بأن جاءت لـخدمته صم الجبال بها تمشى على عجـل

وجهز إلى الحرم المكى مالاً لعمارته ما تهدم من المسجد الحرام ، وسار الركب الرجبى من مصر إلى مكة بعد طول وانقطاعه ، واستكثروا من المماليك الجراكسة فاستمروا متغلبين على ملك مصر إلى أن كثر ظلمهم وزاد عسفهم ، فأزالهم الله بعد ذلك بالسيوف الصارمة العثمانية وتشرفت بدولتهم القاهرة مصر والنحوت اليوسفية الكنعانية ملكهم الله تعالى كافة البسيطة وجعل معدلتهم ورأفتهم عامة بسائر الأرض محيطة .

وكان الظاهر برقوق متمكناً من المملكة بجمع الأموال والخزائن وأكثر من شراء المماليك الجراكسة فتمكنوا من الملك فتلاعبت بعده المماليك الجراكسة بملك مصر وصاروا ملوكها وسلاطينها بالقوة والغلبة والاستيلاء .

وكادت تقع فتن وجدال وجلاد وقتل نفوس وحرب بسوس إلى أن استقر

الأمر على سلطنة واحد منهم تركب فى شعار السلطنة واصطلحوا على هيئة خاصة أخذوها من الملوك الأيوبية وزادوا فيها ونقصوا ، وكان ذلك الوضع مفتولاً عندهم ، فإن العرف يحسن ويقبح ، وإن كانت صورة مضحكة عند من لا يألفها ، ولكل إقليم وضع خاص ، وسلاطين ذلك الإقليم لا تفهم تلك الهيئة لسلاطينهم .

وكان من شعار سلاطين الجراكسة عامة كبيرة ملفوفة بصنايع ملكفة يجعلون فى مقدمها ويمينها ويسارها شكل ستة قرون بارزة من نفس العمامة ملفوفة من نفس الناس يلبسها السلطان فى موكبه وديوانه قفطاناً من فاخر الثياب يكون على كتفه اليمين قطعة طراز مزركش بالذهب ، وبكذلك على كتفه اليسار إلا أن ذلك ليس مخصوصاً بالسلطان ، بل يلبس ذلك من الأمراء ومن دونهم ويخلع بهذا الثوب المطرز على من أراد ، ويحمل على رأس السلطان قبة صغيرة لطيفة .

وفى وسط ذلك صورة طير صغير يظلل السلطان بتلك القبة ، والذى يحملها على رأس السلطان هو أمير كبير وظيفته أن يصير سلطاناً بعد ذلك ، وأكابر أمرائه أربعة وعشرون أميراً بطبلحناناه تضرب على بابهم صبحاً وعهداً لكل واحد منهم أمير مائة مقدم ألف بمنزلة البكار بكية عندهم ، ويلبس كلاً منهم عمامة بقرنين ودنهم « الخاصكية » يكون له فرس وخدام ، وعلى رأسه ربط وعليه عمامة بعذبة ، يديرها من تحت حنكه دون الجلبان ، وهم مشاة على رؤوسهم طواقى من جوخ أحمر ضيق موضع يدخل فى رأسه وسبع من أعلاه لا يلطا برأسه ، وملبوس أكثرم الملوطة البيضاء المصقولة يكون على كتفه طرازتين من محمل أو أطلس أو مزركش ، وفى أوساطهم ، ويدلون طرفها إلى أنصاف سوقهم .

وكانت التجار تجلب المماليك البيض من بلاد جركس ويتفاولون فى أيمانهم إلى أن كثروا بمصر وبلغوا من عشرين ألف فارس إلى ثلاثين ألف ، وكانت لهم اصطلاحات فى تربيتهم ، وكانت لهم الأطباق يوظفون فيها للمسلمين من حفاظ القرآن .

وكانت الجلب يدخله سيده أولاً إلى الطبقة للحفظ والاستخراج والصلاة والقرآن بحسب قابليته إلى أن يفوق فى الخط ومعرفة القرآن والفقه وأمور دينم ثم يرتقى إلى معرفة الثقاف والصراع ورمى السهام ، ثم يترنى إلى الفروسية إلى أن يتفرس فى أنواع الحرب والحبل والخداع واللعب بالسيف والعود والسهام ، ثم يترقى إلى الخاصكية ، ثم إلى الإمرة ، ثم إلى الدوادرية والمقدمية ، ثم إلى السلطنة .

وكانت خيال السلطنة فى دماغ كل واحد منهم من حين يجلب إلى السوق ليباع إلى أن يموت حتى إن واحداً من الجبان جلب وهو حقير فاحش القرعة ، فاحش العرج ، قال للدلال الذى يبيعه : « هل ولى الأقرع الأعرج سلطاناً فى مصر » .

وبالجملة فقد كانت طوائف سوادج لهم سماحة وحماسة وصداقة لمن صادقوه ، وكانت أرزق مصر بيدهم ، وكانت أهل مصر تتلاعب بهم فيما بيدم من الأرزاق ، وكانوا بيد فقهائهم ومباشريهم فيكون لهم مباشر من المصريين للمصارف فيكون للجندى فقيه يعلمه القرآن وإماماً يصلى به ، ومكبراً مباشراً يكتب دخله وخرجه ، وخازن دار ، وركابدار ، وجامدار ، ومهتار ، وسراج ، وحلاف ، وسايس ، وغير ذلك ، فإذا ترقى الأمير للإمرة ترقى معه خدامه ويرتبون له سماطان حلاوى ومفاكهات وكانوا فى رهافة ، وكانوا أهل مصر يعيشون فى ظلمهم رغداً ، بحيث إن أسمطتهم كانت تكفى لسائر جيرانهم ، وكانت خدامهم تتبع ما يفضل من طعامهم للناس من الدجاج والوز وسائر النفائس ، وكان لهم سوق يباع فيه ما يفضل من أطعمتهم التى أخذتها خدامهم فى أسمطتهم ، يتفاخرون ببناء البيوت الفاخرة والمدارس والجوامع والترب والربط ، وكانت لهم خيرات رائدة وميزات عالية إلى أن فشا فيهم الظلم والعدوان وكثر منهم المضارات وغلب سيئاتهم على حسناتهم ، وزادت مظالمهم على إحسانهم ، ومالوا إلى الغوانية والمفسدين ، وأخلوا شرائع الشرع والدين ، فاستجاب الله تعالى فيهم دعاء المظلومين ومزقهم أى ممزق ، « ودار الظالم خراب ولو بعد حين » ، والملك

يوم بالكفر ولا يدوم بالظلم والله لا يحب الظالمين ، ون الملك لله يؤتيهي من يشاء والعاقبة للمتقين .

وكانت مدة سلطنتهم بمصر من سنة ٨٩١ هـ ، وهذا كلام واقع فى البين .

ولنرجع إلى أحوال الملك الظاهر برقوق فنقول : أنه بعد سلطنته استمر على حاله سلطان إلى أن اختلف عليه الأمر ووقعت عليه حروب كثيرة ، ثم خلع وحبس فى « الكرك » ، ثم سحب من الحبس وجمع الجيوش وقاتل وغلب على المملكة ، وأعيد إلى السلطانة وصار يتتبع أعداءه ، وهل خرج عليه وخالفه ويقدم من وافقه إلى أن اصطفاهم - وما صفا له الزمان ! - وظن أنه أمن - وأين الأمان فى يد الدهر الخوان ؟! - .

ومالت شمس سلطنته إلى الزوال وانمحق بدر حياته ، ولا بد من المحق بعد الكمال ، وبرق برق وشاهد الانفصال ، فعهد بالسلطنة إلى ولده الناصر فرج بن برقوق وطلب الخليفة القضاة والأمراء وأشهد على نفسه أنه ترك السلطنة لولده فرج وسنه عشرة أعوام ، وعين الأتابك إيتمش النجاشى وزير التدبير للمملكة ، وتفى إلى رحمة الله تعالى فى ليلة الجمعة وقت التسبيح منتصف شوال سنة ٨٥١ هـ .

وفى ذلك يقول أحمد المقرى :

مضى الظاهر السلطان أكرم مالك ... إلى ربه ترقى الخـــلد فى الدرج

وقالوا ســــتأتى شدة بعد صوته ... فأكرمهم ربى فما جاء سوى فرج

وخلف الظاهر برقوق من الذهب العين ألفى ألف دينار وأربعمائة ألف دينار، ومن القماش والفرو والأثاث ما قيمته ألف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار ، ومن الخيول المسومة والبغال الفارهة ستة آلاف جمل ، وكان عليق دابته فى كل شهر إحدى عشر ألف أردب شعير وفول .

وفى أيام الناصر فرج بن برقوق وقع حريق فى المسجد الحرام فى ليلة السبت لليلتين بقيتا من شوال ٨٥٣ هـ ، وسبب ذلك : ظهور نار من رباط

رامشت الملاصق لباب الحزورة من أبواب المسجد الحرام فى الجانب الغربى منه.

وراشت هو الشيخ أبو القاسم إبراهيم بن الحسين الفارسى وقف هذا الرباط على الرجال الصوفية أصحاب المرقعات سنة ٥٢٩ هـ ، فترك بعض أصحاب الخلاوى سراجاً موقوداً فى خلوته وبرز عنها فسحبت الفأرة الفويسقة فتيلة السراج منه إلى خارج فأحرقت ما فى الخلوة ، واشتعل اللهب فى سقف الخلوة وخرج من شباكه المشرف على المسجد الشريف ، واتصل بسقف المسجد والنهاية ، وعجز الناس عن طفيه لعلوه وعدم وصول اليد إليه فعم الحريق الجانب الغربى من المسجد الحرام ، واستمرت تأكل فى جانب السقف وتسير ولا يمكن للناس إطفائها لعدم الوصول إليها بوجه من الوجوه إلى أن وصل الحريق إلى الجانب الشمالى ، واستمر يأكل سقف الجانب الشمالى إلى أن انتهت إلى باب العجلة العجلة ، وكان هناك اسطوانتان هدمهما السيد العظيم الهول الذى دخل المسجد الحرام فى الثامن من جمادى الأولى فى ذلك العام ، يعنى عام حريق المسجد الحرام ، وأخرب عمودين من أساطين الحرم الشريف عند باب العجلة بما عليه من العقود والسقوف ، وكان ذلك سبباً لوقوف الحريق وعدم تجاوزه عن ذلك المكان ، وإلا لكان يعم المسجد جميعه من الجوانب الأربعة فاقتصر الحريق على باب العجلة وسلم الله باقى المسجد الحرام ، وقيل :

فكـــم لله من لطف خفى   يدق خفاه عن فهم الزكى

فصار ما احترق من المسجد الحرام أكواماً عظاماً يمنع من رؤية الكعبة الشريفة ومن الصلاة فى ذلك الجانب من المسجد .

قال النجم بن فهد : « وتحدث أهل المعرفة بأن هذا يندب بحادث جليل يقع فى الناس وكان كذلك ، فقد وقعت المحنة العظيمة بقدوم تمر سنان إلى بلاد الشام وبلاد الروم وسفك دماء المسلمين وسبى ذراريهم ، ونهبت أموالهم وأحرق مساكنهم ودورهم كما هو مذكور فى التواريخ المفصلة .

قال الحافظ السخاوى [(١)] فى ذيله على دول الإسلام للذهبى (رحمهما الله تعالى) : « وفى آخر شوال سنة ٨٥٢ هـ وقع بالحرم المكى حريق أتى على نحو المسجد الحرام ولولا المعمرات الذى وقعا من السيل - قبل ذلك - لاحترق المسجد جميعه ، واحترق من العمد الرخام مائة وثلاثون عموداً صارت كلها كلساً ولم يفنى فيما مضى مثله .

وأما وقوع السيل فى جمادى الأول من هذه السنة بعد مطر عظيم الانسكاب كأفواه القرب ثم عم السيل فامتلأ المسجد الحرام حتى بلغ القناديل ، ودخل الكعبة من شق الباب فهدم من الرواق الذى يلى دار العجلة عدة أساطين وخرب منازل كثيرة ومات فى السيل جماعة .

قال التقى الفاسى (رحمه الله تعالى) : « ثم قدر الله عمارة ذلك فى مدة يسيرة على الأمير يسبق الظاهرى ، وأما قدومه إلى مكة كذلك فى سنة ٨٠٥هـ، وكان هو أمير الحاج المصرى وتخلف بمكة بعد الحج لتعمير المسجد الحرام .

فلما دخل الحجاج إلى مكة شرع فى تنظيف الحرم الشريف من تلك الأكوام التراب وحفر الأرض وكشف عن أساس المسجد الشريف ، وغير أساس الأسطوانات فى الجانب الغربى من الحرم المحترم ، وبعض الجانب الشامى منه إلى باب العجلة فظهرت أساس الاسطوانات مثل تقاطيع الصلب تحت كل أسطوانة بناها وأحكم تلك الأساسات على هيئة بيوت الشطرنج تحت الأرض وبناها إلى أن رفعها إلى وجه الأرض على أشكال زوايا قائمة وقطع من جبل الشبيكة على يمين الداخل إلى مكة أحجاراً صلبة منحوتة على شكل نصف دائرة قصير مع أخرى منحوت مثله دائرة تامة فى سمك ثلثا ذراع وضعت على قاعدة مربعة منحوتة على حد التقطيع الصليبى على وجه الأساس

---

(١) السخاوى ؛ هو : شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى ، المتوفى سنة ٩٠٢هـ من أهم مصنفاته : الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع ، وهو تاريخ كبير جمع فيه الوفيات من ٨٠١ هـ إلى سنة ٩٠٠ هـ مرتباً على حروف المعجم فى الأسماء والآباء والجدود . كشف الظنون : ٢/ ١٠٨٩ .

المرتفع على الأرض ، ووضع عليها دائرة أخرى مثل الأولى ، ووضع بينهما بالطول عمود جديد منحوت له بين الحجرين المدورين وسيك على جميع ذلك بالرصاص إلى أن ينتهى طوله طول أساطين المسجد فيوضع عليه حجر منحوت من المرمر .

وقاعدة ذلك العمود من فوق وبنى له خشب مربع يوضع عليه ، وبنى من فوق طاقاً بعقد إلى العمود الأخرى ، وبنى ما بين ذلك بالجص والأجر إلى أن يصل إلى السقف إلى أن تم الجانب الغربى من المسجد الحرام على هذا الحكم وبقيت القطعة التى من الجانب الشمالى إلى باب العجلة ، فأكملوها بالقطع من عمد الرخام الأبيض موصولة بالصفايح من الحديد إلى أن لاقوا به العُمد التى بنوها بالعمد الصوان المنحوت لعدم القدرة على العمد الرخام .

وصارت الجوانب الثلاثة من المسجد الحرام بعمد الرخام ثلاثة أروقة ، والجانب الغربى وحده بالحجر الصوان المنحوت المدور على شكل عمود الرخام ، وكانت عمارة العمد فى أول شعبان سنة ٨٠٤ هـ .

ولم يبق غير عمد السقف وأخر عمله لعدم وجود خشب يصلح لذلك بمكة، إذ لا يوجد غير خشب الدوم وخشب العرعر ، وليس لذلك طول ولا قوة ويحتاج إلى خشب الساج ولا يجلب إلا من الهندى وخشب الصنوبر والسرو ، ونحو ذلك ، ولا يجلب إلا من الدوم فلزم تأخير إكماله إلى إحضار القدر الذى يحتاج إليه من ذلك الخشب .

وشكر الناس همة الأمير بستق على سرعة إتمام هذا القدر من العمل فى هذه المدة اليسيرة ومبادرته إلى تنظيف المسجد إلي أن صلح للصلاة فيه ، وكان ذا همة عالية وحسن توجه ، وكان كثير الصدقة والإحسان ، وحج الأمير «يسبق » فى ذلك العام وعاد إلى مصر لتجهيز ما يحتاج إليه من خشب الجانب الغربى للمسجد الحرام ، ووصل إلى مصر فى أوائل سنة ٨٥ هـ ، وكان صاحب مكة يومئذ - جد سادتنا أشراف مكة إلا أن السيد الشريف حسن بن جلان - سقى الله عهده صوب الرحمة والوضوان من يحب الخير ويرغب فيه ويسابق إلى فعل الجميل ويرغب إليه .

وهو الذى يقول فيه شرف الدين المغربى الشافعى « صاحب الإرشاد والروض وعنوان الشرف وغيرها من قصيدة له يمدحه وتعرض لصاحب اليمن - يومئذ - أحسنت فى تدبير ملكك :

أحسنت فى تدبير ملكك يا حسن وأخذت فى تسكين أخلاط الفتن

إلى أن يقول :

موســـــى هزير لا يطـــاف نزاله فى الحرب لكن أين موسى من حسن ؟!

هــذاك فى يمن وما ســـلمت له يمن وذا فى الســـلم لم يدع اليمن

ومن جملة خبره وآثاره : أنه لما رأى برباط رامشت وما آل إليه بعد الحريق إلى أن صار بساطه بذلك المحل أمر بإعادته رباطاً للفقراء كما كان فصرف من ماله عليه إلى أن عاد أحسن من الأول وزال السياطات من ذلك المكان وانصان الحرم الشريف وتضاعفت أدعية الناس له بسبب ذلك، والله يجزى المتصدقين.

ويسمى الآن رباط ناظر الخاص لأنه رمّمه وعمّره بعد تهدمه فى أوائل القرن العاشر وهو فى طائفة المباشرين فى ديوان السلطنة بمصر فى خدمة السلطان جقمق العلاى ومن بعده وكان من أهل الخير رحمه الله .

وفى سنة ٨٠٧ هـ قدم إلى مكة الأمير بستق لعمارة سقف الجانب الغربى من المسجد الحرام وغيره مما كشف عن سقن المسجد الشريف من كل جانب فنهض إلى هذه الخدمة وأحضر الأخشاب المناسبة لذلك وجلبها من بلاد الروم وهيئها لعمل السقف ونقشها بالألوان وزوقها واستعان بكثير من خشب العرعر الذى يؤتى به من بلاد الحجاز من حمية الطائف لعدم وجود خشب الساج - يومئذ - فى مكة ، وبذل همته واجتهاده إلى أن سقف جميع الجانب الغربى من المسجد الحرام وأكمله بخشب العرعر المذكور ، وعصر معه بعض الجانب الشامى أيضاً إلى باب العجلة ، فتم عمارة المسجد الحرام على تلكي الأسطوانات المنحوتة من الحجر الصوّان وعلق فى تلك الأسقف سلاسل من نحاس وحديد لتعلق القناديل من الرواق الوسطانى من الأروقة الثلاثة على حكم سائر المسجد الحرام ، غير أن جانب الشرق واليمانى وأكثر الشامى إلى

باب العجلة كان فى كل عقد مني العقود التى تلى صحن المسجد الشريف ثلاث سلاسل : أحدها فى وسط كل عقد ، والثانى عن يمينه ، والثالث عن شماله لتعليق القناديل .

وأما هذا الجانب الغربى كانت فيه السلاسل على هذاي الحكم ، فلما احترق هذا الجانب وأعيدت عقوده لم يتركب فيها هذه السلاسل ، ولا أدرى هل كانت هذه السلاسل التى كانت هى خارجة عن الأروقة تحت عقود الرابعة منها تعلق فيها القناديل أحياناً أم كانت لمجرد الزينة ؟ ولم أطلع على ذكر قناديلها ، ولا كيف كانت ؟ ومتى بطلت ؟

وأكمل عدة سقف الجانب وما احترق من الجانب الشرقى إلى باب العجلة فى سنة ٨٠٧ هـ ، وعمر مع ذلك فى الجوانب الثلاثة من المسجد الحرام مواضع كثيرة ممن كان سقفها قد انكسر أعوادها ومال بعضها ، وكان يسيل فيها الماء إلى المسجد الحرام فأصلح الأمير بستق جميع ذلك بالطبطاب والنورة فى سطح الأسقف ودلكها وسواها وأتقن عملها وعمر فى صحن المسجد من المقامات والقامات الأربعة التى وضعت للمذاهب الأربعة على الهيئة القديمة ، وبذل فى صرف ذلك الأموال العظيمة وشكره الناس على ذلك .

وكان ذلك فى أيام الناصر زين الدين أبى السعادات فرج بن برقوق بن أنص الجركسى ، وكانت سلطنته بعهده من أبيه عند وفاته - كما تقدم - صبيحة يوم الجمعة منتصف شوال سنة ٨٠١ هـ ، وصار الأمير الأتابك إيتمس خازن داره ، فوقع بينهما منافرة أدت إلى مشاجرة ثم مقاتلة فانكسر إيتمس فهرب إلى نائب الشام « تنم » الظاهرى ، فجيش جيوشاً إلى مهر لقتال الناصر ويشبك ، فخرج الناصر لقتالهم فانهزموا منه واضطربت أحوال مصر لاختلاف الكلمة ، ثم وصل تمرلبك إلى بلاد الشام وأخذها من سودون الظاهر فأسره وقتله ، ونهب الشام وأخذها من سودون .

وخرج الناصر فرج بجيوشه إلى مصر لقتال « تمرليك » فوجده قد ترك البلاد وتوجه إلى بلاد الروم فأعطى الشام الثغرى بردى ، وعاد إلى مصر

وذلك فى سنة ٣٣ هـ ، ثم كثرت الفتن بمصر من الأمراء الظاهرية مماليك الظاهر برقوق والاختلافات إلى أن ضجر فرج من ذلك وهرب من القلعة سادس ربيعي الأل سنة ٨٠٨ هـ ، واختفى عند سعد الدين بن غراب أحدووس أطباشيرين فأخفاه عنده ، فلما أصبحوا الأمراء وفقدوا السلطان أقاموا فى السلطنة أخاه الملك المنصور عبد العزيز بن برقوق بن أنص ثالث ملوك الجراكسة فتلاشت أمور المملكة فى أيامه لصغر سنه واختلاف أمراء دولته، وكيف يستقيم الملك مع الخلاف ؟! والحال أنه : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ (١) .

وكان مدة الملك المنصور شهرين وعشرة أيام ، فظهر الملك الناصر فرج بعد هروبه ، واختفائه ، وركب معه أمراء من مماليك أبيه ، وأخذ القلعة بالحراف من الملك المنصور عبد العزيز ، وسلطن ثانياً فى يوم الجمعة لأربع مضين من جمادى الأخرة سنة ٨٠٨ هـ ، وبقى أخوة الملك المنصور عبد العزيز وأخاً له اسمه إبراهيم إلى الأسكندرية متوفياً بها فى ليلة الاثنين ثالث ربيع سنة ٨٠٩هـ ، واتهم الناصر بقتلهما - والله أعلم بذلك - وأحكم ثم صار الملك الناصر فرج يتبع أعداءه من الأمراء فصار بقتلهم واحداً بعد واحد فهجموا عليه وخرجوا عن طاعته وقاتلوه ، فهزمهم وخرجوا عنه إلى الشام فتبعهم ، وصاروا به كرون به ويهربون عنه ويتعبونه فى طلبهم - مع غاية الاحتراز منه - والحرب خداع - ومخالقة الجم الغفير والجم الكثير لا يستطاع - إلى أن مل منه الخدم والأتباع وتفرقوا عنه وسموا من الأتباع وهو يتبعهم فى الجد والطلب إلى أن صادفوه - فى طلبهم - بعد التعب والدب ، وهو ومن معه أتعبوا خيولهم فى طلب العدو من العشا إلى الصباح ، وأشرفوا فى الصبح على الأمراء والعصاة عليه وهم بطول الليل بالراحة والارتياح ، فحمل السلطان الناصر ومن معه ، وهم نفر قليلون حقيرون على أمرائه العاصين له - وهم متوفرون كثيرون العدو - فمنعه أصحابه من هذه الحملة ، وعلموا أنهم ومن

---

(١) الآية رقم ٢٢ من سورة الأنبياء ، مكية .

معهم فى غاية التعب والقتلة ، فلم يطعهم وأطاع غروره وجهله واغتر بشجاعته وحوله ، وظن أنه لا يقابله أحد لغرته وطوله ، ولا يقاتله أحد لهيبته ودوله فدله خياله الفاسد بغرور ، وخاب ظنه كما يخيب ظن كل مغرور وخانه الزمان الجاير ، ودارت عليه الدوائر ، وانقلبت إليه بصره وهو حسير ، وظفر به عدوه الحقير ، وقيد وهوو أسير كسير ، وقتل وما للناصر من نصير ، وما جاء الفرج فرجاً إلا بشرى الشهادة إلى الله المصير ، فطعمته المتماثلة بالسكاكين إلى أن انقطع منه الوتين ، وسكن عن الأنين ، فصار عيرة للناظرين ، وهو مقيد محبوس بأيدى المقاتلين فى ليلة السبت منتصف شهر صفر سنة ٨١٠ هـ التى تعد هذا القتلة على بساط فى ليلة مزبلة وهو عريان عن اللباس ، يمر به الناس وينظرون إلى ذلك البدن الممتهن والجسد العارى الممتحن ، وذلك من أعظم العبر وأكبر المحن .

إلى أن حنن الله عليه بعض الأنام بعد عدة أيام فحمله وغسله وأدرجه فى كفن ووالاه فى التراب فى مقبرة « باب الفراديس » .

ولعلّ - سامعه الله وأسكنه الفراديس والرجاء من الله الكريم - أن يكون قد غفر له ، فإن السيف محاء للذنوب ، والله علام الغيوب .

★ ★ ★

● **ومن العمائر الحرمية فى أيامه رحمه الله تعالى :**

تجديد عقد المروة بد سقوطه فى فى سنة ٨١١ هـ ، منها : أن تاجر يسمى الخوجا حسين بن محمد الشروانى أوصى فى مرض موته أن يصرف من ماله عمارة عين مكة من ماله عشرة آلاف درهم ، وأن يعمر الميضاه الهر غتمشية بخمسة الاف درهم ، فنفذت وصيته بعد ذلك فى العام المذكور .

ووقع فى أيام الناصر فرج - أيضاً - أن السلطان شكا له من سلاطين أقصى الهند - يومئذ - السلطان غياث الدين أعظم شاه بن اسكندر شاه أرسل إلى الحرمين الشريفين صدقة كثيرة جاء مع خادمه ياقوت العنانى ليتصدق بها على أهل الحرمين ، ويعمر له بمكة مدرسة ورباط يوقف على ذلك أوقافاً

ويصرف ربعها على أهل الخير كالتدريس ونحوه ، وكان ذلك بإيثار وزيره خان جهان فوصل ياقوت المذكور بأوراق سلطانية إلى مولانا السيد حسن بن عجلان شريف مكة - يومئذ - جد أشرافنا الآن جهل الله بوجودهم الزمان .

وكان وصول ياقوت العنانى إلى مولانا السيد الشريف حسن بن عجلان (رحمه الله تعالى) مع هدايا جليلة إليه وقبلها ، وأمره أن يفعل ما أمر به السلطان غياث الدين ، لكنه أخذ ثلث الصدقة على معتاده ومعتاد آبائه ، ووزع الباقى على الفقهاء والفقراء بالحرمين الشريفين فعمهم وتضاعف الدعاء له على الخير والدال عليه ، واشترى ياقوت العنانى لعمارة المدرسة والرباط دارين متلاصقيني علىَ باب أمهانى هدمهما وبناهما فى عامة رباطاً ومدرسة ، واشترى أصيلين وأربع رحبات وجعلهما وقفاً على مدرسته ، وجعل لها أربع مدرسين من أهل المذاهب الأربعة ، طالباً ، ووقف عليهم ما ذكرنا ، واشترى دار مقابلة للمدرسة المذكورة بخمسمائة مثقالاً ذهباً وقفها على مصالح الرباط، وأخذ منه مولانا السيد حسن بن عجلان فى الدارين اللتين بناهما رباطاً ومدرسة ، والأصلين والأربع الرحبات فى مرادة عين الدكانى اثنى عشر ألف مثقال ذهب ، وأخذ منه قدر لا يعلم قدره كان جهزه مع سلطانه لتعمير عين عرفة .

فذكر مولانا السلطان حسن أنه يصرف على عمارته ويقال : إن قدره ثلاثون ألف مثقال ذهب ، ولما قتل الناصر فرج بن برقوق على الوجه الذى تقدم شرحه ما قدم أحد من أمراء الجراكسة على التلبيس بالسلطنة ، فولى المستعين بالله العباسى - وكان القائم بتدبير المملكة - شيخ المحمودى - ثم خلع المستعين بالله وتسلطن مكانه وتلقب بـ « الملك المؤيد شيخ » فى مستهل شعبان سنة ٨٥١ هـ ، وهو رابع من ملوك الجراكسة ، وكان أصله من مماليك الظاهر برقوق ، واشتراه من تاجر يسمى محمود الهروى ، وكان يحب العلماء والفضلاء ، ويسجل قدرهم .

وفى أيامه وقع الغلاء العظيم بمكة بحيث يبعث الغرارة الحنطة ، وهى جمل معتدل بعشرين ديناراً ذهباً ، وكان عاماً فى جميع المأكولات وكان ذلك فى سنة ٨٠١ هـ .

ومن عجيب ما وقع فى ذلك أن جملاً كان لجمال يقال له : « القارونى » جملة فوق طاقته فهرب من جمادى الآخر فى تلك السنة من صاحبه ، ودخل المسجد الحرام ولم يزل يطوف بالبيت الشريف ، والناس حوله يريدون إمساكه فيعُضّهم ، ولم يمكن أحداً من نفسه فتركوه إلى أن تم ثلاثة أسابيع ثم جاء إلى الحجر الأسود فقبله ، ثم توجه إلى مقام الحنفية ووقف هناك تجاه الميزاب الشريف فبرك عنده وبكى !! وألقى نفسه على الأرض ومات !! فحمله الناس إلى ما بين الصفا والمروة ودفنوه هناك .

وفى هذه السنة عمرت أماكن من سقف المسجد الحرام ، وعقد له من جانب الركن اليمانى المتصل بصحن المسجد ، وفى سنة ٨١٥ هـ عمر شريف مكة - يومئذ - وهو الشريف حسن بن عجلان (أدام الله دولته) سعادته بالجانب الشمالى من المسجد الحرام البيمارستان الذى كان وقفاص للمستنصر العباسى فخرب ودثر ، واستأجره من قاض القضاة بمكة - يومئذ - القاضى جمال السيد حسن بن عجلان بن ظهيره الشافعى إجارة طويلة مائة عام بأربعين ألف درهم ، وأذن القاضى جمال الدين للسيد حسن بن عجلان أن يصرف الأجرة المذكورة فى عمارة ما تخرب من البيمارستان المذكورة عمارة حسنة ، وجدد فيه أبواباً وصهريجاً ووقف جميع ذلك مما عمّره .

وفيهما يستحق الانتفاع به على الفقراء والمساكين والمرض والمنقطعين يأوون قيه علواً وسفلاً وينتفعون بالإقامة والسكنى فيه لا يزعجهم أحد ولا يخرجهم، بل يستمرون إلى أن يحصل لهم الشفاء والفاقة ، فيخرجون باختيارهم ، فإذا خلا البيمارستان عن المرضى عاد الانتفاع لهم ، وكتب بذلك كتاب وقف على الصورة المشروحة ، وجعل النظر على ذلك لولده بركات وأخيه ثم بعدهما للأرشد فالأرشد مِن ذريته من ولد الظهر لا البطن .

وثبت ذلك وحكم بصحته القاضى السيد رضى الدين أبو حامد محمد بن عبد الرحمن الفارسى الحسنى المالكى فى يوم الجمعة لعشرين مضين من صفر سنة ٨١٩ ، وإنما استحكم فيه المالكى لأن متأخريهم أجازوا وقف النافع ، وهو خلاف رأى أبى حنيفة والشافعى (رحمهم الله تعالى) .

واستمر إلى أن خرب ودثر واستبدل إلى جانبه رباط سلطان الهندى السلطان أحمد شاه الكجرائى ورباط الخواجا الظاهر ، واشتريت دور أخرى وعمر فى مكانها المدارس الأربع السيمانية وبيد مؤلفه مدرسة الحنفية ساكناً فيها وعمر فى مكانها المدارس الأربعة السمانية (جزى الله خيراً) من كان سبباً لإنشائها .

وسيأتى بيان عماراتها - إن شاء الله تعالى - وفى مستهل ذى الحجة سنة ٩١٩ هـ قدم إلى الحاج أحد خواص مماليك السلطان الملك المؤيد فرأى جانب باب الكعبة الأيمن محتاجاً إلى الحلية ، فأخرج من ماله مقدار ما يقارب مائتا درهم فضة خالصة فحلا به ، ثم طلاه بالذهب ، وفرغ من عمل ذلك قبل الصعود إلى عرفة وشكر الناس صنيعه وعرفوا تعظيمه لبيت الله الحرام وأثنوا على همته ، والخير يذكر - ولو بعد حين - .

وفى أواخر عام ٨١٨ هـ أرسل المؤيد منبراً حسناً إلى المسجد الحرام ودرجة يصعد عليها إلى الكعبة ، ووصل ذلك إلى مكة فى الموسم وخطب الخطيب على المنبر الجديد « خطبة التروية » فى سابع ذى الحجة أرسل المؤيد صدقة كثيرة لتفرق فى المسجد ، فولى تفريقها الأمير ثغرى برمنش باش التركى المقيمين بمكة لسبع مضين من شهر ربيع الأول سنة ٨٢٢ هـ ، وهدمت ظلة المؤذنين التى فوق زمزم لخراب حنشبها وتأكله وبنيت بالحجر المنحوت وسقف أحواض زمزم وأقن عملها ، وفرغ منه فى شهر رجب فى هذه السنة وفيها عمّرت قناة عين بازان لأن السيل كان قد خربها فانقطع ماء العين ، فجددت إلى أن أجرى المياه ، وامتلأت البرك التى فى المعلا ورخص الماء بعد غلوه .

وكانت وفاة الملك المؤيد شيخ المحمودى فى يوم الاثنين تسع خلون من المحرم سنة ٨٢١ هـ ، وقد أناف على الخمسين ، وكانت مدة سلطنته ثمان سنين وخمسة أشهر ، وسلطان بعده ولده الملك المظفر أبو السعادات أحمد بن المؤيد شيخ بعهد منه فى يوم الاثنين تاسع المحرم يوم وفاة والده وعمره - إذ ذاك - سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام وهو الخامس من ملوك الجراكسة .

وصار مدير مملكته الأمير ططر مجلس أتايك وخالف عليه أمر الشام فتجهز إليهم ططر ومعه الملك المظفر أحمد طفلاً وقاتلهم وقتل منهم كثيراً إلى أن صفى فخلع الملك المظفر وتسلطن عوضه فى يوم الجمعة لليلة بقيت من شعبان سنة ٨٢١ هـ ، ورجع بالمظفر أحمد بن المؤيد إلى مصر واستمر بالقلعة إلى أن انتقل بالإسكندرية وتوفى بها مطعوناً ، وكانت مدة سلطنته سبعة أشهر وعشرين يوماً ، وتسلطن بعده السلطان أبو الفتح سيف الدين بن ططر الظاهرى فى يوم الجمعة لليلة بقيت من شعبان سنة ٨٢١ هـ ، وهو السادس من ملك الجراكسة وأولادهم بمصر ، وكان من مماليك الظاهر برقوق أعتقه وقدمه ولا زال يترقى إلى أن صار عند المؤيد رأس نوبة النوب ثم أمير مجلس ثم تسلطن كما ذكرنا وتلقب بالظاهر لقب ساداته ، وعهد مملكة الشام وقتل نائبيها وقبض على الأمراء المخالفين له وقدم الطائعين له .

وله آثار جميلة ومقاصد حسنة جليلة من أعظمها أنه قدم لصاحب مكة الشريف حسن بن عجلان ألف دينار ذهب تحمل إليه من خزينة مصر فى كل عام ، وجعل ذلك له فى مقابلة ترك المكس على الخضرة والفواكه ، وغيرها من المأكولات ، وألا يكلف شريف مكة التجار على أخذ القرض منهم والسواى المكتوب بهذا العهد موجودة فى المسجد الحرام إلى الآن ، ثم لما سخر الملك الظاهر ططر مملكة الشام وحلب عاد إلى مصر فمرض فى أثنياء الطريق وصار يتعلل إلى مصر ، وجعل فيها موكب ولزم الفراش ، ولم يتهن بالسلطنة وما كمل فرحته بالملك وما أمهله الدهر إلى أن سلبه الملك وأسلبه إلى الهلك ، وتوفى يوم الأحد لأربع مضين من ذى الحجة سنة ٨٢٤ هـ .

وكانت مدة ملكه أربعاً وتسعين يوماً (رحمه الله تعالى) ، وولى بعده فى يوم موته الملك الصالح محمد بن الظاهر وعمره نحو العشر سنوات وهو السابع من ملوك الجراكسة وأولادهم ، وصار أتابكه ومدبر مملكته أتابك جانى بك الصوفى إلى أن تقلب على الأتابك برسباى الدقماقى فقبض عليه وأرسله إلى سجن الإسكندرية ، فصار أتابك فى مكانه واستبدل بأمور المملكة من غير مشاركة ، فخلع الملك الصالح وتسلطن عوضه يوم الأربعاء لاثنتى عشر ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر سنة ٨٢٤ هـ .

وكان مدة سلطنة الملك الصالح ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً ، واستمر بعد الخلع عند دولته فى القلعة إلى أن توفى بالطاعون فى سنة ٨٣٤ هـ ، وعمره نحو العشرين (رحمه الله تعالى) أمين .

وولى بعده برسباى السلطنة وتلقب بالملك الأشرف سيف الدين أبى النصر برسباى الدقمانى وهو الثامن ملوك الجراكسة بمصر أخذ من بلاد جركس ، وبيع فى بلاد قرم فاشتراه تاجر وجلبه إلى الشام وباعه واشتراه الأمير دقماق الظاهرى نائب السلطنة وقدمه إلى الظاهر برقوق فقربه وأعتقه فصار يترقى إلى أن ولاه الملك المؤيد مقدم ألف وجرت عليه ذكيات وحبوس إلى أن ولى الظاهر ططر فقربه وأنعم عليه بتقدمة ألف ثم جعل دوادار ، واستمر على ذلك إلى أن تسلطن على الوجه الذى قدمناه ، واستمر هو فى السلطنة مدة طالت وحسنت أيامه .

ومن جملة مناقبه : أنه أخذ بلاد قبرس وأسر ملكها فى سنة ٨٢٩ هـ ، وهو فى تخت مملكته بمصر لم يتحرك ، وكان عاقلاً مدبراً سيوساً ذا وقار وسكينة متجملاً فى ملبسه وموكبه محباً لجمع المال ، واشترى من ماله ثلاث آلاف مملوك جركس وعمر بالقاهرة المدرسة الأشرفية، وهى من أحاسن مصر، ووقف عليها أوقافاً كثيرة ، وعمر أيضاً جامعاً عظيماً بخانقاه سرياقوس وقف عليه أوقافاً كثيرة .

وفى أوائل سنى سلطنته أرسل الأمير مقبل القديرى وأمره بعمارة أماكن متعددة بالمسجد الحرام كان قد استولى عليها الخراب فأحسن بناءها وجدد كثيراً من سقف المسجد الحرام كان قد تآكلت أخشابها ، وكذلك جدد سطح الكعبة الشريفة وكانت الأخشاب التى تربط فيها كسوة الكعبة الشريفة قد تآكلت وذابت فقلعها ووضع عوضها أخشاباً جديدة محكمة بمسامير كبار من الحديد وأحكم ذلك غاية الإحكام ، وأتقنه غاية الإتقان .

وأمر الأشرف برسباى أميراً له بمكة يقال له مقبل الغديرى الأشرفى أن يقلع الرخام المفروش فى باطن الكعبة وجدرانها من داخل يخربه ويقلعه ، وأن

يجدد برخام جديد وأن يعبد ما كان جديداً غير منكسر ، وكذلك يصلح الأساطين التى فى جوف الكعبة الشريفة ويحكمها .

وذكر شيخ الكعبة أنه سمع صريراً فى سقف الكعبة الشريفة فتتبعوا ذلك فوجدوا إحدى الأسطوانات التى مقابل باب الدرب قد مال رأسها عن محلها فأعادها إلى محلها وأحكمها وعمر ذلك عمارة حسنة ، وكتب اسم سلطانه الأشرف برسباى فى لوح رخام نقره ونقشه بالذهب وركبه فى جدار البيت الشريف وهو باق فيه إلى الآن .

وكان مشيد العمارة هو الأمير مقبل القديرى الأشرفى والناظر عليها لخوجا على الكيلانى تاجر السلطان ، وأحضر فى العمارة شيخ الكعبة والقضاة الأربعة ، وناظر الحرم الشريف والعمار جمال الدين يوسف المهدى . وكان الفراغ من هذه العمارة فى شهر صفر ، وفى أول هذا العام عمر الرخام الذى فى أرض الحجر فى باطنه وظاهره وأعلاه وأسفله على يد الأمير مقبل المذكور، وفيه عمر باب الجنائز أحد أبواب مسجد الحرام الواقع أمام رباط سيدنا العباس رضى الله عنه .

وإنما يسعى باب الجنائز لأنه كان خصوصاً بدخول الجنائز منه إلى المسجد الحرام للصلاة عليها فيه ، وجرت عادة أهل الحرمين الشريفين بإدخال جنازتهم إلى المسجد الحرام ويقفون بها أمام وجه النبى (ﷺ) ويصلون عليها فى الروضة الشريفة ، وهذا مذهب الإمام الشافعى والإمام مالك والإمام أحمد ابن حنبل (رضى الله عنه عنهم) .

وأما الحنفية - فى الحرمين الشريفين - فيقلدون أوليات الأئمة ليجوزوا هذا الفضل العظيم ، لأن مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة (رضى الله عنه) عدم جواز حمل الميت إلى المسجد ، وطال ما تصفحت كتب الفتاوى عن رواية عن أئمتنا بالجاز إلى أن ظفرت - بعون الله - برواية عن الإمام أبى يوسف (رضى الله عنه) فى جواز ذلك .

وهى رواية عن أبى حنيفة (رضى الله تعالى) ففرحت بها كثيراً كأنى

ظفرت بكنز عظيم ، فلا تغفل عنها فإنها من مهمات المسائل لا سيما لأهل الحرمين الشرفيفين ، فعض عليها بالنواجذ واعتمد على ما أفتيت به فى هذه المسألة .

فقد ذكر علماؤنا (رضى الله عنهم) : « إن كل قوم قاله الإمام أبو يوسف والإمام محمد والإمام زفر فهو رواية عن أبى حنيفة (رضى الله عنه) ، وحيث تثبت هذه عن الإمام أبى حنيفة (رضى الله عنه) فهى قوله ، وإن كانت غير ظاهر الرواية فأخذنا تصحيحها العمل جيران الله وجيران نبيه (ﷺ) فى الحرمين الشريفين فى صدر الإسلام رلى هذا العصر .

ولا نقول بتأثيم من سلف مع جود المسوغ الصحيح وهو رواية عن المجتهد الذى يقلده (رضى الله عنه) ، وقد دفع إلى سؤال فى ذلك ما صورته : ما قولكم فى مسألة الصلاة على الميت فى المسجد الحرام المكى ومسجد النبى (ﷺ) فى الروضة الشريفة ؟ هل يجوز للحنفى إدخال الميت عليها والصلاة عليه فيها كما هو عمل أهل الحرمين الشريفين قديماً وحديثاً ، أو حديثاً كما هو شأن السلف الصالح إلى الآن أم لا يجوز ذلك ؟ لأن الصحيح من مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه كراهية الصلاة على الميت فى المسجد الحرام.

وعلى هذا : فهل يأثم فاعل ذلك ؟ وهل يأثمون السلف الصالح على إدخالهم موتاهم إلى مقابلة وجه النبى (ﷺ) طالباً لبركته ومرحمته ثم إدخاله إلى الروضة الشريفة التى هى بنص الحديث : « روضة من رياض الجنة» فيحرم الميت من دخولها ولا يدخل إلى المسجد الحرام ولا يوضع على باب الكعبة منطرحاً على باب مولاه الكريم تعالى .

ويحرم من هذه البركات كلها ويأثم من أدخله مواطن هذه الرحمة والخبر فتوناً مأجورين - أثابكم الله الجنة آمين - .

فكتب ما صورته : « اللهم وفقنا للصواب .

اعلم - رحمنا الله وإياك - أن شرف المسجد الحرام وروضة النبى (ﷺ) ونزول الرحمة فيهما على من حل بهما أمر واضح لا شك فيه ولا مزية

تعتريه، وما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وقد تواطأ أهل الحرمين الشريفين وتطابقت آراؤهم قديماً وحديثاً من صدر الإسلام وإلى الآن على إدخالهم إلى المسجد طلباً المزيد التبرك والاسترحام ، ولم يعهد - من علمتائنا - بالحرمين الشريفين التأبى من ذلك والإنكار على فاعله - مع أنه سائغ فى مذهب الإمام أبى حنيفة (رضى الله عنه) من الأئمة المجتهدين (رضى الله عنهم) .

فلا تقدم على تأثيم السلف الصالح فيما فعلوه طلباً المزيد الرحمة والبركة.

واختلاف المذاهب (رضى الله عنهم) ويجوز للمقلد الأخذ بكلام مجتهد من المجتهدين وبعض المسائل - وإن خالف إمامه (رضى الله عنه) - ومع ذلك فقد وجدت نقلاً صريحاً فى المحيط البرهانى عن الإمام الثانى فى رواية عنه مثل قول الإمام الشافعى (رضى الله عنه) .

وصورة ما نقل : « وإنما تكره الصلاة على الجنازة فى المسجد الجامع ومسجد الحى عندنا » .

وقال الشافعى : « لا تكره » .

وعن أبى يوسف روايتان : فى رواية كما قال الإمام الشافعى .

وفى رواية : إذا كانت الجنازة خارج المسجد والإمام والقوم فى المسجد لا تكره .

فترجح عندى : أن أفتى بالجواز من غير كراهة ، واعتمدت على هذهي الرواية وأحسنت الظن بالسلف الصالح وكنى بالإمام أبى يوسف رحمه الله قدوة فى هذه المسألة .

فاعلم ذلك واحفظه فإنه نفيس ولا تجتهد مع الجاهدين على أن الكراهة كراهة تنزيه ، نص عليه شرف الأئمة العقيلى فيما نقله عن الإمام الزاهدى .

قال الفقير قطب الدين الحنفى - غفر الله ذنبه - : قال النجم عمر بن فهد (رحمه الله) فى كتابه « إتحاف الورى بأخبار أم القرى » فى حوادث سنة

٨٣٩ هـ : « وفيها عمر الأميرى مقبل القديرى باب الجنائز على صفته الآن لأنه كان قد سقط ما فوق أحد البابين إلى منتهى جدار المسجد الحرام المقابل الرباط كان المراغى وتخرب حاجز هذا الباب والباب الآخر ، وأزيل الحاجز الذى كان بينهما ، وأزيلت الأسطوانتان الرخام اللتان كانتا تليان هذا الحاجز وعمرها بحجارة منحوتة حتى ارتفع وعمّر ما كان بهذا الموضع بين بأعلى وباب العباس ، وموضع آخر يتصل باب الأفضلية . انتهى .

قلت : « رباط المراغى هو الآن محل مدرسة السلطا الأشرف قايتباى التى هى منزل أمير الحاج المصرى أمير الحاج فى هذا الزمان .

والمدرسة الأفضلية هى من أوقاف الخواجا محمد بن عباد الله وبينهما بابان للمسجد الحرام أصلهما باب واحد يقال له الآن : « باب الحرير » لأن الحرير يباع خارج هذا الباب .

قلت : « وعادة الناس فى زماننا إدخال الجنائز من أبواب العباس ويخرج من باب السلام ، وأنا أرتجى أن تدخل وتخرج من باب « الحريريين » ما بين مدرسة قايتباى ودار الخواجا بن عباد الله لأن النبى (ﷺ) كان يدخل من هذا الباب إلى المسجد ثم يخرج منه .

ولا شك أنه أكثر بركة وخيراً من سائر أبواب المسجد ، وإنما يقال : باب القفص لأن الصياغ يصيغون الحلى فى أقفاص للبيع بقرب هذا الباب .

قال النجم عمر بن فهد رحمه الله : « وفيها عمر الأمير مقبل - المذكور - عدة عقود بالمسجد الحرام فى الجانب الشامى من الدكة المنسوبة إلى القاضى أبى السعودين ظهيره إلى باب « العجلة » جاوز به مقام الحنفى وزاد عرض العقود التى تلى الصحن من هذا الجانب بثلاث عقود فى الصف الثالث وأحكم الأساطين التى تلى هذه العقود ، وهى سبعة أساطين فى الرواق الأول وثمانية فى الذى عليه ، وثلاث فى الذى يليه وسبعة متصلة لجدار المسجد ، وجدد من أبواب المسجد الحرام « باب العباس » ، وهى : ثلاث أبواب - أيضاً - ، والباب الأوسط من « باب الهنا » ، وهى خمسة ، وباب «العجلة»

وهى باب واحد ثانى هذه الزيادة ، وهو الواقع فى الركن الغربى من الزيادة، ورم باقى أبواب المسجد وبيض عاليه وأصلح سقفه ، وكل ذلك على يد الأمير مقبل - المذكور - ومعماره المعلم جمال الدين يوسف المهندس (رحمه الله)، وفى هذه السنة جدد الأشرف برسباى الكسوة الحمراء داخل الكعبة الشريفة وكساها من داخل وزال الكسوة الجديدة على يد الزينى عبد الله الباسط ناظر الجيش صاحب البساطية التى تلى باب « العجلة » على يسار الداخل إلى المسجد الحرام ، وهى مدرسة وخلاوى للفقراء فى غاية الاستحكام والإتقان .

وللمدرسة شبابيك مشرفة على المسجد الحرام ، ويسير إلى جانب المدرسة باقية إلى الآن بيد الخزانين أئمة المقام الحنفى يسكنها الأعيان الواردون إلى الحج وكان عليها أقاف بمصر دثرت الآن ، وبنى عبد الباسط سبيلاً وحفر بئراً فى طريق العمرة على الثنية على يسار الذاهب إلى العمرة موجودة إلى الآن بقرب الموضع الذى يقال له « فخ » - بالفاء والخاء المعجمة - فيه مدفن الإمام أبى عبد الله الحسينى بن على بن أبى طالب (رضى الله عنه) .

وكان أحد الأجواد فى الإسيلام ، وكان يقول : « ما أظن أن لى أجراً فيما أعطيته » ! ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ قال : لأن الله تعالى يقول : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ (١) ، ووالله ما هذا عندى وهذا الحصاه إلا بمنزلة واحدة » .

وكان خرج على الهادى العباسى بمكة وقتل خالد الزيدى ومن معه من جنود العباسيين وهزمهم ، ثم وصل سليمان بن محمد بجنود أخرى من قبل الهادى وترك الحسين بن على فى « فخ » وقاتل قتالاً شديداً إلى أن قتل جنود وجماعة من شيعته أشراف بنى حسن (رحمهم الله تعالى) ، وحملت رؤوسهم - وهى مائة رأس - يقدمها رأس الحسين بن على بـ « فخ الينيعى » .

وروى أبو الفرج الأصبهانى فى « مقاتل الطالبين » بإسناده إلى النبى (ﷺ) قال : « انتهى رسول الله (ﷺ إلى فخ فصلى بأصحابه صلاة الجنائزة ثم

---

(١) الآية ٩٢ من سورة آل عمران ، مدنية .

قال : « يقتل هاهنا رجل من أهل بيتى فى عصابة من المسلمين ينزل لهم بأكفان وحنوط من الجنة تسبق أرواحهم إلى الجنة أجسادهم » . انتهى .

وعبد الباسط هذا ابن خليل بن إبراهيم الدمشقى ثم القاهرى ناظر الجيش فى أيام الظاهر ططر فيمن بعده كان عزيزاً رئيساً كريماً نافذ الحكمة على الحياة، واسع العطايا كثير الهمة له فى كل واحد من هذه المساجد الثلاثة مدرسة عظيمة وبالشام وبغزة ، وله على جميع هذه المدارس أوقاف كثيرة كانت تغل مغلاً كثيراً ، واستولى عليها الخراب الآن ، وكانت له سحابة للفقراء تصب لهم فى الطريق ليستظلوا تحتها ، وكانوا يحملون فى شقاذف أعدها لهم ، وكانوا يسقون الماء العذب كلما احتاجوا إليه ويطعمون الطربى البكسماط ، وكان يطبخ لهم فى المناهل ويذبح لهم الغنم فى الذهاب من مصر إلى مكة ، وفى مدة الإقامة بها والعود منها إلى مصر مع الإحسان إليهم وإلى غيرهم ، وأصلح كثيراً من درب الحجاز وكان متكلماً على أوقاف كسوة الكعبة بمصر فعمرها ونماها إلى أن فاضت وكثرت فى أيامه .

وقد ذكر قاضى القضاة بمصر فعمرها الشهاب أحمد بن حجر العسقلانى (رحمه الله) فى كتاب « فتح البارى » أن الصالح بن الناصر قلاوون اشترى ثلثى قرية يقال لها : « يبسوس » من وكيل بيت المال ثم وقفها على كسوة الكعبة الشريفة ، ولم تزل تكسى من ريع تلك القرية إلى أن فوض أمرها المؤيد شيخ إلى الزينى عبد الباسط بن خليل ناظر الجيوش فنمت وكثر ريعها وبالغ فى تحسينها ، بحيث يعجز الواضعو عن وصف حسنها (جزاه الله خيراً على ذلك) ، وكفى فخراً ذكر هذا المقام الجليل فى مثل هذا التأليف العظيم.

ورأيت فى « شرح إيضاح المناسك » للسيد نور الدين على السمهودى الحسنى عالم المدينة (رحمه الله) ما لفظه : « وكسوة الكعبة الشريفة وكسوة الحجرة الشريفة النبوية فى هذهي الأعصر من وقف قرية يقال لها « سندين » فى طريق القليوبية - مما يلى القاهرة - شراها السلطان الملك الصالح إسماعيل ابن ناصر بن محمد بن قلاوون من وكيل بيت المال وقفها بأن تكسى بها الكعبة الشريفة كل سنة .

وتكسى الحجرة الشريفة النبوية فى كل خمس سنين مرة على ما قاله الزين المراغى - فى ذلك - من عشرين سنة وسبعمائة .

أقول : « هذه القرى موجودة الآن بمصر » لكن ذكر لى من كتابه الديوان المصرى الفاضل الكامل مولانا مصطفى جلبى بن مسيح زاده لما كان مقيماً بمكة المشرفة ناظراً على الحرم الشريف المكى (ذكره الله بالصالحات) أن هذه الأوقاف ضعفت جداً وقل محصولها ، وصارت لا تفى بكسوة الكعبة الشريفة ، فعرض ذلك على أبواب المحوم المغفور له السلطان سليمان (أسكنه الله تعالى فسيح الجنات) فأمره بإلحاق قرى أخرى اشتريت من بيت المال وأرفقها وألحقها بأوقاف كسوة الشريفة وهى باقية إلى الآن ومنها كسوة الكعبة الشريفة كل عام .

ولنعدل إلى تكميل ترجمة القاضى عبد الباسط : « كانت وفاته (رحمه الله تعالى) يوم الثلاثاء لأربع ليال مضين من شوال سنة ٨٥١ هـ ، وتوفى السلطان الملك الأشرف برسباى يوم السبت لثلاثة عشر ليلة خلت من ذى الحجة سنة ٨٥٣ هـ ، وفى يوم وفاته تولى الملك بعده ولده الملك العزيز جمال الدين بيوسيف وعمره - يومئذ - أربعة عشر عاماً وهو التاسع من ملوك الجراكسة بمصر ، وصار مدبر مملكته الأتابك جقمق العلاى ولا زال يقوى أمره والأقدار تساعده إلى أن خلع الملك العزيز يوسف برسباى بعد أن تسلطن نحواً من خمسة أشهر لم يكن له فيها سوى هجر والاسم ، وتسلطن مكانه فى يوم الأربعاء لعشر بقين من شهر ربيع الأول سنة ٨٥٢ هـ ، ولقبوه الملك الظاهر سيف الدين أبو سعيد جقمق العلاى الظاهرى ، وجلس على سرير الملك وتم أمره وهو العاشر من ملوك الجراكسة ، وكان جلب من بلاد جركس إلى مصر وباعه جالبه واشتراه علاء الدين على بن الأتابك إيناك اليسفى فنسب إليه ، فقيل له : « حقمق العلاى » .

ثم انتقل إلى القاهرة برقوق فقيل له الظاهرى ، وكان عنده عاصكياً ثم صار إلى دولة الناصر ساقياً ، ثم صار أمير عشرة ثم صار فى دولة الأشرف صاحب الحجاب ، ثم أميراً خور ثم أمير سلاح ، ثم صار أتابك إلى أن

تسلطن فخرج عن طاعته الأمير قرقماش فقاتله ثم ظفر به وسجنه بالأسكندرية ثم قتله ، ثم خرج عن طاعته نائب حلب تغرى برمش ثم إينال الحكمى نائب الشام ، فجهر عليهما العساكر فقاتلوهما واحداً بعد واحد فظفر بهما وقتلهما، وبعد قتل هؤلاء صفى له الوقت فأخذ وأعطى ذا قدم [1] وسطى .

وكان متواضعاً محباً للفقهاء والعلماء والصالحين يميل إلى تربية الأيتام ويحسن إليهم ، عفيفاً عن المنكرات ، طاهر الفم والذيل ، لا يعلم من ملوك الجراكسة قبله ولا بعده أعف منه ، وكان على قاعدة الأتراك : الدعوة عنده لمن سبق يذاكر بمسائل فقهية ويتعصب بمذهب أبى حنيفة (رضى الله عنه) .

ملك مصر نحواً من خمسة وعشرين عاماً إلى أن أورى الدهر له من ذلك ناراً وبدل عيشه الأخضر بالموت الأمر ، ولم يجد له أنصاراً ، واتخذ تحت الأرض بعد تحت الملك قراراً، وصفرت الأرض منه فى سابع صفر سنة ٨٥٧هـ .

وكان الظاهر جقمق أول ما ولى السلطنة : التفت إلى مكة المشرفة وأرسل إليه سودون المحمدى ليكون أميراً على خمسين فارساً من الترك مقيماً بمكة ، وولاه نظر الحرمين الشريفين ومشداً لعمائرها .

وكان فى عمارة الأمير سودون بالمسجد الحرام سنة ٨٥٣ هـ أنه قلع الرخام الذى فى سطح الكعبة الشريفة ولا الخشب الموضوع فى السطح الشريف الذى يربط فيه جبال الكسوة الشريفة تأكل وتأكل خشية الزوادان الأربعة التى فى سقف الكعبة التى كانت للضوء فغير ذلك جميعه وجدد الكعبة من خارجها عن الكسوة ووضعت الكسوة داخل البيت الشريف ، واستمرت مجردة يومين وليلتين ، فصارت مكشوفة شاهد الناس أحجارها إلى أن كمل ترميمها وإصلاحها ، وأعيدت الكسوة عليها فى ضحى يوم الاثنين لثمان بقين من شهر صفر سنة ٨٥٣ هـ .

وأصلح - أيضاً - رخام الحجر وبيض مأذنة « باب الإسلام » ، وأصلح مأذنة « باب الحمرة » ، وبيض مأذنة « باب الحزورة » ، ورمم أسافل مأذنة

---

(١) هكذا فى (أ) ، و(س) .

«باب على» ، وأصلح سقف المسجد الحرام ، وبيض علو مقام إبراهيم وعلو مقام الحنفية ، وفيه باب إبراهيم والأميال التى يلصق دار العباس فى المسعى ، والميل الذى فى ركن المسجد بقرب باب « بازان » ، والذى يقابله التى هى علامة للسعى فيهما ، وعين فى كل ميل قنديلاً بالليل من قناديل الحرم الشريف فى شهر رجب وشعبان ورمضان يضيئ للمعتمرين وفى بعض ذى الحجة للإضاءة على الحجاج إذا أرادوا السعى ، وجعل على الصفا قنديلاً وعلى المروة قنديلاً .

ثم عمر الأمير سودون - المذكور - ما بقى من المواضع المأثورة فى منى وفى المشعر الحرام بمزدلفة ومسجد نمرة بعرفة ، وقطع جميعي الأشجار السيلم والشوك الذى كانت على المازمين فى طريق عرفة ، وكانت تمزق كسوة الشفاذق والمحابر عند مزاحمة الحجاج فى ذلك المحل ، وكانت الحرامية تمكن تحت الأشجار وتنهب جميع ما تظفر به من الحاج ، وتخطف جميع ما تقدر عليه فقطع الأمير سودون جميع تلك الأشجار وزال الصخار الكبار ، ونظفت الطريق ورسمها ، وشكره الحاج على ذلك ودعوا له ، حيث كانت تضر فى طريق المسلمين ، وإلا فشجر الحرام لا يعضد ولا يقطع (فرحمه الله تعالى وأثابه الحسنى) ، وكذلك الأمير خوشكدى نائب جدة .

وفى عصرنا فى حدود سنة ٩٥٠ هـ قطع أشجار السلم ما بين المازمين وكسر الأشجار الكبار ووضعها فى صفح الجبلين ومهد وأوسع الطريق للحاج، ورفع عنهم شر السراق الذين كانوا يمكنون خلف تلك الأشجار والأحجار ، وشكره الناس على ذلك (أثابه الله تعالى) - وسيأتى شيء من عمارته - فيما بعد - إن شاء الله تعالى - .

وفى موسم سنة ٨٤٨ هـ وصل مع الركب المصرى رسول سلطان العجم شارخ ميزرا بكسوة الكعبة الشريفة وصدقة لأهل مكة فكسيت الكعبة من داخلها بتلك الكسوة فى يوم عيد الأضحى وفرقت الصدقة على أهل الحرم ، وفى سنة ٨٨٧ هـ وصل يبرم خواجا ناظراً على المسجد الحرام وبنى بالمعلاة سبيلاً وحوضاً ينتفع بها الناس والبهايم على يمين الصاعدين إلى المعابدة .

صار - الآن - فى عصرنا بستاناً عمره خواجا ، فبنى مولانا محمد بن محمود أفندى قاضى مكة المشرفة فى سنة ٩١١ هـ ، وقدمته لجانم سلطان بنت الوزير الأعظم رستم باشا وأمها والدة السلاطين خاصكى سلطان (رحمه الله تعالى) ، وهو - الآن - فى تصرف ناظر عمارتها بمكة المشرفة .

وفى موسم سنة ٦٥ هـ - أيضاً - حج وزير من وزراء مراد الثانى (طيب الله ثراه) جاء بصدقات جليلة قناطير من العسل ، وسقى للناس وملأ القرب وخرج بها السقايون إلى المسعى ، فسقت الناس وصدق على الحاج وأهل الحرمين أموالاً جزيلة (تقبل الله منه صالح أعماله) .

وفى سنة ٨٦ هـ عمر ناظر الحرم بيرم خواجا فى الجانب الشرقى قطعة من حد المسجد الحرام تلى « رباط السدرة » التى هى الآن برباط الأشرف قايتباى وعمر شباك وخلوة منسوبة للشيخ عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعى وشباك خلوة منسوبة للشيخ جمال الدين محمد بن محمود أفندى قاضى مكة المشرفة فى سنة ٩٣١ هـ ، وعمر ناظر - أيضاً - عين حنين وأصلح مجراتها ورممها ترميماً محكماً ، ووصل - فى ذلك العام - كسوة لحجر إسماعيل مع كسوة البيت الشريف ولم يكس بها الحجر الشريف لأنه لم يجز بذلك - عادة - قبل هذا ، ووضعت داخل البيت الشريف ثم كسى بها الحجر الشريف من داخله فى العشر الأخير من ذى الحجة سنة ٨٥٣ هـ بعد أن حفظت فى جوف البيت الشريف سنة كاملة .

وعمر ناظر الحرم الشريف بيرم خواجا عدة برك فى غرفة كانت دائرة مملوءة بالتراب فأخرج ترابها وأصلح وساق إليها الماء من الآبار التى بقربها لشرب الحجاج ، وعمر مسجد الخيف بمنى وصرف مالاً عظيماً فى جهات الخيرات (رحمه الله) .

ثم عزل ناظر الحرم - المذكور بالباجى الأمير بربكك وصل إلى مكة المشرفة ليلة الأحد السادس والعشرين من شعبان سنة ٨٥٤ هـ ، وطاف وسعى وعاد إلى الزاهر ، ودخل صبح تلك الليلة من أعلى مكة ولاقى أكابر مكة وأعيانها ، ولبس الخلع السلطانية وقرأ مرسوم بالحطيم ، وهو مؤرخ بثانى

عشر جمادى الآخر يتضمن : أنه ولى نظر المحرم الشريف والربط والأوقاف والصدقات ، وأن يحاسب من كان قبله وأن يكون محتسباً بمكة ، واستمر بهذه الوظائف وهو قائم الجاه نافذ الكلمة ، وباشرها مع التمكين ، وعمر فى أواخر السنة بعض سقوف المسجد الحرام .

وفى هذه السنة أجر قاضى القضاة أبو السعادات بن ظهيرة الشافعى (رحمه الله تعالى) رباط رامشت لوكيل القاضى ناظر الخواص ، ثم وصلت فتاوى بعدم صحة إجازة الوقف إجازة طويلة ، فاستبدل له وحكم بصحة الاستبدال حاكم حنفى ثم أمر بعمارة رباط فعمره له ناظر الحرم الشريف على الوضع الذى هو باق عليه الآن .

وفى سنة ٨٥٦ هـ وصلت أحكام من ظاهر جقمق تتضمن الأمر بإخراج ما على الكعبة الشريفة من داخلها من الكسوة المنسوبة إلى شاه رخ ميزرا والكسوة المنسوبة إلى الأشرف برسباى ، وأن تبقى كسوة الملك الظاهر جقمق وحدها ، فعلوا ذلك وفيها سافر أمير الترك الراكن بمكة الأمير جانيك النوروزى ، وولى عوضه فى منصبه ناظر الحرم التاجى بردبك فى سنة ٨٥١هـ ووردت القضاة بمصر تخبر بأن الملك الظاهر جقمق زاد به مرض ، فخلع نفسه من السلطنة فى يوم الخميس بقين مني المحرم الحرام من السنة المذكورة ولده العزيز عثمان ، فما أبى الناس واطمأنوا وهو الحادى عشر من من ملوك الجراكسة وأولادهم وتسلطن وسنه دون العشرين ، وركب شعار السلطنة ، وحمل الأتابك إينال العلاى أمير كبير القبة والطير على رأسه ، وجلس على تحت السلطنة ، وولده المذكور فى قلعة الجبل وباشر الأنوار إلى أن توفى والده باثنى عشر يوماً ، فوقعت فتنة بين الأمراء .

فخلع الملك العزيز عثمان وتسلطن الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر إينال العلاى صبيحة يوم الاثنين لثمان مضين من شهر ربيع الأول سنة ٨٥٢هـ وهو الثانى عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم وهو جركسى جلبه الخاجا علاء الدين إلى مصر ، وشراه الناصر برقوق وأعتقه الناصر فرج بن برقوق ، وتنقل فى الدولة إلى أن صار فى أيام الأشرف برسباى أمير مائة مقدم ألف ، وولاه

الظاهر جقمق الداورية الكبرى إلى أن جعله أتابكاً ، واستمر إلى أن تسلطن، وتم أمره في الملك ، وطالت أيامه نحو ثمان سنين وشهرين وأياماً وكان طويلاً خفيف اللحية ، بحيث اشتهر بـ « إينال الأجرود » ، وكان قليل الظلم قليل سفك الدماء متجاوزاً عن الخطأ والتقصير ، لأن مماليكه ساءت سيرتهم في الناس .

وفي ابتداء السلطنة سافر إلى أمير الترك الراكن بمكة بشبك الصوفي طوغان شيخ الحرم ومحتسب مكة ، وولى شداً على جدة جاتي بك ، وهو الذي بنى البستان الذي على يساره ، وغرس منه ما قدر عليه من الأشجار إلى الذاهب إلى منى المعروفة إلى الآن وحفر فيه عدة أبيار ، وسجر التمر هندى - وأدركناه - ووقف عليه مسقفات بمكة ، ولم يقع في أيام سلطان « إينال » عمرة الحرم الشريف ، واستقر سلطاناً إلى أن خلع نفسه من السلطنة ، وعقدها لولده الملك المؤيد شهاب الدين أحمد بن إينال العلاى في يوم الأربعاء لأربعة عشر ليلة خلت من جمادى الأول سنة ٨٧٥ هـ ، وتوفي والده بعد ذلك وأخذ ثم خلعه أتابكه حشقدم بعد خمسة أشهر وعشرة أيام.

وولي السلطنة عوضه الملك الظاهر سيف الدين أبو سعيد حشقدم الناصرى في يوم الأحد لإحدى عشر ليلة بقيت من شهر رمضان سنة ٨٧٥ هـ ، وهو رومي جلبه الخواجا ناصر الدين وبه عرف ، واشتراه المؤيد شيخ ، وأعتقه ، وصار خاصكياً عنده ، ثم تقلب في الدولة إلى أن جعله الأشرف إينال أتابكاً لولده فخلع وتسلطن مكانه ، وكان محباً للخير وكسى الكعبة الشريفة في أول ولايته - على العادة - .

ولكن كانت كسوة الجانب الشرقي والجانب الشامي بجامات سود ،ك وبالجامات التي بها الجانب الشرقي بعض ذهب ، وأرسل في سنة ٨٧٦ منبراً وكان من خشب فركب في يوم الأربعاء والخميس ، فخطب عليه في يوم الجمعة ثامن ذي الحجة الحرام .

وكانت مدة سلطنته ست سنين ونصف تقريباً ومرض فطال مرضه ، وتوفي يوم السبت لعشر خلون من شهر ربيع الأول سنة ٨٧٢ هـ .

وتسلطن بعده - فى ذلك اليوم - حشناشة الإبنايك بلباى ، وهو الملك الظاهر أبو النصر بلباى المؤيد ، وخلع على الأمير تمريغا يالظاهرى بالأبايكة عوضاً عن نفسه ، وهو الرابع عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم ، وكان عفيفاً عن تدبير الملك وتنفيذ الأمور ، فخلعه الأمراء من السلطنة فى يوم السبت لسبع مضين من جمادى الأول سنة ٨٨٢ هـ .

وكانت مدة سلطنته شهرين إلا أربعة أيام ، وتسلطن بعده - فى ذلك اليوم - عوضه بعد خلعه الملك الظاهر أبو سعيد تمريغا الظاهرى وهو الخامس عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم بمصر .

ولكن يقال له : أنه رومى الأصل من مماليك الظاهر جقمق عتقه ورباه صغيراً إلى أن جعله خاصكياً ، ثم دويدار ثانى ، ثم صار فى دولة الملك المنصور « دويدار الكبير » ، ثم أخرج إلى مكة ثم عاد إلى القاهرة فى دولة الظاهرحشقدم ، فصار مقدم ألف ، ثم صار فى دولة الظاهر بلباى أتابك العساكر ثم تسلطن وكان له فضل وصلاح ، وتودد للناس وخان بعض الصنايع بحيث صار يعمل القسى الفائقة بيديه ، ويعمل السهام عملاً فائقاً فيها ويرمى بها أحسن رمى يفوق غيره فيها مع الفروسية التامة ، ومع ذلك ما صفى له دهره يوماً ، ورمى عن كبد قوسه أبعد مرمى ، وما زال به الأمر إلى أن خلعوه ونفوه إلى الأسكندرية .

ولى السلطنة أتابك العساكر - يومئذ - السلطان الملك الأشرف قايتباى المحمودى الظاهرى فى ظهر يوم الاثنين ، وهو سادس شهر رجب سنة ٨٧٢هـ ، وهو سادس عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم بمصر .

مولده ببلاد جرس - تقريباً - فى بضع وعشرين وثمانمائة ، جلبه الخواجا محمود إلى مضر فنسب إليه واشتراه الأشرف برسباى ، وعتقه الظاهر جقمق، وإليه انتسب ، وتنقل فى المراتب إلى أن صار فى دولة الظاهر خشقدم أمير مائة مقدم ألف ، ثم صار فى دولة السلطان « بنباى » رأس نوبة النوبة فى دولة الظاهر تمريغا أتابكار ، وصار بعد خلعه سلطاناً بعد تغرر وتمنع ووصلت له البشارة بالسلطنة من عدة أولياء الله تعالى الصالحين قبل أن يلبها .

يحكى عنه أنه : كان يحكى عن نفسه لما جلب إلى مصر للبيع ، وهو إما مراهق أو بالغ : « كان معه رفيقه أحد المماليك الجلب فتحادثوا مع الجكمال فى ليلة من ليالى شهر رمضان .

فقالوا : لعل هذه ليلة القدر والدعاء فيها مستجاب فليدع كل واحد منا بدعاء يحبه .

فقال قايتباى : « فأما أنا فأطلب سلطنة مصر من الله تعالى » .

وقال الثانى : « وأنا أطلب أن أكون أميراً كبيراً » ، والتفت إلى الجمال وقال له : أى شىء تطلبه أنت ؟ قال : أنا أطلب من الله تعالى خاتمة الخير ، فصار قايتباى سلطاناً ، وصار صاحبه أميراً كبيراً ، فكانا إذا اجتمعا يقولان : « فاز الجمال من بيننا (رحمه الله تعالى) » .

وكان ملكاً جليلاً وسلطاناً نبيلاً له اليد الطول فى الخيرات والطول الكامل فى أسد الميراث ، بنى المدارس الثلاثة وعدة ربط ومدارس وجامع عظيمة الأثار وباهرة الأنوار ، وله بمصر ، والشام ، وغزة ، وغير ذلك أثار جليلة، وخيرات جميلة أكثرها باق إلى الآن ، وجميع عمايره يلوح عليها لوائح النورانية والأنس .

وفى أول ولايته أرسل إلى مكة المراسيم والخلع للسيد الشريف محمد بركات بن حسن بن عجلان لولاية الحركمين الشريفين ، وإلى قاضى القضاة برهان الدين بن على بن ظهيرة الشافعى لقضاء مكة ومراسيم تتضمن الأمر بإبطال جميع المكوسات والمظالم والمراسيم ، وأن ينفرد ذلك على أسطوانة من أساطين الحرم الشريف من السلام .

وفى أواخر سنة ٨٧٤ هـ - والتى قبلها - بنى مسجد الخيف بناءً عظيماً محكماً كما جعل وسط المسجد قبة عظيمة هى حد مسجد رسول الله (ﷺ) ويلصق القبة مأذنة غير المأذنة التى عقد باب المسجد فى خيف منى وبنيت جداراتها المحيطة به ، وهى أربع بوايك من جملة القبلة وصارت قبة عالية فى محراب النبى (ﷺ) .

أدى مهندساً فيها الصناعة العظيمة بيوت جعلها على باب المسجد بثلاثة أدوار صنعة الأستاذين ، وهى دار بلصق الباب كان مسكن أمر الحاج ، وعلى الباب فى الدار المذكور سيلاً مملأً من صهريج كبير ، وجعل فى صحن المسجد يمتلأ من المطر ، وجعل للمسجد آخر إلى جهة عرفة وخوجة صغيرة إلى الجبل الذى فى صفحة « غار المرسلات » وهو الذى أنزلت فيه سورة المرسلات على النبى (ﷺ) .

وبالجملة : فهذا المسجد أثر عظيم باق إلى الآن من آثار المرحوم سلطان قايتباى ، وقد غلب الدثور (عمَّر الله من عمره) ، وتسبب فى تعميره وعمر السلطان المذكور مسجد نمرة فى عرفة ، وهو المسجد الذى يجمع فيه الإمام بين الظهر والعصر جمع تقديم فى يوم عرفة للحاج المحرمين ، لأن لا يجمع عند أبى حنيفة فى غير ذلك الحال جمع تقديم إلا فى ذلك المسجد ، ولا جمع تأخير إلا فى المزدلفة ما بين المغرب والعشاء للحاج ، وجعل فى ذلك المسجد رواقين عظيمين يتظلل بها الحاج وقت الصلاة من الشمس ، وجدد العلمين الموضوعين بحد عرفة ، وبيض المسجد الذى بمزدلفة على جبل قزح، وهو المسجد على رأى ، وجدد عين عرفات وابتدأ العمار العمل منها من سفح جبل الرحمة إلى وادى بعمان ، فوجد الماء كثيراً فاقتصر على ذلك ولم يصل إلى أم العين ، وكانت قد انقطعت مدة مائة خمسين ، وكان الحجاج يقلون فى يوم عرفة من قلة الماء لا يصبر عليه ، ثم أصلح البرك وسلاها بالماء، ثم أصلح « عيني خليص » وأجراها ، وأصلح بركتها وأجرى فيها ، وامتلأت البرك ، وعم النفع بها وبعين عرفات .

وكان ذلك من أعظم الخيرات التى بالنسبة إلى الحجاج والزوار - وذلك فى سنة ٨٧٩ هـ - .

ووصل منه خشب للمسجد الحرام فى الخامس والعشرين من ذى القعدة إلى مكة المشرفة فى البر ، فركب من جهة باب السلام وجرى إلى المطاف وخطب عليه الخطيب فى أول ذى الحجة .

وفى سنة ٨٨١ هـ أصلح خشب المسجد بالرواق الشرقى ، وغير رخام الحجرة الشريفة من داخله وخارجه ، ورصصت السقوف التى بين أحجار المطاف ورخم داخل البيت الشريف .

وفى سنة ٨٨٣ هـ أمر السلطان قايتباى وكيله وتاجره الخواجا شمس الدين محمد بن عمر الشهير بابن الزمن ، وشاد عمائره الأمير سفر المالى أن يحصل له موضعاً مشرفاً على الحرم الشريف ليبنى له فيه مدرسة يدرس فيها علماء المذاهب الأربعة ورباطاً يسكنه الفقراء ، ويعمل ربوعاً ومسقفات يحصل له منها ريع كثير يصرف منه على المدرسين وعلى القراوان يقرأ له ربعه فى كل يوم يحضرها القضاة الأربعة والمنصرفون ويقرر لهم وظائف ويعمل مكتباً للأيتام ، وغير ذلك من جهات الخير ، واستبدل له رباط السدرة ورباط المراغى وكانا متصلين ، وكان إلى جانب رباط المراغى دار الشريفة شمسيه من شريف بنى حسن اشتراها منها وهدم ذلك جميعه ، وجعل فيها اثنين وسبعين خلوة ومجمعاً كبيراً مشرفاً على المسجد الحرام وعلى المسعى الشريف ومكتباً ومأذنه ، وصير الجمع المذكور مدرسة بناها بالرخام الملون والسقف الذهب ، وقرر فيه أربعة مدرسين على المذاهب الأربعة وأربعين طالباً ، وأرسل خزانة كتب وقفها على طلبة العلم الشريف ، وجعل مقرها المدرسة المذكورة ، وجعل لها خازناً عين له مبلغاً ، وقد استولت عليها أيدى المستعيرين ، وضيعوا منها جانباً كبيراً ، وبقى منها ثلثمائة مجلد ، وهى تحت متكلم مؤلف هذا الكتاب صنتها ، وكمّلت بعض ما فات منها ، وجلدت فيها ما يحتاج إلى التجليد ، واستخلصت منها وجدته ، وأعدته إلى الوقف (صانه الله تعالى) وجعل الواقف فى ذلك الحج للقضاة الأربعة حضوراً بعد العصر مع جماعة من الفقهاء يقرءون ثلاثين جزءاً من القرآن ، وجعل فقيهاً يعلم أربعين صبياً من الأيتام ، رتب لكل واحد من الأيتام وأهل الخلاوى ما يكفيهم من القمح فى كل سنة ، وللمدرسين ، والمؤذنين ، وقراء الأجزاء مبالغ من الذهب تصرف لهم كل سنة .

وبنى عدة ربوع ودور تغل كل عام نحو ألفى ذهب ، ووقف عليهم بمصر

قرى وضياعاً كثيرة وحبوباً كثيرة تحمل فى كل عام إلى مكة ، وعمل الخيرات العظيمة ما لم يعمل ذلك سلطاناً قبل ، وذلك باق إلى الآن ، إلا أن الأكلة تسولت على تلك الأقاف فضعفت جداً ، وهى أيلة إلى الخراب ، وصارت المدرسة سكنى لأمر الحاج أيام موسم الحاج وسكنى لغيرهم من الأمراء إذا وصلوا إلى مكة وسط السنة ، وصارت أوقافها مأكلاً للنظار (عمر الله من عمرها وأحيا من أحياها)، وكان الفراغ من بناء هذه المدرسة والرباط والبيتين:

أحدهما : من ناحية باب السلام .

والثاني : من ناحية باب الحريريين .

فى سنة ٨٨٤ هـ على يدر الأمير سنقر الجمالى (رحمه الله تعالى) ، وفى هذه السنة وردت أحكام من السلطان قايتباى إلى صاحب مكة يومئذ مولانا الشريف جمال الدين أو الدين محمد بن بركات بن حسن عجلان (رحمه الله تعالى) يتضمن :

« أنه رأى مناماً ، وأن بعض المعبرين عبر له ذلك المنام بغسل البيت الشريف من جانبه ، وداخله ، وخارجه ، وغسل المطاف ، وأنه من أن يفعل ذلك ، فحضر مولانا السيد الشريف محمد بن بركات (رحمه الله تعالى) بنفسه ، وقاضى القضاة برّهان الدين بن على بن ظهيرة وباش الترك الراكن بمكة الأمير قانى بارى السيوفى ، والأمير سنقر الجمالى ، والدوى دار الكبير حافى بك نائب جدة المعمورة ، وبقية القضاة ، والأعيان ، وفاتح بيت الحرام عمر بن أبى راجح الشيبى ، والشيبون ، والخدام ، وغسلوا أرض الكعبة وسائر المطاف الشريف وطيبوها بالطيب .

وكان ذلك اليوم الخميس لثمان بقين من ذى الحجة الحرام من السنة المذكورة .

★ ★ ★

فصـــل

● ومن أعظم ما وقع فى أيام السلطان قايتباى من الأمور الهائلة :

حريق المسجد الشريف النبوى ، ذكرناه استطراداً لأنه أمر هائل عظيم الهول ، وتفسير ذلك :

أن فى ثلث الليل الأخير من ثلث ليلة الاثنين ثالث عشر شهر رمضان سنة ٨٧١ هـ طلع رئيس المؤذنين الشيخ شمس الدين محمد بن الخطيب إلى المئذنة الشريفة اليمانية من ركن المسجد الشريف المعمور بالبرشة وهو يذكر ويمجد ، وكانت السماء متراكمة بالغيوم ، متوازنة بالنجوم ، إذ سمع رعد هائل ، وسقطت صاعقة لها لهب كالنار أصابت بعض هلال المئذنة ، فانشق رسها ومات المؤذن (رحمه الله تعالى) ، وسقط باقيها على المسجد الشريف عند المئذنة فعلقت النار فيه ، ففتحت أبواب المسجد ونودى بالحريق فى المسجد ، فحضر أمير المدينة - يومئذ - السيد قسطل بن زهر الجمالى ، وشيخ الحرم ، والقضاة ، وسائر الناس ، وصعد أهل النجدة والقوة إلى سطح الحرم بالمياه فى القرب ليسكبوها على النار لتنطفئ فالتهبت وأخذت فى جهة الشمال والمغرب ، وعجزوا عن إطفائها فهربوا ، واستولت النار عليهم فمات منهم فوق عشرة أنفس ، وعظمت النار جداً ، وحاطت بسائر سقف المسجد الشريف ، وأحرقت ما فى المسجد من المصاحف وخزائن الكتب، والربعات، وكانت كتب نفيسة ، ومصاحف عظيمة .

وصار المسجد كبحر لجى من نار ترمى بشرر كالقصر إلى أن استوعب الحريق جميع المسجد والقبة العليا التى فوق قبة النبى (ﷺ) ، وذاب رصاصه ، ولم يصل أثر النار للحجرة الشريفة النبوية (على ساكنها أفضل الصلاة والسلام) سلامة القبة السفلى ، وعدم التأثير فيها مع ما يسقط عليها كما هو أمثال الجبال ، واحترقت حتى حجارة الأساطين ، وسقط منها نحو مائة وعشرون أسطوانة ، واحترق المنبر الشريف النبوى ، والصندوق الذى فى

المصلى الشريف ، والمقصورة التى حول الحجرة الشريفة وسلم الأساطين الملاصقة للحجرة الشريفة .

وسلم ما حول الناس من البيوت ، وشواهد أشكال طيور بيض يحومون حول النار كأنها تكفها عن بيوت جيران النبى (ﷺ) مع وقوع بعض شرر النار فيها وعدم تأثيره .

قال عالم المدينة ومؤرخها ونقيبها مولانا السيد نور الدين على بن عبد الله السمهودى (رحمه الله) بعد سوق الحكاية بأبسط من هذا فى كتاب : «خلاصة الوفا بأخبار المصطفى (عليه الصلاة والسلام) ، وقد ثبت أن أعمال أمته تعرض عليه ، فلما ساءت الأعمال المعروضة ناسب ذلك الإنذار بإظهار النار المجازى بها فى يوم العرض .

قال الله تعالى : ﴿ وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون ﴾ (٢) .

قال : وشرعوا فى تنظيف المسجد ونقلوا نقضه من مقدم المسجد إلى مؤخره للصلاة فيه ، وعمل فى ذلك أمير المدينة ، وقضاتها ، وعامة أهلها حتى النساء والصبيان تقرباً إلى الله تعالى ، وبادروا بإرسال قاصد إلى مصر وعرضوا ذلك على السلطان قايتباى (رحمه الله) فتهول من هذا الحادث العظيم ، وتوجه إلى عمارة المسجد الشريف ، وعرف نعمة الله عليه بتأهله لهذا الشريف العظيم ، وأرسل إلى نحو ثلثمائة من أرباب الصنايع ، وكثير من الحمر والجمال والبغال وسائر مؤنتهم ، ومبلغاً من الخزينة نحو مائة ألف دينار ، فأكثر وجهز المؤن الكثيرة إلى أن امتلأ البنادر بها كالطود ، والينبع ونقلت من المدينة الشريفة ، واستقبلوا العمارة بجد واجتهاد ، وإلى أن كملت عمارة المسجد الشريف والقبة الشريفة ، والمواذن ، وفرغوا منها على هذا الوجه الذى هو عليه الآن فى هذا الزمان » .

---

(١) الآية رقم ٥٩ من سورة الإسراء ، مكية .

(٢) الآية رقم ١٦ من سورة الزمر ، مكية .

وذكره السيد السمهودى (رحمه الله) فى « خلاصة الوفا » فراجعه إن أردت إحاطة العلم به ، وذكر بأبسط من ذلك فى تاريخه الكبير الذى سماه : « وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى (عليه الصلاة والسلام) » .

وأمر السلطان قايتباى أن يبنى له رباطاً ومدرسة ، ومئذنة حول المسجد الشريف من باب السلام ، وباب الرحمة ، وأرسل إلى المدينة خزانة كتب وتحفها جليلة جعل مقرها المدرسة موقوفة على طلبة العلم الشريف ، وأرسل مصاحف كثيرة وكتباً لخزانة المسجد الشريف عوض عما احتراق منها فيه .

ووقف قرى كثيرة بمصر تحمل غلاتها إلى جيران رسول الله (ﷺ) ، فيفرق عليهم لكل شخص ما يكفيه من الحب بطول السنة ، وكان حصة كل نفر سبعة أردب فى العام سواء فى ذلك الكبير والصغير ، والحر ، والعبد .

وذلك الخير جارٍ إلى الآن ، وزاد عليه الآن سلاطين آل عثمان أكثر مما وقفه السلطان قايتباى بمكة والمدينة (جزى الله المحسنين خيراً وضاعف لهم ثواباً وأجراً) .

★ ★ ★

فصل فى حج السلطان قايتباى (رحمه الله تعالى)

اعلم أن ملوك الجراكسة ما حج منهم أحد غير السلطان قايتباى ! لتمكنه فى الملك ، وكثرة ما فعله من الأثار الجميلة فى الحرمين الشريفين ، فأقام الأمير الكبير يشبك الدّوّاد نائباً عنه بمصر .

وخرج إلى الحج فى سنة ٨٨١ قبل وقوع حريق المسجد بعامين ، وكان أمير الحاج فى الحج المصرى الأمير خشقدم ، فخرج بالمحمل الشريف وركب الحاج المصرى ، فخرج السلطان قايتباى بقصد الحج والزيارة بعد خروج ركب الحاج بثلاثة أيام ، ووصلت القصاد إلى شريف مكة سيدنا ومولانا المقام الشريف العالى جمال الدين أو الدين السيد محمد بن بركات بن حسن بن عجلان (سقى الله عهده صوب الرحمة والرضوان) .

وكان من أخص المخصوصين به ، وصاحب الحل والعقد عند قاضى القضاة

شيخ الإسلام مولانا القاضى برهان الدين إبراهيم بن على بن ظهيره الشافعى - يومئذ - بمكة طيب الله ، فتهيأ هو والسيد الشريف محمد بن بركات لملاقاة السلطان ، فإن القصاد أخبروا أنهم فارقوه من عقبة إيلياء ، وهو نهاية الربع الأول من طريق الحج ، فأرسل مولانا الشريف أحد قواده بسيفه إلى ملاقاة السلطان بسماط ملوى ، فوصل إلى الحوذى ولاقاه السلطان ، مد له السماط الحلوى هناك ، فوصل عليه السلطان بنفسه وأظهر عليه اللطف والمجابرة ، وأكل ، وقسم على أمرائه وعسكره ، وكان سماطاً كبيراً جميلاً

ويحكى من لطافة السلطان قايتباى : أنه لما جلس على السماط تناول شيئاً من الحلوى يقال له : كل واشكر ، فقال له : سلم على سيدك ، وقل له : أكلنا وشكرنا .

ثم لما وصل السلطان إلى الينبع عدل منه إلى المدينة لزيارة النبى (ﷺ) وتوجه إليها، وكان قد خرج لملاقاته سيدنا ومولانا الشريف محمد بن بركات، وولده السيد هيزع بن محمد ، ومولانا القاضى إبراهيم ظهيره الشافعى ، وابنه القاضى أبو السعود ، وأخوه القاضى أبو البركات بن ظهيره قاضى جدة.

فبلغهم فى أثناء الطريق أن السلطان عدل إلى زيارة النبى (ﷺ) ، فتوجهوا إلى منزلة بدر وأقاموا به منتظرين عود السلطان من المدينة الشريفة .

قال السيد على السمهودى فى تاريخه الكبير : « حج السلطان قايتباى فى سنة ٨٨١ هـ ، وبدأ بالمدينة النبوية لزيارة التربة المصطفوية (على الحال بها أفضل الصلاة والسلام) ، فقدمها طلوع الفجر من يوم الجمعة الثانى والعشرون من ذى القعدة الحرام ، فلبس فى حولها حلل التواضع والخشوع ، وتحلى ما يجب لتلك الحضرة النبوية من الهيبة والخضوع ، فترجل عن فرسه عند باب سورها ، ومشى على أقدامه بين ارتباعها ودورها حتى وقف بين يدى الجناب الرفيع الحبيب (عليه أفضل الصلاة والسلام) ، وناجاه بالتحية والتكريم ، وفاز من ذلك بالحظ الجسيم ، ثم ثنى بصحبيه (رضى الله عنهما) بعد أن صلى بالروضة الشريفة التحية ، وعفر جبهته فى ساحتها السنية ،

وعرض إليه الدخول إلى الحجرة الشريفة فتعاظم ذلك ، وقال : « لو أمكنني أن أقف أبعد من هذا الموضع وقفت ، فالجناب أعظم أو من ذا الذى يقوم بما يجب له من التعظيم » ، ثم صلى صبح الجمعة فى الروضة الشريفة فى الصف بين فقر الزوار ، وإلى جانبه إمامه الشيخ الإمام العلامة برهان الدين الكردكى ، ثم توجه لزيارة السيد حمزة عم النبى (ﷺ) ومن حوله من الصحابة الذين استشهدوا يوم أُحُد ، فمشى مترجلاً حتى خرج من باب المدينة ولم يرق دابته ، ولم يركب بالمدينة تأدباً مع النبى (ﷺ) ، وعاد من الزيارة وحضر صلاة الجمعة .

قال السيد السمهودى (رحمه الله تعالى) : فبدأنى السلطان بالملاطفة ، وسألنى عن بعض المباحث ، فرأيت من تواضعه وحمله ، وثقوب فهمه ما يفوق وصف الواصف فأنشدته بيتى التلخيص :

وَهماً كانتَ مسائله الركبان تخبرنى عن أحمد بن سعيد أطيب الخبرى

حتى التقيت -فلا والله- ما سمعت أذنى بأطيب مما قد رأى بصرى

فطرب به جداً ، واجتمعت به قرب صلاة المغرب فى الروضة ففاتحنى فى الكلام .

ورأى فى المحراب النبوى مكتوباً قوله تعالى : ﴿ قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ (١) .

فسألنى عن هذه الآية : هل نزلت قبل المعراج أم بعده ؟ وكيف كان الاستقبال قبل نزولها ؟ فشرعت له فى الجواب فأقيمت الصلاة ، وفى أثناء ذلك فصلينا ، فلما فرغ من هذه الصلاة صلى ست ركعات بسكوت وتؤدة .

فلما انقضت تلك الصلاة قال : أقبل علىّ - طالباً الجواب - فذكرت له : أن نزولها بالمدينة ، وأن فرض الصلاة كان بمكة ليلة المعراج ، وذكرت ما حكى فى تعدد نسخ القبلة وصلاته (عليه الصلاة والسلام) بمكة بين الركنين

---

(١) الآية سبقت الإشارة إليها .

اليمانيين جاعلاً الكعبة بينه وبين بيت المقدس ، إلى غير ذلك من الفوائد وهو مصغ إليها ملتذاً بسماعها ، واستمر بنا على ذلك حتى أقيمت صلاة العشاء ، فصلينا ، ثم عرضت عليه رفع بعض البدع من المدينة فأمر برفعها ، وطلبت منه رفع المكوس من المدينة فأمر بإزالتها ، وجعل لأمير المدينة - فى مقابلة ذلك - ألف أردب قررها له فى كل عام ، وفرق بالمدينة الشريفة على فقرائها وفقهائها وعلمائها نحو ستة آلاف ذهب وحصل لى منه خير كثير وإحسان جزيل ، ثم برز فى اليوم الثانى والعشرين من المدينة قاصداً حج بيت الله الحرام » انتهى كلام السيد السمهودى ملخصاً .

قال العز بن فهد : « فلما وصل الخبر بعود السلطان وبروزه من المدينة الشريفة ، أن السيد الشريف محمد بن بركات ومن معه ركبوا من بدر لملاقاة السلطان فاجتمعوا به فى منزله الصفراء ، وتلاقيا على ظهور الخيل وتصافحا ، ومشى السيد الشريف على يمين السلطان ، والقاضى برهان الدين ابن ظهيره على يساره ، وباقى من معهما سيلموا على السلطان على بعد ومشوا أمامه ، وصار السلطان يلاطفهم ، ويسأل عن أحوالهم ويشكر مسعاهم ويطمئن خواطرهم ، ويحاسرهم بالمكالمة وينصت إليهم إذا تكلموا ، واستمروا كذلك إلى أن وصل السلطان أوطافه ، فرجعوا عنه إلى مخيمهم ثم صاروا يسايرونه فى طريق ويظهر كل النشط ، ويبدى لهم وافر الانبساط ، وألبسهم السلطان خلعاً فاخرة مراراً عديدة وفارقوه من بدر ، وتقدموا على السلطان إلى وادى مر الظهران وزينوا هناك رباطاً حافلاً جميلاً للسلطان ولمن معه .

فلما كان صبح يوم الأحد مستهل ذى الحجة وصل السلطان إلى مخيمه بالوادى ، وجد السماط ممدود فجلس السلطان وأكل منه وأطعم وفرق على من معه من عساكره على الخدم والأعيان من مكة للسلام على السلطان ، فسلموا عليه وانصرفوا أمامه وركبوا وركب السلطان هو وشيخ الإسلام القاضى إبراهيم بن ظهيرة ، وولده القاضى أبو السعود ، وأخوه القاضى أبو البركات ، وإمام السلطان الشيخ برهان الدين الكركى الحنفى ، واستمروا إلى أن دخلوا إلى مكة من أعلاها ، وكان القاضى إبراهيم هو الذى تقدم لتطويف

السلطان ، وصار يلقنه الأدعية والتلبية إلى أن دخل السلطان من باب السلام البرانى وطلع بفرسه منه ، فجعل به جواده فسقطت عمامته ، واستمر مكشوف الرأس إلى أن تقدم المهيار رمضان ، وتناول العمامة من الأرض ومسحها وناولها للسلطان فلبسها ، وكان ذلك تأدباً له من الله تعالى ، حيث كان يتعين عليه يترجل ويدخل محرماً مكشوف الرأس تواضعاً لله تعالى .

ثم لما وصل إلى العتبة الداخلة من باب السلام ترجل ونزل وقرأ بين يديه الرّيس بصوت جهرى : ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً ﴾ (١) .

﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون وكفى بالله شهيداً ﴾ (٢) .

ثم إنه فع يديه بالدعاء للسلطان وأمّن من حوله من أهل الأصوات ، ودخل من باب السلام ومولانا القاضى إبراهيم يلقنه الدعاء إلى أن دخل الطواف ، وقبل الحجر الأسود وهو يطوف ، ويلقنه الأدعية ، والريس ينادى بالدعاء من أعلى قبة زمزم ، والناس يحيطون بالمطاف الشريف يشاهدونه ويدعون له إلى أن تم طوافه ، وصلى خلف مقام إبراهيم ، ثم خرج من باب الصفا إلى الصفا ، وسعى راكباً ومعه مولانا القاضى إبراهيم يلقنه الدعاء ، فلما فرغ من سعيه ركب فعاد إلى الزاهر وبات فى مخيمه ، وركب فى الصبح فى موكبه ، ولاقاه مولانا الشريف السيد محمد بن بركات وأرلاده ، وقاضى القضاة البرهانى إبراهيم بن ظهيرة وابنه الجمالى أبو السعود ، وأخه القاضى فخر الدين ، وابن عمه ، والخطباء وأعيان الناس ، وأكابر التجار ، فخلع السلطان قايتباى على الجميع ومشوا أمامه فى موكب عظيم ومهابة عظيمة ، ولم يتخلف أحد بمكة من النساء والرجال حتى المخدرات ، ودخل

---

(١) الآية رقم ٢٧ من سورة الفتح ، مدنية .

(٢) الآية كانت بدون « المشركون » ، والآية سبقت الإشارة إليها .

مكة بهذا العنوان إلى أن وصل إلى مدرسته ، فترجل الناس له وسلم عليهم ، ودخل مدرسته ، ومد له بها السيد الشريف محمد بن بركات سماطاً جميلاً .

واستمر على ذلك يمد له صبحاً وليلاً الأسمطة الجميلة ، ومد له فى ثانى يويم قاضى القضاة البرهانى إبراهيم سماطاً جميلاً ، واستمر السلطان بمدرسته ما ظهر لأحد غير أنه كان يتصدق بالليل كثيراً ، وركب مرة إلى درب اليمن يشاهد ما قدمه له مولانا السيد الشريف من الإبل والخيل وشكر من فضل الشريف ، واستمر بمدرسته إلى أن طلع إلى عرفات ومعه أمامه راكب إلى جنبه وهو شيخ الشيوخ إبراهيم بن الكركى والأمير بشك الجمالى ، وأولاد القاضى يحيى بن الجيعان ، ورمضان المهتار ، ووقف بجبل الرحمة متضرعاً إلى الله سائلاً من رحمته القبول ، وكانت الوقفة يوم الاثنين فأفاض مع الناس ، وتم حجه ، وقرب للأضاحى غنماً كثيرباً ، وأهدى شيئاً كثيراً، وكان يناسب أن ينحر شيئاً من البدن ، فما أشار إليه أحد بذلك ، وعاد بعد أيام الشريف إلى مكة ، وتوجه الركب المصرى ، وتأخر هو بمكة أياماً .

وقرر وظائف مدرسته لأهلها من المدرسين والطلبة ، وقرأه صحيح البخارى، وقرأه الربعة وخادمها ، وخادم المصحف والسبيل والأيتام والعريف، والفيه ، والمؤذنين ، وناظر المدرسة ، والوقف ، والجابى ، والصيرفى ، وأصحاب الخلاوى ، ونحو ذلك ، وجعل لكل واحد كفايته من القمحج والدراهم والمرتب ، وكتب بذلك رقعة أشهد على نفسه بذلك فيها ، وعمل من الخيرات ما لم يسبق إليه ، وحضر بنفسه يوم الجمعة لثلاثة عشر ليلة خلت من ذى الحجة بطرف الإيوان الشمالى ، وقاضى القضاة إبراهيم البرهانى بن ظهيرة يصدر الإيوان وقدامه المصحف على كرسى ، وفرق على الحاضرين أجزاء الربعة الشريفة ، وتناول السلطان أجزاءً منها كأحد القراء ، وقرأ إلى أن ختم القاضى إبراهيم ، ولم يؤخذ من السلطان الجزء حتى وضعه بنفسه ، وجمعت الأجزاء فى صندوق الربعة الشريفة ، ودعا الداعى، ومد للحاضرين سماطاً وحلوى بدور المدرسة ، ونزل السلطان ، وجلس إلى جنب القاضى إبراهيم وأكلوا ثم سقاهم سكراً وسوبية ، وفرق عليهم فتوحات وانصرفوا ،

وكان بنى السلطان سبيلاً على يمين الداخل إلى خان البزار على المسعى يقال له: العلقمية ، وكان أمامه إلى جهة القبلة بالمسعى سبيل قديم للقاضى شهاب الدين الطبرى على يسار الذاهب إلى المروة ، فأشار الخواجا شمس الدين بن الزمن والمهندس أن يهدم هذا السبيل حتى تظهر عمارة السلطان وسبيله فهدم ، وصار المسعى مكشوف ، وعمارة الخان والسبيل ظاهرة .

وسافر السلطان فى ظهر يوم يالسبت لأربعة عشر ليلة خلت من ذى الحجة بعد أن طاف للوداع والريس يدعو له على قبة زمزم ، ومشى القهقرى إلى أن خرج من باب الخسرون وركب معه السيد الشريف محمد بن بركات وأولاده ، وقاضى القضاة إبراهيم بن ظهيرة إلى الزاهر ، ثم زودهم وودعهم ، وسار إلى مصر وعاد إلى مملكته ، ولم يختل عليه شيء من أمر ملكه من غيبته من تحت سفره مدة الحج ، وهى نحو ثلاثة أشهر ، وذلك لإتقانه أمر المملكة وتدبره ، وضبطه (رحمه الله) .

وكان واسطة عقد ملوك الجراكسة وأقربهم إلى قلوب الرعية فى اللطف والمؤانسة وأجملهم جمالاً وإجمالاً ، وأحسنهم إحساناً ، وأفضلهم أفضالاً ، وأكملهم عقلاً ، ونبلاً واعتدالاً ، وأكثرهم فى جهات الخيرات إيثقاراً وثاثاً ، وأكثرهم عمائراً وقافاً وأدوراً طولهم طولاً وزماناً ، وأملكهم ملكاً وقوة وإمكاناً ، وكانت أيامه كالطراز الذهب ، ودولته تتجلى كالعروس فى حلل الجوهر والذهب .

وعاشت الرعية فى أيامه عيشاً رغداً ، وظهرت العلماء فى أيامه فكثروا ونموا ، فصاروا نجوم الهدى إلى أن انتبه الزمان الجائر ، واستفضيت له عيون صروف الليالى العواثر ، ودارت عليه - كما دارت على من قبله - الدوائر ، وهذا شأن الدنيا الدنية فى أبنائها الأصاغر والأكابر ، ودأبها فى السلاطين والملوك الغوائر ، والبقاء والدوام لله عز وجل القدير القاهر ، فقدم على قايتباى بريد أجله ، وما أغنى عنه ما جمعه من حيله ومن حوله ، ولا منع شيء من حوله فأقدم على ما قدم من صالح عمله وترك ما خوله من متاع الدنيا وراء ظهره ، وأورج فى أكفان أعماله بعد ما غسل بدموع فقره ، وأنزل

من سرير الملك على التابوت إلى قبره ، وقدم إلى رب كريم ، ووقف بين يدى ملك غفور رحيم .

وأنشد لسان حاله وهو بين يدى ملك الملوك الحكيم يقول :

إذا أمسى فراشى من تراب وصرت مجاور الرّمس الرميم
فهنونى أصيحابى وقولوا لك البشرى قدمت على كريم

وكان انتقاله إلى رحمة الله تعالى فى أخر يوم الأحد بثلاث بقين من ذى القعدة سنة ٩٠٩ هـ ، وصلى عليه يوم الاثنين ودفن بتربة فى الصحراء بناها فى حياته فى غاية الحسن والزينة وبها مساكن للفقراء ، وأوقافاً دارة عليهم إلى الآن ليس بمصر أحسن تربة منها ، وصلى عليه - بعد ذلك - صلاة الغائب بالمساجد الثلاثة ، وكان له مشهد عظيم لم يعهد لملك قبله .

وكانت مدة سلطنته ثلاثين سنة إلا ثمانية أشهر ، ولم يملك أحد من ملوك الجراكسة قدر مدة ملكه (رحمه الله تعالى) أمين أمين ، ثم ولى بعده الملك ولده الناصر أبو السعادات محمد ، وكان شاباً يغلب عليه الجنون والسيفه ، وما كان له الثقات إلى الملك ولا إلى السلطنة ، بل غلب عليه اللهو واللعب والحركات المستبشعة !!

يحكى عنه أموراً قبيحة ، منها : أنه كان إذا سمع بامرأة حسناء هجم عليها وقطع دابر فرجها ونظمه فى خيط أعده لنظم فروج النساء » .

ومنها : « أن والدته كانت من أعقل النساء وأجملهن هيأت له جارية جميلة جداً وجمعتها به فى بيت مزين أعدته لهما ، فدخل وقفل الباب على نفسه وعليها وربطها وشرع يسلخ جلدها كالجلادين وهى حية تصرخ ، فلما سمعوا صراخها أرادوا الهجوم عليها ، فما أمكنهم لأنه قفل الباب من داخل محكماً واستمر كذلك إلى أن سلخها وحشى جلدها بالأثواب السندسية ، وخرج يظهر لهم أستاذيته فى السلخ وأن الجلادين يعجزون عن كماله فى صنعته » .

ومنها : أنه مر - وهو فى موكبه - بدكان حلانى يبيع الحلاوة وبسطته قدامه

فأقامه من دكانه وجلس معه يبيع الحلاوة ودار حوله أمراؤه يشترون منه الحلاوة وأخذ بيده الميزان وصار يزن لهم إلى أن جبرت الحلاوة ، وكانت له حركات من هذه الخرافات ، منها ما يضحك ، ومنا ما يبكى إلى أن سقط من أعين العسكر وسطوا عليه كما سطوا بالجسام الأبتر وسلخوه من الملك كما سلخ تلك الضعيفة بالخنجر ومزقوه كل ممزق : ﴿ ولعذاب الآخرة أكبر ﴾ (١) .

فمن غروره : أنه خرج متحقباً منفرداً عن عبيده وخدمه متباعداً من حوله وحشمه ، فتوجه يمشى وحده إلى بر الجزيرة ، فأكمن له عشرة أنفس من مماليكبي أبيه فى خبيئة على ممره ، فلما وصل إليهم ، وكان وحده منفرداً خرجوا عليه من الخيمة وسلموا بلجام فرسه وضربوه بالسيف إلى أن قطعوه ، وجاءوا به مقتولاً إلى القاهرة ودفنوه فى تربة أبيه سنة ٩٠٤ هـ ، ثم ولوا بعده خاله الملك الظاهر أبو النصر قانصوة ، وهو خال الملك الناصر محمد بن قايتباى ، وكان ساد جامياً لا يعرف إلا بلسان الجركسى قريب العهد ببلده لأن السلطان قايتباى جلبه من بلاده وهو كبير وخطه الشيب ، وصار يرقبه بواسطة زوجته « حوندام الناصر » لأنه أخوها ، وهى التى أقامته مقام ولدها الناصر وبذلت له الأموال والخزائن ، وأرادت تقويه وإقامته مقام وإصلاحه (ولن يصلح العطار ما أفسده الدهر) ، فما استكمله الجندى لحمل أعباء المملكة ، وما أهلوه السلطنة ، وكيف له بها ؟ وأنى له ؟! فخلعوه بعد أن ساسهم سنة وسبعة أشهر ، وأخرجوه من الملك فى أواخر سنة ٩٠٥ هـ ، وولى مكانه الملك العادل جان بلاط وتلقب بالملك الأشرف جان بلاط فى أوائل سنة ست وتسعمائه ، ولا تهنأ بالسلطنة ، ولا وافقه أحد عليها ، وخلع بعد ستة أشهر ، وولى مكانه الملك العادل طومان باى ، فما استكمل يوماً واحداً ، بل هجم عليه العكسر وقتلوه فما قدم أحد من الأمراء .

وكانت العساكر متوفرة ، وكلهم يشير بعضهم على بعض فى الجلوس على تخت الملك فاتفقوا على أن يولوا قانصوه الغورى لأنهم رأوه لين العريكة

---

(١) الآية رقم ٣٣ من سورة القلم ، مدنية .

سهل الإزالة أى وقت أرادوا إزالته أزالوه لأنه كان أقلهم مالاً ، وأضعفهم حالاً ، وأوهنهم قوة ، فأشاروا إليه أن يتقدم فأبى ، وألزموه بذلك ، فقال : أقبل ذلك منكم بشرط ألا تقتلونى ! فإذا أردتم خلعى من السلطنة فأخبرونى بما تريدون وأنا أوافقكم على ذلك ، وأترك لكم الملك وأمضى حيث أريد ، فعاهدوه على ذلك ، فقبل منهم ، وولوه السلطنة ، ولقبوه الملك الأشرف قانصوه الغورى سنة ٩٠٦ هـ ، وفرح العسكر بولايته لأنهم سئموا تعدد السلاطين وسرعة تقضى ملكهم ، وفرح العامة وأمنوا على أنفسهم وأموالهم فى الجملة .

وكان قانصوه الغورى كثير الدهاء ذا رأى وفطنة وتيقظ ، إلا أنه كان شديد الطمع ، كثير الظلم والعسف ، بخيلاً ، محباً للعمارة .

ومن جملة عمارته :

الجامع والتب بالقرب من بين القصرين بمصر ، وكان فى نيته أن يدفن بها، ووقف عليها أوقافاً كثيرة ، وما قدر له دفنه فيها ، بل ذهبت تحت سنابك الخيل وما عرف : ﴿ وما تدرى نفس بأى أرض تموت ﴾ (١) .

وله أثار جميلة فى طريق الحج فى عقبة إيلياء، ومأثر بمكة المشرفة وغيرها، وكان يحفظ حرمه على الأمراء بالدّرية ، والتنزيل معهم فى غير التشديد عليهم ، ولإظهار عظمة أوامر ونهى ، وذلك فى ابتداء أمره إلى أن تمكن من قوته وبأسه ، واشتغلوا عنه بضرورات أخرى ، وطال معه الجيل إلى أن صار يأخذهم واحداً بعد واحد فيتخافل ثم يحصل جيلة أخرى وعلة أخرى لأحدهم فيأخذهم بها ، ويوقع بين الاثنين ، ويأخذ هذا بذاك ، وذا بذا ، ويدسِنْ لهم الدسائس من الطعام والسم ونحوه ، حتى هو أفنى قرانصتهم ودهاتهم إلا قليلاً منهم ، واتخذ مماليكاً لنفسه جدداً ، واستجلب جلباناً ، وأعد عدداً ، وصاروا يظلمون الناس ، ويعاملون الخلق عسفاً وعشماً ، وصار يتغافل عنهم ويتغاضى لهم ، فأظهروا الفساد ، وأهلكوا العباد ، وأكثروا

---

(١) الآية رقم ٣٤ من سورة لقمان ، مكية .

الفساد ، وطغوا فى البلاد ، وصار هو يصادر الناس ويأخذ أموالهم بالقهر والبأس ، وكثرت العوانية فى أيامه لكثرة ما يصغ إليهم .

وصاروا إذا شاهدوا واحداً توسع فى دنياه ، وأظهر التجمل فى ملبسه ومثواه فشوا به إلى السلطان فيرسل إليه الأعوان ، ويطلبه بالقرض ويستصفى أمواله ، ويسلمه إلى الوباشا ليأخذ ماله ويهلك أهله وعياله ، ويعذبه بأنواع الإسكنجة إلى أن يصير فقيراً بعد غناه ومعدوماً بعد أثرته واستغناه .

وجمع من هذا الباب أموالاً عظيمة وجزايل وسيعة ذهبت فى أخر الأمر سدى ، وتفرقت بيد العذا ، وتمزقت بدداً ، وهكذا كل مال يؤخذ على هذا الأسلوب ، ويجمع بهذا الطريق المنكوب لا ينفع من جمعه بل يضر صاحبه ويهلك معه وهيهات !

لن ينفع مال حصل ما بين كل خزين ، وسلبت بالقهر والقسر من كل مظلوم مسكين ، وكيف ينفع سالبه ؟ وما نفع صاحبه !! وينتهى به من اكتسبه على هذا الوجه وأبكى كاسبه إلا إن مالاً كان من غير حيلة سيخرب يوماً أهله وأقاربه .

وأما الميزان : فبطل من أيامه وصار إذا مات أحد يؤخذ له جميع سلطته ، ويترك أولاده فقراء إلا اغتنابه كثيراً فعل له قدراً يسيراً من مال أبيه ، وأخذ لنفسه باقية ، واشتد طمعه ، وكثر ظلمه من أخر أيامه ، فاستجاب الله فيه دعاء المظلومين .

﴿ وقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين ﴾ (١) .

حكى لى والدى (رحمه الله) عن شخص حجاب الدعوة من ألوياء الله تعالى أنه : رأى عهد فى آخر أيام السلطان الغورى حينئذ يأمن الجراكسة الجلبان أخذ منا عافر دلال ، ولم يرضه فى قيمته ، فتبعه الدلال يطلب منه حقه - وهو ممتنع - فقال الدلال : بينى وبينك شرك الله ، فضربه بالدبوس

(١) الآية رقم ٤٥ من سورة الأنعام ، مكية .

ففتح رأسه ، وقال : هذا شرع الله فسقط الدلال مغشياً عليه ، ومضى الجندى بالمتاع ، وما قدر أحداً من المسلمين على منعه .

قال الرجل : فصعب عليّ مشاهدة هذا الحال فرفعت بيدى إلى الله تعالى ودعوت على الجندى المذكور وعلى سلطانه وعلى الظلمة من أعوانه فصادفت ساعة الإجابة ، وبت تلك الليلة على طهارة ، وأنا أفكر فى أمرهم ، وحدثت نفسى بذلك وأقول : كيف يزول ملك هذا السلطان العظيم ؟ وقد ملأت جنوده الأرض وأتى للمسلمين بسلطان آخر يترفق بالرعايا وتطمئن فى دولته البرايا ؟

وأخذ فى النوم فنمت فرأيت فيما يرى النائم : ملائكة نزلت من السماء وبأيديهم مكانس وهم يكنسون الجراكسة من أرض مصر ، ويلقونهم فى بحر النيل ، واستيقظت من النوم فإذا بقارئ بقراء القرآن فأنصت إليه ، فإذا هو يقرأ قوله تعالى : ﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ (١) .

فعلمت أن الله يأخذهم أخذاً وبيلاً ، فمضى قليل إلا وبرز الغورى بجنوده وأمواله ، وخزائنه من مصر لقتال المرحوم المغفور له السلطان سليم خان إلى حلب ، فجاء الخبر بعد قليل بأنه كسر وقتل جنوده ، وفقد تحت سنابك الخيل فى « مرج دابق » ، وهرب بقية السيوف من الجراكسة إلى مصر ، وصيروا الدوادان طومان باى سلطاناً ، والسلطان سليم فى أثرهم يفتح البلاد ويضبطها إلى أن وصل إلى « الريدانية » خارج مصر فخرج طومان باى ومن معه إلى قتاله ، فما حمل هو ومن معه ساعة إلا وانكسر ، وأدخل السلطان سليم خان إلى مصر ، وضرب أوطاقه فى الجزيرة الخضراء على ساحل النيل ، وهرب طومان باى إلى البر الشرقية ، ومسكه شيخ العرب وجاء به أوطاف السلطان سليم فأمر يصلبه فى باب « زويلة » ليروه الناس ويصدقون بقتله ، لأن الناس لا يصدقون بأنه مسك، وصاروا يزعمون بأنه اختفى ليحصل له فرصة فيخرج.

---

(١) الآية رقم ١٣٦ من سورة الأعراف ، مكية .

وكثر كلام الناس ، وصار مظنة الفساد وكثرة القيل والقال ، فأمر السلطان سليم بصلبه على باب زويلة تسكيناً للفتنة ، وكان صلبه فى حادى عشر ربيع الأول سنة ٩١٣ هـ ، وبصلبه : انطفت الجراكسة كما انطفت دولة من قبلهم من أرباب الدولة من الأتراك والأكراد ، والعبيديين من الدول .

وهكذا شأن الدنيا الدنيا فى أبنائها تتقلب بهم وتتحول عليهم أى تقلب وأى تحول كما قيل :

ما اختلف الليل والنهار ولا   دارت نجوم السّما فى الفلك
إلا لنقل السلطان عن ملك   قد نال سلطـــانه إلى ملك
وملك ذو العرش دائم أبداً   ليس بفان ولا مشـــــــترك

وملوك الجراكسة اثنان وعشرون ملكاً أولهم الظاهر برقوق ، وأخرهم طومان باى .

ومدة ملكهم : مائة وثمانية وأربعون عاماً ، وليس لطومان باى أثر لقصر أيام سلطنته ، والأشرف قانصوه مآثر جميلة وعمارة حسنة جليلة (رحمه الله تعالى) .

ومما عمره السلطان قانصوه الغورى بمكة المشرفة :

باب إبراهيم : بعقد كبير جعل علوه قصرباً ، وفى جانبه مسكنين لطيفين ، وبيوتاً معدة للكرى ، حول باب إبراهيم وقف الجميع على جهات الخير ، ولا يصح وقف ذلك القصر لأنه فى المسجد ، وما أمكن العلماء أن ينكروا ذلك عليه فى أيام سلطنته ودولته لعدم إصغائه إلى كلام أهل الشرع والدين ، وعدم إقدام العلماء على الملوك والسلاطين للطمع فى الدنيا الدنية وللخوف على مناصبهم الاعتيادية .

﴿ فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ﴾ .

وبنى أيضاً ميضة خارج باب إبراهيم على يمين الخارج من المسجد هى بطالة الآن ، روايح عفوفاتها قد تصل إلى المسجد فيتأذى به المصلون ، فأبطلت

وعلقت قريباً فى سنة ٩٠٢ هـ بالأمر السيد السلطانى ، ومن أثر الأشراف الغورى الترخيم الواقع فى حجر البيت الشريف عمل بأمره فى أيامه واسمه مكتوب فيه ، وفرغ من عمله عام سنة ٩١٧ هـ .

ومن إنشائه : بناء سورة جدة ، فإنها كانت غير مسورة ، وكانت العربان فى أيام الفتنة تهجم على جدة وتنهبها ، وأسرت عربان ربيد - فى أيام الفتن - الخواجا محمد القارى ، وكان من أعيان التجار من أهل الاعتبار فهجموا على بيته ، وأنزلوه من السطح وأركبوه معهم على ظهر فرس ارتدفه واحد من ريند ، وأخذوه إلى أماكنهم وهو قريب عقبة السويس فى درب المدينة الشريفة ومكث عندهم أياماً إلى أن اشترى نفسه منهم بثلاثين ألف دينار ذهباً فردوه إلى مكة بعد أن استوقفوا هذا القدر منه .

ونهبت جدة مراراً فى أيام الفتن التى وقعت بأرض مصر والحجاز بعد وفاة المرحوم المقدس الشريف محمد بن بركات بين أولاده ، وجرت أحوال يطول تفصيلها ، فأرسل الغورى أحد أمرائه المقدمين ، وهو الأمير حسين الكردى ، وجهز معه عسكراً من الترك والمغاربة والقلاونة فى خمسين غراباً لدفع ضرر البرتغال فى بحر الهند ، وكان مبادئ ظهورهم ، وأمره بدفع الفتن الواقعة - إذ ذاك - فى جدة ، وجعلها له إقطاعاً ، فلما وصل الأمير حسين الكردى إلى جدة بنى عليها سوراً فى سنة ٩١٧ هـ ، وهو الباقى إلى الآن ، وكان ظلوماً غشوماً يسفك الدماء ، ولا يرحم من فى الأرض ليرحمه من فى السماء .

فإذا ضرب أوطاقه فى مكان أو سفر ، وحضرت أعوانه وجنوده ترتيباً خاصاً لإرهاب من حضر ، ونصبوا أعواداً للشنق والصلب ، والشفكلة ، وأقام الجلادين للقتل ، والتوسيط ، والضرب والبهذلة ، فأى مسكين وقع فى يده قتله بأدنى سبب أو عذبه بالمقارع إظهاراً للناموس الفرعونى المهيب ، وإخافة للخلق بالسياسة والترهيب .

كما يحكى أن الحجاج دخل بلدة فصادف إنساناً عند دخوله فمسكه ، فأمر بضربه ، فقال له : أى ذنب لى تضربنى بسببه ؟ فقال : لا ذنب لك ، ولكنى أريد إرهاب أهل البلد ، فجملنى بنفسك ساعة ، فضربه خمسمائة سوط ثم أطلقه .

وكان للأمير حسين المذكور أسمطة عظيمة محدودة فى سائر الأيام ، وكان أكولاً بذولاً للطعام ، سمحاً للمؤاكلة والإنهام ، يستومى الخروف وحده مع عدة أرغفة ! ونفاس له معدة ، وكان كردياً دخيلاً فى طائفة الجراكسة لا يملأ أعينهم ، ولا يعتبرونه فيما بينهم ، فأمر السلطان الغورى إبعاده عنهم حماية له منهم ، وكان محتبساً به فأعطاه بندر جدة على وجه الائتماز له ، وجهز معه عمارة ليقاتل الفرنج الذين ظهروا فى بنادر أرض الهند ، واستطرقوا إليها من بحر الظلمات من وراء حبل القمر التى هى منبع ماء النيل ، وعانوا فى أرض الهند ، ووصل أذاهم وإفسادهم إلى جزيرة العرب وبنادر اليمن ، وقصد السلطان الغورى رفع أذاهم عن المسلمين بإرسال حسين الكردى إلى جدة ، فلما أتى إلى جدة بنى سورها ، وبنى أبراجها ، وأحكمها ، وهدم كثيراً من بيوت الناس مما يقارب موضع السور لوضع الأساس ، وأخذ مجارتها ، وبنى بها السور فى شدة بأس ، واستخدم عامة الناس فى حمل الحجر والطين حتى التجار المعتبرين وسائر المتسببين ، وضيق على البنائين بحيث يحكى : أن أحدهم تأخر قليلاً عن المجئ ، فلما جاء أمر أن يبنى عليه ، وبنى عليه ، واستمر قبره البناء إلى يوم الجزاء إلى غير ذلك من الظلم الشديد والجور العنيد ، وبنى السور جميعه فى دون عام من شدته ، وعشمه ، وإقدامه ، وظلمه ، واستمر حاكماً بجدة إلى أن تقوى بالمال ، وقاتل وجمع خزائن من كل صنف .

فتوجه فى حدود إحدى وعشرين وتسعمائة إلى الهند فى حدود سنة ٩٢١هـ ودخل واجتمع بسلطان كجرات يومئذ وهو المرحوم المغفور السلطان خليل شاه ابن مظفر بن السلطان خليل محمود شاه الكجرانى فأكرمه وعظمه ، وأنعم عليه نعمة طائلة جزيلة ، ولما سمع الإفرنج به ارتفعوا من بنادر كجرات إلى بنادر الزكند ، وتحصنوا بقلعة متقنة محكمة لهم هناك حتى ملكهم الآن كوّة - بالكاف العجمية المضمومة ، والواو المشددة المفتوحة بعدها هاء ساكنة - يسر الله فتحها لسلطان الإسلام ، وقطع بسيفه دابر الإفرنج اللئام وكافة عباد الصليب والأصنام .

ولقد أحسن من قال :

أعباد المسيح تخاف صحبى ونحن عبيد من خلق المسيحا

ولم يستقر الأمير حسين فى كجرات بل عاد إلى اليمن ، وافتتح فى طريقه على عوده مملكة اليمن من بنى طاهر ملوك اليمن ظلماً وعدواناً فى سنة ٩٣١هـ بعد أمور يطول شرحها ، وتزل بها نائباً فى زبيد اسمه برسباى - جركسى من مماليكه - وقتل السلطان عامر بن عبد الوهاب مع أخيه عبد الملك ابن عبد الوهاب وكانوا ملوكاً من السنة والجماعة طاهرين من الاعتقاد الفاسد ظافرين على أهل البدع والإلحاد (رحمهم الله) .

وانقرضت به دولة بنى طاهر من اليمن ، وعاد الأمير حسين لمنيته ، وحتفه كالباحث عنها بظلفه ، وقدم إلى مكة ، وكانت دولة الجراكسة قد انقرضت بمصر ، وملكها السلطان الأعظم السلطان سليم خان بن بايز بدخان بن محمد خان (رحمه الله تعالى ، وأسكنه فسيح الجنات وسقى عهده صوب الرحمة والرضوان) .

وتوجه سيدنا ومولانا المقام الشريف العالى سيد السادات الأشراف وتاج الشرفاء من بنى عبد مناف مولانا السيد الشريف جمال الدنيا والدين محمد أبو نمى بركات خلد الله تعالى سعادته ، وأيد عزه وسادته أرسله والده الشريف بن بركات ليدوس البساط السلطانى بمصر ، وعمره يومئذ اثنى عشر عاماً فحصل له غاية التعظيم والإكرام وبلغ بذلك جميع ما طلبه ورام ، وعاد إلى والد الشريف معزوزاً مكروماً ، ومعه أحكام شريفة بكل ما طلبه وزاده ، وأرسل حكم مع السيد عزاز بن عجلان إلى السيد الشريف بركات (رحمه الله تعالى) بقتل الأمير حسين الكردى المذكور ، وهو الذى استخرج هذا الحكم بعداوة سابقة بينه وبين الأمير حسين ، وأخذ مقيد إلى جدة ، وربط فى رجله حجراً كبيراً ، وغرق فى بحر جدة فى محل يقال له : أم السمك ، فأكله الأسماك بعد أن كان بعد من الأملاك ، وكان طعاماً للحيتان بعد إطعامه الهنيفان ، وغرق مقيداً بالأصفاد بعد أن قتل ما شاء الله من العباد ، وتفرق فى البلاد جنوده وأعوانه بدداً : ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ، ولا يظلم ربك أحداً ﴾ .

★ ★ ★

الباب السابع

في ظهور ملوك آل عثمان (خلد الله تعالى سلطنتهم القائمة إلى آخر الزمان ، وذكر نبذة من مناقب أسلافه العظام وذكر ما عمروه في بلد الله الحرام وفعلوا فيه من الخيرات الجسام العظام وذكر بناء المسجد الحرام على الوضع الذى هو عليه الآن

الفصل الأول في ذكر الفتح الخاقاني ، ودخول ممالك العرب والعجم في سلك الملك العثماني

ونبذة من ذكر أسلافهم الكبار بطريق اللاختصار (خلد الله تعالى ملكهم مدّ الزمان وأبقى ملك الأرض فيهم وفى عنقهم إلى انتهاء الدّوران) .

فلما أراد الله تعالى بأهل الأرض إحساناً وأفضلاً ، وقد ظهور العدل والفضل بهم إكراماً لهم وإجلالاً ، وقضى بإطفاء نور الظلم والفتن ، ورفع مواد الفساد والظلم والمحن ، وتأييد دين الإسلام ، وتقوية السُّنَّة السنية المتمسكين بسنن محمد (ﷺ أفضل الصلاة والسلام) ، وإقامة الشرع الشريف على رغم الملاحدة اللئام أطلق فى أفق الخلافة العظمى شموس الإيالة العثمانية ، وأجلس وأسطع من أوج سماء السلطنة الكبرى كمال المعدلة الخاقانى ، وأجلس على سرير الملك من ملكة الله الأعظم ممالك الإسلام ، وفتح على يديه أكبر البلاد والأمصار بالسيف الصارم الصمصام والحسام

الحاسم مواد الظلم فى كل ظالم وظلام ، ونشره جناح الأمن والأمان على أهل الإيمان من الأنام ، فأخذ أحاسن محاسن الربع المسكون ، وكان مظهر القول من يقول للشىء كن فيكون ، ﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ﴾ (١) .

واستولى بتأييد الله ونصره على شام البلاد ومصره ، وملأ نطع الدنيا بدماء سيف قهره كما ملأها بإفاضة سيل عدله ، وسبب لطفه وبره ، وشرفت بذكره فى الحرمين الشريفين المنابر ورؤس المنابر وعمر مساجدها وتلا : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من أمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وأتى الزكاة ولم يخش إلا الله ﴾ (٢) .

وأقام الملة الحنفية ، وأحياها لها من مآثر مالك الملك الهمام ، والليث الباسل الضرغام ، والسلطان الأعظم ، والخاقان الأكرم الأفخم ، خير خلف خلف الرحمن أشرف سلف آل عثمان السلطان سليم خان بن بايزيد خان بن السلطان محمد خان بن السلطان بلدريم بايزيد خان بن السلطان مراد خان بن السلطان عثمان الغمازى (رحمهم الله تعالى ، وحفهم بالرحمة والرضوان ، وأبدلهم عما انتقلوا عنه من الملك الفانى بالملك الباقى فى أعلى غرف الجنان ، وأبقى السلطانة فى عنقهم خالدة تالدة إلى يوم الحشر والميزان) .

هم معشر كلهم غار وكلهم ... خير الملوك صناديد الهناديد
أولئك الناس إن عدوا وإن ذكروا ... ومن سواهم فلغو غير معدود
لو خلد الدهر ذو عز لعزته ... كانوا أحق بتعمير وتخليد

وجده الأعلى السلطان عثمان القارى رحمه الله تعالى أصله من التركمان الرحالة الترالة من طائفة التتار ، وهو أول من ولى منهم السلطنة فى بلاد الروم فى سنة ٩٢٩ هـ ، وهو ابن أروطول بن سليمان شاه ، ويتصل نسبه إلى يافث بن نوح (عليه الصلاة والسلام) ، وهو الجد الأربعون لحضرة السلطان سليم خان بن با يزيد (رحمه الله تعالى) .

---

(١) الآية رقم ١٠٥ من سورة الأنبياء ، مكية .   (٢) الآية سبقت الإشارة إليها .

ولما كانت أسماؤهم بلغة التركب القديم لم نذكرها لعر انضباطها ، وهى مذكورة فى التواريخ التركية ، وكان سليمان شاه سلطاناً فى الشرق فى بلاد ماهان قرب « بلخ » ، فلما ظهر جنكيز خان أحزب بلاد بلخ ، وأخرج منها السلطان علاء الدين بن خوارزم شاه ، وتفرقت أهل تلك مملكة الممالك ، وخرج سليمان شاه إلى بلاد ماهان بخمسين ألف بيت من التركمان إلى أرض الروم ، ومر بحلب ، وعبر فى بحر الفرات فغرق بفرسه ، وأخرج منه إلى بحر الرحمة فى عرفات الجنان ، ودفن أمام قلعة جعفر ، وتفرق من معه من التركمان فى أطراف تلك البلدان ، وذراريهم موجودون حالون نزالون إلى الآن ، وكان لسليمان شاة أربعة أولاد : عاد منهم اثنان إلى بلاد العجم وهم : سنقر ، ودينار ، وتوجه إلى بلاد الروم اثنان : طفرك ، وكون ، وغدى ، وقدما على السلطان السلجوقى على الدين ، وكان سلطان بلاد قرمان ، وتحت ملكه كونية فأكرمهما ، وأذن لهما فى الإقامة فى أرضه ، فاستأذناه فى جهاد الكفار ، واجتمع عليهما أمر الترك طائفة من الغزاه ، وصاروا بهم الجهاد فى سبيل الله تعالى ، وكان مفزهم ما بين قرة حصاد وبلجك فى محل يقال له : « سكوتجك » ، وصيروه قسلاقهم ببلاقهم ، وجعل أسافح فسكنوها مع مواصلة الغزو والجهاد ، ووقع الكفرة خل تلك البلاد إلى أن توفى أرطغرك فى سنة ٩٨٩ هـ ، وخلف أولاد أنجاد نجباء أمجاد أشدهم بأساً وأقواهم جأساً ، وأنماهم غراساً السلطان عثمان ، وكان مولده سنة ٩٥٦ هـ ذاب فى خدمة والده فى الجهاد ، وتفرس فى الغزاة فى سبيل الله تعالى منذ نشأ مع الأولاد ، واستمر بعد والده مع الكفار فى القتال والجلاد ، فرأى السلطان علاء الدين جده وجهده فى الجهاد ، وقلب قابليته ونجابته فى فتح أطراف تلك البلاد ، فأكرمه وأعزه ، وأحله بأنواع الإعانة والإمداد ، وأرسل إليه الراية السلطانية ، والطبل ، والزمر ، ووسمه باسم السلطنة تقوية لكيده وشداً لعضده ، فلما وصل الطبل والزمر إليه ، وعملوا نوبة بين يديه ، فعند سماعه صوت الطبل والزمر قام على قدميه تعظيماً لذلك ، فصار ذلك قانوناً لآل عثمان باقياً مستمداً إلى الآن ، فإنهم يقومون على أقدامهم عند ضرب النوبة على أبوابهم .

وكان جلوس السلطان عثمان على تحت السلطنة فى سنة ٦٩٦ ، وافتتح فيها قرة حصاد من الكفار ، وأمر بصلاة الجمعة ، وخطب باسمه فقيه ، وكان من أهل العلم حوله اسمه طورسن فقيه .

ثم افتتح قلعة « قرة حصاد » ثم « كثرى حصاد » ثم قلعة « بلحك » ثم قلعة « إين أوكى » ، ثم قلعه « إينه كول » ، ثم قلعة « يكى سهر » ، ثم زوج ولده « أورخان » على « نوفر خاتوك » بنت « مكور » صاحب بار صحاد ، فعمل أبوها سماطاً عظيماً ، فلما حضر الغزاة انتهزوا الفرصة وقتلوا مكور وافتتحوا قلعة « بار حصاد » ، ثم قلعة « بلجك » ، فدخلها السلطان عثمان ، وصارت من جملة ممالكه .

واستمر فى الغزاة والجهاد ، وافتتاح البلاد ، وقتل الكفار من أهل العناد إلى أن دعاه الله إلى جنته ، وأبلد له سلطنة خيراً من سلطنته ، فأجاب داعى الحق لما دعاه ، وبادر إلى إجابته ، ولبى نداءه ، فعاش سعيداً حميداً إلى رحمة الله تعالى عبر ست وستين عاماً فى سنة ٧٢٢ هـ ، وكانت مدة سلطنته ستاً وعشرين سنة .

ثم ولى بعده السلطان أورخان الغازى مولده سنة ٦٧٨هـ وجلوسه على تحت السلطنة بعد والده المرحوم فى سنة ٧٢٢ هـ ، ومدة سلطنته خمسة وثلاثون سنة ، وعمره ثلاثاً وثمانين سنة ، هو الذى افتتح « بروسا » ، وجعلها مقر سلطنته ، وفتح قلاعاً كثيرة ، وله حروب مع الكفار مشهورة تسمى « نيلوم صوى » ، وكان السلطان أورخان فاق والده فى الجهاد وفتح البلاد وبذل الاجتهاد .

فتح « بروسا » فى أيام والده ، ثم « قرن حصار » ، وقلعة « أيتو » فى سنة ٧٣١ هـ ، ثم افتتح قلعة « كوشك » ، وقلعة « بالى كسرى » ، وولاية « قرة سى » ، وقلعة « قرماستى » ، وقلعة « أولباد » فى سنة ٧٣ هـ ، وقلعة « فريحة طوله » فى سنة ٧٣ هـ ، وفتح عدة قلاع وحصون ، واتسعت مملكته ونفذت كلمته ، فاجتمعت ملوك النصارى ، وجميع الكفرة على قتال العساكر الإسلامية ، ورفع ضرر المسلمين من بلادهم .

فاتفق « أنكدوس » يعنى سلطانهم وسلطان « لان » ، والشرف ، وأجمعوا أن يتعدوا إلى بلاد « أرملى » إلى جهة « أناطولى » ويقاتلون السلطان أورخان فى محله ، وكان له ولد نجيب اسمه سليمان بيك استأذن من والده أن يعدى إلى « رملى » ، ويقاتل الكفار الذين اجتمعوا حوله لقتاله قبل أن يصلوا إلى أنا طولى ، فأجازه والده لما رأى نجابته ، وشجاعته ، وتوجه مع خدامه فسمع به الغزاة من المسجد الشجعان فوارس محبورون ، وأبطال مشهورون ، فعدُم إلى « روم إيلى » فصادفوا الكفار فى غفلة وهم يزيد والعبور إلى ناحية أنا طولى ، فوقع حرب عظيم قتل فيه من الكفار ما لا يعد ولا يحصى ، وانهزم الباقون إلى القلاع والحصون ويتبعهم المسلمون يأسرون منهم ويقتلون ، فنصر الله الإسلام ، وخذلت النصارى اللئام ، وافتتح المسلمون عدة قلاع وحصون ، وآل الكفار إلى الدمار والبوار ثم إلى عذاب النار ، ورجع سليمان بك إلى والده مظفراً منصوراً ، مؤيداً مسروراً ، وكان السلطان أورخان كوالده كثير الجهاد ، طاهر الاعتقاد ، سليم الفؤاد ، عدواً لأهل الكفر والإلحاد ، عاش سعيداً ، ومات حميداً فى سنة ٧٥٧ هـ (رحمه الله تعالى) .

ثم ولى بعده السلطان المراد الغازى مولده سنة ٧٢٣ هـ ، وجلوسه على التخت فى بروسا سنة ٧٥٧ هـ ، ومدة سلطنته إحدى وثلاثون سنة ، وعمره خمس وستون سنة ، وولى السلطنة وعمره أربعة وثلاثون ، وافتتح مدينة أردسة فى سنة ٧٣١ هـ ، وهو أول من اتخذ المماليك ، وسماهم «بكنجرى» - يعنى العسكر الجديد ، وألبسهم اللباد الأبيض المثنى إلى خلف ، وسماه «بركا » - بضم الباء الموحدة وسكون الراء آخره كاف - ، وكانت صولة عظيمة على الكفار ، واجتمعت النصارى على سلطانهم « أسوت » فقاتلهم السلطان مراد قتلاً عظيماً ، فقتل سلطان الكفرة ، وانهزم الكفار ، فأظهر واحد من ملوكهم الطاعة اسمه « بلواش » ، وتقدم ليقبل يد السلطان ، فلما قرب أخرج خنجراً كان أعده فى كمه فضرب به السلطان مراد ، واستشهد إلى رحمة الله تعالى فى سنة ٧٨٨ هـ ، فصار القانون العثمانى من يومئذ أن

يدخل على السلطان إيلجى وغيره بسلاح ، وأن تفتش ثيابه ، وأن يدخل على السلطان الأبين رجلين يكتنفانه ، فولى السلطنة بعده ولده السعيد السلطان بلدريم بايزيد خان مولده سنة ٧٤٦ هـ ، وولى السلطنة وعمره اثنان وأربعون عاماً ، ومدة سلطنته ستة عشر عاماً .

ولما استولى على كثير من قلاع النصارى تمشى إلى بلاد الطوائف فى بلاد الروم ، فلزم أن يستولى السلطان بلدريم بايزيد خان على ملوك الطوائف ، وضيق على جماعتهم مثل « ابن كومبان » أخذه وحبسه مع وزرائه ، فهرب مع وزيره مني الحبس ، ومضى إلى تيمور لنك ، وهرب أيضاً « ابن منشأ » منه وحلف لحيته وحاجبه وصار فى صورة سقطى يبيع الخرازات ، وكذلك «ابن أصفند ياور » وغيرهم من أمراء تلك الديار وملوكها ، ووصلوا إلى تيمور لنك ، وشكوا من السلطان بايزيد خان ، وحسنوا له أن يصل إلى بلد الوم ، فوصل إلى البلاد الشامية والحلبية ، وقتل فيها ، وفتك ، وسفك الدماء ، وعاث فيها وأخذ تلك البلاد ، وأخذ أهلها ، ونهب المسلمين وسفك الدماء إلى أن وصل إلى أذربيجان ، وخرج السلطان بايزيد إلى قتاله ، وجمع عسكر الروم .

ولما التقى الفئتان قريب « أنكوديه » هرب من عساكره طائفة التتار بكتابة تيمور لنك لهم وتفخيذهم عنه ، وكذلك عسكر منشأ ، وعسكر كرميان ، وتركوا السلطان بايزيد خان وذهبوا إلى تيمور لنك ، ووقع الحرب الشديد وقتل من أولاد السلطان بايزيد مصطفى ، فشرع عسكره فى الانهزام وثبت هو وقليل ممن معه ، واستمر يقاتل إلى أن وصل تيمور بسيفه المشهور يقاتل بنفسه، وقد عجزوا عنه فرموا عليه بساطاً وأمسكوه ، وجعلوه فى الحبس فحصل له حمى عصبية ، وتوفى إلى رحمة الله تعالى فى سنة ٨١٥ هـ .

وتسلطن بعده أولاده ، وهم : عيسى ، وموسى ، وسليمان ، وقاسم ، ومحمد ، وصار بينهم النزاع ، والقتال نحو اثنى عشر سنة إلى أن استقل بالسلطنة السلطان محمد خان بن سلطان بلدريم بايزيد خان فى سنة ٨١٦ هـ ومولده في سنة ٧٧٧ ، ومدة سلطنته تسع سنين ، وعاش ثمانية وخمسين

عاماً ، وكان شجاعاً مقداماً ، مجاهداً فى سبيل الله تعالى ، افتتح عدة قلاع وبلاد ، وبذل نفسه فى الغزاة والجهاد ، ومهدها .

ومما فتحه : قلعة « قطمونية » ، وقلعة « إسكب » ، وقلعة « صامسون » ، وقلعة «أقسمة » وغيرها ، ثم خرج عليه محمد بن قرمان وأحرق بدوياً ، فجاء السلطان محمد خان من بلاد « روم إيلى » ، ووصل إلى قوسية ، ووقع بينه وبين محمد بيك بن قرمان حرب عظيم مشهور ، انهزم منه عسكر بن قرمان وسنك محمد بن قرمان وولده مصطفى ، وأتى بهما أسيرين إلى السلطان محمد فعاتبهما ، وعفى عنهما ، وتصدق عليهما بمملكتهما .

وللسلطان محمد مدارس ، وعماير ، وأفعال خير ؛ وهو أول من الصر[١] لأهل الحرمين الشريفين من آل عثمان (رحمهم الله تعالى) .

فلما تم أجله المحتوم فى أم الكتاب أراد الله تعالى نقله إلى جنات المآب ، وعاده من ملك الفناء إلى ملك البقاء المستطاب ، فعاش حميداً ، ومضى حميداً، وتحول من دار الفناء إلى دار البقاء، و﴿إن إلى ربك الرجعى﴾ [٢].

وكانت وفاته بمرض الإسهال - فسيكون له مرتبة الشهادة ، وذلك فى سنة ٨٣٥ هـ ، ثم ولى بعده السلطان مرادخان الثانى بن محمد خان بن بلدريم بايزيد خان . مولده : فى سنة ست وثمانمائة .

وجلس على تخت السلطنة وعمره ثمانية عشر عاماً . مدة سلطنته : إحدى وثلاثون سنة ، وعمره : تسع وخمسون سنة ، وكان ملكاً مطاعاً ، مقداماً ، فاتكاً ، شجاعاً ، بذولاً ، واسع العطاء .

عين للحرمين الشريفين من خاصة صدقاته فى كل عام ثلاثة آلاف وخمسمائة ذهباً ، وللشرفاء السادات من خزينته فى كل عام مثل ذلك ، فتح الفتوحات ، ولين حمومات الجموعات ، ومهد الممالك ، وأمن المسالك . وأقام الشرع والدين ، وأذل الكفار والملحدين ، وأغر الإسلام والمسلمين .

---

(١) هكذا فى (أ) ، (س) ، ولعلها : انتصر . (٢) الآية رقم ٨ من سورة العلق ، مكية .

ومن جملة ما افتتحه : بلاد « سمدوة » ، وقلعة « مورة » وغيرهما ، وقاتل « قزال أنكروس » وهزمه ، وأسر منهم خلقاً كثيراً ، واستمر يجاهد الكفار ، ويفتح الديار إلى أن أنشأ ولده السلطان محمد ، فرأى نجابته ، ولمح فى عزته سعادته ، وعرف إقباله ، وشهامته ، وأجلسه على سرير السلطنة ، واختار لنفسه التعاقد والفراغ فى مغيسا بحسن رضاه .

فولى السلطنة محمد بن مرادخان فى سنة ٨٥٦ هـ ، وجلس على التخت وقد استكمل عشرين سنة ، وكانت مدة سلطنته إحدى وثلاثون سنة ، وكان من أعظم سلاطين آل عثمان وهو الملك النيّل العظيم الجليل ، أعظم الملوك جهاداً ، فأقواهم فؤاداً ، وأكثرهم توكلاً على الله ، واعتماداً ، وهو الذى أسس ملك بنى عثمان ، وقنن لهم قوانين صارت كالأطواق فى أجياد الزمان .

وله مناقب جميلة ، ومزايا فاضلة جليلة ، وآثار باقية فى صفحات الليالى والأيام ، ومآثر لا يمحوها تعاقب السنين والأعوام ، وغزوات كسرتها أصلاب الصلبان والأصنام .

ومن أعظمها : أنه فتح « القسنطينية » الكبرى ، وساق إليها السنن تجرى ، وجاء براً وبحراً ، وهجم عليها بجنوده وأبطاله ، وأقدم عليها بجنوده ورجاله وحاصرها خمسين يوماً أشد الحصار ، وضيق على من فيها من الكفار والفجار ، وسل على أهلها سيف الله المسلول ، وتدرع بدرع الله الحصين المسيول ، ودق باب النصر والتأييد ، ولج الله تعالى بالفرج ، « ومن قرع باباً ولج ونج » .

وصبر على مر الصبر إلى أن أتاه الله تعالى بالفرج ، ونزلت عليه ملائكة القريب القريب بالنصر العزيز من عند الله تعالى والفتح القريب ، ففتح أسطنبول فى اليوم الحادى والخمسين من أيام محاصرته ، وهو يوم الأربعة العشرون من جمادى الآخرة سنة ٨٥٧ هـ ، وصلى فى أكبر كنائس النصارى صلاة الجمعة ، وهى « إياصوفيا » ، وهى قبة تسامى قبة السماء وتحاكى فى الاستحكام قبة الأحرام ، ولا وهنت كبراً ولا هر هرساً ، كأن أبراجها أبراج

أفلاك ، ومسامير أبوابها كنجوم السّماك مزق منها جلابيب الهلبان والأصنام ، وخلع عليها حلل مساجد الإسلام وأبدلها الله تعالى عن الظلمات نوراً ، وكساها بنور الإسلام شرفاً وعزاً ، وحبوراً ، لا زالت محلاً للصلاة والعبادة والاعتكاف ، مقر الاستقرار قلوب العلماء ، والأصفياء ، والزهاد فيها ، والعراف مستقر السلاطين آل عثمان أهل المعدلة والإنصاف أبد الأبدين ودهر الداهرين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين .

وقد أسس المرحوم المقدس فى اسطنبول للعلم أساساً راسخاً لا يخشى على شمسه الأفول ، وبنى بها مدارس كالجنان لها ثمانية أبواب سهلة الدخول وقنن القوانين تطابق العقول والنقول ، ورغب فى طلب العلم الشريف ، ويكسى الطالبين حلل القبول بعد الخمول ، ﴿ فجزاه الله خيراً عن الطلاب ، ومنحه بها أجراً وأكثر ثواب ﴾ ، فإنه جعل لهم أيام الطلب مما يُسدّ به فاقتهم ويكون به من خمار الفقراء فاقتهم ، وجعل لهم بعد ذلك مراتب يرتقون إليها ويصعدون بالتمكين والاعتبار عليها إلى أن يصلوا إلى سعادة الدنيا ، ويتوصلون بها أيضاً إلى سعادة العقبى .

وإنه (رحمه الله) استجلب العلماء الكبار من أقاصى الديار ، وأنعم عليهم ، وعطف بإحسانه العام عليهم ، كمولانا على القوسمى ، والفاضل الطوسى ، والعالم الكورانى ، وغيرهم من علماء الإسلام ، وفضلاء الأنام، فصارت اسطنبول بهم « أم الدنيا » ومعدن الفخار والعليا ، واجتمع فيهاي أهل الكمال من كل فضل .

فعلماؤها إلى الآن أعظم علماء الإسلام ، وأهل حرفها أدق الفطناء فى الأنام ، وأرباب دولاتها أهل السعادة العظام .

وللمرحوم المقدس قلادة منن لا تحصى فى أعناق المسلمين ، لا سيما العلماء الأكرمين قلدها فى أجيادهم فهى باقية إلى يوم الدين ، ولو ذكرت مناقبه ، وعددت لسخنت بها مجلد (أسكنه الله تعالى فسيح الجنان ، دائراً على قبره سحائب الرحمة والبركات) ، وقد كانت وفاته فى سنة ٨٨٧ .

ثم ولى بعده السلطان بايزيد خان بن السلطان محمد خان الغازى . مولده: سنة ٨٣٦ هـ ، وجلس على تخت السلطنة فى ثانى عشر بربيع الأول سنة ٨٨٧ ، وعمره - إذ ذاك - ثلاثون عاماً ، وعمر اثنين وستين عاماً ، وهو من أعيان السلاطين العظماء تفرع من شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها السماء ، وتحدر من سلالة فلوك الأكابر ، وورث سرير السلطنة كابراً عن كابر ، وتزينت باسمه رؤوس المنابر ، وتوشحت بذكره صدور المنابر ، وامتلأت بمدائح أولاده بطون الصحف والدفاتر ، وافتتح الفتوحات ، وغزا فى سبيل الله أعظم الغزوات .

فمما افتتحه : قلعة « مروان » ، وقلعة « كوكلك » ، وقلعة « آل كرميان » فى سنة ٨٨٨ هـ ، وقاتله السلطان أخوه « جم » فبرز السلطان بايزيد لقتاله ، وتهازما فانهزم السلطان جم ، وفر إلى مصر ، وحج فى زمن السلطان قايتباى وعاد وأكرمه السلطان قايتباى إكراماً عظيماً .

فذهب إلى « درسق » ، وجمع طائفة من الغزاة ، ونازع أخاه على الملك فقابله السلطان بايا يزيد فانكسر السلطان « جم » ثانياً ، وفر إلى بلاد النصارى سنة ٨٨٧ هـ ، وأرسل إليه السلطان بايزيد أحد عبيده فى صورة حلاق مجهول ، فلما رآه السلطان « جم » تأنس به ، وسأل عن صنعته : فقال : حلاق ، فاستخدمه ، وأمره أن يحلق له ، فحلق له رأسه بموس مسموم فهرب فى الحال ، وأثر السم فى رأسه ، وسرى إلى بدنه فمات إلى رحمة الله تعالى ، وله أشعار لطيفة بلسان التركى .

ومما افتتحه بايزيد من القلاع العظيمة والحصون المحكمة القديمة :

قلعة « متون » ، وقلعة « وقرون » وغير ذلك من القلاع والحصون ، وظهر فى بلاد العجم فى أيامه : شاه إسماعيل بن السيد حيدر بن الشيخ حفيد الصوفى سنة ٩٠٠ هـ ، وكان له ظهور عجيب ، واستيلاء على ملوك العجم بعد من الأعاجيب ، وفتك فى البلاد ، وسفك دماء العباد ، وأظهر مذهب الرفض والإلحاد ، وغير اعتقاد أهل العجم إلى انحلال الفساد بعد الصلاح

والسداد ، وأخرب ممالك العجم ، وأزال من أهلها حسن الاعتقاد ، والله تعالى أعلم يفعل فى ملكه ما أراد ، وتلك الفتنة باقية إلى الآن فى جميع البلاد ، وشرع ذلك يحتاج إلى تاريخ مستقل ، ولا أعلم أحداً تعرض له من العلماء الأمجاد .

وكان السلطان بايزيد (رحمه الله تعالى ، وجعل الجنة شواه) من المجاهدين فى الله الذين لا يزالون يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوءهم منصورين على من شق منهم القضاة ، وعاداهم يجاهدون لتكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا هى السفلى ، فما زال غازياً فى سبيل الله مظفراً على أعداء الله إلى أن صار بيضة الإسلام بسيوفه محمية محفوظة ، وحركاته ، وسكناته بعين عناية الله وإعانته منظورة ملحوظة ، وكانت أيامه من أحسن الأيام ، وأكثرها أمناً وراحة ، وجمع قلب الأنام ، وكانت به كلمة الإسلام مجموعة ، وكلمة أهل الضلال خاسئة مقموعة ، وتولى الله على يديه إعزاز دينه ، وإذلال طواغيت الشرك وشياطينه .

وكان - مع ذلك - محباً لفعل الخيرات ، مثابراً على بذل الإنعام والصدقات ، محباً للعلماء ، والمشايخ ، والأولياء من أهل الكرامات بحيث دخل الخلوة ، وجلس الأربعين وارتاض مثل الصلحاء السالكين ، ودخل معه الخلوة والد مولانا أبو السعود أفندى المفتى المفسر ، وهو مولانا الشيخ باوصى مجيبى الدين أفندى ، وبنى الجوامع ، والمدارس ، والعمارات ، ودار الضيافات ، والتكايا ، والزوايات ، والخانقات ، ودار الشفاء للمرضى ، والحمامات ، والجبور .

ورتب للمفتى الأعظم ، ومن فى رتبته من العلماء العظام فى زمنه فى كل عام عشرة ألف عثمانى ، ولكل مدرس من مدرسى الثمانية من مدارس والده المرحوم السلطان محمد خان فى كل عام سبعة آلاف عثمانى ، ولمدرسى «شرح المفتاح» لكل واحد أربعة آلاف عثمانى ، ولكل واحد من مدرسى «شرح التجريد » ألفى عثمانى ، وكذلك رتب لمشايخ الطريق إلى الله تعالى، ومريديهم ، وأهل الزوايات لكل واحد على قدر مرتبته واستحقاقه ، هذا غير

كسوة الصيف من الأصواف ونحوها ، وغير كسوة الشتاء من الفراوى والجوخ لكل أحد على قدر مرتبته ، وصار ذلك قانوناً جارياً بعده مستمراً ، وكا يحب أهل الحرمين الشريفين ، ويحسن إليهم إحساناً كثيراً ، ورتب لهم الصرّ فى كل عام ، وكان يجهز إلى فقر الحرمين الشريفين فى كل سنة أربعة ألف دينار ذهباً يصرف بعضها على فقهاء مكة ، وعلى فقراء المدينة ، وكانوا يتسعون بها ويرتفقون بها ويدعون له ، وإذا ورد عليه أحد من أهل الحرمين الشريفين ينعم عليه ، ويحسن إليه ، ويرجع من عنده بصلات عظيمة ، ومراتب جزيلة .

وممن ورد عليه فى شبابه : خطيب مكة المرحوم الشيخ محيى الدين بن عبد القادر بن عبد الرحمن العراقى ، والشيخ شهاب الدين أحمد بن الحسين العليف الشاعر البطحاء ، وفاضلها ، ونالا منه خيراً كثيراً .

وصنف « العليف » باسمه تاريخاً سماه : « الدر المنظوم فى مناقب السلطان بايزيد ملك الروم » ، ولا يخلو من فوائد لطيفة .

ومما نظمه الشهاب العليف (رحمه الله تعالى) فى مدحه من قصيدة رائية طنانة مطلعها :

خذوا من ثناياىا موجب الحمد والشكر ... ومن در نظمى طيب النظم والنشر

ومنها أيضاً :

فيا راكباً يمشى على بطن ضـامر ... إلى الروم يهدى نحوها طيب النشـر

لك الخير إن وافيت بروسا فسر بها ... رويـداً الاسـطنبول سامية الذكر

لذى ملك لا يبلغ الوصف كنهـه ... شـريف المساعى نافذ النهى والأمـر

إلى بايزيد الخـير والملك الذى ... حـمى بيضة الإسلامة بالبيض والسّمر

وجـرد للدين الحنيفى صـارماً ... أباديه جـمع الطواغيت والكفـر

وجاهدهم فى الله حق جـهاده ... رجـاماً يبقى من الفوز والأجـر

له هيبـة مـلء الصـدور وصولة ... مقسـمة بين المخـافة والذعـر

أطـــاع له ما بين روم وفـــارس ... ودان له ما بين بصرى إلى مصـر
هـو البحـر إلا أنه دائم العطـا ... وذلك لا يخلو من المد والجـزر
هـو البدر إلا أنه كامل الضـيا ... وذاك خليف النقص فى معظم الشهر
هو الغيث إلا أن للغيث مسـكة ... وذا لا يزال الدهر ينهل بالقطـر
هـو السـيف إلا أن للسيف بنوة ... وفل، وذا ماضى العزيمة فى الأمـر
سـليل بنى عثمان والسادة الألى ... علا مجدهم فوق السماكين والنسر
ملوك كرام الأصل طابت فروعهم ... وهل ينسب الدنيا إلا إلى التبر؟!
محـوا أثر الكفار بالسيف فاعتدت ... بهم حوزه الإسلام سامية القـدر
فيا ملكـاً فاق الملك مكارمـاً ... فكل إلى أدنى مكارمه يجـرى
لئـن فقتم فى رتبة الملك والعـلا ... فإن الليالى بعضـها ليلة القـدر
فدتك ملوك الأرض طـراً لأنهـا ... سراج وأنت البدر فى غرة الشهر
تعـاليت عنهـم رفعة ، ومكانـة ... وذاتاً ، وأوصافاً تجل عن الحصر
إلى العـراة القعسـا والرتبة التى ... قواعدها تسمو على منكب النسر
سـموت علواً إذ دنوت تواضعاً ... وقمت بحق الله فى السر والجهر
غدت بك أرض الروم تزهو ملاحة ... وترفل فى ثوب الجلالة والفخـر
ألسـت ابن عثمان الذى ساد ذكره ... مسير ضياء الشمس فى البر والبحر
يمينـك يروى عـن عطـاء ونائلٍ ... ووجهك يروى فى البشاشة عن بشـر
وإنى لصـوان لدر قلائـدى ... عن الدار إلا فيك يا ملك العصر
فقابل - رعاك الله- شكرى بمثله ... فإنك للمعروف من أكرم الذخـر
فلا زلت محروس الجناب مؤيداً ... مـن الله بالتوفيـق والعـز والنصر

يحكى أن القصيدة لما وصلت إليه فرح فرحاً شديداً ، وأمر لها حبها أحمد العليف المذكور بألف دينار ذهباً جارية ، ورتب له فى دفتر الصبّر فى كل عام

مائة دينار ذهباً كانت تصل إليه فى كل عام ، فصارت بعده إلى أولاده (رحمه الله تعالى) ، وكان للمرحوم السلطان بايزيد عده أولاد صاروا ملوكاً وصار لأولادهم أولاد منهم : السلطان جهان شاه ، والسلطان أحمد ، والسلطان فورقد ، والسلطان سليم ، والسلطان محمود ، والسلطان عبد الله ، والسلطان غلام شاه ، وكلهم أعلام الهدى ومصابيح الدجا ، ونجوم لرجوم شياطين العدا .

نشأو فى مهد السلطنة وحجرها ، ونموا ما بين شجرها ونحرها من شجرة طاب عودها واعتدل عمودها .

ولا غرو أن يجود الجواد كأصله ، ويحول مخائل الليث عن شبله ، والولد فى سرائبه وتبله وفضله ، وكل شيء فى الحقيقة يرجع إلى أصله .

وقيل :

ملوك بنى عثمان - مذكان أصلهم - كـرام لهم فى المكرمات مفاخــــر
إذا ولد المولود منهـــــم تهــللت له الأرض واهتـــزت إليه المنابــر

ولما ترعرعواا وتبرعوا أخرجهم والدهم المرحوم إلى الصناجق العالية فى بلاد الروم ، وأنعم عليهم بالولايات العظام ، وحفظ بهم ملك الإسلام ، وقلدهم الأمور الحسام ، فجعل لأكبر بأؤلاده السلطان أحمد مملكة « أماسيا » وما وراءها ، وأنعم على السلطان جهان شاه بمملكة قزمان وأعمالها ، وولى السلطان فورقد « منتشا » وتوابعها ، وجعل للسلطان سليم مملكة « طوابزون » وهو الذى جرى فى جلبة السعادة فسبق ما سبق فى علم الله تعالى سلطنته ، فكان أولى من الجميع وأحق ، وأعطى السلطان محمود مملكة « مغيا » وعين للسلطان عبد الله مملكة « الكفار وما يليه » من بلاد التتار ، وكلهم ملوكب أبرار ، وسلاطين كبار ، من تلق منهم فقل لاقيت سيدهم مثل النجوم التى يهدى به السارى ، وأسعد الله جهان شاه ، ومحمود ، وحمد بالوفاة فى حياة والدهم ، وكفاهم الله تعالى القتل والقتال ، وصار حال ما عدا السلطان سليم إلى ما حال ، فرحم الله تعالى أولئك الجميع السادة الأبطال ،

وعوضهم فى سلطنة هذه الدار جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار ، وكان والده السلطان بايزيد خان استولى عليه مرض النفوس ، وهو أشهر مرض آل عثمان (رحمه الله تعالى) ، وضعف عن الحركة ، وترك السفر سنين متعددة، فصار العسكر لبطرهم ، وكثرة راحتهم ، وسكونهم يتطلبون سلطاناً شاباً بأقوى الحركة ، كثير الأسفار ليجاهد بهم فى سبيل الله ، ويغنمون من الكفار غنائم ، ويظفرون بأنواع المغانم ورأوا أن السلطان سليم خان أجله من سائر إخوانه ، وأقوى على ذلك القوة جنانه ، وعلو شأنه ، فمالوا إليه ، ومال إليهم ، فتوجه بالعطف والحنو عليهم ، وخرج عليه والده محارباً ، وركب عليه مقاتلاً ومغاضباً ، فقاتله أبوه وهزمه ، فولى هارباً ، ثم عطف على والده ثانياً ، فلما رأى ميل العسكر إليه ، واختيارهم له ، واجتماعهم عليه .

ورأى السلطان بايزيد توجه أركان الدولة والعسكر إلى السلطان سليم ، وأشار إليه وزرائه أن يفرغ عن السلطنة للسلطان سليم بقلب سليم ، وأشار إليه ، ويختار التقاعد فى إدارته فى عز وتعظيم ، وأبرموا عليه فى ذلك ، فما رأى بدأً من إجابتهم إلى ما سألوا ، وموافقتهم إلى ما طلبوا منه وأملوا ، فطلبه إلى حضوره ، وعهد إليه بالسلطنة ، وتوجه إليه التخت ، وتوجه مع خواص خدمه إلى إدارته ، فلما وصل إلى « قربة جورلو » انكسر زجاج مزاجه ، وعجز الأطباء فى علاجه ، وسقاه ساقى الحمام كأس أجله المحتوم، فسلم إلى قابض الأرواح روح المرحوم ، وأقدم على الله تعالى الحى القيوم ، ورزق مرتبة الشهادة ، ونال بها أعلى درجات السعادة ، وانتقل من الملك الذليل الفانى إلى الملك الدائم الباقى ، وذلك فى سنة ٩١٨ هـ .

وولى عوضه السلطان الأعظم السلطان سليم خان كاسر سلطان العجم ، وفاتح إقليم مصر ، وسائر ممالك العرب (طيب الله ثراه ، وجعل الفردوس أعلى محله وما وراه » .

مولده : فى أماسية سنة ٨٧٣ هـ ، وجلس على تحت السلطنة وعمره جميعه ستة وأربعون سنة .

وكانت مدة سلطنته تسع سنين وثمانية أشهر ، وكان عمره جميعه أربعاً وخمسون سنة ولم يعمر أكثر من ذلك ، ولم تطل مدة سلطنته لأنه كان سفاكاً يكثر [١] من القتل ، وهذه عادة الله تعالى فى السلاطين ، والأمراء والحكام إذا أكثروا من سفك الدماء .

وكان سلطاناً قاهراً ، مالكاً جباراً ، قوى البطش ، عظيم القتل ، كثير الفحص عن أخبار الناس ، شديد التوجه أهل النجدة والباس ، عظيم التجسس عن أخبار الممالك ، عارفاً بمسالك الطرق والمسالك ، وكان يغير زيه ولباسه ، ويتجسس فى الليل والنهار ، ويطلع على الأخبار وتكشف الأسرار، وله عدة مصاحبين يدورون فى الأسواق ، والجمعيات والمخافل ، ومهما سمعوا به ذكروه له فى مجلس المصاحبة ، فيعمل بمقتضى ما يسمعه بعد الوقوف فيهم ، وقد أدركت جماعة من مصاحبيه المذكورين ، وسمعت منهم حسن مصاحبة السلطان سليم معهم ، ولطف معاشرته لهم ، وتفرسه فى اللغة الفارسية ، وحسن ظنه بالفارسية والرومية ، وبحيث فاق فيه فصحاء الطائفتين .

ورأيت بيتين بالعربى بخطه الشريف كتبهما فى علو المقياس فى الكوشك الذى أمر بنائه لما افتتح مصر وسكن الروضة المحا انمحى لطول الزمان مداده ، ومال إلى لون البياض سواده ، وكان هذا الكوشك محترماً مقفلاً لا يصل إليه أحد لعظم بانيه ، ولا ينتذل بالدخول إليه تعظيماً لراعيه ، فدخلت إلى مصر سنة ٩٣٣ هـ ، وكان يوم كسر الفيل السعيد ففتحوا هذا الكوشك «البكريكى» صاحب مصر يومئذ «حسرف باشا»، وكنت مصاحباً لمعلمه مولانا عبد الكريم العجمى ، فطلع وأطلعنى معه فى صحبة « حسرف باشا » المذكور ، فرأيت مكتوباً على الرخام الأبيض كتابة خفيفة لا تكاد تقرأ إلا بتأمل ، وهى هذين البيتين :

الملك لله من يظفر بنيل منى   يرده قسراً ويضمن منه نفسه الدركا

(١) فى (س) : كثيروا .

لكـان لـى أو لغــيرى قدر أنملة　　فوق التراب لكان الأمر مشتركاً

وتحتهما صورته ، وكتبه سليم بذلك الخط وذلك القليم ، ولعمرى إن كان هذان البيتان من نظم المرحوم فهما غاية فى البراعة ، ونهاية فى التمكن والصناعة ، فيدل على ملكته (رحمه الله) فى اللسان العربى أيضاً ، لأنهما من أعلى طبقات الشعر العربى الفصيح البليغ المنسجم ، وإن كان قد تمثل بهما وهما لغيره ، فهذه مرتبة عالية فى حسن التمثيل ولطف الاستحضار ، وفهم أشعار العربية ، وذوقه بها .

وهذا القدر يستعظم ويستكثر على عظماء العجم المكيين على علوم الغربية فضلاً عن سلاطينهم المشغولين بضبط الممالك وفتحها ، والموفقون فى ذوق الشعر العربى ، وحسن أدائه من العلماء ، فالموالى فى غاية القلة معدودون ، ولا يعد هذا انقضاءً فيهم لأن فهمهم الشعر العربى على وجهه وذوقه كما ينبغى قليلاً أيضاً فى علماء الغرب إلا من توغل فيهم فى علم لاذب وتعب فى تحصيله وذاب ، وقيل :

فـلا المعــزّى ببـاق بعدمــــيته　　ولا المعزّا وإن عاشا إلى حين

ولما استقر السلطان سليم على سريري الملك ، وهيهات ، أين الاستقرار؟! وأين الملك ؟! ، والملك لله الواحد القهار ، وجلس على الكرسى ، وأزال الدمار ، وثبت على تخت السلطنة ، وأنى له بالثبات ؟! ، والقرار شرع فى قهر الملوك ، بوأخذ الممالك ، والاستيلاء على الأقاليم والبلدان والمسالك .

فبدأ بقتال شاه إسماعيل بن الشيخ حيدر الصوفى ، فأنا لم أظفر بكتاب فيه تفصيل ذلك ، وإنما تلقيته من أفواه الرجال .

وأخبرنى نفسة من أعيان كتبة الديوان : على أن السلطان بايزيد (رحمه الله تعالى) رحمة واسعة حذره منجم صادق فى أهل عصره : أن هلاله يكون على يد ولد يولد بعد ما ولد له عدة أولاد ، وكان تحذيره له قبل أن يولد السلطان سليم ، فطلب امرأة معتمدة عنده بيد « هاجوان الموطوف » ، وهى قابلة لمن يضع حمله منهن ، وكانت من الصالحات الخيرات ، الدّينات ، فقال

لها : إذا وضعت إحدى الجوارى بعد الآن صبياً فاقتليه ولا تبقيه حياً ، وإذا ولدت أنثى أتركيها لتعيش مع بناتى ، وأكد عليها فى ذلك غاية التأكيد ، واستمرت على ذلك إلى أن ولدت السلطان سليم والدته فرأت صبياً فحزنت عليه ، وتناولته القابلة لتحققه فرأت صورة جميلة فرقت ، وقالت فى نفسها : بأى وجه ألقى الله تبارك وتعالى فى قتل هذاي الطفل المعصوم ؟ والله لا أقدم على قتله » ، وقالت لبايزيد بأن حصل له بنت جميلة حسنة الصورة ، فلما أخبره بذلك سماها « سليمة » .

واستمر على ذلك والحال مكتوم لا يعلمه غير القابلة والأم والله سبحانه وتعالى ، وصار كلما كبر وانتشأ ظهر عليه سيما الغلبة والقهر ، وإذا اجتمعن البنات وجلس بينهن لطم من إلى جانبه ، وضرب ونهب ما وجد بأيديهن من ملعوبات الأطفال ، وكانوا يحدرون منه ، فدخل السلطان بايزيد فى يوم عيد إلى داخل السراى ، وأمر بالمكان قرين ، واستدعى ببناته ، وأجلسهن بين يديه، وأمر أن يوضع بين يدى كل واحدة منهن أنواع الحلاوين ، والفواكه ، وأحضر بينهن السلطان سليم - واسمه سليمة - فشرع فى غرامته على عادته وخطف ما بين أيديهن من الحلاوى والفواكه ، ووضع الكل بين يدى نفسه ، والكل خائفات منه هائبات له ، فتعجب السلطان بايزيد بذلك ، وصار يتأمله جديداً ، وفى أثناء ذلك دار بينهم يعسوباً كبيراً أرادوا مسكه فعجزوا عنه ، وهو يلسع من يريد مسكه فيهابون منه ، فمد السلطان سليم يده ، وهو حوله فصاده بكفه ، ومرسه ، وخنقه ، ورماه من يده ، فازداد تعجب السلطان بايزيد منه ، وقال للنساء الواقفات : هذا لا يكون بنتاً ! اكشفوا لى عنه ، فبادرت القابلة وقالت : هذا صبى ، وليست ببنت ، فقال لها : وكيف خالفت أمرى وما قتلتيه ؟ فقالت : خفت من الله سبحانه وتعالى رب العالمين وخلصت ذمتى وذمتك من قتل معصوم ولا ذنب له ، فتفكر طويلاً ثم قال : ما قدر الله تعالى فهو كائن لا مفر عنه ، وأمر بالكف عنه ، وتربيته ، إلى أن كان ما كان بتقدير الله تعالى .

★ ★ ★

الفصل الثانى فى قتال شاه إسماعيل وانهزامه

هو : شاه إسماعيل بن الشيخ حيدر بن الشيخ خنيد بن الشيخ إسماعيل ابن السلطان خواجة شيخ على بن الشيخ صدر الدين موسى بن الشيخ صفى الدين إسحاق الأردبيلى ، وإليه ينسب أولاده ، فيقال لهم : الصفويون .

وكان الشيخ صفى الدين صاحب زاوية فى أردبيل ، له سلسلة فى المشايخ أخذ عنه الشيخ الزاهد قطب دائرة الوجود : عبد القادر الكيلانى ، وينتهى بوسائط إلى الإمام أحمد الغزالى ، وتوفى الشيخ صفى الدين فى سنة ١١٣٥هـ ، وهو أول من طهر منهم بطريق المشيخة والتصوف ، وأول من اختار سكنى أردبيل ، وبعد موته جلس فى مكانه الشيخ صدر الدين موسى ، وكانت السلاطين تعتقد فيه وتزوره .

وممن زاره والتمس بركته : تيمور لما عاد من الروم وسأله أن يطلب منه شيئاً ، فقال له : اطلب منك أن تطلق كل شيء أخذته من بلاد الروم سركنار فأجابه إلى سؤاله ، وأطلق السركن جميعهم ، فصاروا أهل الروم يعتقدون الشيخ صدر الدين ، وجميع المشايخ الأرده بيليين من ذريته إلى الآن .

وحج ولده سلطان خواجة على ، وزار قبر النبى (ﷺ) ، وتوجه إلى زيارة بيت المقدس ، وتوفى هناك وقبره معروف فى بيت المقدس ، وكان ممن يعتقده ميرزا شاه رخ تيمور ويعظمه ، فلما جلس الشيخ حينئذ : كان والده فى الزاوية بأردبيل كثير مريدوه ، وأتباعه فى أردبيل ، فتوهم منهم صاحب «أرد ريحان » يومئذ وهو : السلطان جهان شاه ابن فرا يوسف التركمانى مع طائفة قراقوا سلوا فأخرجهم من أردبيل ، فتوجه الشيخ حينئذ مع بعض مريديه إلى ديار « بكرلى » وانضر عنه الباقون ، وكان من أمراء ديار « بكرلى» يومئذ عثمان بيك بن فيلق بيك بن على بيك ، من طائفة « أق قوينلو ؛ جد أو رن حسن » بيك النابندرى ، وهو أول من تسلطن من طائفة أق قوينا ، وولى السلطنة منهم تسعة أنفس ، ومدة ملكهم اثنان وأربعون سنة ، وأخذ وملك

فارس من طائفة قوينلوا أول سلاطينهم : قره يوسف بن قره محمد التركمانى ومدة سلطنتهم : ثلاث وستون سنة ، وانقرض ملكهم على يد أوزن حسن بيك المذكور فى شوال سنة ٨٧٣ هـ .

وكان أوزن حسن ملكاً شجاعاً ، مقداماً ، مطاعاً ، مظفراً فى حروبه ، ميموناً فى نزوله وركوبه ، إلا أنه وقع بينه ، وبين السلطان محمد بن مرادخان حرب عظيم فى « فارت » ، فانكسر أودن حسن بيك ، وقتل ولده زينك بيك، وهرب هو وسلم من القتل ، وعاد إلى أدربانجان ، وملك فارس والعراقين .

ولما لجأ الشيخ « جينداق قوينلوا » ضاهره أوزن حسن بيك ولده وتزوج بنته خديجة بيكم ، فولدت له الشيخ حيدر ، ولما استولى أوزن حسن بيك على البلاد ، وطرد عنها ملوك قوينلوا وأضعفهم ، عاد الشيخ جيند مع ولده الشيخ حيدر إلى أردبيل ، وكثر مريدوه وأتباعه ، وتقوى بأوزن حسن بيك لأنه صهره، فلما توفى أوزن حسن بيك : ولى موضعه ولده السلطان خليل ستة أشهر ، ثم ولده الثانى السلطان يعقوب ، فتزوج بنته حليمة بيكم من الشيخ حيدر ، فولدت له شاه إسماعيل فى يوم الثلاثاء الخامس والعشرون من رجب سنة ٨٩٢ هـ ، وكان على يديه هلاك ملوك العجم طائفة « أف قونيلوا» وقرة « حصاد قونيلوا » وغيرهم من سلاطين العجم كما هو معروف مشهور.

وكان الشيخ حينئذ جمع طائفة من مريديه ، وقصد قتال كرجستان ليكون من المجاهدين فى سبيل الله ، فتوهم منه سلطان سروان أمير خليل شروان شاه، فخرج إلى قتاله فانكسر « جيند » وقتل ، وتفرق مريده ، ثم اجتمعوا بعد مدة على الشيخ حيدر ، وحسنوا له الجهاد والغزاه فى حدود كرجستان ، وجعلوا له رماحاً من أعواد الشجر ، وركبوا فى كل عود سناناً من حداد وتسلحوا بذلك ، وألبسهم الشيخ حيدر تاجاً أحمر من الجوخ ، فسماهم الناس « قز لباش » ، وهو أول من لبس التاج الأحمر لأتباعه ، واجتمع عليه خلق كبيرون ، فأرسل سروان شاه إلى السطان يعقوب بن أوزن حسن يخوفه من خروج حيدر بن الشيخ جيند على هذه الصفة ، فأرسل أميراً من أمرائه

اسمه سليمان بيك بأربعة آلاف نفر من العسكر ، وأمره أن يمنعهم من هذه الجمعية ، فإن لم يمتنعوا أذن لهم أن يقاتلوهم ، فمضى إلى الشيخ حيدر ، ومنعه من هذهي الجمعية فما أطاعوه ، فاتفق مع شروان الشاه فقاتلاه ومن معه ، فقتل الشيخ حيدر ، وأسر ولده شاه إسماعيل وهو طفل ، وأسر معه إخوته وجماعته ، وجاء بهم سليمان بيك إلى السلطان يعقوب ، فأرسل بهم إلى قاسم بيك القرمال ، وكان حاسم شر ، وأنه من قبل السلطان يعقوب وأمره أن يحبسهم في قلعة « إصطخر » ، وحبسهم بها ، واستمروا محبوسين فيها إلى أن توفي السلطان يعقوب في سنة ٨٩٦ هـ .

وولي بعده السلطان رستم ، ونازعه في سلطنته إخوانه وتفرقت المملكة ، واستقر في كل قطر من أولاد الشيخ يعقوب ، فهرب أولاد الشيخ حيدر إلى هيجان من بلاد كيلان ، وخرج من إخوان شاه إسماعيل خواجه شاه على بن الشيخ حيدر ، وجمع عسكراً من مريدى والده وقاتل بهم ، فقاتل فى أيام السلطان رستم بن السلطان يعقوب ، ثم توفى السلطان رستم ، وولى مكانه السلطان مراد بن يعقوب والونديك ابن عمه .

وكان شاه إسماعيل فى الأهجان فى بيت صايغ يقال : « نجمة ذوكة » ، وبلاد الأهجان فيها كثير من الفرق الضالة كالرافضة ، والحرونة ، والزيدية ، وغيرهم ، فتعلم بينهم شاه إسماعيل فى صغره مذهب الرفض ، فإنه وأباه كان شعارهم مذهب السُّنَّة السُّنَّية ، وكانوا مطبعين منقادين لسُنَّة رسول الله (ﷺ) ، ولم يظهر الرفض غير شاه إسماعيل ، وتطلبه من أمير الزند بيك جماعة وطلبوه من سلطان الأهجان فأبى أن يسلمه لهم ، وأنكر وحلف : أنه ما هو عندى ، ودوى فى يمينه ، وكان مختفياً فى بيت « نجمة ذوكة » ، وكان يأتيه مريد والده خفية ، ويأتونه بالنذور يعتقدون فيه ، ويطوفون بالبيت الذى هو ساكن فيه إلى أن أراد الله تعالى بما أراد ، وكثرت داعية الفساد ، واختلفت أموال العباد باختلاف السلاطين ، وكثرت الفساد بين العباد .

﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ (١) .

---

(١) الآية سبقت الإشارة إليها .

وحينئذ كثر أتباع شاه إسماعيل ، فخرج هو ومن معه والأهجان ، وأظهر الخروج لأخذ ثأر والده وجده في أواخر سنة ٩٥ هـ ، وعمره يومئذ ثلاثة عشر سنة ، وقصد مملكة الشروان لقتال شروان شاه قاتل أبيه وجده ، وكلما سار منزلاً كثر عليه داعية الفساد واجتمع عليه كثير إلى أ وصل إلى بلاد شروان وخرج لمقاتلته شروان بعساكره وقاتلهم ، وقاتلوه ، فانهزم عسكر الشروان ، وأسر شروان شاه ، وأتوا به إلى شاه إسماعيل ، فأمر أن يضعوه فى قدر كبير ويطبخوه ويأكلوه ، ففعلوا كما أمر ، وأكلوه ، وكان ذلك أول فتوحاته .

ثم توجه إلى قتال الوندبيك فقاتله ، وانهزم منه واستولى على خزائنه وأقسمها فى عسكره ، وصار يقتل من ظفر به قتلاً ذريعاً ولا يمسك شيئاً من الخزائن ، بل يفرقها فى الحال .

ثم قاتل مراد بيك بن السلطان يعقوب فهزمه فى الحال ، وأخذ خزائنه ، وفرقها على عسكره ، ثم صار لا يتوجه إلى بلاد إلا ويفتحها ويقتل جميع من فيها ، وينهب أموالهم ويفرقها إلى أن ملك تبريز ، وأدربايحان ، وبغداد ، وعراق العجم ، وخراسان ، وكان يسجد له عسكره ويأتمرون بأمره ، وقتل خلقاً كثيراً لا يحصون على ألف ألف نفس ، بحيث لا يعهد فى الإسلام، ولا فى الجاهلية ، ولا فى الأمم السابقة من قتل من النفوس من قتله شاه إسماعيل ، وقتل عدة من أعاظم العلماء ، بحيث لم يبق أحد من أهل العلم فى بلاد العجم ، وأحرق جميع كتبهم ، ومصاحفهم لأنها مصاحف أهل السنة ، وكلما مر بقبور المشايخ ينبشها ، ويخرج عظامهم ، وأحرقها ، وإذا قتل أمير من الأمراء باع زوجته وأمواله لشخص آخر .

● **ومن جملة مضحكاته :**

أنه جعل كلباً من كلاب الصيد أميراً ، وترتب له ترتيب الأمراء من الخدام والكواخي والسماط والكسلان والأوطاق والفرش الحرير ونحو ذلك .

وجعل له السلاسل من ذهب ومرتبة ومسندة يجلس عليها كالأمراء ، وسقط مرة منديل من يده إلى البحر ، وكان فى جبل شاهق مشرفاً على البحر

المذكور ، فرمى بنفسه خلف المنديل من عسكره فوق ألف نفس تحطموا وكسروا وغرقوا ، وكانوا يعتقدون فيه الأُلوهية ، ويعتقدون أنه لا ينكسر ولا ينهزم ، إلى غير ذلك من الاعتقادات الفاسدة ، حتى وصلت أخياره إلى السلطان سليم خان (عليه الرحمة والرضوان) تحرك فيه قوة العصبة العصبية وأقدم على نصر السُّنَّة الشريفة السنية .

وعد هذا القتال من أعظم الجهاد وقصد أن يمحو من العالم هذه الفتنة والفساد ، وينصر مذهب أهل السُّنَّة الحنيفة على مذهب أهل البدع والإلحاد ، ويأتى الله إلا ما أراد فتهيأ السلطان سليم بخيله ورجله وعساكره المنصورة ورجله وسافر لقتاله ، وأقدم على جلاده وجداله ؛ وهو بحر الجيش العرموم، ويصول بسيف عزمه ، ويقدم ويتقدم إلى أن تلاقى العسكران فى قرب بنزيز ، ورتب السلطان سليم عسكره ، وتنزل من عند الله الفتح القريب والنصر العزيز ، فتجالد الفريقان بجالدران وتطارد الفرسان يهدرون كالنجانى الفوائج فوق البحور الموائج ، وتصادمت فرسان الزحف والصيال تصادم أطواد الجبال، وصارت نجوم الأبطال رجوم البطش والقتال ، فزلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، وخليت المعركة سماغها من القطل وصواعقها بروق البيض من بريق الصقل ورعودها حليل السيوف ، فى أعناق الجحفل وغيوتها صبيب الدم من أوداج رؤوس تخر وتفصل ، وأحجار المدامع كجلمود صخر حطه السيل من أعلى إلى أن طارت قلوب العدا هواء وذهبت قواهم حياً ، وولوا على أعقابهم أدباراً ، وانهزم شاه إسماعيل ولم يجد له من دون الله أنصاراً ، وضاقت الأرض حتى أن هاربهم ، إذا رأى غير شىء ظنه رجلاً وقتل غالب جنوده وأمرائه ، وساقت العساكر المنصورية العثمانية من ورائه وكادوا أن يقبضوا عليه ففر من أيديهم وهم ينظرون إليه .

ونزل ما تجوله من يخمه من آثار تحملاته ، وكان لا نظير له ، فاغتنمه عسكر السلطان سليم ووطئت حوافر خيله أرض تبريز ونهى وأمر وقتل من أراد وأسر وأعطى الرعية تمام الأمن والأمان ، ونشر فيها أعلام الإيمان ، وأخذ من أراد منها من الفضلا الأفاضل والمتميزين فى الصنائع والفضائل ، وساقهم

يسركنا إلى اسطنبول على القانون ، وأراد أن يقيم فى تدبير الاستيلاء على إقليم العجم واليمن من تلك البلاد على الوجه الأتم ، فما أمكنه ذلك لكثرة القحط ، واستيلاء الغلا ، بحيث يبعث العليقة بما أُتى درهم ويبيع الرغيف بمائة درهم ؛ وسبب ذلك أن القوافل التى كانت أعدها السلطان سليم لأن تتبعه بالميرة والعليق والمون ؛ تخلفت عنه فى مكان الاحتياج إليها ، فما وجدوا فى تبريز شيءئاً من الماء كولات والجنوب لأن شاه إسماعيل عند انكساره أمر بإحراق والشعير وغير ذلك .

واضطر السلطان سليم إلى العود من تبريز إلى بلاد الروم ويتركها خالية خاوية على عروشها ، ثم تفحص عن سبب انقطاع القوافل عنه ، فأخبر أن سبب ذلك سلطان مصر قانصوه الغورى ، فإنه كان بينه وبين شاه إسماعيل محبة ومودة ومراسلات ، بحيث كان يتهم بالرقص فى عقيدته بسبب ذلك .

فلما ظهر للسلطان سليم خان أن الغورى هو الذى أمر بقطع القوافل عنه صمم على قتال السلطان الغورى أولاً ، وبعده الاستيلاء عليه وعلى بلاده ، يتوجه إلى شاه إسماعيل ، فلما استقر ركاب السلطنة الشريفة العثمانية فى تخت ملكه الشريف تهيأ لأخذ مصر وإزالة دولة الجراكسة وتوجه بعسكره الجرار ناحية حلب فى سنة ٩٢٣ هـ ، وخرج إلى قتاله قانصوه الغورى بجميع عساكره من الجراكسة وغيرهم .

وتلاقى العسكران قرب حلب بمرج دابق ، وكان الغورى يتوهم ويخاف على نفسه من ملك أمير أخير بيك وجان بردى بك الغزالى ، وكان يكرهانه فى الباطن ويكرهما كذلك فأمرهما أن يتقدما لقتال السلطان سليم وجعلهما وعسكرها حجاباً أمامه .

ووقف الغورى بخواص عسكره الذى يعتمد عليهم من الجلبان الذين أراد أن يقدمهم خلف خير بك والغزالى ، وقصد بذلك أن يقتلا بالبنادق والصربزن فى أول مرة ، ثم يسلم هو ومن معه ، وتفطن خير بك والغزالى وكانا أرسلا إلى السلطان سليم وطلبا منه كتاب الأمان وتوثقا منه لا يقتلهما ، بل يكرمهما

وينعم عليهما ، فأرسل السلطان سليم لهما بالأمان وعهد لهما بما يطيب خاطرهما ، وأن يوليهما مملكة مصر والشام فقبلا ذلك منه ووافقاه على ذلك بعد القتال ، فلما تلاقا العسكران واضطرمت نيران البنادق فى مرج دابق فر خير بك بمن معه من الميمنة ، وفر الغزالى ومن معه من الميسرة ، وبقى السلطان الغورى بمن معه من خواصه وجلسائه فى القلب ، وأطلقت البنادق والضريزن ، فهلك من هلك ، وهرب من هرب ، لا يدرى إيه سلك ، وانقلب النهار ليلاً مظلماً بالدخان وامتلأ وجه الأرض بشعل النفط والنيران وغار الغورى تحت سنابك الخيل .

ومحى نور العدل ظلام الظلم ، كما يمحى النهار الليل ، وذهبت قتلاهم الوحوش والطير كأن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، وأقبلت رايات السلطان سليم على قلعة حلبة الشهباء ، وقد احمرت من إسالة الدماء ؛ فطلب أهلها منه الأمان فأجابهم إلى القبول لطفاً وكرماً فخرجوا إلى لقائه بالمصاحف والأعلام، وهم يحمدون بالتسبيح والتكبير ، ويقرأون : ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ (١) .

فقابلهم بالإجلال والإكرام ، وأفرغ على أهلهم خلع اللطف والأنعام ، وتصدق بأنواع الصدقات الجلية على الخاص والعام ، وحضر صلاة الجمعة ، وخطب الخطيب باسمه الشريف ودعا له ولآبائه وأسلافه ، وبالغ فى المدح والتعريف .

ومما قيل : وما زاده للألقاب فخراً وسؤدداً بإطناب ذى مدح وإكثار مادح ، وعندما سمع السلطان سليم الخطيب يقول فى تعريفه خادم الحرمين الشريفين، سجد شكراً لله ثم قال : الحمد لله الذى يسر لى أن صرت خادم الحرمين الشريفين ، وأضمر خيراً جميلاً وإحساناً جزيلاً لأهل الحرمين الشريفين ، وخلع على الخطيب خلعاً متعددة وهو على المنبر ، فأحسن إليه إحساناً كثيراً بعد ذلك .

---

(١) الآية رقم ١٧ من سورة الأنفال ، مدنية .

وأقام بحلب أياماً يسيرة وهو على المنبر فأحسن إليه إحساناً كثيراً ، وهو يمهد الملك ويجرى أحكام العدل ويحسن إلى العرب ، ثم ارتحل بالجيش المنصور إلى الشام ، فخرج أهل الشام إلى لقائه ، وطلبوا منه الأمن والأمان واللطف والرحمة والاطمئنان ، فأجابهم إلى ما سألوه وبسط لهم ما طلبوه وأملوه فقبلوا الأرض بين يديه وبالغوا بالدعاء بدوام دولته والثناء عليه ، فخلع على كل من يستحق التشريف خلع الرضا والإكرام وألبسهم التشاريف الفاخرة كل بحسب حاله واستحقاقه .

ودخل إلى الشام بموكبه الكريمة وأقام به لتمهيد أمور المملكة برأيه الشريف القويم وخطب له الخطباد ، فخلع عليهم وأكرمهم وأحسن إليهم ، وقابل الناس بسن ضاحك ووجه متهلل مسرور أو جبيناً أغر يملأ الأرجاء ضياء ونوراً وأمر بعمارة قبة الشيخ الأكبر الأحمر مولانا الشيخ محيى الدين بن عربى (رضى الله عنه) ورتب عليه أوقافاً كثيرة ، وعمل له مطبخاً يطبخ فيه الطعام الفقر الشيخ المرحوم ، وجعل عليها متولياً وناظراً بجميع الريع والأوقاف ويصرفه فى جهات الخير ، ونظره من أعم الأنظار وبلاد الشام إلى الآن وما يسر الله تعالى أجراً مثل هذا الخير العظيم لأحد من ملوك الجراكسة ولا من كان قبلهم .

ولا شك أن روحانية الشيخ (رضى الله عنه) هى التى جلست السلطان سليم (طيب الله ثراه) إلى سلطنة بلاد العرب وحصل له الإمداد العظيم بالبركة والنصر والتأييد فى حصول ما أمله وطلبه .

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء بيده الخير وهو على كل شىء قدير ، واستمر السلطان سليم خان بأرض الشام إلى مهد أمورها وضبط حصونها وقصورها ، ثم توجه إلى افتتاح إقليم مصر ، وأزال البؤس عنها والأصر ، ولما وصل إلى خان يونس قبل فيه الوزير المعظم حسام باشا وكان من أهل الخير ، وله عمارة فى آف شهر يخرج منها الطعام للمسافرين دائماً ، واستمر السلطان سليم متوجهاً إلى مصر ، فوصل إلى بلاد غرة ، ثم عدل عنها بمفرده إلى زيارة القدس والخيل فى نفر قليل بقصد الزيارة ، فأحسن

إلى أهل القدس وأهل خليل الرحمن ، وعاد إلى عسكره وصار كلما مر ببلدة وقرية أو قصة فى طريقة أحسن إلى الرعاء ونظر بعين المعدلة والإحسان إلى البريا ، وأزال عن الضعفاء ظلم الظالمين ونشر العدل فى العالمين بقية السيف من الجراكسة ، وولوا عليهم الدودار الكبير مقدم ألف طومان باى ، ولقبوه الملك الأشرف ، واجتمعوا عليه ، وألقوا مقاليد سلطنتهم إليه ، وساروا بمواكبهم بين يديه ؛ وجندوا الجنود ، وعقدوا الألوية والبنود ، وبرزوا إلى الريدانية ؛ خارج مصر ، ونصبوا المدافع الكبار ، وملكوها بالبارود ، والأحجار ، وهيبوها ليطلقوها إذا أقبلت العساكر العثمانية ، فلما أخبرهم الجواسيس بذلك عدلوا إلى مسيرتهم ، وجاءوا من خلف جبل المقطم ، من وراء عسكر الجراكسة ، ورموا بالمدافع والمحامل والضريزانات على العجل ، واستمرت مدافع الجراكسة مركوزون لمن يأتى من أمام الريدانية بلا نفع ، ولا دفع ، وقاتل السلطان طومان باى ومن ثبت معه من أمراء الجراكسة ، قتالاً قوياً ، وأظهر طومان بأى شجاعة قوية ، عرف بها ، وشهد له المصاف وهو يغوص فى عسكر ويحمل ، ويكر ويفر ، وقتل من وراء السلطان سليم الأول فى ذلك اليوم سنان باشا وأسف السلطان سليم على شهادته .

ومن جملة نكاته قال : عندما أخبر بهروب عسكر الأعداء ، وأخذ مصر ، وقتل سنان باشا أى قائده فى مصر بلاد يوسف ، ووجه النكتة ؛ أن يوسف يلقب بسنان عزمهم ، وبعد أن ثبتوا ساعة ، انكسروا فهربوا وتفرقوا ، وتشتتوا ، وتمزقوا - وهرب طومان باى إلى البر ، ونزل على شيوخ عريان بنى حرام عبد الدايم بن بقر ، ودخل السلطان سليم إلى مصر ، ونزل فى ساحاتها فى الجزيرة الوسطى ، فطاف عسكره بالبلدان ، وأمنوا الناس ، وأزالوا عنهم الخوف والبأس ، ما عدا الجراكسة ، فإنهم إذا ظفروا بهم ربطوهم وأثوابهم إلى السلطان سليم خان ، فيأمر بضرب رقابهم ، وترمى جيفهم فى البحر النبيل ، وتجمع رؤوسهم أكواماً إلى أن عفنت الجزيرة بروايح القتلى ، فانتقل السلطان سليم إلى المقياس ، وأمر أن يبنى له فى علوه كوشكاً عالياً ؛ سكنه مدة إقامته بمصر ، هرباً من عفونات أشلاء القتلى .

ثم أن شيخ العرب عبد الدايم بن بقر يقرب إلى خاطر السلطان سليم ، وسلم إليه السلطان طومان باى أسيراً ، وأنعم على شيخ بالخلع ، والتشاريف والإنعامات السلطانية وحبس طومان باى عنده ، وأراد أن يكرمه ، ويجعله نائباً عنه بمصر إذا برز عنها ، وصار يحضره فى مجلس الصحبة ، ويستخبره عن الأمور والأحوال ، فأرجف أهل مصر عن طومان باى ، أنه لم يقع فى الأسر ، وأنه ايختفى ، وأنه يجمع عسكراً ، وينتهز الفرصة ، وأنه شجاع لا يطاق ، ولا يقدر أحد على مسكه .

فبلغ السلطان سليم خان الرجيف ، ورأى الفتنة لا تسكن ما دام طومان باى محبوساً ، فأمن أن يركب على بغلة ، ويحلف بالعسكرة من البنكحرية ، ويمضى به إلى باب زويلة ، ويصلب فيه ، ليراه الناس بأعينهم ، ويصدقون بأنه مسك ، وصلب على باب زويلة لإحدى عشر ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ .

ثم ولى القضاة الأربعة على المذاهب الأربعة بمصر ، وهم قاضى القضاة جمال الدين الطويل ولاه قضاة الشافعية ، وقاضى القضاة نور الدين على بن بسينى الطرابلسى الحنفى قاضى الحنفية ، وقاضى القضاة الدمير المالكى ؛ قاضى المالكية ، وقاضى القضاة شهاب الدين أحمد النجار الحنبلى ، وولى ملك الأمراءِ خير بك على مصر المحروسة ، وولى جان بردى الغزالى الشام ، كما وعهدهما بذلك ، ومهد الأمور ، وسار إلى أسكندرية ، وعاد من مصر ، ثم إلى تخت القسطنطينة العظمى فى يوم الخميس ؛ لخمس بقين من شعبان سنة ٩٢٣ هـ .

وأخذ معه كثيراً من أعيان الناس سركنا إلى الروم كما هو قانونهم ، ووصل إلى تخت ملكه ، ومقتر سلطنته مظفراً منصوراً وشكر الله وحمده على نصرته ، وتأييده .

وكان عبداً شكوراً ، وافتقد خزائنه فوجدها قد انصرف غالبها ، فإنه قد أصرف فى هاتين السفرتين ؛ وهما السفر إلى بلاد قزلياس ، والسفر إلى إقليم مصر خزائن عظيمة مما جمعها آباواه وأسلافه ، فلما أراد سفراً ثالثاً إلى بلاد

العجم لقطع مجادرة طاف القزلياس ، رأى ما بقى فى خزائنه لا يفى بتلك المصرف فتاخى لتجتمع فى خزائنه مما يجمع له من خراج الأرض ، وقد لا يفى بالمراد ، ويأبى الله إلا ما أراد ، وقيل : ما كل يتمنى المرء يدركه ، تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن ، وظهر فى اثنا ظهره جراحة منعته الراحة ، وحرمت منه الاستراحة وعجت فى علاجه ؛ خداق الأطباق ، تجبر فى دائه ؛ عقول الألباب وعظم الجراح ، وكثر القراح ، واتسع الحرق ، والتهب القزح وكانت توضع الدجاجة فى جرحه ؛ فتذوب بحره ، وشوهدت معاليق أكباده فى جوفه من خلف وراء ظهره ، وأثبت المنية أظفارها فيه ، فما نفعه التمائم والرقاد ، وفداه بالأموال ، والأرواح ، فما قبل الفدا وقيل :

ولو قبــل الفـدا لكان يفـــدى ... وإن حصل المصاب على النقاد
ولكــن المنـــون لهـــا عـيون ... نكد لحاظهـــــا فى الانتقـاد
فقل للدهر أنت أحيت فالبس ... برغم بينـك أثـواب الحـــداد

فقضى نحبه ولقى ربه ، ومضى سليم بقلب سليم، قادماً على ربه الكريم، الغفور الرحيم ، وتبوأ مقعدة من سرير الملك نجله الوارث ، السعيد كذلك يؤتى الله الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء وهو الفعال لما يريد .

وكانت وفاته (رحمه الله تعالى) وأسكنه غرف الجنان ، وأنزل عليه شبائب المغفرة والرضوان ، فى سنة ٩٢٦ هـ .

★ ★ ★

الفصل الثالث

فى بيان ما عمره السلطان سليم فى الحرم الشريف ، وبعض إحسانه إلى أهل الحرمين الشريفين فى أيام سلطنته ، وكان (رحمه الله تعالى) كوالده كثير المحبة لأهل الحرمين الشريفين حسن الالتفات إليهم ، كثير الأحسان والعطف ، وضاعف الصدقة الرومية التى كان يجهزها لهم والده ، ويكرم من قدم عليه منهم أتم إكرام ، ويحسن إليهم أعظم إحسان وإنعام ، فوصلت

صدقاته الرومية ، ووصل معها دفتر الصير على حكم ما فرده والده المرحوم لأهل الحرمين ، فى أول سلطنته عام ٩١٨ هـ .

وتضاعف الدعاء له بالحرمين الشريفين ، وسافر إليه جماعة منهم من أهل مكة : الخطيب محيى الدين العراقى ، فحصل له منه إنعام جزيل ، وخير جميل ، ورتب له فى دفتر الصرمائة دينار ذهب ، وفرح ممن قدم عليه من الحجازيين ، وأنعم على كل أحد يحبه .

وكان يرسل الصدقات الرومية كل سنة ، فلما افتتح مصر ، وجد بها من قضاة مكة ، قاضى القضاة صلاح الدين محمد بن أبو السعود بن إبراهيم بن ظهيرة .

وكان السلطان الغورى حبسه بمصر من غير ذنب للطمع فيه ، ولما خرج بعساكره من مصر إلى مرج دابق ، أطلق كل من فى حبسه أرباب الجرائم ، إلا القاضى صلاح الدين ، فإنه أبقاه فى الحبس ، فلما انكسر ، وقتل فى مرج دابق ، وتوجه السلطان طومان باى إلى الحبس وأطلقه ، فلما وصل السلطان سليم إلى مصر ، جاء إليه القاضى صلاح الدين فأكرمه وعظمه ، وخلع عليه وجهزه إلى مكة ، معزوزاً مكرماً ، مع الإحسان إليه .

وكان بمصر جماعة من الحجازيين ؛ أحسن إليهم كلهم ، وأكرمهم وولى أمانة بندر جده لتاخى اسمه الخوجا قاسم الشروانى كان مقيماً بمكة ، ثم سافر إلى مصر ، فصادف دخول السلطان سليم إلى مصر فخدمه ، وتقرب إلى خاطره الشريف فأرسله إلى مكة أميناً فى بندر جده ، أميراً عليها ، فوصل إليها وتمكن من البندر ، وأرسل السلطان من أمرائه إلى مكة ؛ الأمير مصلح الدين بيك بالصدقات الرومية ، وبكسوة الكعبة ، ومحمد شريف رومى ، فوصل فى صحبة أمير الحاج المصرى المقر العلاى بالمجل الشريف المصرى على المعتاد وبرز شريف مكة يومئذ مولانا السيد بركات بملاقات المحملين إلى سبيل جوخى ، وهو والد سيدنا ومولانا الشريف جمال الدين محمد يونمى (أطال الله عمره الشريف) .

ولبس الخلع الشريف السلطانة ، وسار إمام المحملين ؛ المصرى والرومى ، بأعلامها وطبولها ، واستمر فى ذلك الموكب إلى أن فارق المحملين ، وأمير الحاج ، والأمير مصلح الدين من عند باب السلام ، وأدخل المحملات إلى الحرم الشريف عند باب السلام ، وأدخل المحملات إلى الحرم الشريف ووضعا على يمين مدرسة الأشرف قايتباى ، ونزل أمير الحاج المصرى فى مجمع البرقية ، على يمين الخارج من باب الصفا ، وهو رباط صاحب كالبركة من ملوك الدكن، وقد هدمت الآن مع باقى ذلك الجانب من البيوت، والمدارس الملاصقة بجدر الحرم الشريف توسيعاً بطرف السيل ودفعاً لضرر دخوله إلى المسجد الحرام من ذلك الجانب دانراكم السيل ، وكان هدمها بالأمر الشريف السلطانى فى سنة ٩٨٤ هـ .

وفرقت الصدقة الرومية فى يوم الجمعة لأربع مضين من ذى الحجة سنة ٩٢٣ هـ فى الحرم الشريف على الفقراء ، وقرر جماعة من المجاورين لكل شخص مائة دينار ذهب ، منهم مولانا نور الدين حمزة بن القاضى مصطفى القرمانى ، ومولانا القاضى زينبي الدين على القرمانى ، وقرر باسم سيدنا ومولانا الشريف أبى نمى (أطال الله تعالى عمره الشريف) خمسمائة دينار ذهب ، فى أول دفتر الصدقات باقية إلى الآن باسم الشريف ، تقبض له فى كل عام ، وفرق بعده هذه الأخيرة صدقة ، كانت تجهز من خزيمة مصر من قبل ملوك الجراكسة ، أبقاها السلطان سليم على حالها ، وأجراها فى كل عام من خزيمة مصر ، تفرق على فقراء الحرمين ، وعلى مشايخ العرب ؛ أرباب الله ، فى طريق الحج ، وهى مستمرة إلى الآن .

وفرقت الصدقات المصرية التى تجمع من أوقاف الحرمين بمصر وتجهز إلى الحرمين الشريفين ، ويقال لها : المهر الحكمى ، وهو أيضاً باق إلى الآن ، وأنه تقهقر وتضعف ، وصار لا يصرف على حكم الربع والخمس ، لضعف الأوقاف المصرية ، واستيلاء الأكلة عليها ، ودخول الظلمة فيها (أحيى الله من أحياها) ، (وأنمى حياة من عمرها ونماها) .

وبعد الفراغ من توزيع الصدقات ، قربت ختمة شريفة فى الحظم الشريف

حضرها الأمراء والقضاة ، والفقهاء والأعيان باسم السلطان سليم ، وأهديت إلى صحائف الشريفة ثوابها ، وقرر للإمام مصلح الدين ثلاثين نفرا يقرأ كل واحد منهم جزءاً شريفاً فى كل يوم يكمل بهم ختمه كاملة ، يهدى ثواب ذلك إلى السلطان سليم خان .

وقرر لهم مفرق الأجزاء ، وداعياً وحافظاً للأجزاء ، وجعل لكل واحد منهم اثنى عشر ديناراً ذهب ، فى دفتر الصدقات الرومية ، يصل إليهم فى كل عام ، ثم جمع طائفة من الفقراء وأعطى لكل نفر ثلاثة دنانير ذهب متفرقة ، وكتب أسمائهم فى الدفتر ، ثم كتب بيوت فقهاء مكة المشرفة ، وكتب أسماء من فى البيوت ، وعين لكل نفر منهم ثلاثة دنانير ذهباً ، وألحق ذلك فى دفتر الومية ، وسماها البيوت ؛ وهى باقية إلى الآن ، ثم كثر عليه الفقراء ، فجمعهم فى حوش كبير ، وأعطى لكل واحد دينارين ذهب ، وسماهم العامة ، وكتب أسمائهم وألحقهم بالدفتر .

وهذا الترتيب كله باق إلى الآن ، وثوابه لمن أسس هذا الخيرات ؛ جارياً فى صحائف حسناته إلى يوم القيامة ، ثم خطب الخطيب شرف الدين يحيى النورى خطبة التروية ، فى سابع ذى الحجة ، وفى ظهر اليوم الثامن توجه الناس إلى عرفات ، وتوجه الأمير مصلح الدين بالمحل الرومى ، وتوجه المقر العلاى بالمحل المصرى ، إلى عرفات ، وصلوا فى اليوم التاسع صلاة الظهر والعصر جمعاً بينهما بعد الزوال ، بعد أن خطب الخطيب فى مسجد نمره ، ثم شرعوا فى الوقوف فى ذيل جبل الرحمة وعرفة .

ووقف بين يديه الأمير مصلح الدين بالحمل الرومى ، والأمير الحاج المصرى بالحمل المصرى ، ولم يصل فقى ذلك العام الحمل الشامى ، ودعا الخطيب للسلطان سليم خان ، وكذلك سائر الحجاج ، وأفاض الإمام وأفاض الناس معه .

وكانت الوقفة الشريفة يوم الأربعاء المبارك ، وباتوا بالمزدلفة ، ثم أفاضوا بعد فجر يوم النحر إلى منى ونزل شيخ الكعبة من منى فى يوم النحر ، ونزل

معه الأمير مصلح الدين لأوامر بعض الأوامر السلطانية ونفاذها ، ولإيصال الخير والإحسان إلى الفقراء ، واستجلاب الدعاء من الصلحاء ، بنصرة السلطان سليم خان ودوام سلطنته .

وفى ليلة الجمعة فى أواخر ذى الحجة ، طلب بعض الأولياء الصالحين ، والعلماء العاملين منهم : مولانا الشيخ عبد الكريم ابن الشيخ يسين الحضرمى والشيخ عبد الله بن أحمد ياكيثى الحضرمى ، وشيخنا محمد بن عبيد الحطاب المالكى ، ولده شيخنا الشيخ محمد بن عبد الرحمن الحطاب المالكى ، والشيخ أيوب الأزهرى ، وجماعة من الصلحاء ، وحضر لهم دواباً يركبونها إلى التنعيم عند مساجد السيدة عائشة (رضى الله عنها) .

وركب معهم وأشار عليهم أن يعتمروا عن والدة السلطان سليم خان ، فأحرم كل واحد منهم بالعمرة عن المرحومة ، ولبى عنها وعادوا إلى الكعبة الشريفة ، فطافوا وسعوا ، وحلقوا ثم أهدوا ثواب تلك العمرة إلى صحابيها ثم أحسن إليهم ورتب لهم الصر فى دفتر الصدقات فدعوا له ولها وللمرحوم والدها السلطان الأعظم سليم خان ، ثم وصل من بندر السويس إلى بندر جده بحرا سقاين مسماريه فيها حبوب للصدقات السلطانية لأهل الحرمين الشريفين ، جهزها الأمير خير بك نائب السلطنة الشريف بمصر بأمر السلطان سليم ، وهى سبعة آلاف أردب حب فيها ؛ ألفى أردب لأهل المدينة الشريفة وخمسة آلاف أردب لأهل مكة ، ووصل الأمر الشريف السلطانى أن يوزع ذلك الأمير مصلح الدين ، فجلس فى الحرم الشريف ، وطلب قاضى القضاة شيخ الإسلام ؛ مولانا القاضى صلاح الدين بن ظهرة الشافعى ، والقضاة الثلاثة الحنفى والمالكى والحنبلى ، ونائب جده ، الأمير قاسم الشروانى ، وبقية الفقهاء الأعيان .

وقرأ عليهم المرسوم السلطانى ، واستأذنهم فى توزيع ذلك ، وذكروا أنه لابد من عروض ذلك على شريف مكة سيدنا ومولانا السيد الشريف بركات ، وأخذ رأيه العالى فى ذلك ، فكتب إليه ساعياً ، وكتبوا إليه صورة الأمر الشريف .

واستدعوا رأيه العالى فى ذلك ، فكتب إليهم الجواب بالمبادرة إلى امتثال الأمر السلطانى أن يوزع ذلك ، مما وصل من حب الصدقات الشريفة من المستخفين ، بحسب اتفاق الأرامن أعيان أهل المجلس .

واجتمعوا ثانياً بعد وصول الجواب ، واتفق رأيهم على بيع شيء من ذلك الحب ليصرف فى نقله من جده إلى مكة ، وبأن يكتب أسامى الناس على العموم ، ويصرف إلى كل واحد ما يخصه من الحب ، وما يخصه من ثمن ما باعوه ، بعد استيفاء المصالح .

وأمر شيخ الإسلام الصلاحى أن يباشر كتابه دفتر ذلك ورقم أسامى الناس الشيخ رضى الدين الحناووى الشاهد العدل الكبير الشهود العدول فى باب السلام المكى ، فكتب كل محلة ، وكتب ما فى كل بيت فى أعداد الأنفار ؛ رجالاً ونساء ، وأطفالاً وخدماً ، ما عدا التجار والسوقة والعسكر ، فكانوا اثنى عشر ألف نفر ، فخص كل نفر ست رباعى بكيل الربع الكبير ، الذى هو أربع كيل عن أربع وعشرين قدحاً بالكيل المصرى المستمر الآن ، وأن يدفع ذلك لكل نفر دينار ، فوزع ذلك جميعه على هذا الوجه ، ثم جعل لكل واحد من القضاة الأربع ثلاث أرادب .

فزيد فى أسماء بعض البيوت بحسب الاغتنا بشأن كبير البيت ، وهذا أول صدقات الحب الشريف السلطانى ، واستمر إلى الآن وتزايد على ما كان ، بحيث كان سائر فقهاء مكة والمجاورين يتعيشون بوصوله هذا الحب إليهم .

أما فى جميع السنة وأكثرها فلو فقدوا ذلك والعياذ بالله تعالى ، هلكوا وكذلك يرتققون فى الصدقات الرومية وغيرها مما كان بسبب الأنعام عليهم سلاطين آل عثمان (نصرهم الله وخلد ملكهم السديد ، وطوق بقلائد إحسانهم العبيد أعناق خدام الله الرعايا فى الأحرار والعبيد) أقامت فى الرقاب لهم أيادى هى الأطواق والناس الحمائم ، فيجب على كافة الإسلام عموماً وعلى أهل الحرمين الشريفين خصوصاً الدعاء بدوام سلطنة ال عثمان (خلد الله سلطنتهم) مر الزمان ، فإن دولتهم الشريفة هى عماد الإسلام ،

وإحسانهم متواصل إلى كافة الأنام ، سيما جيران بلد الله الحرام ، وجيران نبيه الأطهر (عليه أفضل الصلاة والسلام) .

فإنهم فازوا بإنعاماته الوافرة فى أيام هذه الدولة الزاهرة ، وحازوا من الصدقات المتكاثرة فى نوبة هذه السلطنة القاهرة ، ما لم يتصوره من الدول الماضية العابرة ، فالله تعالى يديم علينا سلطانهم ، كما دام علينا بركتهم وإحسانهم ، ومما جدد الأمير مصلح الدين المذكور بنا مقام الحنفية ، فإنه كان مسقفاً على أربعة أعمدة فى صدر محراب عمل فى سنة ٩٠١ هـ ، فأراد أن يوسعه ويجعله قبة فأمر بعقد مجلس ، حضر فيه القضاة الأربعة والأئمة والعلماء والأعيان ، وقال لهم : إن الإمام الأعظم أبا حنيفة النعمان ، روح الله تعالى ، روحه الشريف بروائح الروح والريحان ، والرحمة والرأفة والرضوان ؛ جدير بأن يكون له فى هذا المسجد مقام ، يجتمع فيه أهل مذهبه ومقلدوه ، ويكون أوسع من هذا المقام .

فذكر بعض العلماء أنه لا شك فى عظم كل واحد من الأئمة (رضوان الله عليهم أجمعين) ، غير أن تعدد المقامات فى مسجد واحد فى استقلال أهل كل مذهب باء مام ما ؛ أجازه كثير من العلماء ، وأن تعدد هذه المقامات فى وقت حدوثه ؛ أنكره العلماء غاية الإنكار فى ذلك العهد .

ولهم فى ذلك العصر رسالات متعددة باقية بأيدى الناس إلى الآن ، وأن علماء مصر ، أفتوا بعدم جواز ذلك ، وخطئوا من قال بجوازه ، ثم انقض المجلس على غير اتفاق .

ثم ذكر القاضى بديع الزمان الضياء الحنفى أنه جده القاضى أبا البقاء بن الضياء أفتى بجواز هلك ، فشرع الأمير مصلح الدين فى إتمام ما قصده ، وهدم تلك السقيفة ، ووسع المكان ، وعمل قبة ـن الحجر الأصفر والأحمر الميس ، وأصرف على ذلك ذهباً كثيراً .

واستمر مقاماً يصلى فيه الحنفية بالحنفيين إلى أن غيره الأمير خوش كلدى أمير بندر جده ، وهدم وبنى المقام مربعاً ، ذا طبقتين ، جعل الطبقة العليا

للمكبرين ، ليصل آذانهم إلى سائر المسجد الحرام ، لارتفاع مكانهم ، وهو باق إلى الآن على هذا الحكم .

وبعد فراغ الأمير مصلح الدين من بناء القبة توجه إلى المدينة الشريفة بما معه من الصدقات الرومية ، وتصدق بها على جيران النبى (ﷺ) وكتب دفتر بأسمائهم ، وأحسن إليهم إحساناً وافراً ، واستجلب الدعاء منهم للمرحوم السلطان سليم خان ، ثم توجه إلى الينبع ، وركب البحر إلى مصر ، ثم إلى الروم ، وأبقى ذكراً جميلاً ، وحصل ثواباً جزيلاً (رحمهم الله تعالى رحمة واسعة) آمين ، آمين ، آمين .

★ ★ ★

الباب الثامن

فى دولة السلطان المحفوف بالرحمة والرضوان السلطان الأعظم سليمان خان وبعض ما فعله من المآثر الحسان والصدقات الجارية والخيرات الباقية على صفحات الجارية والخيرات الباقية على صفحات الزمان سقى الله عهده سحائب الرضا والغفران

كان سلطاناً سعيداً أيده الله - تعالى - لنصره الإسلام تأييداً ولى السلطنة بعد وفات والده المرحوم السلطان سليم خان فى سنة ٩٨٢ هـ ، فجلس على تحت السلطنة ، ولا أدمن أنف أحد ، ولا أريق فى ذلك محجمه من دم ؛ ومولده الشريف سنة تسعمائة ، كذا ذكره مولانا محمد بن خطيب قاسم الرومى ؛ فى حاشية كتاب له مختصر من (ربيع الأبرار) للزمخشرى ، سماه (الروضة) ، ورأيت ذلك بخط طائفة من الفضلاء المعتمدين ، فيكون سنة الشريف حيد ولىّ السلطنة ستاً وعشرين ، واستمر فى السلطنة تسعاً وأربعين سنة .

وكان عمره أربعة وسبعين سنة وشهرين ، وهو سلطان غاز فى سبيل الله ، فجاهد لنصرة دين الله ، رغم أنوف عداه بلسان سيفه وسنان قناه ، وكان مؤيداً فى حروبه ومغازيه ، مسدداً فى رأيه ومغازيه ، مسعوداً فى معانيه ومغانيه ، مشهوداً وقائعيه ومراميه ، إيان سلك ملك ، وأنى توجه فتح ، وفتك فأين سافر وسفك .

وصلت سراياه إلى أقصى الشرق والغرب ، وافتتح البلاد الشاسعة الواسعة بالقهر والحرب ، وأخذ الكفار والملاحدة بقوة الطعان والضرب ، وأيد الدين الحنيفى بحدود سيفه الباتر ، وأقام الحنيفية ، وأحيى مالها من مأثر ، ونصر

مذهب أهل السنة السنية ، وأظهر شرائع الشعائر ، ودفع أهل الإلحاد وقمعهم فمالهم من ناصر .

وكان مجدد دين هذه الأمة المحمدية فى هذا القرن العاشر مع الفضل الباهر والعلم الزاهر والأدب الفض ؛ الذى يقصر عن شأنه كل أديب وشاعر ، إن نظم نضد عقود الجواهر أو نثر نثر منثور الأزاهر ، ونطق قلائد الأعناق نفائس الدر الفاخر ، له ديوان فائق بالتركى ، وأخر عظيم النظر فارسى يتداولهما بلغاء الزمان ، ويعجز أن ينسخ على منواله فضلاء الدوران ، تتناقله الركبان بكل لسان وتستلذ بمعانيه العقول والأذهان .

وكان رؤفاً شفوقاً ، صادقاً صدوقاً ، إذا قال صدق ، وإذا قيل له صدق لا يعرف المكر والنفاق ، ولا يألف مساوئ الأخلاق ، بل هو صافى الفؤاد ، صادق الاعتقاد ، منور الباطن كامل الإيمان ، سليم القلب خالص الجنان ، ولا يرتاب فى كمال ديانته ، ولا يشكل فى صلاحه ولا فى ديانته ، ولا تناهيت فى ثنائه محاسنه إلا وأكثر ما قلت مما ادع ، وقد أهلنى الله لئن قبلت يده الشريفة وتشرفت برؤية طلعتة المنورة اللطيفة .

وشاهدت ذاته العلية المنيفة ، فرأيت نوراً يتلألأ وهيبة ألبسها الله مهابة وجلالاً ، وجبيناً يتضوع ضيئاً وجمالاً ، وألبسنى تشريفة الشريف وشملنى بإحسانه الوافر المنيف ، فها أنا أتقلب إلى الآن فى جزيل إنعامه ، وأعيش إلى الآن فى فائض تفضلاته وإكرامه ، وأترحم على ذاته الطاهرة الجميلة ، كلما تذكرت إحسانه وجميله ، وأخلد ذكره فى الحسن فى أطباق أوراق الليل والنهار ، وأرقمه فى صفحات دفاتر الأيام ، حيث لا يمحوه كرور الدهور والأعصار ، لا تريد الأيام إلا حدة ولا يزال غضاً طرياً ، جديد البراعة والعبارة .

★ ★ ★

فصل فى ذكر أولاده والأمجاد الكرام وأحفاده النجباء العظماء

كان أكرمهم وأمجدهم وأعزهم وأسعدهم وأنجبهم وأرشدهم ولى عهده وخلاصه عصره وربيب حجره ومهده مشدد أساس الملك العثمانى السلطان سليم الثانى .

أجلسه الله على سرير القرب والتدانى وعوضه ملك الفردوس الباقى عن سلطنه هذا الملك الفانى ، مولده سنة ٩٢٩ هـ كما يأتى فى محله .

ومنهم السلطان السعيد الشهيد السلطان مصطفى ، وهو أكبر أولاده مولده سنة ٩٢١ هـ ، استدعاه والده من المحل الذى ولاه ، وهو مغنياً إلى أرجلى ، وهو متوجه إلى تبريز لأخذ بلاد العجم ، فوصل إليه متمثلاً أمره ، باذلاً نفسه .

وكان والده يتوهم منه خروجه عليه ، فلما حضر بين يديه ، أو طائفة من البكمان بحتفه ؛ فخنق حبراً وجبل قهراً فى أواخر شوال سنة ٩٢٦ هـ ، وألطف ما قيل فى تاريخه ظلم بنى جذر آخر شوال ، ثم أرسل إبراهيم باشا الخادم إلى بروسا لقتل ولد له طفل اسمه مراد ، فمضى إليه وضفه وألحقه بوالده (رحمه الله) .

ولم يرتكب السلطان سليمان هذا الأمر الفظيع الذى قطع القلوب أى تقطيع إلا لتسكين الفتن ، وأطفأ نار المحن ما ظهر منها وما بطن ، صوناً لدماء المسلمين ، وحفظاً لنظام التأمين والتطمين .

وأولاده التسعة : السلطان محمد مولده سنة ٩٢٦ هـ ، وتوفى على فراشه بأجله فى سنة ٩٣٢ هـ ، ومنهم السلطان السعيد الشهيد الغريب الشديد السطان أبا يزيد ، اجتمعت به مجداً واحداً فى رحلتى الثانية سنة ٩٦٥ هـ .

وقد استدعانى وأنا مار عليه بقرب كوتاهية فى قرية يقال لها : « أنوك » ، وكان الأمر مفسر بعد بينه وبين والده المرحوم ، فعدلت إليه وحضرت بين يديه وأقبل علىّ بكليته وأقبلت عليه وعظمتى وعظم أمرى ، وكرمنى فوق قدرى ، وباسطنى وخاطبنى بدون واسطة ، وأجلى مجلسه إلىّ وحدى ولم يترك فرعاً من الفروع التى أراد كشفها وتحققها إلا سألنى عنها بلطف ومودة ؛ فأجبته عن ذلك بأدب وسكون وملاحظة وأدرجت فى أثناء ذلك نصائح تصلح للملوك ، وهو يصغى إليها ويحسن فى الإصغاء إلى سماعها ، ويتفكه ويتلذذ سماعها ، وسألنى فى الإقامة عنده لمصاحبته ، فاعتذرت إليه وكرر ذلك فأبيت ، وكتان

الخير فى ذلك ، وكلما طال المجلس استأذنت للقيام فيأبى علىّ ويقول : وما أسرع ما مللت حديثنا ونحن نستطيب حديثك .

وكان أول المجلس من صلاة الظهر واستمر إلى العصر ؛ فألبسنى تشريفه وأحسن إلىّ بأثواب صوف ودراهم لها صوره ، وفارقته ودخلت أسطنبول .

وتوفيت والدته السلطانة أم السلاطين الخاصكية بعد دخولى وحضرت جنازتها وما أجرى من الصدقات عليها وكانت هى الطلسم للسلطان بايزيد ، فلما توفيت خلى الشأن بينه وبين أخيه سليم خان ، أدى إلى فتن عظيمة ومحاربات ، قتل فيها نحو خمسين ألف فصاعداً ، ثم لما عجز عن مقاومة والده وأخيه هرب إلى شاه طهماست ؛ ففرح له وأقام ناموسه ، وعجز عن حفظه ، فشرعت طهماست فى المكر والخداع ، وتفريق عسكره والاغترار ؛ لضعف بلاده عن أن تسعهم ؛ ففرقهم ، ثم استولى عليه وحبسه هو وأولاده، وقتل عسكره واحداً بعد واحد ، واغتنم منهم مالاً كثيراً وترددت الرسل بينه وبين السلطان سليمان فى تسليمه لوالده ، فلما تأكد طلبه من طهماست .

ذكر أنه أصرف عليه خزينة مال ، وأنه لا يسلم إلا بأن يعطى له ؛ فسئل عن كيفية ذلك ، فذكر مقداراً عظيماً يكون قدر خراج مصر سنة ، فأمر السلطان سليمان بدفع ذلك القدر ؛ فلما تسلمه أحضر السلطان بايزيد وأولاده الأربع ، وكل واحد كالبدر الطالع والنجم الساطع ؛ فخنقوا مع والدهم بادراه الرهق حتى لم يبق فيهم رمق ؛ وأخمدوا أنفاسهم بالأوتاد ، وأطفئوا تلك الأنوار ، رزقوا الشهادة بالاضطرار ، وهم : السلطان أورخان ، والسلطان محمود ، والسلطان عبد الله ، والسلطان عثمان ، وحملت أجسادهم فى توابيت من قزوين إلى سيواس ، ودفنوا فى سيواس ، وأسكن الله الفتنة والوسواس ، وذلك فى سنة ٩٧٠ هـ .

وكان للسلطان بايزيد ولد صغير فى بروسا ، فأمر بخنقه فخنق ، والله - تعالى - يبل مضاجعهم بأقطار أمطار الرحمة والرضوان ، ويعوضهم عن شبار الجنة ، ويروح أرواحهم فى عرف الجنان بالروح والركان ، والحور والولدان والخيرات الحسان .

ومنهم السلطان جهانكير مولده سنة ٩٣٧ هـ ، وكانب أحدب ظريف لطيف الروح ، يحبه والده ولم يفارقه إلى أن توفى بأجله فى حلب بمرض الخناق فى سنة ٩٩٦ هـ ، ونقل إلى أسطنبول ودفن فى تربة أخيه السلطان محمود الشهير الشاه أده .

ومنهم الشاه زاده السلطان مراد توفى بأجله فى سنة ٩٣٧ هـ - رحمه الله تعالى عليه ورضوانه - آمين .

ومنهم الشاه زاده محمود توفى بأجله فى سنة ٩٣٨ هـ ، وهذا والذى قبله مدفنونان فى تربة السلطان سليم الكبير جدهما (رحمه الله تعالى) بمنه وكرمه آمين .

ومنهم الشاه زاده السلطان عبد الله ، توفى بأجله فى سنة ٩٣٢ هـ ، وتوفت والدة السلطان سليم خان فى سنة ٩٦٤ ، وكانت صالحة زاهدة محبة لفعل الخيرات ، كثيرة الصدقات أسكنها الله تعالى أعلى فراديس الجنان .

★ ★ ★

(فصل في ذكر وزرائه العظام)

كان أول وزرائه أصفى زمانه بزوجمهر أوانه معدن الرأى والدهاء ، موضع العقل والنهاية محمد الجمالى الصديقى المعروف بيرى باشاه ، صادقه وزير الوالدة ؛ فأبقاه على وزارته مدة ، وكان السلطان سليم يتبع فى أول سلطته طوائف العلماء المتميزين بكمال العقل والأطهار الرأى ، فلم يجد أكمل عقلاً منه ، وكان قاضياً فى بعض القضيات ؛ فقربه وولاه وزارته العظمى ، واستمر فى سلطنته وزيراً عنده لم يغيره ، وسلم من فتكه لكمال درسه مع كثرة قن قتل من الوزراء ، وكان كاملاً فاضلاً متين الرأى عاقلاً ، يُضرب المثل بفراسته وعلمه وعقله وحلمه .

فلما وزّر السلطان سليمان رأى فى خدمته من شباب ممالكه من هو مثابر على الوزارة طائياً إليها بجناحه ، ورأى سلطاناً شاباً يميل إلى أقرانه وذوى أنسابه وهو بينهم لشيخوخته وكبر سنه ، لا يناسبهم ؛ فاستعفى عن الوزارة ،

وأجيب إلى سؤاله ، وانجمع النظر فى حاله وماله ، ورأى بعين كماله وثبات الدهر فى أحواله ، وأخذ فى زاد ترحاله ، وقدم الخيرات ما يكون ذخيرة لأخرته من الباقيات الصالحات .

فمن إنشائه وعماريه فى إدارته وفى أدربند ، وكان محل قطاع الطريق تنهب فيه قوافل المسلمين ؛ فعمل هناك تكية عظيمة ومحلاً ، لنزول المسافرين ، فيه طعام يطبخ لهم يقدم إليهم ، ومسجداً جامعاً ورتب لذلك ، كلما يحتاج إليه ، ووقف أوقافاً عظيمة فصار أثرا باقياً على صفحات الزمان ، وجميلاً يذكر به ، ويدعى له إلى انقضاء الدوران ، وله خيرات أخرى غير ذلك ، يلوح عليها علامات القبول عند الله تعالى ، وكان عزله فى سنة ٩٣٩ هـ .

وولى مكانه فى الوزارة العظمى من المماليك الذى عنده داخل السرايا أوده باشا حرمه الخاص إبراهيم باشا ، كان شاباً قد امتلأ غصن نضارته بماء الشباب ، ولازمته السعادة والدولة والعزة والعظمة ، من جمله خدام الركاب وكان أقدم منه فى الخدمة أحمد باشا ؛ فظن أن الوزارة العظمى لا تتعداه إلى غيره ؛ لأنه من خاص مماليك والده وإبراهيم باشا من مماليك السلطان سليمان نفسه ؛ فزاحمه فى صدره لست الوزارة وجلس بقوة إجلاله يخدم السلطنة الشريفة فى ميحل الصدارة ؛ فشكاه إبراهيم باشا إلى السلطان ؛ فدبر فى إزالته من ذلك المكان ؛ فطلبه السلطان سليمان ، وجعل له إياله مصر وأعطاها له تيمان وإقطاعاً يستجاب خاطره ؛ فمضى إلى مصر والياً عليها ، وصار يتعقبه إبراهيم باشا للعداوة السابقة ، ويرميه بما يوجب قتله ؛ فبرر الأمر بجماعة من الأمراء المستحفظين بمصر ، أن يجتمعوا عنده ويقتلونه فى محله ويولى أحدهم مكانه ، إلى أن يرد الأمر الشريف السلطانى بكل بكى مصر .

وأرسلت هذه الأحكام إلى الأمراء المذكورين ؛ فوقعت تلك الأحكام بيد أحمد باشا قبل أن يصل الأمراء المذكورين ؛ فجمعهم فى ديوانه وذكر لهم أن الأمر الشريف السلطانى ورد إليه بقتلهم ؛ فأذعنوا للأمر الشريف ، فقتلهم .

ثم سولت له نفسه العصيان ، وظن أنه يأوى إلى جبل يعصمه من السلطان وأنه يقابل ويقاتل بجيش يلفقه من مصر ؛ فأبدى الطغيان وادعى السلطنة لنفسه وأمر أن يخطب باسمه على المنابر فى أيام الجمع، ورتب عسكراً من العوانية، وجمع وضرب السكة باسمه على الدراهم والدنانير ، وصادر الناس وجمع المال الكثير ، وعصى على أهل قلعه الجبل ، وجمع عليها الشطار ، وأخذها بالحيل ، وقتل من فيها من عسكر السلطان ، وأوقد نيران الفتنة والعصيان .

وكان ممن حبسه للمصادرة جاد الحمزاوى ومحمود بيك ، وأراد قتلهما ، وقد أخر الله أجلهما ؛ فسمعا أنه دخل الحمام فكسرا الحبس وبرز أو نصبا صنجقاً سلطانياً ونااديا من أطاع السلطان فليقف تحت لوائه ؛ فاجتمع تحت الصنجق السلطانى خلق كثير وجم غفير ، وصار سد دارهم محمود بيك وجاد الحمزاوى بمشابهة الوزير ، وتوجها بالعسكر إلى الحمام فكبسا أحمد باشا وقد حُلق نصف رأسه وأعجله النصف الثانى هجوم العسكر السلطانى عليه ؛ فهرب إلى السطوح ، وتسلق من مكان إلى مكان وخلص إلى البر ، والتجأ إلى شيخ العرب بناحية الشرقية عبد الدايم بن يقرظ ، وقوى العسكر السلطانى ونهبوا ما معه من الأموال بالظلم والمصادرة ، وخرجوا إليه يطلبونه، وخوفوا عبد الدايم وحذروه من عصيان السلطنة فأتاهم به ممسوكاً فقطعوا رأسه، وطافوا بها فى مصر ، وعلقوها فى باب زويلة .

ثم جهزوا إلى الأعتاب السلطانية ، وذلك فى سنة ٩٣٠ هـ ، وخبط محمود بيك وجانم الحمزاوى مصر إلى أن ورد مصطفى باشا وضبط مصر بكاربكيا ، واستمر إبراهيم باشا فى وزارته العظمى معظماً عند السلطان نافذ الأمر والنهى إلى أن أفرط فى الدلال وزاد فى الإدلال ، فاستبديا الأمور واستقل بمصالح الجمهور ؛ فأنفقت الغيرة من ازدياد دلاله وما تحملت زيادة عجبه وإدلاله ؛ فطلبه السلطان فى ليلة من أواخر رمضان إلى عنده وأنعم عليه على جارى عادته بنفائس أنعام وافرة ووهب له جميع ما فى محله من أوانى الذهب المدصعة بالجواهر الغالية ، وطيب خاطره وطيبه بالعنبر والمسك والغالية ، وأمره أن يبات عنده فى مجلس خاص به ، كان عادته أن يبات فيه،

وصبر عليه إلى أن غلب عليه سلطان المنام على مقلته ، وأماقه ، وأمر بذبحه؛ فذبح ، وأخطأ الذابح نحره فصاح مستجيراً ، والسلطان قريباً منه ، وقد صمم فى أمن بأن يكمل ذبحه ، فقطع رأسه وأطفئ نبراسه ، وأخمدت أنفاسه ، وما كانت نار الغضب على إبراهيم برداً سلاماً ؛ بل زادته حراً واضطراماً ، ولعل كثرة إحسانه إلى الناس ، ونشر مكان التى زادت على الحد والقياس نفعته عند الله - تعالى - فى الدار الآخرة ، ولعله صدقت نيته فصادفت قبولاً ، وصار عند الله الكريم ذخراً ، فكم من عمل صالح يكون سبباً للنجاة من النار ، ويدخل صاحبه من الشهداء الأبرار ، وما ربك بظلام للعبيد ، وكان قتله فى الليلة السادسة والعشرين من رمضان سنة ٩٤١ هـ .

ثم ولى الوزارة العظمى الوزير الثانى إياس باشا ، وكان من الأرنوت من مماليك المرحوم السلطان سليم خان ، وكان محباً للصلحاء معتقداً فى طائفة العلماء ، معتدلاً فى أحواله ، صادقاً فى أقواله ، عطوفاً فى رايه وأفعاله ؛ اجتمعت به فى أول رحله إلى أسطنبول سنة ٩٤٣ هـ ، وكان يكاتب والدى ويلتمس دعاه ، فأكرمنى وأقبل علىّ وأحسن إلىّ ورقانى عند السلطان ، وأخبرته عن والدى وكبر سنه وانفراده بعلم الحديث وعلم السنة فى عصره ؛ فحصل لى أنعام كثيرة - جزاه الله عنى خير الجزاء ورحمة وأسكنه جنات العلا - واستمر وزيراً إلى أن توفى سنة ٩٤ هـ أربع وأربعين وتسعمائة .

ثم ولى بعده الوزارة العظمى لطفى باشا وجنسه من الأرنوت ، وهو من مماليك المرحوم السلطان سليم ، وكان له فضل واشتغال ومشاركة فى بعض المسائل ، وله رسالة بالتركية ، شرح فيها الفقه الأكبر لإمامنا الأعظم أبى حنيفة النعمان ، وله أثار جمة فى وزارته ، منها ربطال الأولاق فإنهم كثروا فى تلك الأيام وعم أذاهم للمسافرين ، وكانت الطرقات لا تخلى منهم ؛ فيأتى أحد الأولاق إلى المسافر ويرميه عن دابته ويركبها إلى أن تنقطع ؛ فيرميها ويأخذ دابة مسافر أخر - وهلم جرا - لا يسلم منهم أحدٌ ، فلما ولى الوزارة أبطل كثرتهم ، وعين أن يرسل الأولاق إلا فى المهمات العظيمة السلطانية المتعلقة بظهور عدو على المملكة يخشى عليها منه وأمثال ذلك من الأمور

العظيمة جداً ؛ فقل ضررهم بعد ذلك على المسافرين ، وصارت الناس تدعو له بسبب إزالة هذه المظلمة ، وكانت الخلفاء تعد خيلاً تربط لهم فى كل البلاد وقوية تحت حكمهم ، وكانت تسمى خيل البريد ؛ فإذا حدث أمر مهم ركبوا من أرادوا على خيل البريد ؛ فيركبها إلى أن يصل قرية أخرى فيجد فيها خيل البريد ، فيركبها ويترك الأول ، وهكذا إلى أن يصل بغداد ، ويرجع عنها بالأمر الذى يؤمر به ، وكان له خدام لمثل هذه الخيول بعلوفات ومرتبات - رحمهم الله - ورحم من أزال ظلم بقية الأولاق ودفعه عن المسلمين بالكلية ، وعين لهذه المهمات خيل البريد كما كان يفعله الخلفاء - رحمهم الله - .

واستمر لطفى باشا وزيراً إلى أن وقع بينه وبين زوجته مشاحنة ، وهى أخت حضره السلطان سليمان ، وسببه كثرة مسكه إلى الجوارى ؛ فشكته إلى أخيها فطلبه إلى عنده وضربه بالقوس على رأسه وأمره بمفارقتها وأكرهه على طلاقها؛ ففارقها مكرهاً ، وطلب الإذن فى الحج فأُذن له ، فحج فى سنة ٩٤١ هـ .

فاجتمعت به فأرانى تأليفه بتعريبه ؛ فعربته ، ثم أمرنى أن أترجمه له فترجمته له على حسب ما أراد ، وأحسن إلىّ بسبب ذلك ، ثم عاد من الحج إلى الباب واستأذن أن يكون فى قرية من إقطاعه ؛ فأُذن له واستمر فيها إلى أن توفى إلى رحمة الله - تعالى - .

وولى مكانه الوزارة سليمان باشا الخادم هو من الأرنوت من مماليك السلطان سليمان ، وكان قد ولى إياله مصر قريب من عشرة أعوام ، ثم عزل عنها ، ثم أعيد إليها ، وجعل سد دار العسكر المجهز إلى الهند ؛ لدفع ضرر البرهان اللعين عن المسلمين واستيلائهم على بنادر السويس وعلى بنادر الهند ، ثم كثر أذاهم لبنادر اليمن ووصلوهم إلى بندر جده وإلى بنادر السويس على مرحلتين من مصر ، وغاثوا فى البحر ، وأخذت سفائن الحجاج غصباً ، وذهبوا أموال المسلمين وأنفسهم أسراً وقتلاً ونهباً ، وقتلوا سلطان كجرات السعيد الشهيد بهادر شاه ، وقتلوه غدراً ؛ فتحركت الحمية العلية الإسلامية السليمانية ، فأمر سليمان باشا أن يعود إلى مصر وأن يعمر سفائن يركبها مع عسكر جرار إلى أرض الهند ، ويقطع دابر الكفار ، وينظف تلك الأقطار من

الكفرة والفجار ؛ فعمل سبعين عراباً وسفائن مسمارية كبار لحمل الأثقال ورتب العساكر ، وقتل عند سفره جماعة لا ذنب لهم غير صدق خدمتهم وحسن الوفاء بعهدهم ؛ حسداً لهم على ما آتاهم الله من فضله منهم الأمير الخمراوى وولده الأمير يوسف ، وكان من الصناجق العظيمة - ختم الله لهما بالشهادة ، وقتل أيضاً الأمير داود بن عم أمير الصعيد ، وكان كريماً بذولاً حافظاً لبلاد الصعيد بغير ذنب أتاه .

ثم توجه إلى الهند وصلب صاحب عدن فى طريقه مع أنه فتح له باب عدن وزين له الأسواق بوصول العسكر المنصور السلطانى ، فبمجرد وصوله إليه صلبه على صارى الفنتينال ، جعل صنجقاً فى عدن وتوجه إلى الهند ، وعاد منها إلى اليمن من غيري أن ينال كفار الأفرنج منه ضرر ، فكان الأمير أحمد صاحب زُبيد إذ ذاك من جملة اللوند اللذين استولوا على تلك الديار ، فأعطاه الأمان وطلبه إلى عنده وقتله ، وولى موضعه أمين ممن كان معه ، وعاد إلى مكة فحج وعاد إلى مصر ، ثم إلى الباب العالى ، وأسفرت سفرته على أخذ زبيد وعدن ، وكان ظالماً غاشماً كثير السفك ، لا يعتمد له على عهد ولا يوثق له بأمان ، ولم يعهد منه شجاعة ولا إقدام ، وإنما يفتك بمن وقع فى يده مأسوراً مغلولاً ، ودعا له المرحوم السلطان سليمان خدمة والده السلطان سليم وصدقه فى الخدمة ، فولاه الوزارة العظمى عوضاً عن لطفى باشا لما عزله ، واستمر وزيراً عظيماً مده يسيره إلى أن عزله .

وولى مكانه فى الوزارة العظمى أحد الوزراء العظام رستم باشا فى سنة ٩٤١ هـ ، وكان السلطان قد زوجه كريمته صاحبة الخيرات جانم سلطان بنت السلطان سليمان خان ، فملأ عين الوزارة وزين مداره ، وهو من جنس الأرنوت ممن مماليك السلطان سليم خان ، وكان ذكىّ المعيا حاذقاً فطناً ذكياً ، ذا بال وسيع ، وفكر دقيق بديع ، جيد الحافظة ، حسن القريحة ، ثاقب الرأى حليماً صبوراً رزيناً وقوراً ، كامل العقل ، كثير الأدب ، اجتمع فيه من خصال الكمال ما لم يجتمع فى غيره من الرجال ، ولم يكن فيه خصلة شينة غير إفراط حب الدنيا والميل الشديد إلى جمعها بكرة وعشية ، وتلك خصلة

عمت أكثر الطبائع والشيم وغلبت على أكثر الأعالى والهمر ، ولا يملئ عين ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب ، واستمر فى الوزارة العظمى إلى أن قتل المرحوم السلطان مصطفى ، وكان ذلك كما يقال بتأسيسه وتحيله ومكره وتدسيسه ، حتى إن بعض الظرفاء جعل تاريخ ذلك على ما زعم أنه ألهم به وهو مكرر متم ، وتوهم من العسكر الإقدام عليه بالقتل ؛ فعز له السلطان صوناً له وخوفاً عليه من العسكر ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وولى مكانه الوزارة العظمى أحمد باشا ، كان وزيراً ثابتاً ، وكانت وزارته تحله القسم ، ولعله لما أضمر السلطان فى خاطره الأشم إلى أن قدر الله - تعالى - ما قدره فى الأزل ودنا منه وقت حلول الأجل ، فعند بروزه من عوض الأمور عليه ، وانصرافه من بين يديه ، أمر بقتله عند الباب الداخل من السرايا فخنق هناك وأخرج ملفوفاً فى بساط وتفرقت عنه الأباع والأسياط ، ومضى إلى الله الكريم وأقدم على الغفور الرحيم ، وأعيد فى الوزارة العظمى رستم باشا ، واستمر وزيراً كبيراً معتبراً اعتباراً كبيراً يعمل بآرائه وينفرد بإنفاد الأمر وإمضائه لا يعارضه أحد من الأركان ، بل يطيعونه ويذعنون له غاية الإذعان ، وصار لا تتصرف قضاة العسكر والدفتردارية والبكلاربكية ، وسائر الحكام والنظار فى منصب جليل أو حقير صغير أو كبير إلا بأمره وإشارته وإرادته ، بحيث لم يعهد أن وزيراً غيره أحاط بالأمور كإحاطته ، وحفظ جزئيات المناصب وكلماتها ويتعظ لحفظه ويقظته ، وكان لا يخلو من الصدقات والإحسان والميل إلى العلماء والصلحاء ، واستمر على عظمته وجلاله لم يختل منها شىء ، إلا فى فتنة السلطان بايزيد ، وكل شىء حد محدود وأمن المقدور ممدود ؛ فإن السلطان اتهمه مع بايزيد ، ونزلت مرتبته بسبب ذلك عنده بالنوب البعيد ، ولكنها كانت تهمة واهية لا أصل لها ، وكان خائفاً من ذلك أ"د الخوف ، ولم يشاوره السلطان فى شىء من أحوال بايزيد ، وكان يشاور على باشا ؛ فأدى الحال إلى ما أدى ، ولو استشار رستم باشا وأطاعه فى أمره لم يتفاقد أمره إلى ما آل إليه بحسن سياسيه ودقة تدبيره ، والأمر إلى الله من قبل ومن بعد وما قدر الله فهو كائن ، والأخطار تدول حول الأخطار ،

وكم أريق بسبب هذه الفتنة من دم لا ذنب لصاحبه ، وكم قتلت بالتوهم نفس مظلومة لا جرم لهم فى هذه البلاد ونوائبه . شعر :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حـــتى يراق على جـــوانبه الدم

واستمر رستم باشا خائفاً يترقب إلى أن أمرضه الوهم وأنحله ، فصار فى فراشه يترقب إلى أن وافاه أجله المعتوم ، فمات وأقدم على الله الحى القيوم ، والله أعلم بما تخفى الصدور ، وهو الرؤوف الرحيم ، وكانت وفاته فى سنة ٩٦٨ هـ ، ودفن فى تربة قرب تربة الشاه زاده السلطان محمد - رحمة الله عليه ورضوانه - .

وولى الوزارة العظمى على باشا ، وكان من جنس اليوسنية ، وكان جسيماً طويلاً وظناً فطناً منهيماً نبيلاً على خلاف ما ترى من عظم هيكله وسمن بدنه، فإنها مظنة البلادة فى الأكثر ؛ فإذا أخطأ فيه مقتفاه زادت الفطانة غاية كما تنقل هذه الهيئة عن الإمام محمد صاحب أبى حنيفة - رحمه الله تعالى - فإنه كان فى غاية الفطنة والذكاء يضرب به المثل فى ذلك ، فكان على باشا له فضله فى الإنشاء ونظر فى التاريخ ، اجتمعت به فى رحلتى إلى أسطنبول فى سنة ٩٦٠هـ ، فوالله لطيف المجاورة حسن المفاكهة لذيذ المصاحبة ، ذكر لى بعض غزواته الدالة على قوة شجاعته ، وأنه باشر قتال الكفار بنفسه وأنه افتتح قلعة عظيمة لهم ، اقتلعها منهم ، فقلت له :

إن لم تقيد ما ذكرتموه بالتدوين يذهب من الخواطر ، ولا يعلم تفصيله بعد مضى سنوات قليلة ؛ فإذا أفنى من كان حاضراً فى هذا الغزا فنى خبره أيضاً، ولم يذكره أحد بعد ذلكي مطلقاً ، وينمحى علمه من صفحات الوجود بعد قليل ، وذكرت له اعتناء علماء العرب بعلم التاريخ ، وإن من جملة كتب التاريخ اللطيفة (الروضتين فى أخبار الدولتين) لابن أبى شامه ، ذكر فيها دولة السلطان نور الدين الشهيد والسلطان صلاح الدين بن أيوب وغزواتهما مع إفرنج ، وافتتاح البلاد ، ومداومتهما على الجهاد ، وهو كتاب فى غاية اللطف وحسن الوضع ، باقٍ على صفحات الزمان ، معلوم عند القاضى

والدان ، مخلد فيه ذكرهما ، مؤيد فى أطباق أوراق الدهر أثرهما ، وهما فى الحقيقة أميران من أمرائكم ، أحدهما بكلاربكى مصر ، والثانى بكلاربكى الشام ؛ فلأى معنى لا تكون أخباركم وأثاركم مدونة فى الكتب مخلدة فى صفحات الإعصار والحقب فأعجبه كلامى كثيراً وأمر فاضل ذلك الوقت فى الإنشاء الغاربى صاحبنا المرحوم المقدّس مولانا على جلبى الحميرى المعروف بـ« فتى لوزاده أفندى » ، أحد أفراد الدهر وفضلائه ، أوحد علماء العصر كمالاً ونيلاً (طيب الله ثراه وجعل الفردوس أعلى مثواه) أن يكتب له شيئاً من ذلك ؛ فشرع وأنا هناك فى شيء من ذلك المعنى فائق فى بابه لطافة وحسناً ، ثم تقلبت الليالى والأيام ومنعت الموانع من حصول ذلك المرام .

شعر :

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنّهـا وكأنّهـم أحـلام

واستمر على باشا على وزارته العظمى فى صدر صدراته الأجل الأسمى ينافد الأمر علىّ القدر صاحب الصدر إلى أن نقله الدهر عن صدارته ، ورماه الزمان عن قوس وزارته ، ودعاه داعى الفناء إلى حضرته وسقاهُ الحمام كأس منيته ؛ فعاش سعيداً ومضى إلى الحده فريداً وحيداً ، وانتقل من دار الفناء إلى البقاء حميداً ، وما صحبه مما بحوله غير ما قدمه من أعماله ، وأقدم على الله الكريم بما كسب من أفعاله وهو أرحم الراحمين .

ثم ولى مكانه وزارة العظمى فى ذلك المقام الرفيع ، أصف الوزراء العظام محمد باشا - أبقاه الله تعالى - وصدر الصدارة على الثبات والدوام ، وصانه من آفات الدهر ، وحرسه من نوائب الزمان والأيام ؛ وناهيك به عقلاً وحرصاً وضرامة وعزماً وإقداماً وحزماً ودقة وفهماً وفكراً باقياً ورأياً صائباً وحذقاً وفطنة وصدقاً وأمانة وكمالاً وجمالاً ومهابة وجلالاً وسعادة وإقبالاً ونظراً فى عواقب الأمور ، وأعانه لصالح الجمهور ، ومحبةً للعلم وللعلماء، واعتقاداً فى الصلحاء والأولياء ، وإحساناً إلى الفقراء والضعفاء ، ومما قيل :

وما بلغت كف امرئ متناولاً من المجد إلا والذى نال أطولُ

وما بلغ المهدون للناس مدحه وإن أطنبوا إلا الذى فيه أكملُ

وكانت وزارته فى سنة ٩٧٢ هـ ، واستمر على وزارته وعظمته وصدارته إلى أن أظهر اليد البيضاء ، وكمال التدبير والمضى ، بحيث تحير العقلاء فى بيان جأشه وعدم نفرته واستيحاشه ، وضبط الجيش الأعظم وحفظ الخميس القرموم ، وهم فى أرض العداء وفى حومة القتال وقوة الحرب والكيّال وشدة الجدال والجلاد .

وقد توفى السلطان سليمان فى ذلك الحال ، فلم يقع شىء من الاختلال ، وانتظمت الأموال ، وأخذت قلعة مكنوار من القزال ، وهى محشوة بالعدد والعدد من الأفرنج الأبطال ، والسلطان فى السكرات والغمرات ، وكتم ذلك عن جميع خدامه ومن حوله من الأغاوات ، وأرسل إلى ولده السلطان السليم من مسافة ستين يوماً وأجلسه على التخت ، وما وضعت الحرب أوزارها ، بل أضرمت المجاهدون نارها ، وغنمت المسلمون ، وأخذل الله فى هذا الحال طوائف الكفار اللئام ، وكان ذلك الاحتيال والتدبير بتدبير هذا الوزير الحاذق الفطن الكثيب ، ورائيه المنير الثاقب المصيب ، وتدارك بما يجب تداركه بالقلب الرحيم ، وكل ذلك الإلهام من الله الرقيب القريب .

هذا مع كثرة إحسانه ، وتواتر إنعامه ، وتوالى الطافة وإسعافه وإكرامه سيما أهل الحرمين الشريفين والتصدق عليهم ، والنظر باللطف والرأفة إليهم ، والإنعام فى كل عام على عموم الفقراء والصلحاء بألف دينار ، فأكثر الصدقة ومن عين ماله وأعماله الخير فى الحرمين الشريفين ، وأجرى عيوناً ، وحفر آباراً وأربطة وأبنية للفقراء ، وغير ذلك من المآثر الجليلة والخيرات الوافرة الجزيلة التى يحتمل أن تفرد بالتأليف ، وتورد فى تصنيف جليل لطيف ، وله مآثر فى أكثر بلاد الإسلام ، وقد أجرى عين الزّرقا بالمدينة الشريفة بعد ضعفها، وأضاف إليها آباراً ، ومنها بئر « أَرِيْس » ، وهى بفتح الهمزة وكسر الراء وسكون المثناة التحتية؛ وأعمال خير معروفة بقباء، من أعذب آبار المدينة.

ذكر المجد (الفيروزبادى) أن النبى (ﷺ) تفل فيها ، ووقع خاتم النبى

(ﷺ) من يد سيدنا ومولانا أمير المؤمنين عثمان بن عفان (رضى الله عنه) وهو جالس فى حافة البئر ؛ وقد نزع الخاتم الشريف من يده ؛ فسقط فى البئر؛ فأنزل فيها رجلاً فلم يظفر به ، وركب عليهما اثنى عشر نازحاً لينزحوها ؛ فغلبهم الماء ، ولم يوجد الخاتم فى عصرنا ، حمل حضرة الوزير الأعظم وبلا من مائها إلى مصب عين الزّرقا ، وصرف على ذلك أموالاً جزيلة ؛ فقويت العين ، وأضاف إليها آبار مياه أخرى حلوى ، قوّى بها جريان عين الزّرقا ، إلى أن أجرى وبلا من مائها إلى باب الرحمة ، وجعل فيها موضعاً يتوضأ فيه الناس لدخول المسجد الشريف ، وأجرى وبلا من مائها إلى حمام عظيم مكلف بناه فى المدينة الشريفة ، انتفع أهل المدينة والزوار ، ودعوا له بالخير ، وصار ثواباً جاريباً .

ومن خيراته : أنه وسع بئر ذى الحليفة ، ويقال لها : بئر على ، وهو ميقات أهل المدينة وأهل الشام للإحرام لدخول مكة ؛ فحفرها ونزل فى الأرض إلى أن جعل وجه الماء عشر فى عشر ؛ لأن لا ينجس بوقوع النجاسة فيها ، وجعل أحد جوانبها الأربع درجات تنزل من أعلاه إلى أسفله ، حيث كان محل الماء ، فصار كل واحد يرد إليه بسهولة ، بلا تكلف ولا احتياج إلى دلو وجهد ، وغير ذلك ، وهذا خير جزيل عظيم وثواب كثير جميل لا ينقطع أثره ، ولا يفنى خبره .

ومنها : أنه أمر أن يبنى له بمكة المشرفة بقرب الحرم الشريف موضع يكون مأوى للفقراء صونباً للمسجد الحرام عنهم ، وأن يبنى فيه مصاطب ومباسط تصلح للمرضى فتكون دار الشفاء لهم ، وأن يبنى من الخارج دكاكين وبيوت تكرى وتصرف فى مصالح هذا المكان ، وأمر ببناء حمام - فى وسط البلد - عظيمة الشأن طيب الهواء والماء ، وله رباط أخرى أيضاً ، وخيرات كلها مثوبات عظمى ، ووردت صدقاته فى سنة ٩٧٤ هـ مضاعفة ؛ ففرقت فى المسجد الشريف على الضعفاء والفقراء ، وتضاعف الدعاء منهم بحضرته الشريفة ولنجله السعيد ، بلغه الله - تعالى - مراتب الكمال ورزقه السعادة والإقبال ، والله تعالى يطيل بقاؤه ويديم عزه وعلاه ، ويثبت وزارته العظمى

ويبقيه فى صدر الصدارة الكبرى ، ما دامت الدنيا محفوظاً بالملائكة الكرام ، محروساً بعين الله الحى الذى لا ينام ، مصوناً من نوائب الليالى والأيام ؛ بجاه محمد سيد الأنام (عليه أشرف الصلاة والسلام) :

وهذا دعاء شامل النفع للورى   فيا رب قابل بالقبول دعائى

★ ★ ★

(فصل فى ذكر غزوات السلطان سليمان خان عليه الرحمة والرضوان)

وكان السلطان المرحوم المغفور محباً للجهاد فى سبيل الله باذلاً نفسه وخزائنه ، بإعلاء كلمة الله ، يؤثر التعب فى ذلك على الراحة ، ويحب الغزو ، ويرغب إليه عن الاستراحة ، بحيث لم ترتفع راية الإسلام عن رأس من السلاطين العظام أكثر جهاداً ونصرة للدين ، وأكمل عدة وآله لقطع دابر المشركين ، وأكبر ملكاً وسلطاناً ، وأكثر جيوشاً وأعواناً ، وأقطع سبقاً وسناناً ، وأحمى للإسلام وذويه ، وأوفى للشرك ومتحليه ، وأعدى للإفرنج اللعين ، وأقع للكفرة والملحدين ، وأقوى نصرة للإسلام والمسلمين .

وأشد عضداً لأهل الإيمان ، وأنصر لأهل الشرف فى هذا الزمان من السلطان سليمان ، فكم روح بلاد الكفر واستباها ، وداس أرض الأعداء بحافر فرسه وأجناحها ، وجاس خلال معانيها ورباعها ، وافتتح صياخينها وقلاعها ، وأخرب معاهد الأصنام ، وبنى مساجد الإسلام .

فلو نشرت صفحات الدول لكانت دولته غرة تلك الدول ، ولو عددت فتوحات السلاطين لكانت ساحة طراز تلك الحلل ، وإن غزواته إفرادها بالتأليف يسقى من صفحات الدهر ذكرها الشريف .

وأما هذا التصنيف اللطيف فلا يسع فيها الطفيف ، فليذكرها إجمالاً فى مذهب العاجلة ، ونعدد أسماؤها فى غضون هذه الرسالة ، فإن فتح الله فى الأجل ، وساعد العمد على ذلك الأمل ، حررنا لآل عثمان تاريخاً جليلاً وكتاباً حافظاً طويلاً ، يستفد فيه علم العرب والعجم ما يجدونه فى كتب

تواريخ الأمم ، إن شاء الله تعالى ، فأقول : « أوّل غزواته لما ولى السلطانة غزوة أنكروس ، برز إليها من القسطنطينية العظمى لإحدي عشر ليلة خلت من جمادى الآخر سنة ٩٢٧ هـ، بعسكر جرار ، وجيش كرار عظيم المقدار ، يدك الأرض دكاً ، ويصك الجبال الراسيات صكاً ، فلمّا وصلوا إلى ديار الكفار جاسوا خلالها ، ونازلوا أبطالها ، وقتلوا رجالها ، وسبوا أطفالها ، ونهبوا متاعها وأموالها ، وفتحوا حصونها وقلاعها ، وملكوا الأرض وبقاعها، ومن أعظم ما افتتح من البلاد قلعة بلغراط ، وهن قلعة محكمة منيعة باقية إلى الآن بيد المسلمين ، وأسدوا الأسارت الأسيرة .

وعاد السلطان إلى دار مملكته سالماً غانماً منصوراً ، مؤيد بنصر الله تَعالى ، ظافراً مسروراً ، وزينت البلاد لانتصاره وفرح المسلمون ، وكان الله من أنصاره وذلك أول فتوحاته وغدة أسفاره وغزواته ، وكانت عوده إلى سرير ملكه فى شهر ذى القعدة الحرام سنة ٩٢٧ هـ .

وفى هذا العام عصى جان بردى الغزالى الجركسى أمير الأمراء بالشام ، وجمع طائفة من عصاة العرب ، وبعض أشقياء الجراكسة وادّعى السلطنة ، وخطب لنفسه ؛ فجهز عليه فرهاد باشا وقاتله فيما تقرب الصالحية ومسكه وقطع رأسه ، وأرسل بها إلى الباب العالى ، وكفى الله أمره ودرأ عن المسلمين فتنته وشده ، وذلك لسبع مضين من شهر صفر الخير سنة ٩٣٩ هـ . والله سبحانه وتعالى أعلم بذلك .

الغزوة الثانية : وهى غزوة رودس وهى جزيرة فى وسط البحر ما بين أسطنبول ومصر ، وبنى بها الكفار حصناً حصيناً وحصاراً فى غاية الاستحكام مكيناً ، اتخذه الكفار مكمناً لأخذ المسلمين ، وأتقنوه غاية الإتقان والتمكين ، بحيث رسخ أساسه إلى تخوم الأرضين ، وارتفع رأسه جوم السرطين والبطين ، ينظرون من أعلى القلعة السفائن التى تمر فى البحر من مسافة بعيدة؛ فيتهيئون للتحصين ، إن كان ذلك عسكراً من المسلمين ، ويأخذونهم إن كانوا من سفار البحر ، واتخذته النصارى معبداً يجهزون أموالهم إليه فى استحكام بنائه وإتقانه ، وجعلوه من أعلاه إلى أسفله فى جميع جوانبه ثقوباً ، وضعوا

فيه المدافع الكثيرة ، ترمى على من يقصدها من الخارج ؛ فتصيب كل من قصدها فى جهة من الجهات ، ولها باب من حديد وسلسلة عظيمة فى وسط البحر تمنع الراكب من الوصول إلى الباب ، ويهيئون أغرية مشحونة بالسلاسل والمدافع والمقاتلة، إذا أحسوا بسفينة فى البحر من الحجاج والتجار، أخرجوا إليها تلك الأغربة ، وأخذوها ونهبوا ما فيها من الأموال ، وأسروا المسلمين ، فيقطعون الطريق على هذا الأساول ، ويجمعون الأموال ، ويصرفونها على مقاتلهم ، وكان هذا دأبهم ، وعجز المسلمون ، وعم عزاهم المسلمين ، فتجهز السلطان بعسكره المنصور إلى أخذ هذه الجزيرة ، وكان سفره الميمون إليها ، ونزول مخيمه الشريف فى أسكور متوجهاً إلى هذه الغزوة لعشر بقين من شهر رجب سنة ٩٣٨ هـ ، وكان وصوله إلى رودس ونزوله عليها فى شهر رمضان من السنة المذكورة ، فأحاط بها براً وبحراً ، وما أمكن من فى الأرض أن يقرب من حصار رودس للخندق العظيم الذى حولها، ما أمكن من فى الأرض أ يقرب لها من صونه بالمدافع العظيمة من أعلى الحصار ، وما أمكن من فى الأرض القرب للسلسلة الممدودة من الحديد فى البحر والرمى على من يقربها بالمدافع الكبار ، فصاروا يصيبون المسلمين بالمدافع ولا تصيبهم مدافع المسلمين ؛ لمتانة عرض الحصار وعدم تأثير المدافع فيه ، فتأخرت عساكر البحر قليلاً ، وأمروا بسوق الرمل والتراب أمثال الجمال وتترسوا بها ، وصاروا يقدمون قليلاً قليلاً ، إلى أن وصل التراب إلى الخندق وامتلأ به ، وقرب من جدار الحصار ، وارتفع عليه ، وصار الكفار الفجار تحت المسلمين يصابون ولا يصيبون ، ورموا عليهم النار ، وأحرقوهم بنار الدنيا قبل نار الآخرة ، إلى أن عجزوا ووهنوا وتحققوا إنهم مأخوذون .

فطلبوا من السلطان سليمان الأمان ، وشرطوا أن يحملوا نساءهم وأطفالهم وأولادهم ونقودهم ويعزوا أين أرادوا ، ولا يتعرض لهم أحد من الجند ، فأجابهم السلطان إلى ذلك بعد أن نهاه الوزير عن أمانهم ، فإنهم لم يبق لهم منعة ولا قوة ، وإن الأموال التى أرادوا حملها خزينة كبيرة ، وإن هؤلاء الكفار إذا نجوا بهذه الخزينة أمكنهم التقوى بها ، وجمع العسكر من

النصارى، والعود إلى أذى المسلمين ، فلم يصغ السلطان إلى قولهم ومنعهم، وأعطاهم الأمان ، وخرجوا الجميع بأموالهم إلى جزيرة الأندلس فى غاية الحصار والمتانة ، ويقال له مالطة ، وصاروا يؤذون المسلمين ، ويقطعون الطريق على الحجاج والسفار ، وهم الآن وإن تعدوا عن المسلمين ، إلا أن أذاهم كثير ، وأفادهم عظيم .

وقد ندم السلطان سليمان على إعطاء الأمان وأرسل إليهم عمارة بعسكر جرار لأخذهم واستئصالهم أخر عمره ، وجعل عليهم مصطفى باشا الوزير الأسقدياوى سروان .

فوقع بينه وبين القبوذان مخالفة أدت إلى انكسار المسلمين ، فكان فى ضمير المرحوم تدارك هذا الأمر وإرسال عسكر أخر لأخذ مالطة وقهرها ، فما أمهله العمر رحمه الله تعالى .

وكان فتح رودس لست مضين من شهر صفر الخير سنة ٩٣٩ هـ ، وحصل لأهل الإسلام غاية الفرح والسرور بهذا الفتح العظيم وعمل الناس لذلك تواريخاً ألظفها يفرح المؤمنون بنصر الله .

وفتحت أيضاً عدة قلاع فى ذلك العام ، منها استان كوى وقلعة بودرم ، وقلعة أندوس ، وغير ذلك من القلاع ، أخذت من الكفار الفجار ، وصارت فى ضبط العساكر المنصورة السليمانية .

وأرسل السلطان من وزرائه فرهاد باشا مع عسكر إلى على بيك بن شاه سوار أمير مراد خان ، فإنه كان يظهر الطاعة ويبطن العصيان ، فاستدعاه إلى عنده ، وأظهر أنه وصل إليه بخلع سلطانية وتشاريف فاخرة خاقانية له ولأولاده ، فوصل إليه على بيك ابن شاه سوار مع أولاده الخمسة ، فأدخلهم فرهاد باشا إلى محل خلوته ، وأمر بقتلهم ؛ فقطعت رؤسهم ، وجهزت إلى الديوان الشريف ، وضبطت بلاده ، وكفى الله تعالى شده ، وذهب فساده من البلاد .

كل ذلك فى سنة ٩٣١ هـ ، وفى هذا العام خرج كاشف الشرقية الأمير

جانم الجركسى عن الطاعة ، وخرج معه كاشف البحيرة إنياك بيك ، واجتمع عليهما طائفة من الجراكسة المناجة وجماعة من عصاة العرب الأبالسة ، وأظهروا العصيان ، وأبدوا الخلاف والطغيان .

فأرسل عليهم بكلاربكى مصر يومئذٍ مصطفى باشا عسكراً ، فقاتلوه فقتلا وقطعت رؤوسهما ، وعلقت زويله ، ثم أرسلت إلى الأبواب العالية وكانت فتنة درأ الله تعالى شرها، وكفى المسلمين أمرها، وذلك فى محرم سنة ٩٣١ هـ.

الغزوة الثانية : عود السلطان سليمان إلى كفار أنكدوس ثانياً ، فإن ملك أنكروس المسمى قيراز ظهر منه الخلاف والجدال ، فتوجه إليه لقطع جادته ، ومحو أثره وعادته ، السلطان المرحوم بالجيش الأعظم والجيش العرمرم ، وضرب أوطاقه المظفر فى حلقة لوبكار لإحدى عشر ليلة خلت من رجب الموجب سنة ٩٣٢ هـ .

ثم وصل بالعساكر المنصورة إلى أن وصل إلى نهر طراوة ، وبنى عليه جسر من السيفائن ، وعد العسكر المنصور على الجسر ، واستمر إلى أن وصل بدون، فقاتل قزال الملعون ، بقين من ذى الحجة سنة ٩٣٢ هـ .

وفى ذلك الحرب الشديد أنكر قزال الكافر العنيد ، وانتصرت جبيوش الإسلام ، وتفرقت عباد الصليب والأصنام ، وافتتحت فى هذه الغزوة عدة من القلاع المشهورة ، والحصون المعمورة الشديدة ، وصارت من جملة مضافات الممالك الشريفة السلطانية والأقاليم المحروسة المحمية الخاقانية ، من جملة قلعة أويل ، وقلعة مراوان ، وقلعة راجه ، وقلعة برقاص ، وقلعة بوكاى ، وقلعة ركثوار ، وغيرها من قلاع الكفار وحصون أولئك الفجار ، وأعظمها قلعة مردون محل تحت أنكروس الملعون .

فإنها قلعة راسخة البناء ، عالية الفضاء ، سامية إلى عنوان السماء ، تناطح الثريّا ، وتسامى السماء ، وتطاول الجوزاء ، فى غاية الثبات والإتقان واستحكام الوضع والبنيان ، وهى تحت سلاطين أنكروس ، ومقر سلطنتهم المنحوس ، وعندما أحاط بها حضرة السيلطان وجنوده أهل الإيمان علم من

كان فيها من جنود الشيطان ، فخرجوا منها ، وهربوا ، وطلبت الرعايات الأمان ، فأمنهم حضرة السلطان ، وضبطت البلاد ، ووضع فيها عساكر تحفظها من العدوان ، وغنم كثير من الأموال ، والأنفس والأرواح .

وفتك بأعداء الإسلام ، وسفك دمهم المطلول المباح ، وعاد إلى قصر سلطنته ، ودار مملكته ، سعيداً ، مظفراً ، منصوراً ، فوصل سرير السعادة ، وتخت الملك والسيادة ، فى أواخر شهر ذى القعدة الحرام سنة ٩٣٢ هـ .

الغزوة الرابعة : غزوة بيج .

اجتمعت كفارها اللئام وبمخة قزال وفوندوس ، وغاروا على قلعة بدون ، أخذوا من المسلمين على مر ، فتوجه السلطان إلى دفعهم وقلعهم ، وجمعهم وبرز من أسطنبول إلى حلقة لوبكار لليلتين مضتا من رمضان سنة ٩٣٥ هـ .

واستمر راحلاً إلى أن وصل إلى المخيم العالى ؛ فإذا امرأة من ملوك أنكروس اسمها أزوال بانود داست البساط الشريف السلطانى ، والتزمت بأداء خراج بلاد الأنكروس كل عام ، فقوبلت من الحضرة الشريفة السلطانية بالقبول ، وخلع عليها الخلع الفاخرة ، وكتب لها الأحكام الشريفة بالأمان ، وعادت إلى بلادها فى أواسط ذى القعدة سنة ٩٣٠ هـ .

واستمر الوطاق الشريف السلطانى إلى أن وصل العسكر المنصور الخاقانى قلعة بورون ، وأحاطوا بها إحاطة الأطواق بالأعناق ، وبياض العين بسواد الأحداث ، فى أواسط ذى الحجة من السنة المذكورة إلى أن فتح الله بورون ، وسائر البلاد ، وخذل أهل الكفر والعناد ، وولوا هاربين ومأسورين ومقتولين بعد الحرب الشديد ، لأربع مضين من محرم الحرام سنة ٩٣٦ هـ .

ثم افتتحت قلعة تساق حصارى ، ثم توجه الجند المذكور إلى قلعة بيج ، وهى محل تحت بمخة قزال الخائب الآمال ، وأحاط بها مخيم سرداقات الفتح والنصر القريب ، بالعسكر المنصور المظفر من عند الله ، القريب المجيب ، وهرب منها قزال المذبول ، وهو مدبر مكسور ، وطلب أهل القلعة الأمان ، وأتوا بمفاتيحها إلى حضرة السلطان ، فأعطاهم الأمان ، وأخذ قلعة بيج ،

وهى منى أعظم قلاع الكفار المحكمة الراسخة القرار ، الرافعة المنار ، وذلك لليلتين بقيتا من شهر المحرم سنة ٩٣٦ هـ .

ولما كانت القلعة المذبورة بعيدة عن حدود ممالك الإسلام غير مأمونة من هجوم الكفار اللئام ، أمر الحضرة السلطانية بهدمها ، فهدمت ، وأخربت ، ونهبت أطراف تلك القلعة ، وسبيت أولاد النصارى ، ونساؤهم ، وتركت خراباً ، وعادت الحضرة السلطانية إلى تخت الملك بالنصر والتأييد ، والعز المشيد ، والفتح الجديد ، فوصل إلى أسطنبول فى أوائل شهر ربيع الآخر سنة ٩٣٤ هـ .

الغزوة الخامسة : غزوة المان .

لما وصلت الأخبار إلى الأبواب السلطانية أن بمخة قزال جمع طائفة من كبار المان ، وأراد الإفساد ، والطغيان ، توجه السلطان سليمان الغازى فى سبيل الله إلى أن قتل هذا الكافر اللعين ، وحك اسمه من صحيفة الوجود ، بعون الملك المعين .

وبرز من دار الإسلام أسطنبول إلى الحليفة لوبكار ، لعشر ليال بقين من شهر رمضان المبارك عام ٩٣٨ هـ ، وأرسل فى البحر لحفظ وجه البحر من النصارى ، وضبط الأسافل والسواحل ، أمير الأمراء الكرام أحمد باشا القبودان ، عشرين غراباً مشحوناً بالأبطال ، لأهل الصفاح والكفاح ، تطير بأجنحة الرياح من غير جناح ، فى أوائل شهر شعبان المكرم من السنة المذكورة، وافتتح عدة قلاع من بلاد الإفرنج الكفار ، وأرغبوا الكفار ، وأعجلوا بهم إلى عذاب النار ، فبرز المخيم الشريف السلطانى مع الجيش المنصورى الخاقانى إلى مملكة المان ، وحاربوا وسبوا من ذرارى الكفار ألاداً كالنجوم الدرارى ، ومن البنات والنساء خوابد كالكنس الجوارى ، ونهبوا الأموال ، وقتلوا البطال ، وركبوا الرجال ، وهربوا ملوكهم ، وتركوا رعيتهم وصعلوكهم ، وبذلوا ما بقى من الأموال والذخائر على بذل الأموال لهم ، ثلاثة أعوام ، فأجيبوا من جانب السلطنة الشريفة إلى سؤالهم ، وكتب لهم بذاك توقيع الأمان لترقيع حالهم .

وعادت الحضرة الشريفة السلطانية إلى دار ملكها المسعود ، مظفر الجنود ، سعيد الحدود ، فى أواخر ربيع الآخر سنة ٩٣٩ هـ .

الغزوة السادسة : صفر العجم .

أرسل قبل سفره الميمون ، الوزيري الأعظم إبراهيم باشا بعسكر معظم وجيش كالبحر الفطمطم ، وقبة كبيرة كالخميس العرمرم ، لليلتين مضتا فى شهر ربيع الأول سنة ٩٣٩ هـ ، ووصل إلى حلب ، وشتى بها ، هو ومن معه من العساكر المنصورة ، والجيش المؤيدة الخاقانية .

وبرز عقبة الوطاق الشريف والمخيم الكريم الخاقانى إلى أسكند ، أواخر شهر القعدة الحرام سنة ٩٤١ هـ ، واستمر متوجهاً إلى نصرة السنة الشريفة السنية وقطع طوائف الرافضة لدينه ، إلى أن وصل مخيمه الشريف العالى إلى بلدة أوجان قريب إلى سلاق وجان قرب تبريز ، وجاء إلى استقباله الوزير المعظم إبراهيم باشا بمن معه من العساكر المنصورة ، وتوجها بجميع العساكر المنصورة إلى أخذ سلطانية من مملكة العجم ، فلما وصل الركاب الشريف السلطانى قصبة أبهر ، هرب من طائفة القرلباس محمد خان بن ذو الغار ، ووصل إلى البساط الشريف العثمانى ؛ فحصل له التشريف والإنعام ، وقوبل بالتكريم والإكرام والاحترام ، وصار من جملة عبيد الباب ، واستولى البرد الشديد على العسكر المنصور ، ونزل الثلج كأنه الجبال ، وهرب العدو ، ولم يقابل وصار يخادع ويحامل ، فلزم التوجه إلى بغداد لصولة الرجال والأبطال فلما سمع بوصول العسكر المنصور حافظ بغداد من جانب قولياش محمد خان ، هرب وترك بغداد ومن بها من الرعية ، فجاءوا بمفاتيحها إلى الأوطاق الشريف السلطانى ونزل بعسكره المنصور من بغداد ، وأعطى أهلها الأمان واستكنوا كنّها .

وصارت من مضافات المماليك الشريفة العثمانية ، وكذلك جميع ما حولها من البلاد والبقاع ، وسائر الحصون والقلاع ، وكذلك المشعشع ، والجزائر ، وواسط ، وأمرت الحضرة السلطانية بتحصين قلعة بغداد ، وحفظها وصونها من أهل الإلحاد .

وزار مشهد الإمام الحسين بن سيدنا الإمام موسى الكاظم (رضى الله عنهما) ، ونوّر مرقدهما ، ونفع ببركاتهما ، وبركات أهل بيت رسول الله (ﷺ) ، وأمر بتعميرهما وتكريم مزارهما الشريف ، وزار الإمام الأعظم أبا حنيفة (رضى الله تعالى عنه)، وبنى على قبره الشريف قبّة وعمارة ومدرسة.

وصلب فى بغداد دفترداره المرحوم المغفور السعيد الشهيد أسكندر جلبى ، بتهمة الخيانة فى المال السلطانى بر من أعداه وحساده، وبرأته فى ذلك عند الله، وعضد الناس ، وكان كريماً بذولاً ، حسن الخلق ، محسناً ، ما خاب من قصده ، ولا حرم من أمله ، مع الفضل التام ، والكرم العام ، رحمه الله تعالى ، وأسكنه الفردوس الأعلى ، وبوآه من الجنات الدرجات العلى .

ويتهم الوزير إبراهيم باشا برمية بمار من به ، وما حال عليه الحول حتى ألحق به ، واجتمعا فى دار الحق بين يدى الحكم العدل اللطيف الخير .

ثم توجه الركاب الشريف السلطانى ، بعد مضى نبذة الشتاء ، لليلتين مضتا من شهر رمضان المبارك ، إلى ناحية تبريز ، لأنه بلغه أن الشاة شتى فى تبريز ، وأنه مقيم بها ، فقصده للقتال ، ومحو أثره فى صحائف الأيام والليالى ، فلما وصل إلى منزل صاردفاس ، وصل إلى الشاه راح لوحاتم إيلجا يطلب الصلح ، فلم يقابل بالقبول ، وتوجه إلى تبريز ، فخرج الشاه وطائفة القولباش من تبريز إلى الأطراف والجهات ، وتركوا شهر فى تبريز خالية خاوية على عروشها ، ومعهم العسكر المنصور ، فما ظفروا بهم ، فصار الشاه ينتقل من مكان إلى مكان .

وتكررت رسله إلى الأبواب العالية ، بطرق باب الصلح ، وتحقق حضرة السلطان الأعظم أن الصلح خير ؛ فقبل الصلح وكتب الأجوبة بقبول ما طلب وانطوى بساط الحرب ، وتوجه المخيم الشريف السلطانى إلى العود من بلاد العجم ، وغنم السلطان فى تلك السفرة ، أخذ البلاد وفتح العراق ، وألطف تاريخ قيل فيه فتحنا العراق .

وكان وصول الركاب الشريف السلطانى مع العسكر المظفر العثمانى إلى

محل التخت الشريف الخاقانى ، مع النصر والتأييد الربانى ، والفتح والظفر العظيم السبحانى ، لأربع عشر ليلة مضت من شهر رجب المرجب سنة ٩٤١هـ .

الغزوة السابعة : غزوة أولوبية المعروفة بكورفيس .

وهى من بلاد الكفار والفجار من أتباع أسبانيا العزاز ، توجه إليها فى البر بركابه الشريف العالى ، وأرسل من البحر لطفى باشا ، والقبودان خيري الدين باشا ، نحو خمسمائة غراب ، مشحونة بعساكر البر إلى أن نزل بمخيمه المنصور على أولوبية فى سنة ٩٤٤ هـ .

فاستباحها قتلاً وأسراً ، ونهباً ، وافتتحت من جزائر ملك البحر أربعة وثلاثين حصناً حصيناً ، هدمت إلى الأساس ، وقتل من فيها من الناس ، وقتلت جيوش المسلمين من طائفة الكفار المشركين ، ما لا يحصى من الأموال والسبايا ، وعاد السلطان مع سائر عساكره المجهزة وأبحر إلى تخت الملك الشريف ، سالمين غانمين ، والحمد لله رب العالمين .

الغزوة الثامنة : غزوة بغداد .

توجه بنفسه النفيسة ، لافتتاح تلك البلدان ، وبرز بعسكره الجرار ، لقتل الكفار الفجار ، بالسيف والنار ، ووصل ركابه الشريف إلى تلك البلاد ، وقتل فيها ، وفتك وأسال الدماء ، وسفك وافتتح البلاد ، وأخذ الرقاع والبقاع ، وغنم أموالاً ومغانم كثيرة ، وأسر نفوساً عديدة ، غير محصورة ، وعاد إلى تخت ملكه الشريف ، مؤيداً من عند الله بالنصر والتأييد ، والفتح الجديد ؛ فوصل إلى دار الإسلام القسطنطينية الكبرى لست ليال بقين من ربيع الأول سنة ٩٤٤ هـ .

الغزوة التاسعة : غزوة أسطوبور من بلاد أنكروس .

وذلك أن السلطان (رحمه الله تعالى رحمة واسعة) كان قد أنعم على أردل بانو ، بتلك البلاد ، وبلغه أنها توفيت ، وأن نمجه قزال ومن معه من الكفرة الفجار أرادوا الاستيلاء على بلادها بعد موتها .

فتوجه السلطان (رحمه الله تعالى) إلى دفع أولئك الكفار الفجار سنة ٩٤٨ هـ ، وصمم السلطان على قتال نمجه قزال ؛ لأنه أراد أخذ بودون ، ووسوست له نفسه بتخلية المفسدون .

فلما أحسن بوصول العسكر المنصور ، فر هارباً إلى الجبال ، وتقهقر عن القتال ، فبلغته الأبطال ، ففر منهم إلى أطراف تلك المحال ، فجالست العساكر المنصورة السليمانية فى تلك البلدان ، وقتلواب أهل البغى والعدوان ، وقتلوا جيوش الكفر والطغيان ، وسبوا الأولاد والأطفال والنسوان ، وتركوا ديار الكفر قاعاً صفصفاً ، وغنموا مغانم كثيرة ، وذخائر تختار وتصطفى .

وفتحت قلعة أسطوبور بقرب بودون ، بعد الحرب الشديد ، وأضيفت إلى الممالك السلطانية ، وضبطت وفتحت أيضاً قلعة وسوة ، وقتل من الكفار ما لا يعد ولا يحصى ، وعادت الحضرة الشريفة السلطانية بمن فى ركابها الشريف من العساكر الشريفة السلطانية إلى مقر تختها الشريف ، منصورين مؤيدين بتأييدهم الدين الحنيف ، والله يؤيد بنصره من يشاء .

الغزوة العاشرة : بيج واسترعون .

توجه الركاب الشريف السلطانى ، والمخيم الشريف السليمانى إلى افتتاح عدة قلاع فى بلاد بيج ؛ لتنظيف البلاد من طوائف الكفار ، أهل العناد ، من قطع دابر أولئك الفجار بالغزو والجهاد فى سنة ٩٩٥ هـ .

وبرز فى دار الملك أسطنبول بالجيش المتواتر الموصول والجند الأعظم المهول إلى أن أحاط بقلعة وايلوه ، وقلعة سفلا ولاش ، وهما من أحكام القلاع السامية ، وأعظم الحصون المرتفعة العالية ، تناطح النطح ، وتسامك السماك وتوازن الميزان ، فافتتحها فى غرة ربيع الأول فى ذلك العام ، وصارت من مضافات ممالك الإسلام ، ثم افتتحت قلعة استرعون ، وهى قلعة فى غاية الاستحكام والإتقان ، وأحكم من بنيان الأهرام ، وكان قنديل سقفها نجوم الثريا ، وحارس بابها كواكب العواد يطاف منطقها وشاح الجوزاء ، مشحونة بالأموال والذخائر ، مملوءة بالعد ، والعدد الوافر ، ألقى الله تعالى فى قلوب

أهلها رعب عساكر الإسلام وخذلهم الله تعالى ؛ فما عصمهم ذلك الحصن المنيع ، ما وجدوا الاعتصام ، فأخذوا أخذاً وبيلاً ، وأسروا وقتلوا تقتيلاً ، ونهبت الأموال ، وسبيت النساء والأولاد والأطفال ، وأخذوا ما حولها من البلاد ، والقلاع ، والبقاع ، وافتتح ما يقربها من الحصون والقلاع .

وكذلك فتحت قلعة استولين بلغراد ، وهى قلعة سامية العماد ، راسخة الأوتاد ، لم يخلق مثلها فى البلاد كأنه من بناء شداد ، أخذت وضبطت وعين لها ولغيرها من القلاع ، الحفاظ النبلاء الأيقاظ ، ونصب لكل منها داراً وحصارياً ، وقاضياً يجرى الأحكام الشرعية ، وسنجقا للاستحفاظ .

وصارت من مضافات الممالك المحروسة السلطانية ، وصارت الكنائس مساجد للصلاة والعبادات والبيع ، ومشهد الخيرات والطاعات ، وعاد الركب الشريف السلطانى إلى سرير ملكه ، وتخته الخاقان ، مظفراً منصوراً ، غانماً سالماً ، مسروراً ، والله يؤيد بنصره من يشاء .

الغزوة الحادية عشر : سفر الفاس .

وهى تحتمل تفصيلاً طويلاً لا تحتمله هذه العجالة ؛ فنعدل عن الإيهاب والإطالة ، ومجملها ، أن الفاس أخو الشاه لأبيه ، وكان والياً على شروان ؛ فوقعت بينهما مشاحنة فى الباطن ، أدت إلى أن توجه الفاس إلى الأبواب الشريفة السلطانية ، وقبل اليد الكريمة الخاقانية السليمان ، فحصل له من الحضرة السليمانية إقبال عظيم ، ومرتبة عليّة ، وأنعم عليه بإنعامات الجلية السنية ، ووعده بأن ينصره على أخيه ، ويدانيه ويعلى كلمته ، ويوانيه .

وأمر الوزير العظام وأركان دولة الإسلام ، أن يقدموا إليه الهدايا الجزيلة ، والتحف الوافرة الجميلة ، ففعلوا ذلك ، وجابروه وأزروه ، وعظموه وناصروه وكان ذلك فى سنة ٩٥٤ هـ ، واستمر ملتجئاً إلى الظل الشريف الوريف الممدود على القوى والضعيف ، وصار يصاحبه ويلاطفه ويقويه ويستدنيه ، ويؤالفه ، إلى أن صمم العزم ، وشد بطاق الضرامة والحزم ، وبرز بعسكره المظفر ، ونصب وطاقه فى أسكودو لثمان ليال مضين من شهر صفر الخير سنة ٩٥٥ هـ ، ومعه الفاس ميزر مكرماً تكريماً ومعززاً تعزيزاً .

وتوجهت الحضرة الشريفة السلطانية إلى أخذ تبريز ، وأمر الناس أن يشتى فى بغداد ، إلى أن يمضى زمن الشتاء ، فهم بالعساكر المنصورة إلى بلاد العجم .

واستمر الركاب الشريف سائراً بالغوث السبحانى والنصر والفتح الربانى ، إلى أن أخذت قلعته ، وحصنت بعساكر أهل الإيمان ، وجعل فيها بكلاريكياً، وعسكراً قوياً ، فإنها قفل ديار العجم ، وحصنها بآلات الحصار والخدم ، واستمر الفاس ميرزا متوجهاً إلى بغداد ، ثم توجه ببعض العساكر السلطانية إلى دركرمر ، ووصل إلى همدان ، وتعدى منها إلى أردبانجان ، ونهبت تلك البلدان وأسلبت أوطاق أخيه شاه ميرزا ، وعاد إلى المخيم الشريف السلطانى، والوطاق المحفوف الخاقانى ، بما نهبه من الأموال وحصل له غاية الاعتبار والإقبال .

وغلب برد الشتاء ، فشتى حضرة السلطان بالمخيم الشريف السلطانى فى حلب ، وجهز جيشاً كثيفاً مع أحمد باشا لحفظ حدود البلاد ، وغزا طائفة الكرجى ، واغتنم منها الغنائم ، وعاد إلى الوطاق السلطانى بغنائمه .

وأما القاضى ميزرا فنابذ بعض الوزراء ؛ فخرج من بغداد مغاضباً ، وأظهر النفور من جانب السلطنة الشريفة ، ولم يراعى الأيادى الجميلة السابقة واللاحقة ، وعزم إلى أمير من الأكراد ؛ فعلم به أخوه ، فأرسل إليه وخادعه واستدعاه إلى عنده ؛ فلما أتاه دلاه فى بئر ؛ فطم أثره ومحا ذكره ، فرزق الشهادة ، ولحق بالشهداء والى الله المصير .

ولما وصل علم ذلك بالحضرة الشريفة السلطانية تأسف على ذهابه ، وعزل ذلك الوزير عذلاً مؤيداً ، وعادت العساكر المنصورة السليمانية ، فى ركاب الحضرة السليمانية إلى دار ملكها السعيد ، بالنصر والتأييد ، والسعد الجديد والعز المشيد .

الغزوة الثانية عشر : سفره إلى بلاد الشرق .

لما بلغ الحضرة الشريفة السلطانية تحرك طائفة القزلباش على بعض الحدود

السلطانية من جانب الشرق ، بادرت الحضرة السليمانية بجيوشها المنصورة العثمانية ، إلى أن تشتى فى مدينة حلب ، وبعد انقضاء زمن الشتاء ، يتوجه إلى أخذ بلاد قزلباس .

فبرز الوطاق الشريف السلطانى من دار الإسلام القسطنطينية العظمى إلى أسكودر فى أوائل شهر رمضان سنة ٩٩٦ هـ ، واستمر إلى أن وصل إلى أرجلى ؛ لقطع الراحل والمناذر ، فاستقر أوطاقه العالى خارج أركى ، واستدعى والده السلطان مصطفى ، فامتثل أمره الشريف ، ووصل إليه ، ودخل إلى أخى كاهه العالى ، فما برز إلا فى تابوت حمل على الأعناق إلى بروسنا ، ودفن بها ، واتبع به والده ودفن معه فى بروسا أيضاً ، عليهما الرحمة والرضوان ، وروائح الروح والريحان ، ووقع ذلك فى أخر سنة ٩٩٦هـ ، وقد قدمنا شرح ذلك .

وتوجهت الركائب السلطانية الشريفة إلى بلاد حلب واستمر بها أيام الشتاء، وتوفى السلطان جهانكير قوة عين السلطنة الشريفة وثمرة فؤادها ، لعشر ليالٍ بقين من ذى الحجة الحرام سنة ٩٩٦ هـ ، وجهز تابوته إلى أسطنبول فى ذى الحجة من السنة المذكورة .

ولما انقضى الشتاء توجه الركاب الشريف السلطانى إلى نحجوان من بلاد العجم ؛ فأخلى الشاه وتركها خالية ، ومضى إلى بعض الأطراف والجوانب، ولم يقاتل ، ولم يحارب ، ولم يقارب ؛ فعادت الحضرة السيلطانية رلى أماسيه ، وقام ليكن على بلاد العجم نائباً ، فجاءت رسل الشاه وطرق باب الصلح ، فرأت الحضرة الشريفة السلطانية إجابة الشاه إلى سؤاله ؛ ترويحاً للعساكر السلطانية ، وصوناً لدماء الرعية ، فأنعمت على الشاه ، بقبول ما يتمناه ، وأمرت بإرسال أجوبة حسب مراده ومناه .

وعادت حضرتها الشريفة إلى تخت ملكها الشريف ، ممدوداً ظل سلطانها الوريف ، واستقرت ذاتها العلية قريرة العين بالسعادات الباهرة السنية على تخت الخلافة البهية ، بدار الإسلام قسطنطينية ، لا زالت بعيون السلطنة العثمانية محروسة محمية ، آمين .

الغزوة الثالثة عشر : غزوة سبكتوار وهى أخر غزواته الكبار .

لما كان دأب هذا السلطان الأعظم المجاهد فى سبيل الله ، ونصرة دينسي الإسلام ، كدأب آبائه ، وأسلافه العظماء ، ولكل امرء من دهره ما تعود ، وعادة الجهاد فى سبيل الله أعظم ذخراً عند الله ، تاقت نفسه النفيسة إلى الجهاد ، واشتاقت إلى قتال الفجار الكفار ، وصمم على السفر إلى بيج ودشوار ؛ وكان مزاجه الشريف متوعكاً باستيلاء مرض النقرس عليه ، ويتألم بذلك ألماً شديداً ، ويتصبر صبر الرجال ويظهر لناس غاية التجلد والاحتمال.

فمنعه عن السفر رئيس الأطباء ، صاحبنا المرحوم بدر الدين محمد بن محمد القوصونى المصرى ، وكان من أحذق الحذاق ، وأفضل الفضلاء فى سائري العلوم على الإطلاق ، أديباً أريباً ، رئيساً طبيباً ، بينى وبينه مرسلات وملاطفات أدبية ومطارحات ، يجتنى ثمار الأدب الغصن من رياضها ، ويقتطف أزهار الفاكهة من أكمام أغصان حياضها ، برد الله مضجعه ، وأنزل عليه زلال رحمته سلسبيلاً ، وسقاه من الجنة كأساً مزاجها زنجبيلاً .

فلم يمتنع المرحوم السلطان بما أمر ، ولم يطع الطبيب فيما ذكر وقال : أريد أن أموت غازياً ، وأبذل روحى فى سبيل الله مجتهداً ساعياً .

فبرز بجيوشه المنصورة ، وجنوده وراياته المفروفة بالنصر وبنوده ، والظفر يقدمه ، والسعد يخدمه ، وانقض كالشهاب الثاقب ، والحسام القاطع القاصب ، حتى طرق الكفار كالأحلام الطوارق ، وختمت بالنصر أغلامه ، كالرياح الخوانق ، واصطفت أبصارهم ببراق الأسياف الصواعق ، وكان بروزه من القسطنطينية الحمية فى يوم الاثنين المبارك ، لتسع مضين من شهر شوال المقرون بالظفر والسعادة والإقبال سنة ٩٧٤ هـ .

واستمر يموج بجيوشه ، كالبحر المواج ، ويفيض إحسانه على كل فقير محتاج ، كالغيث التجاج ، وهو يقطع المراحل والمنازل ، ويسلك فجاج المسالك والمناهل والمناهك ، وينزل فى السواحل إلى أن قطع الأنهار الكبار الغزار ، والمياه العظيمة الكبار بحوز مملكته ، بنيت عليها سفائن كالأطواد

وتمزقت فيها ؛ ليدغم الجسور إليها، إلى أن أمكن تعدية ذلك الجيش العرمرم، ومقاسات الأهوال إلى قلعة سكتوار ، من أعظم قلاع دمشوار .

فأحاط بها كإحاطة الطوق بالعنق ، وداروا عليها دوران الأفلاك على الأفق وهى مدينة حصينة واسعة شائعة مكينة ، راسخة البناء فى حصن الماء شامخة الهوى إلى عنان السماء فى غاية العلو والتحصين ، وأع لى درجات الاستحكام والتمكين ، وأقوى مأيد الكفار من المكان الحصين ، كأنها فى الارتفاع والشهوق تناطح النطح ، وتعابق العبوق ، وكان بريق نيرانها لمعان البرق عند الحقوق ، مشحونة بآلات الحرب والمدافع ، مملوءة بالمكاحل الكبيرة ، والمقامع ، موثوقة بجيوش النصارى ، وأبطالهم ، مرسومة لفتيانهم وأبطالهم الشجعان من رجالهم ، فحصروهم ؛ هكذا الإسلام ، وحاصروهم وضيقوا عليهم مسالكهم ، وصابروهم ، ونازلوهم القتال ، وناشدوهم ، وصالوا عليهم ، وحاسوهم ، فتهيأ الكفار فى قلعة سكتوار ، ورموا على المسلمين بمقامع من النار ؛ فتترس المسلمون بالمتاريس ، وهجموا على الكفرة المناحيس ، وحمى الوطيس ونحس النحس الخمير ، وأقدم من الأبطال المشهورين ، والفرسان والشجعان المخيورين من ظهور شجاعته اليد البيضاء للناظرين ، وطلب من الله تعالى النصر وهو خير الناصرين .

وعند اشتداد الحرب والقتال ، وتصادم الأبطال تصادم أطواد الجبال ؛ إذ غلب على السلطان توعك وسقمه واشتد عليه مرضه ، وآلمه ، وغمره غمران الموت ، ولاحت عليه أمارات الفوت ، وهو يلهج إلى الله - تعالى - ويتضرع إلى جنابه الرحيب ؛ لطلب الفتح القريب ، وسأل من الله الظفر والتأييد ، على أخذ الكافر العنيد .

فاستجاب الله - تعالى - دعاءه ، وحقق بحصول المراد رجاءه ، واضطربت النار فى حربة بارد والكفار ، وهى مخزونة بقلعة سكتوار ، وكانوا أعدوها لقتال المسلمين ، وأكثروا فيها ؛ لتكون موفورة عندهم ، فأبهم شرر من النار بتقدير الله القدير القهار ، فأخذت جانباً كبيراً من القلعة ، رفعته إلى عنان السماء ، وزلزلت الأرض زلزلة هائلة ، إلى تخوم الماء ، وتطايرت

جلاميد الصخار إلى الهواء ، ورمت شرراً ولهباً ودخاناً إلى أن امتلأ الفضاء، فضعفت بذلك طائفة من الكفار ، وعذبهم الله قبل عذاب النار .

وتزاحم المجاهدون فى سبيل الله ، معتمدين على نصر الله ، خالصاً لوجه الله ، وحملت على الكفار حملة واحدة بغاية التيقظ والانتباه ، غير مبالين بموت ولا حياة ، مؤمنين بأن لا مفر مما قدره الله ، وتعلقوا بأطراف القلعة ، واقتلعوها من أيدى الكفار ، وهجموا عليها ، ودخلوها من فوق الأسوار ، وقتل من قتل ونجا من نجا بمساعدة الأقدار ، وانفتحت قلعة سكتوار ، ورفعت الراية الشريفة السلطانية السليمانية على أعلى منار ، ووضع السيف فى جميع الكفار والفجار ، وقتلوهم وساقوهم إلى جهنم وبئس القرار ، وعند وصول الخبر إلى السلطان سليمان ، فرح وحمد الله على هذه النعمة ، واستسلم لربه، وقال : طلب الموت الآن ، وانتقل من سرير ملك الدنيا إلى سرر مرفوعة فى أعلى الجنان .

وأخفى حضرة الوزير الأعظم محمد باشا وفاة حضره السلطان ، وخرج من عنده ، وفرق الجوائز السنية والإنعامات ، وأعطى الأمراء والكباربكية الترقيات ، وأمر بإرسال البشائر إلى سائر الأطراف والجهات ، وأرسيل سراً يستدعى السلطان سليم خان الثانى ، ويستعجله فى سرعة الوصول إلى التخت الشريف العثمانى ، وكتم ذلك عن جميع الخواص والخدم ، وأحسن التدبير فى هذا الكتم ، وهو من اللازم الحاتم فى الأمور العظام .

واستمرت أمور المملكة فى غاية الانتظام ، وأحوال العسكر المنصور السلطانى فى أعلى درجات النظام ، وهم فى ديار الكفر ، بعيدون عن ديار الإسلام ، وذلك من كمال العقل التام ، فمن الرأى الثاقب الصائب التمام إلى أن وصل ركاب حضرة السلطان سليم إلى مقر تخته الكريم ، وأذن للعساكر المنصورة بالرجوع إلى أوطانها ، وعاد مع أركان دولته ، ووزراء سلطنته ، وبقية عسكر بابه العالى إلى القسطنطينية العظمى ، كما سيأتى تفصيله إن شاء الله تعالى .

وغسل المرحوم السلطان سليمان وحنط وكفن ، وأنشد لسان الاعتبار :

انظر لمن ملك الدنيا بأجمعها ... هل راح منها سوى بالقطن والكفن

ووضع في تابوته على العجلة ، وساروا به بسرعة وعجلة ، وهو ممن يليق أن ينشد فيه :

كم قلت للرجل المولى غسله ... هل لا أطعت وكنت من نصائحه
حسه مال ثم حنطه بما ... ذرفت عيون المجد عند بكائه
وأزال أقويه الحنوط ونحها ... عنه وحنطه بماء سحابه
ومن الملائكة الكرام بحمله ... فلطالما حملت من نعمائه

واستمر محمولاً إلى أن أتوابه إلى أسطنبول ، وخرج إلى استقباله جميعي العلماء والموالي العظام ، والمشايخ الأتقياء الكرام ، وسائر أصناف الأنام ، وبكوا عليه بكاءاً طويلاً ، وأكثروا نحيباً وعويلاً ، وصلوا عليه ، وأمهم في صلاة الجنازة المفتي الأعظم مولانا أبو السعود أفندي ، عالم بلاد الإسلام ، ودفن في تربة أعدها لنفسه (رحمه الله تعالى) .

ورثاه الشعراء بكل قصيدة طنانة ، صار بها الركبان ، أعظمها وأحسنها ، قصيدة المفتي المذكور ، وهي طويلة ، حذفت بعضها روما للاختصار ، وأثبت مختارها بحسن الاختيار ، وهو قوله (رحمه الله تعالى) :

أصوتُ صاعقةٌ أم نفخةُ الصور ... فالأرضُ قد مُلئت من نقر ناقور
أصاب منها الورى دهياً واهية ... وذاق منها البرايا صعقة الطور
تهدمت بقعة الدنيا لوقعتها ... وانهد ما كان من دور ومن سور
أمسى معالمها يتماً مقفرة ... ما في المنازل من دار وديور
تصدعت قبل الأطود وارتعدت ... كأنها قلبٌ مرعوب ومذعور
وأغبر ناسية الخضراء وانكدرت ... وكاد يمتلئ الغبراء بالمسور
فمن كئيب وملهوف ومن دنق ... عان بسلسلة الأحزان مأسور

فياله من حـديث موحش نكـر ... يعافه السـمع مكروهٌ ومنفـور
ناهت عيون الورى من هول وحشه ... فأصبحوا مثل مجنون ومسحـور
تقطعت قطـعاً منه القلوب فلا ... يكـاد يوجـد قلب غير مكسـور
أجـفانهم سـفن مشحونة بدم ... يجرى ببحر من العبرات مسجور
أتى بوجـه نهـار لا ضـياء له ... كأنه غـارت سـنة بديخـور
أم ذاك نعى سليمان الزمان ومن ... قضـيت أوامره فى كل مأمور
ومن ومـن مـلأ الدنيا مهـابتـه ... وسخـرت كلُّ جبار ومشـهورة
مـدار مدرسـة الدنيا ومركـزها ... خـليفة الله فى الآفاق مذكـور
مُعـلى معالمَ دين الله مظهـرها ... فى العـالمين بسعى منه مشـكور
وحـين رأى الخيرات منصـرفاً ... وصدف عزم على الألطاف مقصور
بآية العدل والإحسان مشـتمل ... بغاية القسـط والإنصاف موفور
مجـاهد فـى سبيل الله مجتهـد ... مؤيدٌ مـن جناب القدس منصور
بأيـد إلى الأعداء منعطـف ... ومشـرف على الكفار مشـهور
وراية رفعت للمجـد خـافقة ... تجـوى على علم بالنصر منشور
وعسـكر ملأ الآفاق محتشـد ... من كل قطر فى الأقطار محشور
له وقائـع فى الأكناف شـائعة ... أخـبارها زبرت فى كل طامـور
يا نفس مالك فى الدنيا مخـلفة ... مـن بعد رحلته عن هذاه الدار
وكيف تمسين فوق الأرض غافلة ... ليس جسـمانه فيها بمقبـور
فالمنايـا مواقـيت مقـدرة ... تأتى على قدر فى اللوح مسطور
وليس فى شأنها للناس من قصر ... ومدخـل ما بتقديم وتأخـير
يا نفـس فأيدى لا تهلكى أسفاً ... فأنت منظـومة فى سلك مقدور

إذ لســـت مأمورة بالمستحيل ولا بما ســبوى بذل مجهود وميسـور

ولا تظـــــنيه مات بل هــو ذا مى بنـص مـن القـــرآن مزبـور

مجاهــدٌ في سبيل الله مقتحـــم معارك ، التحف بالرضوان مأجور

له نعـــيم وأرزاق مقـــــــدرة تجـرى عليه بوجه غير مشـــعور

إن المنايـا وإن عمـــت محــرمة على الشهيد جميل الحال مبـرور

ما مات بل نال عيشاً باقياً أبداً بـه عن عيش فاز بكل الشر مغمـور

ابتاع سلطـنة الدنيا بسلطـــنة الـ عقـبى فأعظم بربيح غير محصور

بل حـــاز كلتهما دخـــل منزلة مـن لـــم يغايره في أمر ومأمـــور

أما ترى ملكـــه المحـــمى آل إلى شــر ســـرى في الدهر مشهور

ولى سلطـــــنة الأفاق مالكـــهاُ براً وبحــراً بعين اللطف منظــور

ظـــل الإله ملاذ الخلق قاطـــبة وملتجـــأ كل مشـــهور ومدهـــور

فإن عينـــه فـــى كـــل مأثـــرة وكل أمر عظـــيم الشـــأن مأثور

ولا امتيـــاز ولا فرقـــان بينهمـــا وهـلْ يميز بين الشـــمس والنور

ســـميدع ماجـــد زادت مهابتـه تحــت الخـــلافة في عزو ويفـور

جـــد الجـــديدان في أيام دولته كـــان أركـــانها مســـك بكافــور

أضحـــى بقبضـــته الدنيا برمتها ما كان يجـــهل بناء ومعمــــور

بدأ بطـــلعته والناس في كــرب وســوء حال من الأحوال منكور

فأصبحت صفحات الأرض مشرفـة وعـــاد كنافهـــا نوراً عــــلى نور

ســبحانه من ملك جلت مفاخره عـــن البيان بمنظـــــوم ومنثور

كأنهـا وبـراع الواصــفون لهـــا بحـر خـميس إلى منقار عصفور

لا زال أحـــكامه بالعـدل جـارية بين البرية حـــتى نفخـة الصـــور

(فصل فى ذكر بعض مآثر السلطان سليمان وخيراته . وصدقاته الجارية الحسان فى جميع البلاد سيما بلد الله الحرام)

اعلم أن الخيرات والميرات والمساجد ، والعمارات والمدارس ، والخانقان وأجر العيون ، وبناء القلاع والخانات وغير ذلك من أنواع الخيرات فى كل الجهات التى أنشأها المرحوم السلطان سليمان (رحمه الله تعالى) كثيرة جداً لا يمكن حصرها ، ولا يدخل تحت خطة البنا ذكرها ، ولا يسع هذا الكتاب شرحها وسيرها ، لكنما نذكر مجملاً من ذلك ، فما لا يدرك كله لا يترك كله ، ونذكر خيراته فى الحرمين الشريفين ، ونحيل ما عداها إلى السماع ، والمشاهدة رأى العين .

من ذلك الصدقة الروضية ، التى هى الآن مادة حياة أهل الحرمين الشريفين وبها معايشهم ، وقيام أودهم ، وسبب بقائهم ومددهم ، فإنها وإن كانت قديمة متواصلة فى زمن آبائه السلاطين العظام، وأجداده الملوك الكبار الفخام.

إن المرحوم السلطان سليمان هو الذى ضاعفها وزادها ، وأنماها وكثرها وقررها ، وأضاف إليها من خزائنه الخاصة مبلغاً كبيراً ، فهى ولله الحمد كرد فى كل عام بدفتر محفوظ ، وأمين وكاتب ، يقسمه فى الحرم الشريف تجاه بيت الله العظيم المنيف ، وتقرأ الفواتح بالإخلاص ، ويكثر الضجيج من الفقهاء والفقراء والعلماء والصلحاء ، بدوام دولة سلطان الزمان والرحمة والرضوان على آبائه وأجداده من آل عثمان ، ويفرض عليهم حسب الدفتر الشريف السلطانى المرسوم بالشأن الشريف العثمانى فيصرفون ذلك فى قضاء ديونهم ، وإن فضل صرفوها فى حجهم وكساويهم ، وأنفقوها على عيالهم وأولادهم ، ولم يقع الإحسان على هذه الصورة لأحد من السلاطين والخلفاء والملوك وغيرهم على أهل الحرمين الشريفين والصدقات وإن كانت تربى السلاطين وغيرهم ، ولكن ليست بهذا الضبط والاستمرار والوصول فى محلها وتعميم الناس بها للخلفاء العباسيين وغيرهم صدقات كثيرة واسعة إلا أنها كانت ترد مرة فى العمر ، وعند وصول خليفة منهم إلى الحج وما تحققت

مواطن وصولها على هذا الوجه الذى ترضاه لأحد غير ملوك آل عثمان خلد الله تعالى ملكهم .

ومنها : صدقة الحب ، وقد تقدم أن المرحوم المقدس السلطان سليم خان الأول ، أول من تصدق بإرسال صدقة الحب إلى أهل الحرميين الشريفين ، عند افتتاح بلاد العرب ، وأخذه لأقاليم مصر والشام وحلب ، واستمرت متواصلة إلى زمن المرحوم السلطان سليمان ، وكان ترسل فى أمار الخاص السلطانى ، فأبرز لها السلطان سليمان قرى بمصر ، واشترى لها من بيت مال المسلمين ، ووقفها وجعل عليها ، وريعها لأهل الحرمين الشريفين ، وكتب بذلك كتاب ووقف .

حكم بصحته قضاة العسكر بالديوان الشريف العالى ، وجعل من ريعها ألفاً وخمسمائة أردب لأهل المدينة المنورة ، يجهزها فى كل عام من الناظر المتولوى على ذلك ، ثم ضاعفها وجعل كل عام لأهل مكة المشرفة ثلاثة آلاف أردب ؛ ولأهل المدينة المنورة ألفى أردب .

واستمرت ترد فى كل عام وتوزع على أهل الحرمين حسب دور مقرر بأحكام شريفة ، وتذاكر بأسوية، وتقريرات من القضاة ونظار الحرم الشريف، واستقر الحال على ذلك ، واستمر إلى أثناء هذا ، أو إلى ما بعد إن شاء الله تعالى ، وهذا أيضاً إحسان جميل ، وخير عظيم صار سبباً لمعاش أهل الحرمين الشريفين ، وتقوتهم ، ومادة لحياتهم وتعيشهم وأودهم وقوتهم .

فلو عدموه والعياذ بالله تعالى هلكوا .

والدعاء من صدور قلوبهم مبذول فى المسجد الشريف بدوام دولة سلطان الإسلام ، والترحم على آبائه الكرام وأسلافه العظام ، وهذا إحسان لم يعهد فى زمن السلاطين السابقة ، ولا أيام الخلفاء السابقة ، بل هو مخصوص بسلاطين آل عثمان ؛ إلا ما فعله السلطان قايتباى (رحمه الله تعالى) بعد ما حج بيت الله الحرام ، وزار المدينة المنورة (على صاحبها أفضل الصلاة والسلام) .

فإنه وقف على أهالى المدينة المنورة ضياعاً وقرى جعل يرعها إلى الآن لأهل الحرمين الشريفين ، وللسلطان جقمق أيضاً أوقاف يصل منها شيء دون ذلك إلى الحرميني الشريفين ، وقد آلت أوقافهما إلى الخراب ، وضعف ريعهما جداً .

وأما الأوقاف الشريفة العثمانية : فعامرة جداً ، يفيض منها الزوائدة ، ويحصل فيها النمو عليها مدار معيشة أهل الحرمين الشريفين (عمرها الله تعالى) وأنماها وعَمَّرَ عُمْرَ من عمرها ، وزكى عمل من زكاها .

ومنها : صدقات الجوالى ، وهى جمع جالية ؛ ما يؤخذ من أهل الذمة فى مقابلة استمرارهم فى بلاد الإسلام تحت الذمة ، وعدم جلائهم عنها ، وهى من أحل الأموال ؛ إذا أُخذت على وجهها المشروخ ، ولأجل حلها جعلت وظائف للعلماء والصلحاء والمتقاعدين من الكبراء .

وكان يخرج منها شيء قليل جداً فى أيام الجراكسة لبعض المشايخ ، فلما كانت أيام سلطنة المرحوم السلطان سليمان خان (نور الله تعاللى مرقده ، وخصها بالرحمة والرضوان) أخرجها من خزائنة الفائقة العامرة بالتدريج إلى العلماء والمشايخ من أهل الحرمين الشريفين ، واستوعب جميعها ، وزاد عليها قدراً كثيراً أخرجه من خزائنه الفائقة العامرة بالتدريج إلى العلماء والمشايخ من أهل الحرمين الشريفين ، واستوعب جميعها ، وزاد عليها قدراً كثيراً أخرجه من خزائن الشريفة ، وذلك من جوالى مصر وحدها ، غير جوالى الشام وحلب وغيرهما من الممالك الشريفة العثمانية ، وغير ما يرصف على الفقراء والعلماء والمشايخ فى محصول المملكة فى سائر ممالكهم المحروسة ، وغير ما يصرفه ملوك بنى عثمان من ريع أوقافهم وزوائدها وغير ما يخرجون خزائنهم العامرة فى وجوه الخيرات والصدقات ، وأطعتمة العمارات بحيث لا يحصى مقدارها ، ولا يستقصى انحصارها وناهيك بكثرة هذا المصارف فى وجوه الخيرات والعوارف .

ولم يعهد مثل كثرة هذه الخيرات ، واستمرار هذه الإرادات لأحد من

السلاطين والخلفاء ، والملوك والعظماء الكرماء الحنفاء ، فى زمن الأزمان ، فى دولة ملك أودار سلطان ، فالله تعالى يبقى هذه الدولة الشريفة .

ومن خيراته الدارة إجراء العيون ، ومن أعظمها إجراء عين عرفات إلى مكة المشرفة ، وسبب ذلك أن العينَ التى كانت جارية بمكة فى عين حنين ، وهى من عمل أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور زوجة هارون الرشيد ، واسمها أم العزيز ، وكان جدها المنصور يرفضها ، وهى طفلة ويقول : أنت زبيدة ، فاشتهرت بها ، وكانت من أهل الخيرات ، ولها مآثر عظيمة إلى الآن منها إجراء ماء حنين إلى مكة المشرفة ، وصرفت عليها خزائن أموال إلى أن جرت ، وهى واد قليل الأمطار بين جبال سود عاليات خاليات من المياه والنبات ، وصفها الله تعالى بأنها واد غير ذى زرع ؛ فنقبت أم جعفر زبيدة الجبال ، إلى أن سلك الماء من أرصد الحل إلى أرض الحرم ، وأنفقت على عملها ألف ألف وسبعمائة ألف من الذهب .

فلما تم عملها اجتمع المباشرون والعمال لديها وأخرجوا دفاترهم ؛ لإخراج ما صرفوه بالدجلة ، فأخذت الدفاتر ورمتها فى بحر الفرات وقالت: الحساب ليوم الحساب ، فمن فضل عنده من بقية المال شىء فهو له ، ومن بقى له عندنا شىء أعطيناه ، وألبستهم الخلع والتشاريف ، فخرجوا من عندها حامدين شاكرين ، وبقى لها هذا الأثر العظيم فى العالمين (رحمها الله تعالى) وأسكنها الفردوس الأعلى فى أعلى عليين .

وكانت هذه العين ترد إلى مكة وينتفع الناس بها ، ومنبع هذه العين فى جبل شامخ يقال له طاد - بالطاء المهملة بعدها دال المهلمة - من جبال الثنية من طريق الطائف ، وكان يجرى المياه إلى أرض يقال لها حنين ، يسقى به نخيل ومزارع مملوكة الناس ، وإليها ينتهى جريان هذا الماء .

وكان يسمى حائط حنين ، يعنى بنى سنين حنين ، وهو موضع غزا فيه النبى (ﷺ) المشركين ، ويقال لتلك الغزوة غزوة حنين ، خبرها مذكور فى كتب سيرة النبى (ﷺ) .

فاشترت زبيدة هذا الحائط ، وبدلت تلك المزارع والنخيل ، وسقت لها الفتاة في الحال ، وجعلت لها الشحاحيذ فى كل جبل ، يكون ذيله مظنة لاجتماع الماء عند الأمطار ، وجعلت فيه قناة متصلة إلى مجرى هذه العين فى محاذاتها ، يحصل منها الممد بهذه العين ، فصار كل شحاذ عيناً يساعده عين حنين ، منها عين مساس وعين ميمون ، وعين الزعفران ، وعين البرود ، وعين الطارقى ، وعين ثقبه والجرينات ، وكل مياه هذه العيون تنصب فى ذيل حنين ، ويبطل بعضها ويزاد بعض وينقص ، بحسب الأمطار الواقعة على أم إحدى هذه العيون أو على جميعها ، إلى أ وصلت على هذه الصورة إلى مكة المشرفة .

ثم إنها أمرت بإجراء عين وادى نعمان إلى عرفة ، وهى عين منبعها ذيل جبل كدا ، وهو جبل شامخ جداً أعلاه أرض الطائف مسيرة نصف نهار من أسفله إلى أعلاه ، من صعد فيه أؤ نزل منه مرة لا يعود لوعرة مرقاه وصعوبته وينصب من ذيل جبل كدا فى قناة فى موضع يقال له الأوجر وادى نعمان ، ويجرى منه إلى موضع بين جةبلين شاهقين فى علو أرض عرفات فيها مزارع.

ولشعر العرب تشوقات وتغزلات فى واد النعمان ، وفيه يقول :

أيا جـــبلى نعمـــان بالله خليا   نسيم الصبا يخلص إلى نصيبها

فعملت القنوات إلى أن جرى ماء عين نعمان من أرض عرفة ، ثم أديرت القناة بجبل الرحمة ، محل الوقف الشريف الأعظم فى الحج ، وجعل فيها الطرق إلى البرك التى فى أرض عرفات ، ويقال لها طريق « ضَابّ » - بالضاء المعجمة المفتوحة ، فالأف بعدها باء واحد مشددة - وتسمى الآن عند أهل مكة « المُظْلمَة » - بضم الميم ثم ظاء معجمة ساكنة ، فلام مكسورة ، ثم ميم مفتوحة ، ثم هاء التأنيث .

ثم يصل منها إلى مزدلفة ، ثم يستمر إلى جبل خلف « منى » فى قبيلها ، ثم ينصب إلى بئر عظيمة منطوية بالأحجار ، كبيرة جداً ، تسمى بئر زبيدة ، إليها ينتهى عمل هذه القناة ، وهن من الأبنية المهولة ، كما يتوهم أنه من بناء

الجسر ، ثم صارت عين حنين ، وعين عرفات تنقطع لقلة الأمطار ، وتهدم قناتهما ، وتجريهما السيول بطول الأيام ، وكانت الخلفاء والسلاطين إذا بلغهم ذلك ، أرسلوا وعمروها ، عند انتظام سلطنتهم وقوة ملكهم ، فتجرى تارة ، وتنقطع أخرى ، واستمر الحال على هذا المنوال .

فمن عمرها صاحب أربل ، وهو المملك الجليل مظفر الدين كوكرى بن على فى سنة ، كما وجدت ذلك مكتوباً فى بعض حجارة مبنية فى قرب الموقف الشريف بعرفات ، ثم بعد مائة عام ترقيباً عمد عين حنين الأمير جويان نائب السلطنة بالعراقيين ، فى أيام السلطان خزاينده سنة .

فأجرى عين حنين إلى مكة ، وعم نفعها لأهل مكة ، فإنهم كانوا فى جهد عظيم ؛ لقلة المياء ، فرحمهم الله تعالى بذلك، ورحم الله تعالى أهل الخير.

ثم عمرها شريف مكة يومئذ الشريف حسن بن عجلان جد ساداتنا أشراف مكة الآن ، وأبقاهم الله تعالى وأدام عزهم وسعادتهم أمد الزمان ، وكان منب أهل الخيرات والإحسان أجزل الله ثوابه فى الجنان ، وكان تعميره فى سنة ٨١١ هـ ؛ فجرت وانفجرت ، ونفعت وأبلجت ، وكثر الدعاء من أهل البلاد والحجاج ، تقبل الله منه صالح أعماله .

ثم انقطعت ولقى الناس لذلك شدة عظيمة شديدة إلى أن عمرها صاحب مصر من ملوك الجراكسة الملك المؤيد أبو الفتح شيخ المحمودى فى سنة ٨٣١هـ هكذا ذكره التقى الفارسى رحمه الله تعالى .

ثم عمرها وعمر عين عرفات أيضاً بع د ذلك من ملوك مصر الجراكسة السلطان الملك الأشرف قايتباى وعمر عين عرفات ، وأجراها إلى أرض عرفات وعمر عين حنين إلى أن جرت إلى مكة ، وعمر عين خليص ، وحصل بها الرفق للحجاج وأهل البلاد ، ودعوا له ، وأثنوا عليه بذلك بمباشرة الأمير يبوسف الجمالى وأخيه الأمير سنقر الجمالى (رحمهما الله تعالى) فى سنة ٨٧٥ هـ .

ثم عمر عين آخر ملوك الجراكسة السلطان قنصوه الغورى (رحمه الله

تعالى) فى عام سنة ٩١٦ هـ ، على يد الأمير خير باك العمار (رحمه الله تعالى) إلى أن جرت وملأت به فى البرك فى المعلاة ، ثم جرت إلى بازان ، ثم إلى بركة ما جره فى درب اليمن من أسفل مكة ، وارتفق الناس بذلك .

ثم انقطعت من أوائل الدولة العثمانية بهذه أقطار الحجازية ، وبطلت العيون لقلة الأمطار ، وتهدمت قنواتها ، وانقطعت عين حنين عن مكة المشرفة ؛ فصار أهل البلاد يستقون من آبار حول مكة ، من آبار يقال لها العيلات فى علو مكة ، قريب من المنحنى ، ومن آبار فى أسفل مكة يقال لها الزاهر ، وتسمن الآن بالجوخى فى طريق التنعيم ، وكان الماء غالياً قليل الوصول ، وكذلك انقطعت عيون عرفات ، وتهدمت من قنواتها ، وكان الحجاج يحملون من الماء إلى عرفات ، من الأمكنة البعيدة ، وصار فقراء الحجاج فى يوم عرفة لا يطلبون شيئاً غير الماء لعزته ، ولا يطلبون الزاد ، وربما جلبه بعض الأقوياء من الأمكنة البعيدة للبيع ؛ فيحصلون أموالاً فى ذلك لغلو ثمنه .

وإنى أذكر أنه فى سنة قل الماء فى الآبار البعيدة أيضاً ؛ فارتفع سعر الماء جداً فى يوم عرفة ، وكنت يومئذ مراهقاً فى خدمة والدى (رحمه الله) وفرغ الماء الذى كنا حملناه من مكة إلى عرفات ، وعطش أهلنا ؛ فطلبت قليلاً من الماء للشرب ، فاشتريت قربة ماء صغيرة جداً ، يحملها الإنسان بأصبعه بدينار ذهب ، والفقراء يصيحون من العطش يطلبون من الماء ما يبل حلوقهم فى ذلك اليوم الشريف ، فشرب أهلنا بعض تلك القربة ، وتصدقوا بباقيه على الفقراء ، وعطشت عقيبه ، وجاء بعد الوقوف ، والناس عطاشى مهلوفون ؛ فأمطرت السماء ، وسالت السيول من فضل الله تعالى ، ورحمه الله ، والناس واقفون تحت جبل الرحمة ، فصاروا يشربون من السيل من تحت أرجلهم ، ويسقون دوابهم ، وحصل البكاء والضجيج الكثير من الحجاج فى وقت الوقوف ، لما رأوا من رحمة الله تعالى ولطفه بهم ، وإحسانه إليهم ، وتكرمه عليهم ، ولا أزال أتذكر به من رحمة الله الكريم ، وأتيقن نه هو الغفور الرحيم الذى ينزل على عباده الرحمة من بعد ما قنطوا .

وردت الأوامر الشريفة السلطانية السليمانية بإصلاح عين حنين ، وإصلاح عين عرفات ، وعيّن لها ناظراً اسمه مصطفى من المجاورين بمكة ، فبذل جهده فى عمارتها ، وأصلح قناتها إلى أن أجرى عين مكة ، ودخلتها وخرجت من أسفلها من بركة ما جنّ ، وأصلح عين عرفات ، وأجراها إلى أن صارت تملأ البرك بعرفات ، وذلك فى سنة ٩٣١ هـ .

وصار الحجاج يردون من ذلك الماء العذب الفرات ، بعد العطش فى يوم عرفات ، ويدعون لمن كان سبباً لإجراء هذا الخيرات ، ثم اشترى ناظر العين عبيداً سوداً من أهل السلطنة ، وجعل لهم جرايات وعلوفات من خزائن السلطنة الشريفة ، برسم خدمة العين ، ولإخراج ترميها من الذيول والقنوات، وهذه خدمتهم دائماً ، وصاروا يتوالدون ، وهم باقون إلى الآن طبقة يعد طبقة لهذه الخدمة .

ثم توجه مصطفى ناظر العين إلى أبواب السلطنة السليمانية ، وعرض فى أمر العين أحوالاً يجب عرضها ، فأعطى ما سأل فيه ، وعاد مجبوراً إلى مصر ، ثم ركب من بندر السويس إلى مكة ، فغرق فى بحر القلزوم شهيداً وما غرق إلا فى بحر رحمة الله تعالى فى سنة ٩٣٧ هـ .

واستمرت عين حنين جارية إلى مكة ، لكنها تقل تارة ، وتكثر أخرى بحسب قلة الأمطار ، وكثرتها ، وعين عرفات تجرى من نعمان إلى عرفات ، إلى أن صارت عرفات بساتين ، وغرست بها الغروس ، وصارت مرجة خضراء ، تتجلى كالعروس ، إلى أن قلت الأمطار ، ويبست العيون ، ونزحت الآبار فى سنين متعددة من سنة ٩٦٥ هـ وما بعدها ، وكانت سنون متعددة ، تقارب سنى يوسف شداد عجاف ، وانقطعت العيون إلا عين عرفات ، فإنها لم تنقطع ، إلا إنها قل جريانها فى تلك السنوات .

ولما عرضت أحوال العيون إلى الأبواب الشريفة السلطانية السليمانية ، التفت الخاطر العاطر السلطانى ، وتوجه العطف الشريف العثمانى إلى تدارك ذلك بأى وجه يكون ، وأمر بالفحص عن أحوال العيون ، وكيف يمكن إجراؤها إلى بلدِ الله الأمين المأمون .

فاجتمع المرحوم عبد الباقى بن على العربى قاضى مكة يومئذ والأمير خيري الدين حضر سنجق جدة المعمورة حينئذ وغيرهما من الأعيان ، وتفحصوا وداروا ، وتزملوا واشتاروا ، فأجمع ريهم على أن أقوى العيون عين عرفات، وطريقها ظاهرة ، وذبولها مبنية إلى بئر زبيدة خلف منى ، وإن الذى يغلب على الظن أن بلوغها من بئر زبيدة إلى مكة مبنية أيضاً ، وإنما يحتاج إلى الكشف عنها والفحص إلى أن تظهر ، لأن زبيدة لما بنت الذبول من عرفه إلى بئرها المشهور خلف منى ، جميعها ظاهرة على وجه الأرض ، والباقى أيضاً من ذلك المحل إلى مكة مبنى أيضاً ، إلا أنه خاف من تحت الأرض ، واستغنى عنها بعين حنين ، وتركت هذه ، ونسيت وطمت ، وغفل عنها ، هكذا ظنوا وخمنوا ، إنهم إذا اتبعوا عين عرفات من أولها ، من الأجر إلى نعمان ثم إلى عرفة ثم إلى مزدلفة ثم إلى بئر زبيدة ، وأصلحوا هذه الذبول الظاهرة ، وكشفوا عنب الباقى ، وبنوا ما وجدوا منهدماً ، ورمموا الباقى ، احتاجوا إلى ثلاثين ألف دينار ذهباً ، وزرعوه وقاسوه ، فكان من الأوجر إلى بطن مكة خمسة وثلاثين ألف ذراع بذراع البنائيبن الآن ، وهو أكثر من الذراعي الشرعى ، بقدر ربعه ، وهو الذى تخيلوه فى وجوه بقيةي الذيل تحت الأرض ، لما يوجد فى كتب التاريخ ، وإنما أداهم إلى ذلك الأمر ، مجرد الظن بحسب القرائن ، وعرضوا ذلك إلى الباب الشريف سنة ٩٦٥هـ.

فلما وصل علم ذلك إلى المسامع الشريفة السيلطانية ، التمست صاحبة الخيرات ، أكليلة المخدرات ، تاج المحصنات ملكة المملكات ، قدسية الملكات عليه الذات ، صفية الصفات ذات العلى والسعادات ، حضرة جانم سلطان كريمة حضرة السلطان سليمان (سقى الله عهده صوب الرحمة والرضوان) ، أن يأذن لها فى عمل هذا الخير ، حيث كانت صاحبة الخير أولاً أم جعفر زبيدة العباسية ؛ فناسب أن تكون من صاحبة هذا الخير ، فاستشارت الحضرة السلطانية وزراء ديوانها الشريف العالى ، فيمن يصلح لهذه الخدمة الشريفة ، فاتفقت آراؤهم الشريفة على أن هذه الخدمة لا يقوم بها إلا دفتر دار مصر ، الأمير الكبير المعظم ، فائض الجود والفضل والكرم ، صاحب السيف

والقلم، والعلم والعلم ، الأمير إبراهيم نفرى الوردى المهمندار ، بوأه الله جنات تجدى من تحتها الأنهار ، وسقاه من حوض الكوثر زلالاً بارداً ، يصطفى كل أدام وأوان .

وكان يومئذ قد عزل من منصب الدفتر داريه ، وأمر بالتفتيش عليه ، عن أيام دفترداريه ؛ فعفى عن التفتيش وأعطته السلطانة خمسيني ألف دينار ذهباً ، بزيادة عشرين ألف ذهباً ، على ما خمنوه ؛ ليصرفها فى عمل هذه العين ؛ فتوجه من البحر إلى مكة المشرفة بتحمل عظيم ، وترق كثير ، وترتيب يعجز عنه كبار البكلاربكيه ، وكان ذا همة عالية وإقدام عظيم ، واهتمام تام ، وكرم نفس وشهامة ، وحسن تدبير ، ومعرفة وحذاقة وفطانة ، وكان بينى وبينه سابقة اجتماع ، وما رأيت أحداً من الأمراء والوزراء والبكلاربكيه مع كثرة من اجتمعت بهم ، أجمل نظاماً ولا أحسن ترتيباً وانتظاماً ، ولا أدق ذكراً ، ولا أعلى همة ولا أصدق وفاء منه م، رحمه الله رحمة واسعة ، وغفر له مغفرة جامعة ، وبوأه الفردوس الأعلى ، وأرضى عنه خصماه يوم القيامة .

وكان وصوله إلى بندر جدة المعمورة فى يوم الجمعة لثمان بقين من ذى القعدة سنة ٩٦٦ هـ ، فتوجهت إلى ملاقاته لسابق إحسانه إلىّ ؛ فرأيته نزل بوطاقه خارج جده فى جهة الشام ، فعاملنى بالإجلال والإكرام ، وركب من جدة إلى سيدنا ومولانا المقام العالى ، نجم الدنيا والدين محمد بن أبى نمى ، خلد الله سعادته ، وأيد دولته وسيادته ، وكان يومئذ نازلاً فى ممد الظهران ، فقابله بالإجلال والتعظيم والترحيب والتكريم ، ومد له سماطاً عظيماً ، ولاطفه وأكله وأكرمه ، وباسطه وجابره .

فعرض على حضرته الشريفة ما جاء بعدده ، فقوبل بامتثال الأمر الشريف السلطانى ، وبذل الهمة والجهد فى إتمام المهم المنيف الخاقانى ، وأنه يقوم بذلك بنفسه وولده وأتباعه وخدمه .

ثم ركب من عنده مجبور الخاطر ، مسدود الفؤاد ، وتوجه من عنده إلى مكة المشرفة ؛ ملاقاة عند دخوله إلى مكة سيدنا ومولانا المقام الشريف بدر

الدنيا والدين السيد حسن بن أبي نمى ، صاحب مكة أدام الله تعالى عزه وسعادته ، وضاعف نصره وتأييده وسيادته ، وأمد له الإجلال والإكرام ، وقابله بالترحيب والاحترام ، وجابره ولاطفه وباسطه وواثقه .

وأقبل كل منهما على الآخر كمال الإكمال ، وتحادثا بغاية الأدب ، واستمر معه إلى أن فارقه من باب السلام ، فدخل المسجد الحرام . فطاف طواف القدوم ، وكان محرماً بالحج ، وسعى ما بين الصفا والمروة ، وعاد إلى مجمع قايتباى ، وهو المحل الذى عين لنزوله ومذله من قبل مولانا السيد حسن مد الله تعالى ظلال سعادته سماطاً عظيماً جميلاً كبيراً ، فجلس عليه ، وأكل منه هو ، وخواصه ، وأذن لأهل الرباط والفقراء والفقهاء وعامة الناس، وأكلوا وحملوا ، وفضل شيء كثير ، وأمر بتفريقه على الفقراء ، وألبس الذى مد السماط قفطاناً ، ومن السراسر العال ، وأعطاه ذهباً كثيراً . ثم جاء للسلام عليه سيدنا ومولانا رئيس الحرمين الشريفين ، وكبير البلد من المنفيين ، شيخ الإسيلام مرجع العلماء الأعلام ، سيدنا ومولانا بالقاضى حسين الحسينى أدام الله عزه وإقباله ، وخلد سعادته ودولته وإجلاله ، فرح به الأمير إبراهيم، وقابله بالإجلال والتعظيم ، وعرض عليه أموره وأحواله ، واستشاره فى سائر ما بدى له ، وأسار عليه بآرائه الصائبة ، وأعلمه بما ينبغى رعايته ويرعى جانبه ، وما يجب عليه ملاحظته من الأمور اللازمة الواجبة .

فأول ما بدأ الأمير إبراهيم ، تنظيف بعض الآبار التى يستقى منها ، وأخرج ترابها ، وزيادة حفرها ليكثر ماؤها ، وحصل للناس بذلك رفق كثير، وشرع فى جميع ما يحتاج إليه من عمله ، وتوجه الكشف عنه إلى أعلى عرفات ، وكثر تردده إليها ، وتفطنه لمجارتها ، ومسافتها ، ومشاربها ، والفحص عن أحوالها إلى أن كثر الركب المصرى ، وكان أمير الحجاج يومئذ افتخار الأمراء الكبار عثمان بيك بكلاربكى اليمن بن بكلاربكى الحبشة ، اذدمر باشا ، وصار بعد ذلك عثمان بيك هذا بكلاربكى اليمن ، وأظهر اليد البيضاء فى افتتاح مدينة ثغر ، ثم صار بكلاربكى الحبشة ، بعد وفاة المرحم والده ، ثم توفى وصار بكلاربكى الحسا ، ثم البصرة ثم قرة أمد ، وهى من البكلزبكية

الكرماء العظام المتجملين المشهورين بالكرم والشجاعة أبقاه الله تعالى ، ووصل إلى مكة قاضيها فى ذلك الموسم مع الركب الشامى ، وهو أعلم الموالى ، أفضل الفضلاء الأمالى ، مولانا فضيل أفندى بن مولانا على جلبى المفتى الجمالى ، وهو من أصلاء العلماء العظام ، له التصانيف الحسنة المتقولة، وهو الآن يترقى فى الباب العالى مد الله تعالى ظلال أفعاله .

وحج الأمير إبراهيم بيك فرض حجه ، وعاد الحجاج إلى أوطانهم فائزين بالغفران والقبول ، فائزين بكل مطلوب ومأمول ، وشرع الأمير إبراهيم فى الكشف فى ذيول عين عرفات ، وضرب أوطاقه فى الأوجر وادى نعمان فى علو عرفات ، وشرع فى حفر قعرها ، وتنظيف ذبولها بهمة عالية جداً ، وكانت مماليكه القائمين فى خدمته ، أربعمائة مملوك فى غاية الجمال والرشاقة والحذاقة واللياقة ، أقامهم فى هذا العمل من الأوجر إلى مزدلفة ، وكتب نحو ألف نفس من العمال والبنائيين ، والمهندسين ، والحدادين ، وجلب من مصر ، وبلاد الصعيد ومن الشام وحلب وأسطنبول ، ومن بلاد اليمن طوائف بعد طوائف من المهندسين ، وخدام العيون والآبار والحدادين والبنائين ، والحجازين والقطاعين والنحاتين ، والنجارين وغيرهم ممن يحتاج إليهم بآلات العمارة صحبها معه من مصر من مكاتل ومساحى ومجاريف ، وحديد وبولاد ونحاس ورصاص ، وغير ذلك ، مع الهمة القوية ، والإقدام التام والاهتمام، وعين لكل طائفة قطعة من الأرض ، لحفرها وتنظيف ما فيها مني الذبول ؛ ليظهر سعيه واجتهاده .

وكان يظن أن يفرغ من هذا العمل الذى جاء بصدده ، فيما دون عام ، ويرجع إلى الأبواب السلطانية ؛ لينال المناصب العالية ، ويظفر بالمراتب السامية ، ويأتى الأبواب السلطانية ؛ لينال الإمارات وما كل ما يتمنى المريد من المراد ، والسنة الأقدار تناديه من وراء الحجاب كيف الخلاص ؟ وإلى أين الذهاب ؟ واستمر على هذا الجد والاجتهاد إلى أن اتصل عمله بعمل زبيدة إلى البئر التى انتهى عملها إليها ، ولم يوجد بعده منيل وآثار عمل ، وضاق ذرعه بذلك ، وعلم أن الخطب كثير ، وأن العمل كثير ، وتحققوا أن القدر

الباقى من هذا العمل ، إنما تركته زبيدة اضطراراً بغير اختيار ، وعدلت عنه إلى عين حنين ، وتركت العمل من البئر لصلابه الحجر ، وصعوبة إمكان قطعه ، وطول مسافة ما يجب قطعه ، فإنه يحتاج من بئر زبيدة إلى ذبل منقور تحت الأرض ، فى الحجر الصوان ، طوله ألف ألف ذراع البابين حتى يتصل بذلك عين حنين ، وينصب منه ويصل إلى مكة ،

ولا يمكن نقب ذلك الحجر تحت الأرض ، فإنه يحتاج فى النزول إلى خمسين ذراعاً فى العمق ، وصار لا يمكن ترك ذلك بعد الشروع ، حفظاً لناموس السلطنة الشريفة ، فما وجد الأمير إبراهيم حيلة ، غير آن يحفر وجه الأرض إلى أن يصل إلى الحجر الصوان ، ثم يوقد عليه بالنار ، مقدار مائة حمل من الحطب الجزل ، ليلة كاملة فى مقدار سبعة أذرع فى عرض خمسة أذرع من وجه الأرض ، والنار ما تعمل إلا فى العلو ، لكنها تعمل عملاً يسيراً جداً من جانب السفل فيلين الحجر من جانب السفل مقدار قيراطين ، من أربع وعشرين قيراطاً من ذراع فيكسر بحديد ، إلى أن يصل إلى الحجر الصلب الشديد ، فيوقد عليه بالحطب الجزل ليلة كاملة أخرى ، وهلم جرى، إلى أن ينزل فى ذلك الحجر خمسين ذراعاً فى العمق فى عرض خمسة أذرع إلى أن يستوفى إلى ذراع يقطع على هذا الحكم ، وذلك يحتاج إلى عمر نوح ومال قارون ، وصبر أيوب ، وما رأى عن ذلك يحتاج من جميع الجبال فى مكة ، فصار يجلب الحطب من المسافات البعيدة ، وغلى سعره ، وضاق الناس بذلك ، وتعب الأمير إبراهيم لذلك ، وذهبت أمواله وخدامه ووأولاده ومماليكه ، وهو يتجلد على ذلك ، إلى أن قطع لمسافة ألف ذراع وخمسمائة ذراع ، وصار كلما فرغ المصروف أرسيل وطلب مصروفاً آخر إلى أن صرف أكثر من خمسمائة ألف دينار من الخزائن العامرة السلطانية ، وغرق له مركب كان فيه باقى مجملاته وخزائنه ، ونقوده ، وفيه جمله من عبيده وأسيابه .

وكان ينوف على مائةِ ألف ذهب ، فى ابتداء أمره ، ثم مات طفل نجيب ، كان خلفه بمصر ، احترق عليه كثيراً ، ثم مات له ولدان مراهقان ناجبان فاضلان ، أخذ المجامع قلبه ، وفتت كبده ، ثم مات كتخدائه ، وكان بمنزله

أمراء السناجق ، ثم مات أكثر مماليكه ، و هو يتجلد لتلك المصائف العظيمة، ويظهر الجلد عليها ، إلى أن ذهب قواه ، وظهر بلاه ، وأثر فيه الإسهال ، ورمته الأهوال ، وجاءه الأجل الذى لا يتقدم ولا يتأخر ، وإن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ، فمات غريباً وشهيداً ، ومضى إلى رحمة الله ، وحيداً فريداً فى ليلة الاثنين ثانى رجب المرجب سنة ٩٧٣ هـ ، وصلى عليه عند باب الكعبة ، وكانت جنازته حافلة جداً ، وأسف الناسي على فقده لكثرة إحسانه ودفن بالمعلاة على يمين الصاعد إلى الأبطح ، وخلف طفلاً وحملاً وبنتاً من أهل الخير ، كثيرة الصلاح والعبادة ، وكان ذكر إلى أن مولده سنة ٩٢٣ هـ رحمه الله تعالى ، وأرضى عنه خصمائه ، وآمنه يوم الفزع الأكبر ، وسقاه من حوض الكوثر .

ثم ولى بعده فى هذه الخدمة سنجق جدة أمير قاسم بيك ، بإقامة سيدنا ومولانا المقام الشريف العالى الدنيا والدين مولانا السيد حسين صاحب مكة أدام الله تعالى دولته وسعادته ، وشيد عزه وعظمته وسيادته .

وعرض ذلك إلى الباب الشريف العالى ، وأمره أن يباشره هذه الخدمة ، إلى أن يصل من عتبة السلطنة الشريفة لأداء هذه الخدمة ، وكانت السلطنة الشريفة العظمى ، والخلافة العلية الكبرى ، حتى انتقلت من المرحوم السلطان سليمان خان إلى نجله السعيد الأسعد الأمجد السلطان سليم خان ، سقى الله عهدهما صوب الرحمة والرضوان .

فعين لها فى الباب العالى دفتردار مصر يومئذ محمد بيك أكمل حى داره ، وكان مجملاً مبرئاً من أعيان الأمراء الصناجق الكبراء ، وله عقل تام ، ذا رأى ثاقب ، وإحسان وإنعام وتلطف وتعطف وإكرام ، ووصل إلى هذه الخدمة الشاقة وبذل فيها نفسه ، وماله ، وأظهر تجلده ، وتحمله واحتماله ، وقطع مسافته ، وما بلغ التمام ، إلى أن وفاه الحمام ، وانتقل إلى رحمة الله تعالى سعيداً شهيداً بمرض الإسهال ، وأقدم على ربه الكبير المتعال ، فى ليلة الثلاثاء وقت السحر، لأربع ليال بقين من جمادى الأولى سنة ٩٧٠ هـ ، وصلى عليه عند باب الكعبة الشريفة ، ودفن فى المعلا قباله تربة الأمير إبراهيم

الدفتردار على يسار الصاعد إلى الأبطح ، وتأسف الناس على فقده ، وترحموا عليه ، وأثنوا عليه خيراً ، رحمه الله ، وخلف ولداً صغيراً اسمه بير أحمد ، وبنتاً اسمها خديجة ، وكان وصية عليهما ، عتيقة فرهاد كتخداية ، وفقه الله تعالى وأعانه عليه ، ثم أقيم فى خدمة العين ، والأمير قاسم المذكور سابقاً سنجق جدة المعمورة ، أقامه فيها سيدنا ومولانا السيد حسين ، صاحب مكة ، أدام الله تعالى عزه ودولته ، وأمره بمباشرة العمل ، وعرض ذلك على الأبواب الشريفة العثمانية ؛ فبرز الأمر الشريف السلطانى ، باستقرار جانم بيك المذكور فى خدمة العين ، أميناً على مصارفها ، وأن يكون سيدنا ومولانا شيخ الإسلام ، قاضى القضاة ، وناظر المسجد الحرام ، بدر الدنيا والدين القاضى حسنين الحسينى ، خلد الله تعالى ظلال سيادته وأبد قيام سعادته ناظراً على ما بقى من عمل عين عرفات ، إلى أن تصل إلى مكة المشرفة ، واستمر الأمير قاسم مباشراً لتعاطى هذه الخدمة ، وكان لا يخلو من قصور الفهم ، وحب الاستقلال وبعض عناد ، ومما أراد مولانا شيخ الإسلام معارضته ؛ فتركه على رأيه ، وما أراد الله - تعالى - أن يتم العمل الشريف على يد قاسم بيك ، فكان ثالث الأميرين السابقين ، فتركه الأجل وأدركه الحسين ، وفاز بمرتبه الشهادة ، وصار من شهداء العين ، لليلة خلت من رجب المرجب الفرد الأصب الحرام سنة تسع وسبعين وتسعمائة ، وصلى عليه عند باب الكعبة الشريفة ، ودفن بالمعلاة إلى جانب الأمير محمد بيك الدفتردار المتوفى قبله ، أمين العين المذكور .

واستوفت العيد به ثلاثة من الأمراء الصناجق سقاهم الله شراباً طهوراً ، وكان بهم براً رحيماً غفوراً ، ثم توجه سيدنا ومولانا شيخ الإسلام القاضى حسين الحسينى ، أمد الله - تعالى - ظلال أفضاله ، وأقام خيام عزته وعظمته وإجلاله ، توجهاً تاماً إلى تكميل ما بقى من عمل عيد عرفات ، باعتبار ما بيده ، من النظر عليها ، حسبة الأحكام الشريفة السلطانية النافذة فى أحكام الأقطار روايحها والجهات ، وجد فى الاهتمام ، وبذل الجهد التام وعرض إلى الأبواب الشريفة ، وفاة قاسم بيك المرحوم ، وعدم تعطيل العمل

إلى أن يأتى أمين لإكمال العين من الباب العالى ؛ فبرزت الأوامر الشريفة السلطانية السليمانية بأن يكمل ذلك العمل سيدنا ومولانا شيخ الإسلام القاضى حسين الحسينى المشار إلى حضرته الشريفة آنفاً .

فأقدمت بهمته العلية ، أتم إقدام إلى إكمال هذا العمل الشريف ، بالاهتمام التام ، فساعدته السعادة والإقبال على الإتمام والإكمال ، فعمل العمل المبارك فيما دون خمسة أشهر ، بعد أن عجزوا عن إتمامه ، الأمراء المذكورين قريباً ، عن عشرة أعوام وهللت نفوسهم وأموالهم ، وخدامهم ، وما ظفروا بهذا المرام ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ، فجرت عين عرفات ، وانفجرت ينابيعها الجاريات ، ووصل الماء ، وهو يجرى فى تلك الذبول والقنوات ، إلى أن دخل مكة المشرفة لعشر بقين من شهر ذى القعدة الحرام سنة ٩٧٩ هـ .

وكان ذلك اليوم عيداً ، كبر عند الناس ، وزال بوصول ذلك الماء للبلد كل هم وبأس ، وعمل فى ذلك اليوم سيدنا ومولانا المشار إلى حضرته الشريفة أسمطة عظيمة فى الأبطح ببساتينه الواسع الأفيح ، وجمع جميع الأكابر والأعيان فى ذلك المكان ، ونصب لهم السرادقات والصيوان ، وذبح أكثر من مائة من الغنم ، ونحر عدة من الإبل والنعم ، وقدم للناس على طبقاتهم ، أنواع الموائد والنعم ، وخلع على أكثر من عشرة أنفس من المعلمين والبنائين ، والمهندسين خلعاً فاخراً ، وأحسن إلى باقيهم بالإحسانات الوافرة ، وتصدق على الفقراء والمساكين ، وأنعم على الكبراء والأساطين ، شكراً هذه النعمة الجزيلة ، وحمداً على هذه المنة الجميلة ، حيث أنعم الله تعالى به على عباده وأحيائها ، وأخصب خير بلاده ، وكان يوماً مشهوداً ، وسعادة سعيدة ، وزماناً مشهوداً .

ثم جهز أخبار هذه البشائر العظمى ، وفضول هذه النعم الجزيلة الكبرى إلى الباب الشريف العالى إلى السلطان الأعظم والخاقان الأكرم الأفخم ، السلطان سليم خان سقاه الله كئوس الرحمة والرضوان ، وحوض الكوثر فى أعلى غرفات الجنان ، وإلى سرادقات الحجاب الرفيع والستر السابل المسبوغ

البديع ، صاحبة الخيرات ملكة الملكات بلقيس الزمان ، حضرة جانم سلطان أدام الله تعالى ظلال عفتها وعصمتها ، وأسبغ أستار رفعتها وعظمتها ، فأنعمت الصدقات الشريفة السلطانية بالإنعامات الجزيلة ، والترياقات الكثيرة الجميلة ، على سائر المباشرين ، والمتعاطين بهذه الخدمة الشريفة الجميلة ، وحصل لمولانا شيخ الإسلام المشار إلى حضرته ترياقات عظيمة ، فصارت مدرسة السلطانية غاية عثمانى وما عهد لذلك لأحد من الموالى العظام فى مدارسهم ، وجهزت إليه أنواعاً من الخلع الشريفة الفاخرة ، وخوطب من قبل السلطنة الشريفة الخاقانية ، بالخطاب العليّة الوفية السامية المتضمنة للشكر الجميل منه ، وإنه داخل فى حوض السلطنة الشريفة ، المشمولين بنظر عواطفها الشريفة ، وإنعاماتها الجزيلة الوريفة .

وصارت هذه العين من جملة الأثار الباقية على صفحات الليل والأيام ، والأعمال الصالحات الباقيات التى لا يمحوها تكرر السنين والأعوام ، وما عند الله من تضاعيف الأجر والثواب ، فهو خير وأبقى عند أولى الألباب .

ومن أثار المرحوم السلطان سليمان بمكة المشرفة ، المدارس الأربعة السليمانية ، وبسبب ذلك الأمير إبراهيم أمين إجراء عين عرفات ، أسكنه الله تعالى فى أعلى الجنة فى الغرفات .

وعرض على الأبواب الشريفة السلطانية السليمانية ، فأجابه السلطان سليمان المرحوم إلى عمل ذلك ، فى أحسن الأماكن اللائقة ، فأجمع رأى الأمير قاسم ، فإبراهيم بيك وغيرهما من الأعيان ، اللائق لبناء هذه المدارس الجانب الجنوبى من المسجد الحرام ، المتصل من ركن المسجد الشريف إلى باب الزيادة .

و كان البيمارستان المنصورى ومدرسته لصاحب كسايه السلطان أحمد باشا، وسلطان كجرات من أقاليم الهند ، وكان من أصحاب الخير الكثير ، شديد المحبة للعلماء كثير البر والصدقات ، فكانت المدرسة بيد مؤلف هذا التاريخ ، والبيمارستان المنصورى وأوقاف المؤيد السلطانى ، الملك المؤيد شيخ سلطان

مصر من ملوك الجراكسة ، وعدة دور تتعلق بسيدنا ومولانا المقام الشريف العالى السيد حسن صاحب مكة المشرفة ، أدام الله تعالى عزه ، وإقباله ورباط يقال له رباط الظاهر ؛ فاستبدل البيمارستان ، واستبدلت المدرسة برباط كان بناه الخوجا يحيى الفرمانى ، ولم يثبت وقفيته ؛ فباعه ورثته بالشراء لجهة السلطنة الشريفة ، وجعل بدلاً من مدرسة الكناينة ، واستبدل رباط الظاهر برباط أخر فى سويقة أحسن وأمكن منه ، ووفق بدلاً عنه ، وأنشأ الدور المتعلقة بسيدنا ومولانا الشريف العالى ، بدر الدنيا والدين مولانا السيد حسن ، أدام الله تعالى عزه ودولته ، فقدمها جميعها للسلطنة الشريفة ، واستبدلت أوقاف المؤيد ، بضياع قرى فى الشام ، اختارها ذرية المؤيد الموقوف عليهم ، وكتب مستنداتها ، وحججها .

وشرع الأمير قاسم فى هدمها ، وطلب العلماء والصلحاء والأشراف ، ووضعوا الأساس ، فتقدم قاضى مكة المشرفة يومئذ ، قدوة العلماء الأمالى، وصفوة العظماء الموالى ، مولانا شمس الدين أحمد بيك السايحى . عظم الله شأنه ، ورفع قدره ، ووضع بيده الشريفة الأساس ، وكان يوماً مشهوداً مباركاً مسعوداً ، وذلك لليلتين خلتا من شهر رجب المرجب سنة ٩٧٣ هـ .

وكان عمق الأساس عشرة أذرع ، وعرضه أربعة أذرع بذراع العمار ، ووضعوا فيه صخاراً كباراً جداً ، وأحكموا الأساس إحكاماً قوياً ، واستمر قاسم بيك فى بذل الجد والاجتهاد ، مشدود الوسط ، كأنه بعض العمال ، يجرى بعضاً ، من أول العمل إلى آخره ، بقوة وجلاده له ، من غير دقة فهم ولا إلف طبع مع الخلافة ، والغلاظة ، واستبد بالرأى ، وعدم المشورة ، وعدم الإصغاء إلى رأى أحد ، ثم بنى المدارس الأربع فى غاية الإحكام ، وزاد فى عرض الجدارات من غير تعميق ، وعمل بها مآذنة عالية ، أحسن فيها ، ولفق لسقوف المدرسة ، وأدروا أبوابها خشبات عتيقات ذائبات ، تكسرت وسقطت بعد وفاته ، وجددها مولانا شيخ الإسلام على وجه الإتقان والإحكام ، وكتب قاسم بيك فى بعض طرازها بخط ردئ منحط ، وبعض بخط رائق فائق ؛ لكونه أمياً ، لا يعرف الكتابة ، ولا يصغى إلى كلام أحد.

وصارت الأحكام الشريفة السلطانية ، تتوارد إليه بالاستعجال والاهتمام ، وغير ذلك ، وعين المرحوم السلطان سليمان خان (عليه الرحمة والرضوان) وظائف المدرسين والطلبة ، وغير ذلك من أوقافه بالشام .

وعين لكل مدرس خمسين عثمانياً فى كل يوم ، وعين للمعيد أربعة عثمامن ، ولكل مدارس خمسة عشر طالباً ، لكل طالب عثمانين ، والفراش كذلك وللبواب نصف ذلك ، يجهزها فى كل عام ناظر الأوقاف السليمانية بالشام مع الركب الشريف الشامى إلى مكة المشرفة ؛ فيوزع على المدرسين والطلبة وظائفهم .

ولم يكمل المدارس الأربع فى أيام دولة السلطان الأعظم ، مالك ممالك الترك والروم والعرب والعجم ، السلطان سليمان خان سقى الله عهده صوب الرحمة والرضوان .

وأنعم بالمدرسة المالكية السليمانية ، وهى رأس المدارس الأربعة ، على سيدنا ومولانا ، شيخ مشايخ الإسلام ، سيد العلماء والموالى العظام ، قاضى القضاة ، وناظر المسجد الحرام ، مولانا السيد القاضى حسين الحسنى أدام الله تعالى عوائده على الدوام ، بخمسين عثمانياً ، ثم رقاه إلى أن صار بمائة عثمانى .

وأنعم بالمدرسة السليمانية على مؤلف هذا الكتاب بخمسين عثمانيباً فى أوسط جمادى الأول سنة ٩٧٥ هـ ، فأقرأت فيها قطعة من الكشاف والهداية، وقطعة من تفسير المفتى الأعظم ، مولانا بو السعود ، بوأه الله عرف الجنان ، وأنزل عليه شبائب العفو والرحمة والرضوان ، وأقرت فيها درساً فى الطب ، ورسالة فى الحديث فى أصوله ، وإنى أدرس الآن فيها ، تكميل شرح الهداية للعلامة الكمال بن الهمام ؛ الذى كمله الآن ، علامة علماء الإسلام ، فهامة فضلاء الموالى العظام ، مالك ناصية العلوم ، وفارس ميدانها ، وحائز قصبات السبق والإتقان فى جلبه دهاتها ، فريد دهره فى التحقيق والإتقان ، وحيد عصره فى التدقيق ، صاحب التصانيف الفائقة ، التى سارت بها

الركبان، وتداولتها العلماء والطلبة ، فى سائري البلدان الكريم المحسن إلى مجيبه غاية الإحسان ، مولانا شمس الملة والدين ، أحمد المعروف بقاضى زاده أفندى ، قاضى العسكر بولاية الناطولى ، أظهر الله على لسان قلمه مارق وخفى عن الأفهام ، وأفاض من زلال ألفاظه العذبة ما يروى عطش أكباد العلماء الأعلام .

ذكر فيه من التحقيقات ما فات ابن الهمام ، وقلد عناق علماء مذهب النعمان قلائد در منسق النظام ، ومد طلاب العلم الشريف فوائد ، وضعها لهم على طرق التمام ، وأورد فيه من خاصة طبعه الشريف ثلاثة آلاف تصرف من بنات أفكاره .

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ، ولا شك أن ذلك فيض من الله الكريم ، أفاض به من خزائن جوده العميم ، فشكر الله تعالى صنعه الحميد ، ونفع بتأليفه سائر طلبة العلم الشريف وأبقى فى صفحات العالم ، كتابه المفيد اللطيف ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين ، ولقد أحسن إليّ فى أيام صدارته ، ورقانى لدى الحضرة الشريفة السلطانية ؛ فرقانى السلطان الأعظم والخاقان الأكرم الأفخم السلطان مراد خان ، خلد الله تعالى سعادته الزاهرة ، مد الزمان ، فصارت مدرستى بهمه العليمة ، بستين عثمانياً ، جزاه الله على أفضل الجزاء ، وأسبغ عليه من خزائن فضله وكرمه واسع الخير والعطاء .

وأنعمت السلطنة الشريفة بالمدرسة السلطانية السليمانية الشافعية ، لأمراء مذهب الشافعية بمكة المشرفة ، على بعض العلماء الشافعية بخمسين عثمانية ، وأدرس فيها كتب فقه الإمام الأعظم محمد بن إدريس الشافعى (رضى الله عنه) ، وأحيى فقه الشافعية بها ، كما شرط الواقف المرحوم السلطان سليمان (رحمه الله تعالى) ، وأسكنه فسيح الجنان ، وغمره فى بحر الرحمة والإحسان .

وأما المدرسة الرابعة السليمانية ، فقد جعلها المرحوم الواقف لإحياء مذهب

الإمام أحمد بن حنبل (رضى الله عنه) ، فلم يوجد بمكة يومئذ من يكون نائباً عن مذهب الإمام أحمد بن حنبل ؛ فعدل عنه إلى علم الحديث الشريف وجعلت تلك المدرسة دار الحديث ، بخمسين عثمانية ، يقرأ فيها الصحاح السنة ، فرحم الله تعالى السلطان سليمان ، وأثابه على مقاصده الجميلة ، فى ابتداء الخيرات ، واقتناء المثوبات ، بإحياء العلوم الشريفة ، وسائر الباقيات الصالحات ، أعلى غرف الجنان ، والنظر إلى وجه الكريم ، فى أعلى مراتب السعادات الأخروية الباقيات .

وهذا الذى ذكرناه بعض ما فعله من الحسنات ، ولو أردنا استيفاء ما فعله من الخيرات ؛ لاحتجنا إلى عدة مجلدات ؛ فعدلنا عن ذلك إلى ما ثبتناه فى هذه الوريقات ، ووكلنا ما عداه إلى المشاهدات فليس الخبر كالعيانات .

★ ★ ★

الباب التاسع

فى دولة السلطان الأعظم الأفخم العثمانى
السلطان سليم خان الثانى : صاحب
الخيرات الجارية والجوامع والمبانى

تغمده الله تعالى بالرحمة والرضوان ، وسقى ضريحه زلال الكرم والعفو والإكرام ، وحفه بروائح الروح والريحان .

كان مولده وجلوسه الكريم على تخت ملكه الشريف القسطنطينية العظمى ، فى يوم الاثنين لتسع مضين من شهر ربيع الآخر سنة ٩٧٤ هـ ، ومدة سلطنته الشريفة تسع سنين ، وسنه حين تسلطن ست وأربعون سنة ، وعمره كله ثلاث وخمسون سنة ، وبعد ثلاثة أيام من جلوسه على التخت الشريف توجه إلى سكتوار ؛ لحفظ عساكر الإسلام المجاهدين فى سبيل الله ، فى حاق بلاد الكفر ، مشغولين بفريضة الجهاد ، بغاية الجد والاجتهاد ، وسار سيراً حثيثاً إلى أن وصل ركابه الشريف إلى سرحر - ويقال له سرم - فلاقته عروض حضرة الوزير الأعظم ، أصف الزمان محمد باشا ، أنعش الله تعالى بوجوده الإسلام إنعاشاً ، يتضمن هجوم الشتاء ، وتيسير فتح قلعة سكتوار ، وقمع مردة الكفار الفجار ، والتماس الأذن الشريف السلطانى بذلك المكان إلى أن وصل ركابه الشريف السلطانى ، والالتحال بتراب الباب الشريف الخاقانى .

وبعد ذلك يعودون فى الخدمة الشريفة العثمانية ، إلى مقر التخت الشريف السلطانى بالقسطنطينية العظمى ، فأجيب إلى حضرة الوزير الأعظم ، إلى أن ما أشار إليه ، واستقر ركاب السلطنة الشريفة بذلك المحل ، والقرار عليه إلى أن ورد عليه حضرة الوزير الأعظم المشار إلى حضرته العليّة ، وباقى الوزراء

وأركان الدولة الشريفة السلطانية ، وقبلوا الركاب الشريف السلطانى ، وهنّوه بالملك الشريف الخاقانى .

وعاد فى الخدمة الشريفة إلى أسطنبول بغاية اليمن واليسر والقبول ، وعند الوصول إلى باب السراى الشريف السلطانى ، حصل من رعاع العساكر وغوغاتهم ، مدافعة وممانعة عن الدخول إلى السراى الشريف ، عند تجدد السلطان أدى إلى سوء أدب من بعض جهالهم ، فجاء المرحوم المفتى الأعظم رئيس العلماء والأعلام ، وكبير كبراء الموالى العظام ، مولانا أبو السعود أفندى العمادى ، عشر الله تعالى خطاه فى الجنة ، وأفاض عليه سحائب الأجر والثواب فى الجنة ، والفضل والمنة .

فوعظ العسكر ، وألان لهم الكلام ، والتزم لهم بعوائدهم وترقياتهم وعطاهم العظام ، فلانوا بعد القسوة ، واستغفروا من تلك الهفوة ، وصحوا من سكرة الجهالة ، واهتدوا بعد الضلالة ، ودخل حضرة السلطان الأعظم إلى سراية الشريف ، وجلس على تخته العالى المنيف .

ووفى العسكر ما التزم لهم به حضرة المفتى الأعظم ، وأفاض إحسانه عليهم ، وأنعم ، وصرف فى ذلك خزائن كثيرة لا تحصى ، ووزع عليهم من الورق المسجد مالا يحصى ولا يستقصى ، وأمر بقتل من كان سبباً لهذا الغوغاء من السفهاء ، وسكنت الفتنة ، ولله الحمد على جزيل النعمة ، وله الشكر على جميع الألاء ، وله الحمد فى الآخرة والأولى .

ودخل عليه الموالى العظام لتهنئة بالملك والتحية والإكرام ، ثم أركان الدولة على قوانينهم ، وحصل لهم بحسب مراتبهم الإجلال والإكرام ، وقرت عيون الأنام بكمال الأمن والاطمئنان ، وتمام أحسن الانتظام ، ثم جهزت البشائر السلطانية بين الممالك الشريفة العثمانية بالخلع الشريفة الفاخرة الخاقانية ، فحصل لنواب السلطنة الشريفة كمال الفرح والسرور وتمام الشرح والحبور ، بانتظام الأمور ، ووصلت التهنئة من ملوك الأطراف ، بالتحف والهدايا اللطيفة الظراف ، وقرت العيون ، وزالت الغبون ، واستقرت الخواطر والظنون ، فكان سلطاناً كريماً رؤوفاً بالرعية ، رحيماً عفواً عن الجرائم ،

حليماً محباً للعلماء والصلحاء ، محسناً إلى المشايخ والفقراء ، كان إحسانه يصل إلى فقراء الحرمين الشريفين ، وهو شاه زاده ، وفضل بتشارفه وكساويه فى كل عام إلى الفقراء والعلماء ، وكان يصل إحسانه فى كل سنة ، وبعد أن ولى السلطنة الشريفة ، لم يقطع عادة إحسانه ، واستمر يصل ذلك إليهم فى كل عام ، بحيث أضيف ذلك إلى دفتر الصرة الرومية ، ويقسم كل سنة على الحكم السابق إلى الآن ، فهو الملك الهمام ، المحسن النعام ، الفائض الإحسان والإنعام ، طالما طافت بكعبة الأمالى ، واعتمرت ، وصدع بأوامره الليالى والأيام فأوتمرت ، وغرس فى رياض السعادة عروس أشجار السيادة ؛ فسقت وأثمرت وغمر بحسن نظره أرجاء البلاد، فهدت بعد الخراب وعمدت، ودمر بسياسته أرباب الظلم ؛ فخربت ديار الظالمين ودمرت ، وكم أظهرت لسواد الكفر يد صارمة بيضاء آية للناظرين ، وكم جهز جيوشاً للجهاد فى سبيل الله ؛ فقطع دابر الكافرين .

فمن أكبر غزواته فتح جزيرة قبرس ، بسيف الجهاد ، ومنها فتح تونس الغرب ، وحلق الواد ، ومنها فتح ممالك اليمن ، واسترجاعها من العصاة البغاة ، أهل الإلحاد .

ومن خيراته تضعيف صدقة الحب وإرساله مدة سلطنته إلى الحرمين الشريفين ومنها الأمر ببناء المسجد الحرام ، زاده الله شرفاً وتعظيماً ، وكل ذلك من الآثار العظيمة ، والمزايا الفاضلة الكريمة؛ فلنذكرها بطريق الإجمال؛ لضيق المحال ، فأما قبرس فهو بالسين لا بالصاد ، كما يغلط فيه العوام ، جزيرة فى البحر .

قال الفقيه العدل المفنن أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد النور الحميرى فى كتابه « الروض العطار فى أخبار الأقطار » : قبرس جزيرة على البحر الشامى ، كثيرة القطر ، مقدارها مسيرة ستة عشر يوماً ، وبها قرى ومزارع وأشجار وهواشى ، وبها معدن الزاج القبرس ، ومنها يجلب إلى سائر الأمطار ، ومنها ثلاث مدن ومن قبرس ومنها ، ومن قبرس إلى أبلس الشام مجريان فى البحر ، وقبرس على ممر الأيام رخاءها شامل ، وخيراتها

كاملة ، وكان معاوية غزاها ، وصالح أهلها على جزية سبعة الاف دينار ؛ فنقضوا عليهم ؛ فغزاهم ثانية ، فقتل وسبى كثير ، وروى : أنه لما افتتحت مدائن قبرس ، واشتغل المسلمون بقسم السبى فيما بينهم ، بكى أبو الدرداء وتنحى مدائن عنهم ، ثم اختبئ بحبائل سيفه ودموعه على خديه ، فقيل له : أتبكى فى يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله ، وأزل الكفر وأهله ؟ ؛ فضرب على منكبيه وقال : ويحك ! ما أهون الخلق على الله إذ تركوا مرة ؛ فصاروا أذلة ، وصار حالهم على ما ترى من السبى والإهانة .

وبين جزيرة قبرس وساحل مصر خمسة أيام ، وبينها وبين جزيرة رودس مسيرة يوم واحد ، وإنما سميت جزيرة قبرس يرثن كان هناك ، يسمى قابرس كان يعظمه الكفار ، ويعظمون لأجله جزيرة قبرس ، وأهل مدينة قبرس موصوفون بالغناء واليسار ، وبها معادن الصفر ، ويجمع منها اللادن الحسن الرائحة ، الذى يغلب العود فى طيب رائحته ، وهو الذى يجمع منه على الشجر خاصة .

وكان يحمل إلى ملك القسطنطينية ، لأن أفضله وما يجمع منه ، فما تساقط على وجه الأرض يبيعونه للناس ، وكانت أم خزام بنت ملحان الصحابية (رضى الله عنها) شهدت غزوة قبرس ؛ فتوفت بها ، وأهل قبرس يتباركون بقبرها ، ويقولون : هو قبر المرأة الصالحة ، وكانت سألت رسول الله (ﷺ) ، ليدعوا الله عز وجل ، أن يجعلها من الذين يركبون بيح البحر يجاهدون فى سبيل الله ؛ ففعل ذلك .

وهو حديث معروف ، وكان الأوزاعى يقول : إنا نرى هؤلاء - يعنى أهل قبرس - أهل عهد ، وإن صلحهم وقع على شىء فيه شرط لهم وشرط عليهم، وأنه لا يسعهم نقضهم إلا بأمر يعرف به عذرهم ، ورأى عبد الملك ابن صالح فى حدث أحدثموه ، وإن الذى نقض لعهدهم ؛ فكتب إلى عدة من الفقهاء ، يشاورهم فى أمرهم ، منهم الليث بن سعد ، وسفيان بن

عيينة، وإسحاق بن الفزارى ، ومحمد بن الحسن ؛ فاختلفوا عليه ، وأجاز كل واحد مما ظهر له ، قالوا : وانتهى خراج أهل قبرس الذى يؤدونه إلى المسلمين بعد المائتين من الهجرة إلى أربعة ألف وسبعمائة ألف وسبعة والسبعين ألفاً . انتهى ما ذكره صاحب « الروض العطار » (١) .

وقلت : وقد تقدم مما نقلناه ، إنها افتتحت فى أيام الدولة الشريفة العثمانية، متهاونين يدفعون إلى الخزينة العامرة السلطانية ، ما كان مقرراً عليهم غير إنهم أخذوا فى المكر والخداع ، وإظهار الطاعة والوفاق ، وإخفاء الغدر والشقاق ، فصاروا يقطعون الطريق فى البحر على المسلمين ، وإذا أخذوا سفينة من سفائن المسلمين ، قتلوا جميع من ظفروا به فى تلك السفينة ، وغرقوها فى البحر ؛ لإخفاء ما فعلوه ، وصاروا يؤون قطاع الطريق من النصارى ، ويساعدوهم على المسلمين ، إلى أن كثر أذاهم وعم ضررهم ؛ فاستفتى المرحوم السلطان سليم خان مفتى الأنام مولانا أبى السعود أفندى العمارى (رحمه الله تعالى) ، فأفتاه بأنهم غدروا ونقضوا العهد ، وإن قتالهم جائز بسبب ارتكاب ما ارتكبوا من الغدر والخيانة ، فجهز عليهم حضرة السيلطان سليم خان ، جيشاً كثيفاً وعسكراً منيفاً منصوراً ، أرسلهم من البر ، وعمارة عامرة من جانب البحر ، وجعل سردان الجميع حضرة الوزير المعظم ، والمشير المفخم ، نظام العالم ، مدبر مصالح جماهير الأمم ، قائد جيوش الموحدين ، قاهر جنود الكفار والملحدين ، اعتضاد الملوك والسلاطين، اعتماد الغزاة والمجاهدين ، المخصوص بعناية رب العالمين ، حضرة مصطفى باشا اللألاء ؛ زاده الله تعالى عزاً وجلالاً ، وسعادة وإقبالاً ، وأيده بالنصر المبين والفتح القريب ، إسعاداً وإجلالاً .

---

(١) الروض العطار : لم أعثر على كتاب بهذا الاسم ، ولعله يقصد : الروض المعطار ، وهو كتاب : الروض المعطار فى أخبار الأقطار « الأمصار » لأبى عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميرى ، المتوفى سنة ٩٠٠ هـ ، وهو كتاب فى السير والأخبار جمع فيه لب كتب عديدة . كشف الظنون : ١/ ٩٢٠ .

فامتثلل الأمر الشريف السلطانى ، وبرز محفوفاً بالنصر الصمدانى ، والعون الربانى ، ومعه عسكر جرار ، حلو وجه الأرض بحراً وبراً ، كأنهم قطعة نار مضطرمة ، واشتد حراً ؛ فحاصرهم المجاهدون فى سبيل الله ، وضيق عليهم جنود الإسلام الغزاة ، ورسوا بالمدافع الكبار السلطانية عليهم ؛ فحطمت دورهم ، وهدمت قصورهم ، وصارت بيوتهم قبورهم ، وكسرت ظهورهم ، فافتتحت ببركة النبى (ﷺ) قلعتان ، وبقيت الثالثة ، وهى ماغوسا ، وفيها سلطانهم محصور ، وكل محصور مأخوذ ومأسور ؛ فأظهر الجلد وثبت وكابد فى محاصرته أنواع الكمد إلى أن وهن قواه ، وذاب كبده وحشاه ، واضطر إلى الأمان ، والبذل لحضرة الوزير الرفيع الشأن ، فشملت عناية حضرة الوزير المعظم المكين ، وأعطاه الأمان ، وشرط عليه أن يفلت من عنده من أسارى المسلمين ، ويدوس البساط الشريف السلطانى ؛ ليتم له التأمين ، ويحصل له التطمين ، فوافق على ذلك ، وأطلق الأسرى ، وحضر ليقابل حضرة الوزير المعظم جبراً وقهراً ؛ فأخبروه الأسارى ، إنه خان بعد انعقاد الأمان ، وقتل جماعة من أسارى المسلمين ، وأخفى ذلك عن المسلمين، وفعل هذه الخيانة سراً ، فلما علم حضرة الوزير المعظم أن ملكهم قد خان ، طلبه إلى ما بين يديه ، وأهانه غاية الهوان ، وركب وحمله غاية السرح ، وأمره أن يمشى قدامه كسائر الغلمان ، ثم ضرب عنقه لخيانته ، ونقض عهده ، وأخذ أمواله وذخائره ، وقتل من أراد ، واستأسر واسترق من أراد .

وصارت جيرة قبرس دار الإسلام ، وأضيفت إلى سائر الممالك الإسلامية العثمانية باجتهاد هذا الوزير العظيم ، وإصابة رأيه وتدبيره الصائب الأتم ، وما بلغنى تفصيل ما وقع فى هذه الغزوة ، وما أمكننى تحققها وأرادت كثيراً إفرادها بالتأليف ، وذكر ما وقع فيها ، فلم أظفر بذلك ، فإن أظفرنى الله تعالى بالاطلاع ، أجعل له تاريخاً مستقلاً ، واسع المجال ، لطيف الفاكهة ، بليغ المثال إن شاء الله تعالى .

وإما فتح بلاد اليمن ، فإن إقليم اليمن من صنعاء إلى عدن كانت داخلة فى

الممالك الشريفة السلطانية العثمانية ، فى أيام دولة المرحوم السلطان الأعظم ، السلطان سليم خان ، أسكنه الله تعالى فسيح الجنات ، وحف روضته الطيبة الطاهرة بالروح والريحان ، وكان أول فتحها الخاقانى على يد الوزير المعظم سليمان باشا الخادم بكلاريكن مصر .

لما توجه الخاقانى على يد الوزير المعظم سليمان باشا ، توجه إلى الهند ؛ لغزو الإفرنج البريقان فى سنة ٩٤٥ هـ ، وأقام بكلاربكيا ، واستمر كذلك فى تصرف الكلربكى الذى تول من الباب الشريف السلطانى ، يتولاها واحداً بعد واحداً ، إلى أن وزعت المملكة بين بكلاربكيين بعرض المرحوم باشا محمود ، إن مملكة اليمن واسعة ، يمكن أن يولى من أعلى الجبال ، من صنعا إلى تعز بكلاريكى ، ويتولى فى التهائم ، وهن زبيد وسائر السواحل والبنادر بكلاربكن أخر .

وكان هذا عين الخطأ ، فإن ذلك مظنة الاختلاف والجدال ، كما قال الله الحكيم المتعال : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ (١) ، فقيل : إعراضه فى الباب العالى ، قصداً إلى تكثير المناصب وتعدد البكلاربكية ؛ فولى أعلى اليمن وجبالها مراد باشا وكان يقال له : كور مراد باشا ، وكان يقال له : كور مراد لخلل كان بإحدى عينيه ، وكان خرج من سراى السلطان ، وكان من أمراء الصناجق ، وصار أمير الحاج الشامى ، ثم ولى صنجق غزة ، أعطى مملكة اليمن ، وولى جهة التهائم لحسن باشا ، وهو أيضاً من المماليك السلطانية ، برز من سراى السلطان ؛ فانقسمت عساكرها وأموالها ومحصولها إلى نصفين ، وضعف أمر كل واحد منهما .

وكان مطهر بن شرف الدين يحيى الزبيدى لعب الشيطان بعقله ، ووسوست له نفسه بالعصيان ، وكان داعية العصيان مضمرة فى خاطره ، طمعاً فى الملك ، فصادف انقسام المملكة وصول خبر وفاة المرحوم السلطان سليمان خان ، فأظهر العصيان هو ولفيفه من العربان ، وجهز أمير من أمرائه

---

(١) الآية سبقت الإشارة إليها .

يقال له : على بن بن شويع ، وجمع عليه العربان ؛ فقطعوا الطريق على مراد باشا فى محط زمان ، وهو غافل عن عصيانهم ، وكان قاصداً من تعز إلى صنعا ، وهى محصورة بالعربان الزبيديين ، وصلبوا كثيراً من الصناجق وحبسوهم ، فمات منهم من مات ، وهرب من هرب .

فلما أحاطت العلوم الشريفة السليمانية بما وقع من هذا الاختلال فى اليمن؛ برزت الأوامر الشريفة إلى بكلاريكن مصر يومئذ ، الوزير المكرم المفخم ، نظام العالم ، صاحب السيف والقلم ، مدبر مصالح جماهير الأمم ، فاتح ممالك اليمن الأيمن من كوكبان إلى عدن ، وقالع قلاع حلق الواد ، وآخذ بلاد تونس الغرب ودفع الكفر عنها والمحن ، ليث عرين الوطيس ، افتراساً وشده جش وبأساً ، الوزير المعظم سنان باشا ، فإنه أسد ضرغام ، وليث قمقام وحسام صمصام ، وكريم محسن ، فائض جواد بذول لم يمحق الهلال إلا ليكون نعلاً فى حافر جواده ، ولا مدت الثريا كف الخضب إلا للتمسك بذيل أفضاله وإمداده ، ولا فتحت الرواة أفواهها إلا لتنطق بمدحه لسنة الأقلام، ولا حبر الحبر بياض الطروس ، بعواد السطور إلا ليشير إن الليالى والأيام له من جملة الخدام ، طالما طوق الأعناق أطوقاً من الأفضال والأنعام، كأنها أطواق الحمام ، وكثيراً ما أحسن إلى العلماء والصلحاء من جيران بلد الله الحرام ، وجيران سيد الأنبياء والرسل الكرام (عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام) .

وكنت ممن شملنى بره وإنعامه ، ووصل إلى فى أكثر الأيام إحسانه وإكرامه؛ فانطلق لسانى بالثناء عليه لإحسانه وبره ؛ فجلدت ذكر محاسنه فى صحائف الكتب والدفاتر ، ورقمت كرائم صفاته فى أوراق لا يلحقها الجديران ، ولا يبليها الدهر الغائر ، وكتبت باسمه الشريف تاريخاً سمينه « البرق اليمانى ».

ذكرت فيه أحوال اليمن فى سنة ٩٥٥ هـ ، واستيلاء حسين الكردى وطائفة الجراكسة ثم اللواندلى ، ذمرة الفتح العثمانى أولاً على يد الوزير سليمان باشا ، ثم استيلاء الزبيديين ، جيوش مطهرين شرف الدين ، ثم الفتح العثمانى ثانيا على يد الوزير المعظم سنان باشا أدام الله تعالى نصره

وإجلاله ، وخلد سعادته وإجلاله على سبيل التفصيل ، واكتفيت بما ذكرته فى هذا التاريخ على إعادته هنا ، فإنه يروى العليل ، ويفصل تلك الأحوال غاية التفصيل ، وكنت صدرت ذلك التاريخ بقصيدة طنانة ، من نظمى الطنان ، سارت بها الركبان ، وتلقنها بالقبول أدباء وعلماء البلدان أحببت إيرادها هنا لبلاغتها عند علماء البيان وفصحاء اللسان ، لسابق ألفاظها ومعانيها إلى الأذان والأذهان ، وسحب كل كلمة منها أذيال البلاغة على سبحان ، وهى هذه :

لك الحمد يا مولاى فى السر والجهر	على عزة الإسلام والفتح والنصر
كذا فليكن فتح الزمان إذا سعت	له الهمم العليا إلى أشرف الذكر
جنود رمت فى كوكبان خيامها	وأخرها بالنيل من شاطئ مصر
تجر من الأبطال كل غضنفر	بصارمة يسطوا على مفرق الدهر
عساكر سلطان الزمان فليكنا	خليفة هذا العصر فى البر والبحر
ممن حوزة الدين الحنفى بالقنا	وبيض النواصى والمثقفة السمر
لهم فى سليل الملك أصل مؤصل	تلقاه عن أسلافه السادة الغر
ملوك تساموا للعلى وخلائف	أولوا العزم فى أزمانهم وأولوا الأمر
شموس تفيض النور يمحو غياهبا	من الكفر منهم يستمد ضياء البدر
هم ملؤا عين الزمان وقلبه	فقرت عيون العالمين من البشر
هموا العقد أعلا اللآلئ منظماً	وسلطاننا فى الملك واسطه الدر
شهنشاه سلطان الملوك جميعهم	سليم كريم أصله طيب النحر
عماد يلوذ المسلمون بظله	وسد منيع للأنام من الكفر
وحيد أتاه أن قد اختل جانب	من اليمن الأقصى أصر على القهر
وساق لها جيشاً خميساً عرمرماً	تدك فجاج الأرض فى السهل والموعر
لهم أسدٌ شاكى السلاح عرينه	طول الرماح السمهرية والبتر

وزير عظـــيم الشـــأن ثاقب رأيه ... يجهــز فى أن جيوشاً من الفلكر
يقــوم بأعــباء الــوزارة قومـــــة ... يشـد جيوش الدين بالأيد والأزر
أياد لـه بالبـــأس كاسـرة العدا ... ولكنها بالجود جابرة الكســـــر
به بأمــن الله البــلاد وطـــمن الـ ... عباد وأضحى الدين منسرح الصدر
ســـنان عزيز القدر يوسف عصره ... ألـم تره فى مصر أحكامه تجـرى
تدلى إلى أقصى البلاد بجيشــــه ... ومهـــــد ملكاً قد تمزق بالشـــر
وشــــتت شمل الملحدين وردهم ... مثال قرود فى الجبال من الذعـــر
وقطع رؤوساً من كبار رؤوســـهم ... لهم باطن السرحان والطير كالقـبر
وكان عصى موســى تلقف كلما ... بدا من صنع الملحدين من البحر
ولا زال فيهم عامل الرمح عاملاً ... ولا برحوا بالذل فى القتل والأسر
ومـا يمـــن إلا ممـــالك تبــع ... وناهيك من ملك قديم ومن فخر
وقد ملكها آل عثمان إذ مضـــت ... بنو طاهر أهل الشامة والذكـــــر
فهل يطمع الزيدى فى ملك تبع ... ويأخــــذ من آل عثمان بالمكر ؟
أبى الله والإسلام والسيف والقنا ... وســـــر أمير المؤمنين أبى بكــــر

ولما تم الفتح الخاقانى العثمانى فى القطر اليمانى عاد الوزير المعظم إلى بلد الله المكرم ، وحج حجة الإسلام ، وزار المزارات المشاهد العظام ، وصادف الحج الأكبر ، وكانت الوقفة الشريفة يوم الجمعة أفضل الأيام ، وأثر بلد الله أنواع الخيرات والإنعام ، وأحسن إلى أهل الحرمين الشريفين ، ومن حضر فيهما من حجاج الأنام ، وقابل شرفاء مكة المشرفة ، أدام الله تعالى عزهم وسعادتهم بالإجلال والاحترام .

فمن آثاره الخاصة به فى المسجد الحرام ، تعميره حاشية المطاف ، وكانت من بعد أساطين المطاف الشريف دائرة حول المطاف ، مفروشة بالحصى ، يدور بها دورة ، حجارة منحوتة مبنية حول الحاشة ، كالإفريز لها ، فأمر

الوزير المعظم المشار إليه ، بفرش هذه الحاشية بالحجر الصوان المنحوت ؛ فرشت فى أيام الموسم ، وصار محلاً لطيفاً دائراً بالمطاف ، من بعد أساطين المطاف ، وصار ما بعد ذلك مفروشاً بالحصى الصغار ، كسائر المسجد ، وهذا الأثر خاص به، ذكره الله تعالى بالصالحات، وأدام له العز والسعادات.

ومنها تعمير سبيل التنعيم ، أنشأها ، وأمر بإجراء الماء من بئر بعيدة ، منها يجرى الماء إلى السبيل فى ساقية مبنية فيما بينهما بالجص والنورة ، وعين لها خادماً ؛ يسقى من البئر ، ويصب من الساقية ، فيصل الماء إلى السبيل ، يشرب منه ، ويتوضأ به المعتمرون والواردون ، والصادرون ، ويدعون له بالنصر والتأييد ، وعين لمصارف ذلك من أوقاف مصر .

ومنها آبار حفرها بقرب المدينة الشريفة لقوافل الزوار فى وادى مفرح ، وغيرها كثيرة النفع جداً ، ومنها قراءة ختمة شريفة فى كل يوم ، يقرؤها ثلاثون نفراً بمكة ، وأخرى بالمدينة الشريفة ، وعين لكل قارئ جزء فى كل سنة ، ٩ دنانير ذهباً جديداً ، وكذلك المفرق الأجزاء ، والداعى وشيخ القراء، وعين مصارف ذلك جميعه من أوقافه التى بمحروسة مصر ، عمرها الله تعالى ، وجعل ناظرها ، والمتكلم عليها ، وعلى سائر ما عينه من الخيرات ، سيدنا ومولانا شيخ الإسلام وقاضى المسجد الحرام ، سلالة النبى (عليه أفضل الصلاة والسلام) ، بدر الملة والدين ، السيد القاضى حسين الحسينى أدام الله عزه وإقباله ، وضاعف سعادته وإجلاله ، وكل هذه الخيرات باقية جارية إلى يوم القيامة إن شاء الله تعالى .

وأما فتح حلق الواد ، وبلاد تونس الغرب ، فهى من أجل الغزوات العثمانية ، وأعظم فتوحاتهم الكبيرة العلية ، الواقعة فى أيام السلطان الأعظم السلطانى السلطان سليم خان العثمانى (رحمه الله تعالى) رحمة واسعة وغفر له مغفرة جامعة ، ومتعة بالنظر إلى وجهه الكريم ومنحه جنات النعيم ، وبيان ذلك .

إن سلطان الغرب من آل حفص ، لما ضعفوا ووهنوا، وقع بينهم اختلاف، صار بعضهم يلتجئ إلى نصارى الإفرنج ، ويأتى بجنود الكفر ، ويستعين بهم

عليهم ، على أخذ تونس ، وصار الإفرنج يقاتلون فى تونس من المسلمين ، ويقتولنهم ويسبون نساءهم وأولادهم ، ويبنون القلاع ، فى تلك البلاد ، ويواصلون بجنود النصارى إلى بلاد اليمن ويولون من تحت أيديهم سلطاناً ، من ذوى سلاطين تونس قديماً ، على بلاد تونس ، ومن بها من المسلمين ، إلى أن صار المسلمون تحت حكم النصارى ، وعم أذاهم على المسلمين ، وانفردوا عنهم ، وبنوا قلعة عظيمة محكمة الإتقان ، مشيدة البنيان ، بقرب تونس فى موضع يقال له حلق الواد ، كأنه بناء شداد ، ووضع الوزير من قبائل عاد وثمود ، الذين جابوا الصخر بالواد ، وشحنوها بالأبطال الباطلين من شجعان النصارى والمشركين ، وملؤها بآلات الحرب والقتال ، وصار النصارى تكمن للمسلمين ، ويرسلون منها الأغوبة والمراكب فى البحر على بلدان المؤمنين الموحدين ، ويقطعون الطريق على المسلمين ، ويأخذون كل سفينة غصباً ، وعم أذاهم المسلمين ، قتلاً وأسراً ونهباً وسلباً ، إلى أن تعدى ضررهم على طوائف أهل الإسلام ، وزاد فساد أهل الصلب على ضعف المسلمين ، وكبير ملوك النصارى الآن ، صاحب إشبيله من جزيرة الأندلس ، أعادها الله تعالى دار الإسلام ، ببركة النبى سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام .

ويسيمون العوام أصبانية تحريفاً ، حكم إشبيله ، جهز جيشاً كثيفاً ؛ لأخذ تونس ، ووالس على ذلك سلطان أحمد بن حسين الحفصى ، قابله الله على سوء فعله بما يستحقه ، فأخذت النصارى مملكة تونس ، ووضعوا السيف فى أهلها ؛ فقتلوا الرجال ، وسبوا الأولاد والنساء والأطفال ، وباء أحمد المذكور بإثمه ، واسود فى صحائف الأيام والليالى ديباجه ، واسمه ورسم ديباجه ، وجاهه واسمه واستلب خاسراً مدحوراً ، وانخلع عن بقه الدين ، وزاد خيبته وكفوراً ، ونفرت قلوب المسلمين منه ، وزادت نفوراً ، وكيف لا يكون كذلك؟ وقد استعان بملة الكفر على الإسلام ، واستدعى عبدة الصليب والأصنام ، ينتصر بهم على ملة محمد ، عليه أفضل الصلاة والسيلام ، وامتهن دار الإسلام تونس بإقدام أولئك الكفرة اللئام ، والاعتصام بالله الكبير المتعال .

فانتشرت هذه الأخبار المدهشة ، والأشياء المظلمة الموحشة ، إلى أن وصلت إلى أبواب سلطان سلاطين الإسلام ، ظل الله الممدود على مفارق الأنام ، مالك صفوة الملك ، من الذروة إلى الغارب ، ملك الملوك من مشارق الأرض إلى المغارب ، واسطة عقد ملوك آل عثمان ، المشمول شمول الرحمة والمكرمة والغفران السلطان سليم خان سقى الله عهده صوب الرحمة والرضوان ، وأبقى السلطنة فى عقبه إلى انتهاء الزمان .

فلما طرق سمعه الشريف هذا الحادث الرجيف ، وعلم ما أصاب الإسلام من هذه المصائب العظام والامتهان الذى قصم الظهر وأوهن العظام ، استشاط غيظاً وغضباً ، واضطربت نار حميته ، وتأججت لهيباً ، وتحركت العصبية الإسلام ، والتهبت نيران الحمية العثمانية ، وقام وقعد ، وأرغى وزبد وأبرق وأرعد ، وهدد وأوعد ، وخاطب الخطباء العظام ، والبكلاربكية الكبراء الفخام ، وقال : من يقدم منكم على نصرة الإسلام ، وإذلال الصليب والأصنام ، ويستنقذ من أسر من المسلمين ، بيد أولئك النصارى الطغام ، ويخرجه من عهدة الكفار الفجرة اللئام .

فبادر الوزير المعظم والليث الغشمشم صاحب السيف والقلم ، فاتح ممالك اليمن الأيمن ، أبو الفتوحات ، سنان باشا المفخم ، لا زالت ألوية نصرة منشورة الذوائب ، مشرقة كالشمس ، يغشى ضوؤها المشارق والمغارب ، صاعدة إلى أفق السماء ، حتى تزاحم مناكب الكواكب ، وقال :

أنا السيد هذه الخلة ، أنا لها أفرج كربها ، وأفتح مقفلها وأصلح خللها ، وأزيل عللها ، ولم يدخرنا السلطنة الشريفة الخاقانية ، ولا رتبنا العواطف الكريمة العثمانية إلا لبذل أرواحنا وأموالنا ، فى مثل هذه الحوادث ، وندفع عن المسلمين ما يصابون به من المصائب والكوارث .

فقابله السلطان الأعظم بالشكر منه والثناء عليه ، وشرف الالتفات الشريف السلطانى إليه ، وجعله سد دار العسكر المنصور ، وأمره بالتوجه إلى قهر النصارى المقهورة ، وأمره أن يتوجه معه لمساعدته ومعاونته ، ودفع ملالته وسأمته ، وضبط العساكر البحرية ، وترتيب السفائن البحرية ، قابودان الباب

العالى ، فارس ميدان البحر السائر ، إلى قلعة امتراح المعالى ، الأسد الضرغام ، والليث القمقام ، والصارم الصمصام ، أمير الأمراء العظام ، قلج على قابودان باشا ، يسر الله تعالى من الفتوحات ما يشاء ، فشرعا فى أخذ أسباب السفر ، وأخذا معهما من أمراء الصناجق وشجعان العسكر ، كل أسد غضنفر ، وكل باسل معقود بناصيته أسباب النصر والظفر ممن له فى حرب البحر اليد البيضاء ، والمعرفة التى يتصرف بها فى الماء والهواء ، وشحنوا مائتى غراب ، يطير بأجنحته القلاع ، وتهدم بما فيها من المدافع محكمات الحصون والقلاع ، وعدة من المؤنات الكبار ، يحمل الأثقال ، ودفع الأحمال الثقال ، وشيل مكاحل النحاس ، لحطم الثغور ، وهدم السور والحسور إلى الأساس ، وكثرة التخويف والترتيب ، وشدة القوة والبأس .

وكان يوم بروز العسكر المنصور من القسطنطينية العظمى ، يوماً عظيماً مشهوداً ، وساعة مباركة ، أظهرت يمناً وبركة وصعوداً ، وكان الجمع المنصور جمعاً مباركاً منصوراً ، وذلك فى غرة ربيع الأول سنة ٩٨١ هـ .

وركب الوزير المعظم سردار العساكر حضرة الباشا سنان والقابودان ، والعساكر المنصورة بنصر الله الملك الديان ، شبح البحر ، كأنهم طوفان فوق طوفان وطارت بهم الأغربة على وجه البحر أقوى طيران ، وتلت ألسنة القراء ﴿ وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها ﴾ (١) ، فوصلوا إلى اليمان إياوارين ، واستمروا سائرين فى البحر ، حتى وصلوا إلى ماللو كليسان من مملكة البندقية ، فوصلوا فى يوم الخميس من مضين من شهر ربيع الأول ليمان الخير ، واستقروا بها ليلة الجمعة ، وأصبحوا متوجهين ، والسعد يخدمهم ، والنصر والفتح والظفر يراقبهم ويقدمهم ، وقد عبروا بسفائنهم إلى العمان ، وما أمكن لغيرهم من العساكر عبور العمان بهذه السفائن الكثيرة ، حفظاً من تصادمها عند شدة تموج البحر ، ولكن الله تعالى مسلم من أراد ، لا دافع

(١) الآية رقم ٤١ من سورة هود ، مكية .

لمراده ، ولا راد ، وهو على كل شيء قدير ، فساروا تارة بالقلوع ، وتارة بالكورك على ظهر ذلك البحر الواسع ، إلى أن ظهرت لهم فى اليوم الثامن جبال قلادرية ، واستمروا كذلك إلى أن وصلوا وقت الظهر ، يوم التاسع إلى طرق حصار ، وهو حصا منيع للكفار على ساحل البحر ، فلما وصلت العساكر المنصورة الإسلامية إلى ذلك المكان ، جاءتهم الكفار الملاعين ؛ فدهكهم العسكر المنصور دهكاً ، ودكوا تحت أرجلهم الأرض دكاً ؛ فهربت الكفار إلى قلعة حصينة تسمى سحة ، ووقع قتال عظيم ، استشهد فيه من رزق سعادة الشهادة ؛ فأعطاه الله تعالى فى جهاده الحسنى وزيادة ، منهم كتخدا حضرة القبودان سنجق فرح محمد بيك ، نزل من سفينته ، مشتاقاً إلى الجهاد فى سبيل الله ؛ فأصابته بندقة فى خده ، نفذت من الجانب الآخر ، استمر بها صاحب فراش ، خمسة أيام ، تلت عليه الملائكة : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عندهم ربهم يرزقون ﴾ (١) ، فانتقل إلى رحمة الله تعالى ، شهيداً ، ومضى إلى دار الآخرة سعيداً ، ثم رمى وقت المغرب مدافع الأعلام الغزاة ، بالعود إلى سفائنهم للمسير ؛ فحضروا وركبوا ؛ فرفعت القلاع ، وصاروا تارة برفع القلاع ، وتارة بالكورك إلى أن وصلوا فى اليوم الرابع عشر إلى مدينة مسينة، استقر بها قليلاً عسكر المسلمين، ثم ساروا ، فلما وصلوا إلى محاذات حصار سرادون ؛ حصلت فرنونه فى البحر تفرقت بسببها السفائن ، من الضحى إلى آخر النهار ، ثم اجتمعت وقت العشاء فى محل يقال له : كركرتم ، مروا بقلل أياث ؛ فحوصرت وهدمت قلعتها ، وقتل من بها ، ثم ساروا فلاحت قلعة أولاد ، وصل إليها بعض العسكر المنصور ، ونهبوا ما وجدوا بها من الذخائر ، وقتلوا من ظفروا به من النصارى ، وعادوا إلى سفائنهم ، وصاروا ينزلون لأخذ السفينة كل يوم ، إلى جانب من ساحل صجله .

وكلما وصلت يدهم إليه من نهب أو غارة ، وقتل لطائفة الكفار ، بادروا

---

(١) الآية رقم ١٦٩ من سورة آل عمران ، مدنية .

إليه ؛ وأخربوا قراهم ودورهم وساسهم ، وعادوا إلى سفائنهم ؛ فاجتمع كل من ذلك الساحل من النصارى من فارس ولأجل ، وساروا عسكراً ، وأقدموا للقتال من يترل إلى البر من المسلمين ؛ فخرج إليهم من السفائن بعض البخارين والكوركجية ، وبعض من بنيته الجهاد فى سبيل الله تعالى ؛ فقاتلوا الكفار ، وهزموهم ، وقتل منهم خلقاً كثيراً ، وفر الباقون ، ولم يعهد للملاعين مثل هذه الهزيمة والخسران ، وذهاب أرواحهم وأموالهم ، وأسروا أولادهم ونساءهم قبل الآن : ﴿ ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ [(١)] .

ثم أطلق المسلمون النار فى تلك السواحل وأحرقوا أشجارها وقصورها ، وعجلوا بأهلها إلى جهنم ، وساءت مصيراً .

وفى اليوم الحادى عشر من ربيع الأول ، ظفر عسكر الإسلام بسفينة للنصارى مشحونة قمح ، كانت متوجهة إلى بعض قلاعهم ، واغتنم المسلمون ذلك ، وكان فألاً حسناً للمسلمين ، وفى اليوم الثانى عشر من الشهر المذكور وصلوا إلى جهود أوس ، وطاب الريح للمسلمين ؛ فوصلوا إلى قلعة خراب من أرض تونس ، فيها مالقه لودلن ، وهى على ثمانية عشر ميلاً من مدينة تونس ، فتزينت السفائن والأغربة بالرايات المصبوغة ، ألواناً إظهاراً لهيبة الإسلام ، وعنواناً للعساكر المنصورة العثمانية ، فأرسوا فى اليوم الرابع والعشرين فى جزيرة حلق الواد ، ونزلت العساكر المنصورة السليمانية ، ونصب وطاق حضرة الوزير المعظم والقبودان المكرم ، على مسافة لا يصل المدافع إليها من حلق الواد ، ونزلوا المدافع الكبار ، التى إذا رمى بها ، تزلزلت الجبال ، وتهدمت ، وتخرب الأطود الكبار وتحطمها ، وشرعوا يتقربون قليلاً قليلاً إلى القلعة ، ويبنون لهم متاريس ، يتترسون بها ، ويسوقون الأتربة أمامهم ، ويستقرون خلفها ، ويحفرون خنادق ينزلون فيها ، كيلاً تصيبهم المدافع ، ويتقربون ويدنون إلى القلعة على هذا الأسلوب إلى أن أحاطت العساكر المنصورة بقلعة حلق الواد وتقدموا بالبنادق ، والآن الجهاد ،

---

(١) الآية رقم ١٢٧ منو سورة طه ، مكية .

ونصبوا بقرب القلعة المنجينقات والمدافع ، ووجهت إلى صوب الكفرة أفواه المكاحل الكبار والمصانع .

وبرز حضرة الوزير الأعظم سنان باشا محفوفاً بنصر الله ، يخوض هول الموت ، وهو يراه محتسباً نفسه فى سبيل الله ، معتمداً على عون معين بصير ، تسجد لعظمته الجباه ، وأقدمت العساكر المنصورة بصدق اعتقادها ، وثبتت النصارى ، بغلظ أكبادها ، وشبه أحقادها ، وتراموا بالمدافع الكبار ، التى هى من أشد الصواعق ، وأخطف للأسماع والأبصار من الرعود البوارق تخطف ما صدفت من النفوس والأرواح ، وتمزق ما هدمت من الهياكل والأشياح ، وتفك اللحم عن العظم ، وتذيب الشحم ، وتسيل الدم والعساكر المنصورة ، يقدمون على هذه الأهوال ، ثابتون ثبات الأطواد والجبال ، على الحرب والقتال والجهاد مع المشركين والجلاد ، إذ ورد الخبر بوصول بكلاربكى تونس المتولى عليها من قبل السلطنة العثمانية الشريفة ، أمير الأمراء الكرام ، كبير الكبراء المجاهدين العظام ، حيدر باشا ، وكذلك بكلاربكى طرابلس الغرب أمير الأمراء العظام ، كبير الكبراء الطعام ، ذو القدر والعظمة والاحتشام ، مصطفى باشا أيدهما الله تعالى ، بالنصر والتأييد ، وظفرهما على كل كافر عنيد ، وكانوا وصلوا قبيل وصول العمائر الشريفة السلطانية إلى البر ، إلى مقدار نصف يوم عن تونس ، بقصد محاصرتها وأخذها .

فلما علما البكلاربكيان بوصول العمائر السلطانية إلى حلق الواد ، واشتغال العسكر المنصور بالجهاد ، وصلا ليلاً بالخفية مع قليل من الغلمان إلى وطاق سردار العمارة المنصورة ، الوزير المعظم سنان باشا وأمراها أن يتوجه معهما بنفسه ، فأمر طائفة من أمرائه ، وعين نحو ألف نفر من التوفكجية ، وبعض المدافع الكبار والضربزنات ، أن يتوجهوا مع البكلاربكين إلى محاصرة تونس ، وأخذها من النصارى الفجار ، وأرسل معهما من أمراء الصناجق ، فخر الأمراء العظام ، إبراهيم بيك ، من صناجق مصر المحروسة ، وصنجق فرس محمود بيك ، وصنجق قرة حصار بكلاربكى ، ومقدار ألفى نفر من

طائفة كوكلو ، مع أغائهم حبيب بيك ، فتوجهوا فى الحال مع حيدر باشا ، ومصطفى باشا ، وأحاطوا بتونس .

وكان السلطان الموالى للنصارى أحمد الحفصى ومن معه من النصارى ، رأوا أنهم عاجزون على حفظ تونس لسعتها ، ورأوا أن قلعتها خراباً أيضاً متهدمة لا تصونهم ؛ فخرجوا من تونس إلى رمله ، بقربها ، يقال لها قريلودكن ، يعنى بحر الرمل ، وعملوا بها حصراً من الخشب ، حشوه بالتراب والرمل وتحصنوا فيه ، وكانوا سبعة آلاف مقاتل ، ما بين كفار ومرتدين ، ومردة من النصارى المخذولين ، وشحنوا هذا الأثاث بآلات الحرب والمدافع والذخيرة ونحو ذلك .

فلما خلت تونس من أعداء الدين ، فتحها عساكر المسلمين ، وضبطوها وحصنوها ، ثم برزوا إلى قتال أولئك الملاعين ، وحاصروهم فى قلعتهم التى أعدوها ، وأحكموا ، وأحدثوها بالألواح والأخشاب والطين ، وأرسلوا خبر ذلك إلى سردار عساكر المسلمين ، الوزير المعظم سنان باشا ؛ فأرسل لنصرتهم وإمدادهم وإعانتهم القبودان المذكور ، والبكلاربكى المفخم قلج على باشا ، فتوجه بطائفة من المسلمين من العساكر المنصورة السليمانية إلى إعانة بكلاربكى تونس ، حيدر باشا وبلكاربكى طرابلس الغرب مصطفى باشا ، ومن جهز معهما من العساكر سابقاً ، وهم محيطون بالقلعة ، التى تحصن بها الكفار الأشقياء من العربان المرتدين ، فرأى قلج على باشا صعوبة أخذ القلعة لكثرة من فيها من المقاتلة ؛ فطلب عسكراً آخر ، وعدة ومدافع أخرى ، من الوزير المعظم سنان باشا ؛ فأرسل إليه ألف ينكجرى ، وصمعوا محى أى ، ومن سلحدارية الباب العالى على أغا ، وجهز معهم ثمان مدافع ، وست ضربزن ، ولحقوا بالقبودان ، قلج على باشا ، وأحاطوا بقلعة الكفار ، وبنوا المتاريس ، من كل جانب ، ومع ذلك ، كانت الكفرة الملاعين ، ومن ارتد منهم من عربان تونس ، فى غاية الكثرة والقوة ومعهم الخيول ؛ فخرجوا من القلعة ، مراراً وهجموا على عسكر الإسلام ، فى جهة من جهات القلعة ،

وقاتلوا المسلمين قتالاً شديداً ، وعادوا إلى قلعتهم واستشهد فى ذلك اليوم كثير من المسلمين ؛ فانتقلوا إلى رحمة الله تعالى فى أعلى عليين .

فلما بلغ حضرة الوزير المعظم ما فيه عسكر المسلمين من الشدة ، جاء بنفسه إليهم ، فإن المسافة قريبة ، وعساكر المسلمين محيطة بقلعة حلق الواد والحرب قائم على حاله ، فتوجه حضرة الوزير إلى تلك القلعة المحصورة بقرب تونس ، وشاهدها ، ووزع على جوانبها عساكر المسلمين ، وقوى جأشهم ، وعين فى كل موضع طائفة ، وأشار إلى القيودان والبكلاربكية بما رأى فيه الصواب ، وطمنهم وشد قلوبهم .

وعاد من يومه إلى حلق الواد ؛ لاحتياج عساكر المسلمين عليه فى هذه الجهة أيضاً ، واستمر كل من الفريقين فى مجاهدة الكفار وهم على الثبات والقرار ، لا يسأمون من مصادمة النار ، ولا يخافون من الموت ، لأنهم مقدمون على جنة الخلد ، وملك لا يبلى طالبون درجة الشهادة ، من الله تعالى الأعلى .

ووصل فى هذا الاثنا عشر ، بكلاربكى الجزائر سابقاً ، أمير الأمراء العظام أحمد باشا ؛ لإعانة عسكر الإسلام ، وأقبل على حضرة الوزير الأعظم واستأمر لما يأمره به ، فأعطاه عدة من المدافع ، وعين له جهة الجنوب من حلق الواد ؛ فتوجه إليها ، وبنى المتاريس ، وجاهد فى الله حق جهاده ، وأقدم على قتال الكفار ، ألقى الحرب مقاليد قياده ، فوصل العسكر المنصور إلى حافة خندق الكفار ، فى مقدار أربعة عشر يوماً ، وبنوا على حافته المتاريس .

وكان الكفار قد نقبوا تحت الأرض نقباً طويلاً ، ووصلوا إلى موضع كان كرك حافه ، وفيه قلة مرح ، تصلح للتحصين فيه ؛ فوصلوا إليه من تحت الأرض ، وملأوه من الرجال وآلات الحرب ؛ ففطن المسلمون لذلك ، وكان قريباً من الجانب الذى فيه حضرة الوزير ؛ فتوجه إليه بنفسه النفيسة ، ووقع فيه حرب شديد ، وأخذت القلعة ، وقتل من فيه من النصارى المذلولين ،

فأرسل حضرة الوزير بالليل ، من يقيس عمق الخندق ، الذى وصل إليه العسكر المنصور ، فكان عمقه ستون ذراعاً بذراع العمل ، وقعره متصل بالبحر مملوءٌ بماء البحر .

فتشاور الوزير مع الأمراء وأصحاب الرأى فى ذلك ، فما وجدوا لذلك حيلة ، سوى أن يملأ الخندق بالتاب ، ويبنى عليه المتاريس ، فأمر الوزير المعظم ، وسائر العسكر بذلك .

فشرعوا فى نقل التراب من جلف المتاريس وباشر حضرة الوزير ، المشار إليه ذلك ، ونقل بيده الشريفة التراب ؛ ابتغاء مرضات الله العزيز الوهاب ، ونصرة لدين الإسلام ، وتأييداً لدين محمد عليه أفضل الصلاة والسلام .

ورأى الأمراء ذلك ؛ فبادروا بأنفسهم إلى نقل التراب ، ورأى العسكر المنصور ذلك ؛ فهموا بأنفسهم غاية الاهتمام ، وأقدموا نهاية الإقدام ، وحملوا التراب بأذيال الثياب ، ورموا بها فى الخندق ، إلى أن امتلأ ، وزاد فى الارتفاع ؛ فبنوا المتاريس فوق ذلك إلى أن اعتلوا على الحصار ، وذلك لأربع عشر ليلة ، خلت من شهر ربيع الثانى سنة ٩٨١ هـ .

فصارت مدافع المسلمين تصل إلى وسط قلعة الكفار ، وتقتلهم ، وتحرقهم بالنار ، وتسوقهم إلى جهنم وبئس المصير ، ووصل فى هذا اثنا عشر بكلاريكى الجزائر المتولى عليها إذ ذاك ، أمير الأمراء العظام رمضان باشا ، ومعه أربعة آلاف مقاتل ، واجتمع بحضرة الوزير المعظم ، وطلب معه خدمة يؤديها ؛ فأرسله ومن معه فى عسكر الإسلام إلى إعانة المسلمين ، الذين حصروا الكفار بالقلعة التى بقرب تونس ، فتوجه إليها ، ونزل فى جهة من جهاتها وحط عليها ، مع من هناك من البكلاربكية والأمراء والغزاة والمجاهدين والكبراء ، واستمر حضرة الوزير فى محاصرة قلعة حلق الواد والاستيلاء على من فيها من أهل الكفر والعناد ، وأقدم المسلمون على الدخول إلى الحصار ، لما شاهدوا من الكفار .

وحمل الوزير المعظم ومن معه من الأبطال جملة واحدة نزلت الجبال ،

وحمل من الجهات الثلاث من العسكر والأمراء والرجال ، ودخلوا القلعة وفتحوها عنوة بالسيف والقتل، لست مضين من جمادى الأول سنة ٩٨١ هـ.

ووضعوا السيف فيمن وجد بها من الكفار الفجار ، وساقوهم بالنار إلى عذاب جهنم ، وبئس القرار ، وغنموا ما وجدوا بها من آلات الحرب ، والذخائر وغير ذلك ، واستؤسر صاحب القلعة كبير النصاى المخذولين ، وكذلك أسر سلطان تونس أحمد الحفصى وحبسهما وقيدهما حضرة الوزير ، وأمر بقتل سائر من وجد من النصارى ، والعرب المرتدين ، وفرح بفتح هذاي الحصن الحصين كافة أهل الإسلام والمؤمنين ، واستبشروا بهذا الفتح ، والنصر المبين ، فإنه يعد من أجل فتوحات الإسلام ، وأعظم التأييدات لدين محمد عليه أفضل الصلاة والسلام .

وكانت هذه القلعة من أعظم القلاع التى استحكمتها النصارى اللئام ، وأقواها فى المكنة والاستحكام . ومن جملة الاستحكام : أن هذه القلعة المنكوسة ، بنتها النصارى المخذولين فى سنة ٩٣١ هـ ، وأكملوا استحكامها فى ثلاث وأربعين سنة ، فافتتحها الوزير المعظم فى ثلاثة وأربعين يوماً من أيام محاصرتها ، بعدد السنين عن أيام محارتها بعدد السنين التى أحكم فيها بناؤها كل يوم بسنة .

ولما تم الفتح المبارك رأى حضرة الوزير ترسمها وعمارتها وحفظها بالعساكر وآلات الحروب ، يحتاج إلى مؤنة كثيرة ، وخزائن من الأموال كثيرة مع قلة جداها ؛ لبعدها عن الباب العالى ، وطول مداها ، فرأى أن الأولى هدمها وتخريبها ؛ حتى لا تصير للنصارى المخذولين سكناً ، ولا مأوى يتحصنون فيه ؛ فأمر بهدمها ؛ فهدموها حجراً حجراً ، وتركوها خيراً لا أثراً، وعملت المعاول فى رأسها إلى أن وصلوا إلى أساسها .

فصارت طللاً من الأطلال ، ودمنة يلعب فيها هبوب الصبا والشمال ، ولا يسمع فيها نداء وصدى الأصياح يوماً ، ولم يبق بها أنيس إلا اليعادفير والألعيس .

وأرسل حضرة الوزير المعظم بشائر النصر والفتح المتوالى إلى جهة الباب الشريف المتعال ، وإلى سائر بلاد الإسلام ؛ ليأخذ المسلمون بحظهم من البشر التام ، والفرح الشامل النظام ، ويفرح المؤمنون بنصر الله ، والملائكة الكرام ويدعو بدوام دولة السلطان الأعظم ، نصره الله وخلد ملكه على الدوام قال :

وهـذا دعـاء لا يـر لأنه ... يزان به كل الورى والممالك

يراه بلا شك أجيب لأنه ... إذا ما دعونا أمنته الملائك

وتوجه الوزير كأنه الصبح الصادق ، ينشر على الخفا فقير زيات النصر الخوافق ، ويملأ براية الفرح أقطار المغارب والمشارق وكوكب الصبح ، سحاب على يده محلق ، تملأ الدنيا بشائره .

ثم لما فرغ الوزير من أمر حلق الواد ، وفعل فيها ، وفى تلك الوهاد والمهاد والأغوار والأنجاد ، ما أراد توجه بالعسكر المنصورة إلى تونس ؛ لتطمئن من طلعته الغراء بها من عسكر المسلمين وتونس ، فوصل إليهم وهم محاصرون قلعة النصارى المخذولين مجاهدون يجتهدون ، فى أخذ أولئك الملعونين .

ففرح بوصوله البكلاربكية ، الذين يحامون لنصرة الدين، واشتدوا أزرهم، وقوى جأشهم على قتال المشركين ، وقد نشأوا على الطعان والفراع ، كنشأة الأطفال على الرضاع ، وأضروا بدماء الكفار ضروا الأسد والسباع ، بما تفترسه من الصيد ، وهن جياع وحملوا بإقدام حضرة الوزير المعظم على من فى القلعة ، حمل الأسد الغشمشم ، وتسابقت العساكر المنصورة إلى استئصال أعداء الدين ، سبق السيل العطمطم ، وتعلقوا بأطراف الحصار ، وصبروا على حر السيف والنار ، واستشهد كثير من المسلمين الكرام ، وقتلوا فى سبيل الله ، وهم أحياء الأموات عند الله فى دار السلام .

واستمر عسكر الإسلام على الإقدام على الموت الدوام ، وحد السيف والحسام ، إلى أن دخلوا القلعة ، ونصبوا الرايات الشريفة السلطانية على أعلى

القلعة ، وأقدمت بقية العساكر الإسلامية ، وهجمت على الدخول إلى القلعة ؛ فدخلوها ووضعوا السيف فى الكفار ، عبدة الصليب ، وقتلوا منهم ثلاثة آلاف مدرع ، مغلغل من فرقه إلى قدمه فى سابغات الحديد ، ورمى بقية الباقون من أعلى القلعة إلى أسفلها ، وهم زهاء خمسة آلاف نفس من مواغل أقدامهم فى الرمل ، وهربوا مقدار رمية سهم أو سهمين ، وشرعوا فى الترس بأتربة ورمال ، وأرادوا أن يتحصنوا بها ، والمسلمون مشغولون بقتل من بقى فى القلعة ، ونهب الأمتعة والأسباب والأسلاب .

فوجدوا إنها أخشاباً وألواحاً أعدوها الكفار ؛ لإتقان القلعة ، وإحكامها ، وباروداً كثيراً ، ومدافع ولبوسات ، وآلات الحروب ، ويكسماطا كثيراً ؛ لازوادهم .

وكانت القلعة ؛ بسبب العجلة ، غير محكمة البناء ، وأعجلهم العساكر المنصورة السليمانية الإسلامية عن إتمام إتقانها ، وإتقان استحكامها ؛ فلو تأخروا العساكر المنصورة الإسلامية السليمانية عنهم فى ذلك ؛ لكانوا أتقنوا القلعة إتقاناً قوياً ، وكان لا يقوى عسكر الإسلام على فتحها بد ذلك ؛ ولكن خذل الله تلك الطائفة الملعونة ؛ بوصول حضرة الوزير المعظم ، بهذاي الجيش العرمرم فى ذلك العام قبل استيفاء استحكام القلعة غاية الإحكام ، وكان ذلك طالع السلطنة الشريفة العثمانية ، وحسن إلهام هذا الوزير المعظم، ولطف تدبيراته العلية ، ودقة آرائه فى المناصب الجلية .

ثم استمر حضرة الوزير أن يتعقب العساكر المنصورة الإسلامية أولئك الهاربين من الكفار ؛ فتبعوهم ، ووجدوهم قد شرعوا فى عمل مكان يتحصنون فيه ، فهجموا عليهم هجمة واحدة ؛ فتيقن اكفار أن لا مفر لهم ولا محيص ؛ فقاتلوا أشد القتال ، وقاتلوهم المسلمين بالنصال ، وصار الوجه فى الوجه ، والباب فى الباب ، والسيوف مسلولة من الرقاب ، تغوص فى الرقاب ، والخناجر تدق فى الباب ، حتى سالت الدماء كالسيل العجاج العيان إليأن أثبت كافور تلك الدماء شقيقاً ، وصير أحجار الغلاة عقيقاً ،

وضرب النقع فى السماء طريقاً ، وجند الله على كل حال هم الظافرون ، والكافرون هم الصاغرون .

وصب من دماء أولئك الأرجاس ما نجس به البحر على طهارته ، والبر على سعته ، والبحر على غزارته ، وقتل الكفار قتلاً ذريعاً ، وشكر المسلمون ذلك لله (عز وجل) صنيعاً .

وانتصر على النصارى أهل ملة الإسلام الذى بعث الله به رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام إلى كافة الأنام ، وعاد حضرة الوزير المعظم ، ظافراً منصوراً غالباً مسروراً ، مثاباً مأجوراً ، وغنمت العساكر المنصورة السطانية ، والجيوش الموفورة الإيمانية ، ما يكل عن حصره أنامل التحرير ويضيق عن ذكره أدراج السلاطين ، وجهزت البشائر إلى الأبواب الشريفة السلطانية والأعتاب المنيفة العثمانية ، وتطايرت أخبار هذه البشارة إلى سائر المسلمين فى الأفاق ، تحقق على الخافقين أجنحة السرور ، والبشر الخفاق ، ما بين حدود الغروب والإشراق .

ولولا لطف الله تعالى بأهل الإسلام ، لكان البلاء عاماً على سائر المسلمين ، فإن السلطان الأعظم الأفخم السلطان سليم خان ، لو لم يهتم بدفع هذه الكفار الملاعين ، لكانوا يتسلطون على أخذ تونس ، وأخذ الجزائر كلها، وكانوا يحكمون قلاعها وأسوارها وحصونها وحصاراتها غاية الإحكام.

وكانت ترتد عن الإسلام عربان العرب وتتقوى الكفار الفجار على أخذ مصر وغيرها من بلاد الإسلام ، لا أبلغهم الله تعالى ذلك المرام ، وأنزل عليهم الخزى والخذلان والنكال إلى يوم القيامة ، وأبقى الله تعالى سلطان الإسلام لدفع أولئك الكفرة اللئام ، ومزقهم كل ممزق بالسيف والسنان والحسام ، وشتت شملهم ، ومزق جمعهم فلا يقوم لهم رأس بعد ذلك .

فالله تعالى يشكر ؛ لتأييد الإسلام صنيع هذا السلطان الأعظم ، والخاقان الأفخم الأكرم السلطان سليم خان ، صاحب هذه الهمة العلية والعفة ، والأيادى الحسان ، يحازيه عن الإسلام والمسلمين خيراً ، دائم الفيضان ،

وشكر همة هذاي الوزير المعظم ، العالى الشأن ، على نصرة أهل الإسلام، ويجزيه أعظم الجزاء ، على هذا الفتح العظيم ، بحد السيف والسنان .

وكان هذا الفتح الآخر فى يوم الخميس المبارك ، لخمس بقين من جمادى الأولى سنة ٩٨١ هـ ، وقتل فى القلاع الثلاث ، من الكفرة الجناب ، عشرة آلاف مقاتل ، ساقهم الله تعالى إلى النار ، وقد استشهد من الغزاة الأمجاد ما يوازى عشرة آلاف ، فمن أعيان الصناجق من أمراء الأكراد خضر بيك ، وصنجق أبيه نحشى مصطفى بيك ، وصنجق أوليبه أحمد بيك ، وصنجق إسكندر صفر بيك ، وبتكخد البنكجرية فرهاد كتخدا وراس رس الباب ، وكثير من الزعماء وأرباب التيمار وغيرهم عدة عديدة ، وأعطى حضرة الوزير الأمان لطائفة الكفار رأى فى ذلك مصلحة توازن زهاء مائتى نفر تبردوا فى أمان حضرة الوزير ، وأخبروه بأمور مهمة ، كان يريد الاطلاع عليها . منها : إن عندهم من المعلمين الأستاذين فى عمل الطوب الكبار الذى يعجز جميع الكفار عن عمل مثلها ، مائتى نفر وخمسة أنفار ، من لا نظير لهم فى هذه الصناعة ، فأمنهم وطلبوا ، وأخذ عساكرهم وأعطاهم الأمان على أنفسهم ، وشرط عليهم أن يسكبوا النحاس ، ويجعلوها مدافع كباراً ، ويجعل لهم طوفة ، ويوضع فى أرجلهم القيود ويكفل بعضهم بعضاً ، فرضوا بذلك ، وطلبوا الأمان على هذا الشرط ؛ فكساهم الوزير ، وكتب لهم علوفات على حسب مراتبهم وصاروا من خدام الترسخانة السلطانية ، موكلاً عليهم ، و

لهم ، ويستخدمون فى الخدم السطانية ويسكبون النحاس الطوب الكبار والمدافع العظام ، وظفر حضرة الوزير المعظم فى قلعة حلق الواد وقلعتى تونس المأخوذتين ، بمائتى مدفع وخمسة مدافع كباراً استولى عليها ، وترك فى حصار تونس خمسة وثلاثين مدفعاً ؛ لحفظ تونس من الكفار الفجار ، وأرسل مائة وثمانين مدفعاً من أكبر المدافع العظيمة إلى الباب الشريف السلطانى يستعان بها على قتل الكفار الملاعين ، إذا جهز عليهم العمائر فى كل حين .

ثم لما فرغ حضرة الوزير المعظم الكبير من هذا الفتح العظيم ، والمغنم

الكبير أنعم على من فى ركابه الشريف من الأمراء والكبراء والبكلاربكية ، وسائر الزعماء وأرباب التيمار ، وتبركات العسكر المنصور ، وأرباب الجامك والعلوفات بالترقيات العظيمة والمناصب الكبيرة ، كل أحد بمقدار سعيه واستحقاقه ومرتبته .

وعن صد ذلك على سرير السلطنة الشريفة وكان مقداراً كثيراً من الخزائن العامرة السيلطانية ؛ قوبل جميع ذلك ، ووقعت موقع الإجابة فى المأمول والمسئول ، وذلك فى مقابلة ما بذلوا أنفسهم وأموالهم فى سبيل الله ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، ونصروا الإسلام والمسلمين .

وأنعمت السلطنة الشريفة على حضرة الوزير المعظم بأنواع الإنعامات السنية والترقيات الكثيرة العلية ، والخلع الفاخرة البهية ، والتشريفات الزاهرة السيلطانية ، فى مقابلة سعيه فى نصرة الإسلام ، وبذله أموال الغزاة والمجاهدين ، وأخذه لثأر المسلمين من الكفرة والمشركين على وجه لم يقع فى كثير من الزمان مثل هذا الفتح العظيم الشأن ، وذلك بمحض العناية الربانية والنصرة والأنام ، سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام .

ثم عاد حضرة الوزير المعظم المنصور المكرم ، خلد الله تعالى عليه سوابغ النعم ، إلى الأبواب الشريفة السلطانية بمن معه من عسكر الباب السلطانى ، وأذن لغيرهم من العسكر المنصور ، وسائر الأمراء والبكلاربكية بالعود إلى أوطانهم ، وأماكن جلوسهم ، مجللين محترمين مجبورين منصورين سالمين غانمين .

واستمر حضرة الوزير المعظم إلى أن ورد إلى الباب الشريف السلطانى ، وقبّل قوائم سرير الملك الشريف العثمانى ، فقوبل بأنواع البشر والتهانى ، وشمله النظر الشريف الخاقانى ، نظرت إليه السلطنة بعين القرب والتدانى ، وأفرغ على كاهله مرة أخرى ، خلع التشاريف الخسروانى ، وقبل كلما عرضه حضرة الوزير المعظم المشار إليه على الأعتاب الشريفة السلطانية ، من المطالب وأنعمت عليه السلطنة الشريفة بكل ما سأل فيه من المقاصد والمآرب ، وكان يوم دخوله إلى أسطنبول ، يوماً عظيماً مشهوداً ، ووقت حلوله من منزله

السعيد ، وقتاً مباركاً ومسعوداً ، وازدحمت الخلق على مشاهدة طلعته ، والتبرك بوجهه الكريم ، وميمون غرته ، وصاروا يتبركون بالنظر إلى المجاهد فى سبيل الله ، ويطلبون الدعا منه وممن معه من المجاهدين والغزاة ، والأسارى من النصارى مقادون بين يديه بالسلاسل والأغلال ، مقرنين فى الأصفاد ، بشديد الذل والنكال ، ودخلت سفائن العمارة العامرة وأغربتها إلى الأسقالة ، مزينة من خضرة بالبنادق والصناجق ، تخفق عليها رايات الفرح باللنصر ، والظفر والجلالة .

وأطلقت المدافع للحرب ؛ فزلزلت الأرض زلزالها ، وكادت تصم الآذان، فلا يسمع الناس معاليها ، وعساكر الباب الشريف العالى السلطانى ، وردت صفوفاً بعد صفوف ، وتعاطفت عائدة بالنصر والتأييد ألوفاً بعد ألوف ، ودخل يضاً القابوذان المعظم المجاهد الكريم الأفخم ، حضرة قلج على باشا المكرم ، لا زال فى حرب البحر مظفراً منصوراً ، مسعود القدم ، فقوبل من الحضرة الشريفة السليمانية بغاية القبول والإقبال ، وخوطب بلسان الشكر والتعظيم والإجلال ، وأنعم عليه بسائر مقاصده ومطالبه ، وجعل له غاية ما يتمناه من سؤله مآربه ، وجعل لسائر العساكر المنصورة الإحسان الموفور ، وشكر لهم سعيهم المشكور ، وأعظم من ذلك ما حازوه من الأجر العظيم والثواب الجزيل .

وناهيك بهذا العز والفخر ، وقد بقى لهم هذا الذكر الجزيل على صفحات الدهر ، والله تعالى يديم هذه الدولة الشريفة العثمانية على تداول الليالى والأيام ، ويحمى بحمايتهم كافة المسلمين ويؤيد بتأيدهم ملة الإسلام ، ويبقى أيام سلطنتهم القاهرة على الدوام ، إلى يوم القيامة ، فكم لهم ولأسلافهم الغزاة والمجاهدين فى نصرة الملة الحنفية الغراء ، من يد بيضاء للناظرين ، وكم فتحوا بلاد الكفر ، وصيروها دار إسلام ، على رغم الكافرين والمشركين .

وكاد تلحق فتوحاتهم بفتوح الصحابة (رضوان الله تعالى عليهم أجمعين) ولقد حكت علماء أئمة الإسلام ، واتفق قول أئمة الأعلام رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، وشملهم برحمته ، إنه أرحم الراحمين .

إن سيوف الحق أربعة ، وما عداها للنار : سيف رسول الله (ﷺ) فى المشركين ، وسيف أبى بكر (رضى الله عنه) فى المرتدين ، وسيف علىّ (رضى الله تعالى عنه) فى الباغين ، وسيف القصاص بين المسلمين . أقول : وسيف بنى عثمان (رحمهم الله تعالى) وأبقى الملك كلمة باقية فى عقبهم إلى يوم القيامة ، إن شاء الله تعالى .

إذا سيرتها وتأملتها ، لا تخرج عن هذه السيوف الأربعة ، فإهم ما زالوا من أول أسلافهم (رحمهم الله تعالى) إلى الآن ، يجاهدون الكفار ، ويقاتلون الملحدين والباغين ، ويقيمون شعائر لشرائع الدين ، فالله تيعالى يديم ظلال سلطنتهم على المسلمين ، ويؤيد بهم أهل السنة ، ويقمع كافة الملحدين ، وهذا دعاء يجب أن يدعوا لهم به جميع طوائف المؤمنين ، فإنهم عماد الإسلام ، وقوام هذا الدين المبين ، وتأييد بقائه بين الأنام ، والدعا لهذه السلطنة الشريفة دعاء لكافة الإسلام ، وإعزاز دين الله تعالى ، ونصرة سيدنا محمد (عليه أفضل الصلاة والسلام) وتأمين البلاد ، وتطمين العباد ، وتوهين أهل الفساد ، وقطع جاذرة أهل الإلحاد ، وقمع جميع أهل البغى والعدوان .

★ ★ ★

(فصل فيما جدد المرحوم السلطان سليم خان زيادة على والده السلطان سليمان خان تغمدهما الله بالرحمة والرضوان)

وذلك فى أول سلطنته الشريفة ، أمر لأهل الحرمين الشريفين ، أن يزاد لهم سبعة آلاف أردب حب من صدقته المقبولةِ المبرورة ، زيادة على ما كان يرسله والده المرحوم لهم فى كل عام .

فكانت تحمل فى كل سنة من الأنبار الخاصبة السلطانية على ظهور الجمال، من مصر إلى السويس ، وتوضع فى سفائن الدشائش الشريفة السلطانية ، من السويس إلى بندر جدة ، وإلى الينبع ، وتوزع على الفقراء .

وكان برز أمره الشريف العالى أن يضاف ثلاثة آلاف أردب ، منها إلى

الدشيشة العامرة السلطانية لفقراء المدينة الشريفة ، وتوزع عليهم ، وأن يضاف ثلاثة آلاف أردب إلى الدشيشة العامرة السليمانية لفقراء مكة المشرفة ، وتوزع عليها ، وأن يوزع خمسمائة أردب على الفقراء المنقطعين بالينبع ، العاجزين فيها عن السفر إلى المدينة الشريفة ، فيستعينون بها على التوجه حيث أرادوا ، وتوزع خمسمائة أردب على فقراء جدة ، المنقطعين بها ، على العاجزين عن التوجه إلى مكة ، إلى أداء الحج الفرض أو النفل ، وذلك مقصد جميل للمرحوم .

وكان الفقراء يتوسعون بها ، ويرتفقون ، وكانت ترد إليهم فى كل عام من أعوام سلطنته الشريفة ، وكان الدعاء له مبذولاً من سائر الفقراء المخلصين ، المحتاجين المضطرين ، وكان يجوز بذلك ثواباً جزيلاً وأجراً وافراً عظيماً ، رحمه الله تعالى رحمة واسعة ، وأثابه المثوبات العظمى فى الدرجات الأخرة على مقاصده الجميلة ، وخيراته الوافرة الجزيلة .

ومنها ما يتصدق به على فقراء الحرمين الشريفين أيام شاه زاده ، قبل أن تلى السلطنة العظمى ، فإنه كان يرسل ألف دينار ذهباً ، توزع أيام موسم الحج على فقراء مكة المشرفة ، يستعينون بها على صرف الحج أيام عرفة ومنى ، وألف دينار ذهباً ، لفقراء المدينة فى أيام موسم الحج ؛ فيستعينون بها على الوصول إلى مكة المشرفة ؛ لأداء الحج الشريف فى كل عام .

وكان يخص بعض العلماء والصلحاء والمشايخ بكسوة من الأصواف الخاصة وبعض غير ذلك يرسلها إليهم ؛ ليستمد منهم الدعاء بظهر الغيب منهم .

فلما ولى السلطنة الشريفة وجلس على التخت الشريف السلطان ، كان يرسل لهم عوائدهم السابقة فى كل عام ، وجعل ذلك مضافاً إلى دفتر صر الرومى ، وكانت ترد إلى الآن بعد انتقاله إلى رحمة الله تعالى ، وذلك أيضاً من مقاصده الجميلة ، وخيراته الباقية العميمة .

وله أنواع من الخيرات أيضاً فى القدس الشريف ، وفى الشام وحلب ، وفى مصر بجامع الأزهر وغيرهما من الممالك الشريفة العثمانية ، غير ما بنى

فى بلاد الروم من المدارس والجوامع والتكايات ، وغير ذلك رحمه الله تعالى رحمة واسعة والمسلمين .

★ ★ ★

(فصل فيما وقع من عمارة الحرم الشريف المكى فى أيامه رحمه الله تعالى)

اعلم أن عمارة المسجد الحرام ، زاده الله تعالى شرفاً وتعظيماً ومهابة وتكريماً ، من أعظم مزايا الملوك والخلفاء ، وأشرف مآثر كبراء العلماء ، وقد يسر الله تعالى ذلك لسلاطين آل عثمان ، أيدهم الله تعالى وخلد سعادتهم مد الزمان ، فوقع الشروع فى دولة السلطان الأعظم الخاقان الأفخم الكرم ، خليفة الله تعالى فى أرضه ، القائم بإقامة سننه وفرضه ، ملك البرين والبحرين ، ملك الروم والترك والعرب والعجم والعراقين ، صاحب المشرقين والمغربيين ، خادم الحرمين الشريفين المحترمين ، عامر البلدين الكريمين المعتقدين ، واسطة عقد ملوك آل عثمان ، السلطان سليمان خان بن السيلطان سليم خان ، أمطر الله على تربتهما سحائب الرحمة والرضوان ، وجعل قبرهما روضة من رياض الجنان ، وجعل السلطنة كلمة باقية فى عقبهما إلى يوم الحشر والميزان ، إلى أن يعود القارضان كليهما ، ويحشر فى القتلى كليب وآيل .

وسبب الأمر الشريف بتعمير المسجد الحرام ، أن الرواق الشرقى مال إلى نحو الكعبة الشريفة ، بحيث برزت رؤوس جنب السقف الثالث منه عن محل تركيبها فى جدار المسجد .

وذلك الجدار هو جدار مدرسة السلطان قايتباى ، وجدار مدرسة الأفضلية، التى هى الآن من أوقاف المرحم بن عباد الله ، من شرقى المسجد الحرام ، وفارق خشب السقف عن موضع تركيبه فى الجدار المذكور ، أكثر من ذراع .

ومال وجه الرواق إلى صحن المسجد ميلاً ظاهراً بيناً ، وصار نظار الحرم

الشريف يصلون المحل الذى قد فارق خشب سقف الحرم محل تركيبه فى الجدار ، إما بتبديل خشب السقف بأطول منه ونحو ذلك من العلاج .

وأما الرواق الذى ظهر ميله إلى صحن المسجد ؛ فترسوه بأخشاب كبار ، حفروها فى المسجد ، تمسكه عن السقوط ، واستمر الرواق الشريف متماسكاً على الأسلوب فى أواخر دولة المرحوم السلطان سليمان خان ، وصدر أمر دولة المرحوم السلطان سليم خان ، ثم لما فحش ميلان الرواق المذكور ، عرض ذلك على الأبواب الشريفة السلطانية السليمانية فى سنة ٩٨٩ هـ .

فبرز الأمر الشريف السلطانى بالمبادرة إلى بناء المسجد الحرام جميعه ، على وجه الإتقان والإحكام ، وأن يجعل عرض السقف الشريف قبباً دائرة ، بأروقة المسجد الحرام ؛ لتأمن من التآكل ، فإن خشب السقف كان متآكلاً بجانب طرفيه بطول العهد ، وكان يحتاج بعض الخشب إلى تبديل خشبه بخشب آخر فى كل حين ، إذ لا بقاء للخشب زماناً طويلاً ، مع تكسير بعضه ، وكأن سقفان بين كل سقف ذراعين بذراع العمل ، وصار ما بين السقفين مأوى للحيات والطيور ، وكان من أحسن الرأى ، تبدليهما بالقبب ، لتمكنها ودفع مواد لضرر عنها ، ووصلت أحكام شريفة سلطانية إلى بكلاربكى مصر يومئذ الوزير المعظم المفخم حضرة سنان باشا ، أدام الله تعالى سعادته وإقباله ، وضاعف عظمته وإجلاله أن يعين لهذه الخدمة من أمراء الصناجق المحيطين بمصر من يخرج عن عهدة هذه الخدمة ، فما أقدم أحد على تلقيها بالقبول ؛ لكثرة مشقتها واشتغالهم بأمور دنياهم ، والتوغل فيما يعود عليهم نفعه عاجلاً من غير مشقة .

وكان من جملة الأمراء المحافظين بمصر ، كتخدا المرحوم إسكندر باشا الجركسى بكلاريكى مصر سابقاً ، فخر الأمراء العظام ، ذخر الكبراء ذوى الاحترام ، أحمد بيك ، بارك الله تعالى فيه ، وفى ذويه وأناله من خيرى الدنيا والآخرة ما يرتجيه .

وكانت ممن قد اجتمعت فيه هذه الخصال المحمودة المطلوبة من حب الخير

والتوجه إلى الله تعالى ، وقلة الميل إلى الدنيا وزخارفها ، والميل إلى الفقراء والضعفاء والعلماء والتواضع مع حب الناس ، وحب المعدلة والاستقامة ، مع صدق الخدمة ، وكمال الديانة والأمانة ، والإقدام وعلو الهمة ونور الاهتمام.

فطلب من حضرة الوزير المشار إليه هذه الخدمة المنيفة ، وأضيف إليه عمل بقية ذيل عين عرفات ، من الأبطح إلى أخر المسفلة ، بمكة المشرفة ، فإن السلطنة الشريفة أمرت بأن يبنى بها ذيل مستقل، ولا يجرى فى ذيل عين حنين.

فعهدت هذه الخدم للأمير أحمد المذكور ، وعرض له ذلك إلى الباب الشريف السلطانى ، فوردت الأحكام الشريفة السلطانية بذلك ، حسب ما عرض له ، وأضيف له إلى هذه الخدمة سنجق بندر جدة المعمورة ، تعظيماً لشأنه ، وتوقيراص لقدره ومكانته .

وبعد ورود الأحكام الشريفة السطانية إليه ، أخذ فى أهبة السفر ، وتوجه من مصر من طريق البحر إلى بندر جدة ، ثم وصل إلى مكة المشرفة ، شرفها الله تعالى فى أخر سنة ٩٧٩ هـ بهمات غاية الاهتمام ، فيما أمر به من خدمة المسجد الحرام إلى ذلك ، مقدماً عليه بغاية الإقدام ، سائلاً من الله تعالى الإعانة والإمداد التام .

وكانت الأوامر الشريفة السلطانية ، وردت أن يكون الناظر على هذه الخدمة الشريفة السلطانية ، والمتكلم عليها من جانب السلطنة المنيفة ، سيدنا ومولانا ناظر المسجد الحرام ، ومدرس مدرسة أعظم سلاطين الأنام ، بدر الملة والدين حسين الحسينى ، خلد الله تعالى سعادته عليه .

ففرح بذلك الفرح التام ، وشد نطاق حرمه على مناطق عزمه ، وقام فى الله أحسن قيام ، وحصل بين يدى الناظر والأمير أحمد إليه ، كمال الملائمة والاتفاق ، وبذلك بحصل تمام النجاح والاتفاق ، وجرى عادة بأن الخير كله فى الوفاق ، والشر كله فى الشقاق ، ولم يكن الوفق فى شىء إلا زانه ، ولم يكن العنف فى شىء إلا خانه ، ومن أراد الرفق لعباد الله تعالى ، رفق الله تعالى به وأعانه .

ووصل لهذه العمائر الشريفة معمار دقيق الأنظار ، جليل الآثار ، تقدم له مباشرة الأبنية العظيمة ، وحصل له بالتجربة خيرات تامة ، ومعرفة مستقيمة ، اجتمع المهندسون على تقدمه فى هذه الصناعة ، ودقة نظره فى لوازم هذه الصناعة ؛ اسمه محمد المعمار جاويش الديوان العالى .

وهو إنسان من أهل الخير ، عظيم الأمانة ، كثير الديانة ، مستقيم الرأى ، منور الباطن ، مشكور السيرة ، زاده الله تعالى توفيقه ، وأرشد طريقه ، فاتفق الناظر والأمير والمعمار ، على الشروع فى هدم ما يجب هدمه ، إلى أن يوصل إلى الأساس ، فشرع أولاً فى إكمال الذيل المستقل ، لإجراء عين عرفات ، ونكب فى جدره وبناه من جهة المدعا ، ثم مر به فى عرض ، ثم إلى جهة شرقية ، ثم عطف بها إلى السوق الصغير ، وأكمله إلى منتاه .

وبنى قبة فى الأبطح ، جعل فيها مقسم ماء عرفات ، وركب فى جدره بزابير من نحاس ، يشرب منها الماء ، ثم بنى مسجداً وسبيلاً ، وحوض ماء للدواب على يسار الصاعد إلى الأبطح فى قبلة بستان بيرم خواجا ، الصائر إلى المرحومة الخاصكية أم السلاطين ، طاب ثراها ، وبنى مسجداً آخر ، وسبيلاً ومتوضئاً فى انتهاء سوق المعلاة فى يسار الصاعد ، وكل ذلك من الأعمال الجارية النافعة للمسلمين .

وعرض ذلك على أبواب السلطنة الشريفة ؛ فأنعمت على الأمير المشار إليه بسبعين ألف عثمانى ، ترقياً فى علوفته ، فى مقابلة هذه الخدمة ، ثم شرع فى تجديد أروقة الحرم الشريف ؛ فبدأ فيه بالهدم من جهة باب السلام ، من منتصف ربيع الأول سنة ٩٨٥ هـ ، وأخذت المعاول تعمل فى رأس مشرفات المسجد وطبقات سقفه ، إلى أن انكشف السقف ؛ فنزل أخشابه إلى الأرض، ويجمع فى صحن المسجد الشريف ، وتنظيف الأرض من نقض البناء وأتربته، ويحمل على الدواب ، ويرمى فى أسفل مكة ، وفى ناحية جبل الغو ، ثمي أقام الأساطين الرخام ، إلى أن ينزل باللطف إلى الأرض .

واستمروا فى هذا العمل إلى أن نظفوا وجه الأرض من ذلك ، من باب

المعلاه إلى باب السلام ، وهو الجانب الشرقى من المسجد ، ثم كشفوا عن أساسه ؛ فوجدوه منحلاً ؛ فأخرجوا الأساس جميعه ، وكان جداراً عظيماً نازلاً فى الأرض على هيئة بيوت رقعة الشطرنج ، وكان موضع تقاطع الجدران على وجه الأرض قائمة ، كترتيب الأسطوانة على تلك القاعدة .

فشرع أولاً فى وضع الأساس ، على وجه الإحكام والإتقان ، من جانب باب السلام ، لست مضين من جمادى الأولى سنة ٩٨٥ هـ .

واجتمعت الأشراف والكبراء ، والعلماء والقضاة ، والأمراء والفقراء ، والمشايخ والصلحاء ، تبركاً وتيمناً ، بالحضور فى هذا الخبر العظيم ، وقرأت الفواتح بإخلاص من سوائد القلب الصميم ، وذبحت الأبقار والأغنام والأنعام ، وتصدق بها على الفقراء والخدام .

ووضع الأساس المبارك بإعانة الله تعالى وتبارك ، وكان يوماً مباركاً مشهوداً متيمناً ميموناً مسعوداً ، ولله الحمد على هذا الإكرام ، وله الشكر والثناء الحسن فى المبدأ والختام .

وكانت الأساطين المبنية سابقاً على نسق واحد ، فى جميع الأروقة ؛ فظهر لهم أن الوضع لا يقوى على تركيب القبب عليها ، لقلة استحكامها ، إذا لقبة يجب أن يكون لها دعائم أربعة ، تحملها من جوانبها الأربع ، فرأوا أن يدخلوا من أساطين الرخام الأبيض دعامات أخرى ، تبنى من الحجر الأصفر الشميسى ، يكون سمكها أربع أسطوانات من الرخام ؛ ليكون مدعماً لها من كل جانب ، فيقوى على تركيب القبب من فوقها ، ويكون له صف من أساطين الأروقة الثلاثة فى غاية الزينة والقوة .

ففى أول ركن من الرواق الأول دعامة مبنية من الحجر الشميسى ، ثم أسطوانة رخام أبيض من أساطين الرواق السابق عليها ، عقد أسطوانة رخام كذلك ، بينها وبين الذى قبلها ، وعقد آخر ، ثم أسطوانة رخام كذلك ثم دعامة من الحجر الأصفر الشميسى على هذا المنوال إلى آخر هذا الصف من أساطين الرواق ، ثم الصف الثالث من الرواق الثانى كذلك على هذا المنوال

ثم الصف الثالث من الرواق الثالث على هذا المنوال ، ثم بنيت القبب على تلك الدعائم والأساطين فى دور المسجد جميعه ، وشرعوا فى ركن المسجد الشريف من جهة باب السلام كما تقدم ، وقاسوا تلك الصفوف بخط مستو، وأنهوا ما قبل ذلك من الأزورار والاعوجاج .

والحجر الشميسى نسبة إلى شميس ؛ تصغير شمس بقرب باب شميس وهى حد الحرم من جانب جدة به جبلان صغيران يكتسى منهما هذه الأحجار وتحمل إلى مكة مسافة ما دون ليلة .

وكان فى ردخال هذهي الدعامات الصفر ما بين الأساطين البيض الرخام حكمة أخرى غير الاستحكام والزينة وهى : أن أساطين الرخام الباقية فى المسجد ما كانت تفى بالجوانب الأربع لأن الجانب العربى منه احترقت أساطينه الرخام وسقفه فى أيام الجراكسة فى دولة الملك الناصر فرج بن برقوق فى سنة ٩٥٣ هـ ، وأرسل من أمرائه الأمير بيسق الظاهرى إلى مكة المشرفة ، فعمر الجانب الذى احترق منه بالحجر الصوان المنحوت كما قدمنا ذكر ذلك فى محله .

★ ★ ★

فصل فى سلطنة سلطان العصر والزمان خاقان خواقين العهد والدوران مالك ملوك المشرقين والمغربين

سلطان سلاطين الخافقين خادم الحرمين الشريفين عامر البلدين المحترمين المنيفين ، السلطان الأعظم الأكرم الأفخم ؛ السلطان مراد خان بن سليم خان ابن سليمان خان بن سليم خان ، مولده الشريف فى سنة ٩٥٣ هـ ، وجلس على تخت الملك الشريف فى عاشر رمضان المبارك سنة ٩٨٣ هـ ، وسنه الشريف من يوم ولى السلطنة ثلاثون سنة .

وإنى أشير فى هذه الرسالة إلى سيرة معدلته فى الرعايا ومحدث بما طبعه الله عليه من كرم السجايا ، وحسب إلى خلقه الشريف من الرأفة بالبرايا والمجبة لعلماء الدين وإكرامهم بالمواهب الجزيلة وحسن نظره إلى أهل الحرمين الشريفين وإحسانه إلى الفقهاء والفقراء والصلحاء بالبلدين المحترمين .

فلقد أتاه الله ما لم يؤت أحداً من العالمين ، وجمع له ما بين أعظم سعادة الدنيا والدين ، وجعله كريماً مباركاً وسلطاناً رؤوفاً رحيماً ، ومنحه ملكاً جليلاً عظيماً وافقاً عند مراد ربه فلا يتعداه عاملاً فى أمره بتقوى الله مراعياً للعدل والإحسان فيما استرعاه ، طالما غمرنى بإحسانه وهو شاه زاده قبل جلوسه الشريف على تخت السلطنة والسعادة وشملنى بلحظه الشريف السلطانى بالحسنى وزيادة :

وإنى وإن أعطيت فى القول سؤله ... وطـاوعنى هذا الكلام المحبر
لأعلم أنى فـى الثناء مقصـر ... وأن الـذى أولاه أوفى وأوف
فأى جـميل من عطايا ينتهى ... وفى كل حسـن فضله يتكرر
ولكننى ما دمت حيـاً لشاكر ... ويشكره بعدى كتابى المسـطر

★ ★ ★

فصل ومن أعظم مآثره الجميلة وأكرم آثاره الجليلة العظام عمارة المسجد الحرام . زاده الله شرفاً وتعظيماً ومهابة وتكريماً

وقد تقدم أن والده السلطان الأعظم المدرج إلى رحمة الله تعالى الكريم الأكرم شرع فى تعميرهي على الوجه الذى تقدم وأتم منه الجانب الشرقى والجانب الشمالى إلى أن انتهت العمارة الشريفة إلى باب العميرة ، فما عمر إلى أن تم العمارة ، وسلم ملكه المشيد إلى نجله السعيد السلطان الأعظم الفريد فبرز أمره الشريف العالى لأمير العمارة الشريفة أحمد بيك : أن يبذل جده وجهده فى إتمام بناء المسجد الحرام وشرع فى إنجاز عمارة بكمال السعى والاهتمام ، فبادر الأمير المشار إليه إلى هذا الجد والاجتهاد وتوجه بكليته لإتمام هذه العمارة فى خيري البلاد ، فأعانه الله تعالى على إتمامها ، وأمر بذلك سائر خدامه إلى أن تم بناء الجانبين الغربى والجنوبى من المسجد الحرام بجميع شرافاته وأبوابه ودرجاته فى سائر المسجد الحرام وخارجه فى أيام دولة هذا السلطان الأعظم الأكرم خلد الله تعالى ملكه الأقوم .

وأخبرنى الأمير المشار إليه عظم الله تعالى شأنه وأحسن إليه أني الذى أصرفه فى عمارة المسجد الحرام هدماً وبناءً وقطع أرض السيل من جهة الجنوبى إلى آخر المسفلة ، ومن جهة باب الزيادة إلى آخر سرداب العتبة من خاصة أموال السلطنة نصرها الله تعالى مائة ألف دينار ذهباً جديداً سلطانياً وعشرة آلاف دينار ذهباً جديداً سلطانياً ، وذلك غير ثمن الأخشاب المجهزة من مصر إلى مكة وغير ثمن الحديد الصلب لآلات العمارة ؛ كالمساحى والمجارف والمسامير والحديد المحدد رأسه بطول الرواقين وبين الإسطوانتين تحت كل عقد ولئلا يجلس طيرِ الحمامي عليه وغيره فيلوث المسجد .

وذكر التقى الفاسى (رحمه الله تعالى) أن المنائر على غير المسجد كانت كثيرة فى الشعاب والمحلات ، وكان المؤذنون يؤذنون عليها للصلوات وكان لهم أرزاق ، وكان لعبد الله بن مالك الخزاعى على جبل أبى قبيس منارة ، وعلى القلة منارة ، ومنارة مشرفة على أجياد ومنارة إلى جنبها ، ولعبد الله بن مالك منارة تشرف على المجزرة ، ومنارة على شعب عامر وعلى جبل الأعرج والجبل الأحمر ، ومنارة كبيرة ، وعددها ، ورأيت فى تعليقه : أنها كانت خمسين منارة فى شعاب مكة .

قال التقى الفاسى (رحمه الله) : وقد ترك الأذان على جميع هذه المنائر وما بقى شىء منها ، والله أعلم .

★ ★ ★

خاتمة فى ذكر المواضع المباركة والأماكن المأثورة بمكة المشرفة

فمنها المواضع التى نص العلماء أن الدعاء فيها مستجاب .

وذكر البصرى (رحمه الله) خمسة عشر موضعاً يستجاب الدعاء فيها وعددها ، وقال غيره مواضعاً أخرى فبلغت ٥٣ موضعاً ، وذكر منها مواضع غير معروفة الآن ، فاقتصرت على المعروف منها ؛ وهى مكان الطواف جميعه عند الملتزم وعند زمزم وخلف المقام وعلى الصفا وعلى المروة ، وفى المسعى وفى عرفات ، وفى المزدلفة ، وفى منى وعند الجمرات الثلاث ، وعددها ثلاث مواضع غيري أن علماءنا ذكروا أن الحاج يقف للدعاء بعد رمى جمرة العقبة ، فقد ذكر الحسن البصرى أن الدعاء عنده مستجاب كالجمرتين الأولتين قال : ويستجاب الدعاء فى مولد النبى (ﷺ) وهو موضع مشهور يزار إلى الآن . وفى مولد فاطمة الزهراء ، وفى دار الخيزران وهى من قرب الصفا كانت تسمى دار الأرقم المخزومى ثم عفت بدار الخيزران ، والمختبى هو أفضل المواضع بمكة بعد دار أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها لكثرة مكث النبى (ﷺ) فيه يدعوو إلى الإسلام ، والمختبى قبة تزار ، وهو الموضع الذى كان النبى ﷺ يختبئ فيه من الكفار ويجتمع عليه من آمن به ويصلى بهم الأوقات الخمسة سراً إلى أن أسلم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضى الله تعالى عنه) ، فجهر بالإسلام وبالصلاة وأعز الله الإسلام به .

ومنها : جبل ثور ، وجبل ثبير وحراء ، ومنها : مسجد البيعة : وهو مسجد على يسار الذاهب إلى منى بينه وبين العقبة التى هى حد من مقدار علوه أو أكثر .

ومنها : جبل أبى قبيس ، إنما سمى به لأن رجلاً من إياد يكنى أبا قبيس صعد فيه وبنى فيه بناء فعرف به .

قال الفاكهى : إن الدعاء فيه مستجاب ، وأن وفد عاد قدموا إلى مكة للاستسقاء لقومهم ، فأمروا بالطلوع إلى أبى قبيس للدعاء ، وقيل لهم : لم

يعله خاطئ يعلم الله منه الإنابة إلا أجابه إلى ما دعاه إليه ، وفيه على إحدى الروايات : قبر آدم ، وحواء ، وشيث .

ومن الدور المباركة بمكة المشرفة : دار سيدنا العباس (رضى الله عنه) بالمسعى عند أحد الميلين الأخضرين ، وهى الآن رباط يسكنه الفقراء .

ومنها : موضع بخلف سبيل قعيقعان بلصق دار سيدنا ومولانا قاضى القضاة وناظر المسجد الحرام القاضى السيد حسين بن أبى بكر الحسينى أطال الله تعالى بقائه ، يقال له : معبد الجنيد .

ولقد رأيت أن أجعل ختام هذا الكتاب مسكاً ، وأنظم له الجواهر الفاخرة سلكاً ، فأختمه كما بدأته بالدعاء لدوام سلطاننا الأعظم ، السلطان ابن السلطان الملك المؤيد مراد خان بن سليم خان بن سليمان خان ، لا زالت ألوية نصره منشورة الدوائب مشهورة القواضب مشرقةكالشمس يغشى ضوؤها المشارق والمغاب صاعدة فى أفق السماء حتى تزاحم مناكب الكواكب ، ولا برحت أسباب سعادته تقوى وأحاديث المكارم رليه تشتد وتروى والقلوب تتمسك من عبوديته وصدق ولايته كالسبب الأقوى فى عز مزيد ونصر مشيد وعمر مديد وسلطنة ثابتة لا تهين ولا تبيد ، وسعادة دائمة تتضاعف وتزيد ، وإقبال يلازم ركابه السعيد ما لاح نجم على أفق السماء وما هب النسيم على العشاق بالطيب ، والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيد الأنبياء والمرسلين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين آمين .

وقد فرغ مؤلفه من تحريره ووقفت أنامله قلمه عن تحبيره فى ليلة يسفر صباحها عن سبع مضين من شهر ربيع الأول سنة خمس وثمانية وتسعمائة ، وكان الفراغ من هذه النسخة المباركة والتاريخ العظيم المكى فى يوم الأربعاء ثامن عشر رجب المبارك سنة ألف تمام الهجرة .

تم بحمد الله تعالى كتاب « الإعلام بأعلام بيت الله الحرام » ، وقد فرغ مؤلفه من تحريره ، ووقفت أنامل قلمه عن تحبيره فى ليلة يسفر صباحها عن سبع مضين من شهر ربيع الأول سنة خمس وثمانين وتسعمائة .

وكان الفراغ من هذه النسخة المباركة والتاريخ العظيم المكى فى يوم الأربعياء ثامن عشر رجب المبارك سنة ألف من الهجرة ، نسأل الله حسن الخاتمة لنا وللمسلمين . آمين [1] على يد أحقر عبيد الله تعالى محمد الغمرى غفر الله له ولوالديه ولمن دعا له بالمغفرة .

★ ★ ★

---

(١) هذه الخاتمة فى (س) .

وقد فرغ مؤلفه عن تحريره ، ووقفت أنامل قلمه عن تحبيره فى ليلة يسفر صباحها عن سبع مضين من شهر ربيع الأول سنة خمس وثمانين وتسعمائة ، وكان الفراغ من هذه النسخة المباركة والتاريخ العظيم المكى على يد أحقر العباد وأفقر العباد إلى ربه الغنى العفو الماجد أحمد بن جامد (حاق) الجبرتى ، كان ذلك بعد مضى عشرين يوماً من شهر شعبان المكرم من شهور سنة ١١٨٣ هـ ، وكتبه بخطه المالكى السند النبيل الموفق للخيرات الحاج الفقير المسكين الحقير الذليل » .

ثم تجد بعد ذلك شطب لاسم الناسخ فى ثلاثة سطور .

فهارس كتاب الإعلام
بأعلام بيت الله الحرام

فهرس الآيات القرآنية

الآية	رقمها	اسم السورة	مكية أو مدنية	رقم الصفحة
١٥ - ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ .	٩٢	آل عمران	مدنية	٢٣٢
١٦ - ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ .	٢٢	الأنبياء	مكية	٢٢١
١٧ -﴿هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق﴾	٩	الصف	مدنية	٢٥١
١٨ - ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾.	١٢٧	البقرة	مدنية	٩٢ ، ٩٣
١٩ - ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ .	٣٠	الأنفال	مكية	١٧٨
٢٠ - ﴿ وبست الجبال بساً ﴾ .	٥	الواقعة	مكية	٤٨
٢١ - ﴿ وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها﴾ .	٤١	هود	مكية	٣٦٨
٢٢ - ﴿ وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ .	٤٥	الأنعام	مكية	٢٥٧
٢٣ - ﴿ وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيراً ﴾ .	١١١	الإسراء	مكية	١٩٥
٢٤ - ﴿ وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴾ .	٢٤٩	البقرة	مدنية	١٥٤
٢٥ - ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ .	١٦٩	آل عمران	مدنية	٣٦٩
٢٦ - ﴿ ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ .	١٢٧	طه	مكية	١٩٨
٢٧ - ﴿ ولعذاب الآخرة أكبر ﴾ .	٣٣	القلم	مدنية	٢٥٥
٢٨ - ﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ﴾ .	١٠٥	الأنبياء	مكية	٢٦٤
٢٩ - ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين ﴾ .	٩٧	آل عمران	مدنية	١٢٧
٣٠ - ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ .	٦٢	الأحزاب	مدنية	٢٧٥
٣١ - ﴿ وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ .	٢ ، ٣	القدر	مكيتان	١٢٤

الآية	رقمها	اسم السورة	مكية أو مدنية	رقم الصفحة
٣٢ - ﴿ وما تدرى نفس بأى أرض تموت ﴾ .	٣٤	لقمان	مكية	٢٥٦
٣٣ - ﴿ وما جعلنا الرؤية التى أريناك إلا فتنة للناس ﴾ .	٦٠	الإسراء	مكية	١٢٤
٣٤ - ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ .	٤٦	فصلت	مكية	٢٠٣
٣٥ - ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ .	١٧	الأنفال	مدنية	٢٨٧
٣٦ - ﴿ وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾ .	٥٩	الإسراء	مكية	٢٤٦
٣٧ - ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ .	٢٥	الحج	مدنية	٥٢
٣٨ - ﴿ يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ .	١٠٢	الصافات	مكية	٧١

★ ★ ★

فهرس الأحاديث النبوية

١ - « الأسبق فى حافر أو نصل . . . » .
٢ - « إن قومك استقصروا فى بناء الكعبة . . . » .
٣ - « الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة . . . » .
٤ - « سمعت رسول الله يقول لأبيك وجدك . . . » .
٥ - « صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة . . . ».
٦ - « اللَّهم إنك تعلم أنهم أخرجونى من أحب البلاد إلىّ. . . » .
٧ - « لولا أن الناس حديث عهدهم بكفر . . . » .
٨ - « لولا أنها عجلت لكان عيناً معيناً . . . » .
٩ - « ماء زمزم لما شرب له . . . » .
١٠ - « من أكل من أجور بيوت مكة شيئاً . . . » .
١١ - « من بنى مسجد الله كمفحص قطاة أو أصغر . . . »
١٢ - « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن . . . » .
١٣ - « من صبر على حر مكة ساعة . . . » .
١٤ -«من مرض بمكة يوماً. . .».
١٥ - « وجعلت لها بابان موضوعان على الأرض . . .».
١٦ - « يا عائشة لولا أن قومك حديثو عهد بشرك. . . »
١٧ - « يقتل هاهنا رجل من أهل بيتى . . . » .

ثالثاً: فهرس قوافى الأشعار

(قافية أ)

(قافية الباء)

(قافية الباء)

(قافية الدال)

(قافية س)

(قافية ع)

(قافية الباء)

(قافية القاف)

(قافية الكاف)

ما اختلف الليل والنهار ولا ... دارت نجوم السماء فى الفلك
إلا لنقل السلطان عن ملك ... قد زال سلطانة إلى ملك
وملك ذو العرش دائماً أبداً ... ليس بفان ولا مشترك ١٥٦

(قافية اللام)

لا تشتغل بهموم القلب مكتئباً ... ولا تبيتن إلا خالى البال
ما بين غمضة عين وانتباهتها ... يغير الله من حال إلى حال ٢٠٤
أرض بها البيت المحرم قبلة ... للعالمين له المساجد تعدل
حرم حرام أرضها وصيودها ... والصيد فى كل البلاد محلل
وبها المشاعر والمناسك كلها ... وإلى فضلها البرية ترحل
وبها المقام وحوض زمزم شربها ... والحجر والركن الذى لا يرحل
والمسجد العالى المحرم والصفا ... والمشعران لمن يطوف ويرمل
وبمكة الحسنات ضوعف أجرها ... وبها المسئ عن الخطايا يغسل ٥٠
نزلت بمكة من قبائل نوفل ... ونزلت خلف البئر أبعد منزل
حذاراً عليها من مقالة كاشح ... ذرب اللسان يقول ما لم يفعل ٤٣
تتشابه يوماً بأسه ونواله ... فما أحد يدرى لأيهما الفضل ١٤٤
ما كنت أوثر أن يمتد بى زمنى ... حتى أرى دولة الأوغاد والسفل ٢١٠
أما نرى ملك بنى هاشم ... عاد عزيزاً بعد ما زلل
يا طالب الملك كن مثله ... تستوجب الملك وإلا فلا ١٧٥
وما بلغت كف امرئ متناولاً ... من المجد إلا والذى نال أطول
وما بلغ المهدون للناس مدحه ... وإن أطنبوا إلا الذى فيه أكمل ٣١١، ٣١٢

(قافية الميم)

ثم انقضت تلك السنون وأهلها ... فكأنها وكأنهم أحلام ٢١٠
خير الأمور معتية ... وأحق الأمر بالتمام
أمر قضى أحكامه ... مولاى فى البيت الحرام ١٥١

(قافية النون)

★ ★ ★

فهرس الأعلام

(أ)

فهرس البلدان والأماكن والمواضع

كشاف عام للقبائل والأصنام والأيام والحيوانات والنباتات

(أ)

فهرس الكتب التى وردت داخل الكتاب

فهرس المحتوى